أروندهاتي روي

إله الأشياء الصغيرة

الرواية الحائزة على جائزة Booker Prize لعام ١٩٩٧



ترجمة : م. جهان الجندي



أروندهاتي روي

إله الأشياء الصغيرة

(رواية)

ترجمة: م. جهان الجندي

● - إله الأشياء الصغيرة (رواية)

● - أروندهاتي روي

● - الطبعة الأولى ١٩٩٩

● - دار الجندي للنشر والتوزيع: سورية - دمشق
هاتف: ٣٣١٧٠١٩ - ص. ب: ٣٣٤١٨
فاكس: ٣٣١٧٠٠٨

● - التدقيق اللغوي: عهد فاضل

أبداً، لن يحدث ثانية، أن تُروى قصة، كأنها الوحيدة.

جون برغر

مقدمة

تحقق «إله الأشياء الصغيرة» أهم ما يُحتاج إليه في فن التخيّل: رؤية العالم وكأننا نراه للمرة الأولى، وملاحظة واعتبار كل تلك الأشياء الصغيرة، الصغيرة نعم، ولكن التي تصنع الحياة من حولنا، حياتنا.

تكتب روي ببصرية محتشدة خصبة. تأخذ بيدنا وتجعلنا نلمس كل تفصيل، ونشعر بنتوءاته وانبساطاته. دون رحمة، حتى الثمالة، ودون متاجرة أو تصنُّع أيضاً، بل ببساطة شديدة موجعة.

تبني بنية متشابكة هائلة من التفاصيل المكثفة الدقيقة، وبذكاء وحساسية عالية تبرز تفكير وأحاسيس كل شخصية من غير أن تطغى واحدة على أخرى، تمضي مع كلٍّ منها حتى النهاية، كلٌّ متكامل.

هناك شيء طفولي فيها، فلديها المقدرة العالية على الدهشة، على رؤية العالم كما يراه طفل، واستعاراتها الدقيقة والمحكمة، تضحكك رغماً عنك.

إنها لا تكتب برأفة، بل بصدق قاسٍ مرهق، دون مواربة، بخط مستقيم يوصل إلى الهدف تماماً، وينفذ بعيداً. تجعلك تبكي وتضحك، تصرخ وتغضب... في جو مشحون تتدلى المأساة فوقه، مغلّف بالألم، الألم الذي يجعلك أحياناً كثيرة تترك كل شيء، وتخرج، تركض وتركض، ولا تتوقف، إلى أن تطمئن أنك قد أصبحت على بعد كافٍ تستطيع معه أن تعبّ جرعة من هواء صافٍ، غير مثقل بكل ذلك القدر من الوجع...

تسبر أغوار مجتمع خاص، عزل نفسه برفعة داخل محيطه الأعم، مجتمع المسيحيين السوريين(*)، الذين استوطنوا المنطقة بأعداد كبيرة واتخذوا نصيراً اللغة الإنكليزية والإمبراطورية، وعُزلوا عن السياق الكبير لحركات الأمة.

وتتعرض لأوضاع النساء ولنظام الطبقات القاسي في الهند، وتصف وتحلل بفراسة وفطنة الأوضاع السياسية المعقدة في كيرالا.

بالرغم من أن النهاية تلوح مبكراً، إلّا أن روي توظف سرداً موارباً، غير مباشر، بحيث تنبثق الأحداث خارج سياقها الزمني فتستخدم تقنية سينمائية - قفزات زمنية، شطحات نحو الأمام، ومن ثم انكفاءات سريعة - لتسرّع وتؤجّل في آن واحد، الكارثة القادمة.

تكتب روي بتدفق، بغزارة كلامية، استطاعت أن تنفذ إلى كل تلك الأشياء الصغيرة وتحتويها، فكان لها صوتها الخاص، وتوقيعها الخاص.

...إن أول ما تصدمنا به الرواية هو حركة الشيء باتجاه اللغة.

إنها رواية «شيئية» تجعل ناقلها إلى العربية يتنقّل بين «الترجمة» و«التعريب»، تدفعه لأن يكون حَرفياً هنا، أو معرّباً هناك، وتضطره إلى استنباط كلمات / تعابير تحمل «شيئيتها»، تستوعبها، وتنقلها.

جهان الجندي

كانون الأول ١٩٩٨

(*) - في عام ٥٢ م ارتحل القديس توما، أحد تلامذة المسيح، إلى الهند للتبشير بالمسيحية، وفي عام ٣٤٥ م هاجرت ٧٢ عائلة سورية مسيحية واستوطنت الهند، وكوّنت مع الهنود السريان الأرثوذكس، مجتمع المسيحيين السوريين.

١

مخلّلات ومعلبات الجنة

شهر أيار، في أيمينيم، شهر تأمل حار. الأيام طويلة ورطبة. النهر ينحسر وتنعق غربان سوداء على منغا برّاقة متدلية من أشجار ساكنة بلون أخضر مغبّر. ينضج الموز الأحمر. تطفح ثمار الجاك. وتطنّ ذبابات زرقاء فاجرة، بيلاهة، في الجو الفاكهي قوي النكهة، ومن ثم ترتطم، دائخة، بألواح النوافذ الزجاجية الشفافة وتموت مرتبكة بكسل في الشمس.

الليالي صافية لكنها مخضّبة بتوقعات كسلى وكئيبة.

لكن، ومع الأيام الأولى من حزيران، تهبّ الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وتتلوها ثلاثة أشهر من الرياح والمياه مع نوبات قصيرة من إشراقات شمس متألقة حادة، تثير فرصاً قصيرة للأطفال للّعب بها. ينقلب الريف إلى خضرة وقحة غير محتشمة. تغيب الحدود، بينما تتأصل أسيجة التابيوكا وتزهر. تصبح جدران القرميد طحلبية. وتتسلق كروم الفلفل أعمدة الكهرباء، تندفع النباتات البرية المتسلقة عبر ضفاف اللطريط[1] وتتدفق عبر الطرقات المغمورة. تذرع المراكب الأسواق جيئة وذهاباً. وتظهر أسماك صغيرة في البرك القذرة

---

(١) ـ اللطريط: تربة حمراء توجد في المناطق المدراية. تترشّح من معادن ذائبة وتحوي تركيبات من اكسيد وهيدروكسيد الحديد. (المترجمة).

الموحلة التي تملأ أخاديد وحفر التصريف على الطرق الرئيسية.

كانت تمطر عندما عادت راحيل إلى أيمينيم. وكانت الحبال الفضية المغروزة داخل التربة المتقلقلة تحرثها كالطلقات النارية. ارتدى المنزل القديم فوق الهضبة سطحه الجملوني ساحباً إياه فوق أذنيه كقبعة واطئة. أصبحت الجدران المخططة بالطحالب طرية، وانتفخت برطوبة انبثقت من الأرض. كانت الحديقة البرية مفرطة النمو مليئة بهمس وتراكض أحياء صغيرة. عند النباتات تحت الأشجار، حكّ ثعبان صائد فئران نفسه بحجرة متلألئة. طاف ضفدع، أصفر، مفعم بالأمل البركة الآسنة القذرة باحثاً عن أصدقاء. واندفعت قطعة منغا عبر الدرب المغطى بأوراق الأشجار.

المنزل ذاته بدا فارغاً. كانت الأبواب والنوافذ مغلقة. الشرفة الأمامية خالية. غير مؤثثة. لكن البليموث السماوية اللون برفرافها المطلي بالكروم، كانت ما تزال مركونة خارجاً، وفي الداخل كانت بيبي[1] كوتشاما ما تزال على قيد الحياة.

كانت بيبي الخالة الكبرى لراحيل، الشقيقة الصغرى لجدها. اسمها الحقيقي نافومي إبي، لكن الجميع كانوا يدعونها بيبي. أصبحت «بيبي» كوتشاما عندما كانت كبيرة كفاية لتكون خالة. مع ذلك، فراحيل لم تأتِ لتراها. لا ابنة الأخت ولا الخالة الكبرى الطفلة خضعتا لأي وهم بهذا الخصوص. لقد أتت راحيل لترى أخاها إستا. كانا توأم بويضتين. هكذا دعاهما أطباء التوائم. ولدا من بويضتين منفصلتين لكن مخصّبتين في الوقت نفسه. كان إستا - إستابن هو الأكبر بثمان عشرة دقيقة.

لم يبدُ أحدهما كالآخر مطلقاً، وحتى في الوقت الذي كانا فيه طفلين بأذرع رفيعة وصدرين مسطحين، متحركين كالديدان ومرتديين قمصان منتفخة مثل إلفيس بريسلي، لم يكن هناك أي من العبارات المعتادة «من هو الذي؟»

---

(١) - استخدمت الكاتبة كلمة Baby التي تعني «طفلة» بالانكليزية، لكننا آثرنا استخدام بيبي بدلاً من طفلة حفاظاً على سلامة اللغة العربية. (المترجمة).

«ما هو ما؟»، من قبل الأقارب المفرطين في الابتسام، أو من المطران السوري الأرثوذكسي الذي كان يزور أيمينيم كثيراً من أجل التبرعات.

لقد كمن الإرباك في موضع أعمق وأكثر سرية.

في تلك السنين المبكرة غير الواضحة عندما كانت الذاكرة قد بدأت للتو، والحياة مليئة ببدايات دون نهايات، وكل شيء كان أبدياً، كان إستابن وراحيل يفكران بنفسيهما سويةً على أنهما «أنا»، وبشكل منفصل وفردي على أنهما «نحن». وكأنهما توأم سيامي نادر الولادة، منفصلان جسدياً، لكن بذاتين مشتركتين.

الآن، وبعد هذه السنين، ما تزال لدى راحيل ذكرى استيقاظها إحدى الليالي مقهقهةً على حلم إستا المضحك.

ولديها أيضاً ذكرى أخرى ليست من حقها. إنها تتذكر على سبيل المثال (بالرغم من أنها لم تكن موجودة)، ماذا فعل الرجل الذي يبيع عصير الليمون والبرتقال لإستا في أبهيلاش توكيز (Abhilash Talkies). تتذكر طعم سندويتش الطماطم - سندويتش *إستا*، تلك التي أكلها *إستا* - في قطار مادراس ميل الذاهب إلى مادراس.

وتلك هي الأشياء الصغيرة فقط.

على أي حال، إنها تفكر بإستا وراحيل على أنهما *هما*، لأن كلاً منهما على حدة، لم يعودا ما كاناه (*هما*)، أو ما اعتقدا دوماً *أنهما* سيكونانه. دائماً.

لحياتيهما حجم وشكل الآن. لإستا حياته ولراحيل حياتها.

ظهرت الحواف والحدود والحواجز والتخوم والنهايات القصوى، كمجموعة من العفاريت الأقزام في أفقيهما المنفصلين. مخلوقات قصيرة بظلال طويلة، تحرس النهاية الغائمة.

أنصاف أقمار رقيقة تجمعت تحت أعينهما وهما الآن في سن آمو عندما توفيت، في الحادية والثلاثين.

ليست سناً متقدمة.

وليست سناً صغيرة.

لكنها، سن صالحة للحياة، وصالحة للموت.

كان إستا وراحيل على وشك أن يولدا في باص، فالسيارة التي كان بابا، والدهما، ينقل بها آمو، والدتهما، إلى مستشفى شيلونغ تعطلت على طريق مزرعة الشاي في آسام. تركا السيارة ولوّحا لباص حكومي مكتظ. أفسح الركاب الجالسون مكاناً للثنائي بتعاطف غير مألوف من المدقعين تجاه ذوي الأحوال الحسنة نسبياً. أو ربما لأنهم رأوا كيف كانت آمو حاملاً بشكل هائل، وكان على والد إستا وراحيل إمساك بطن والدتهما (وهما بداخله) حتى نهاية الرحلة ليحول دون خضّه. كان هذا قبل طلاقهما وعودة آمو لتعيش في كيرالا.

بحسب إستا، لو أنهما ولدا في الباص، لكان لهما الحق بركوب باص مجاني طوال حياتهما. لم يكن واضحاً من أين حصل على هذه المعلومة، أو كيف علم بهذه الأمور، لكن، ولسنوات، أضمر التوأم استياءً ضعيفاً تجاه والديهما لأنهما خدعاهما وفوّتا عليهما فرصة ركوب باص مجاني طوال الحياة.

كذلك اعتقدا أنهما إذا قتلا في تقاطع زيبرا[1] فإن الحكومة ستدفع تكاليف جنازتيهما. كان لديهما الانطباع المؤكد بأن الزيبرا إنما وجد لهذا الغرض. جنازات مجانية. بالطبع لم يكن هناك أي من تقاطع زيبرا ليُقتل المرء فيه في أيمينيم، ولا حتى في كوتاياما التي كانت أقرب مدينة، لكنهما كانا قد شاهدا بعضاً منها من نافذة السيارة عندما ذهبا إلى كوتشين التي كانت على مسافة ساعتين.

لم تدفع الحكومة أبداً تكاليف جنازة صوفي مول، لأنها لم تُقتل في تقاطع زيبرا. كانت جنازتها في أيمينيم، في الكنيسة القديمة حديثة الطلاء.

---

(١) - تقاطع زيبرا: هو مكان خاص في انكلترا مخطط بخطوط بيضاء وسوداء، يتوجب على السيارات الوقوف عنده والسماح للناس بالعبور بأمان. (المترجمة).

كانت ابنة خال إستا وراحيل، ابنة خالهما تشاكو. كانت صوفي مول قادمة من انكلترا في زيارة. كان إستا وراحيل في السابعة من عمرهما عندما ماتت. و كانت صوفي مول تقريباً في التاسعة. كان لها تابوت خاص بقياس طفل.

مخطط بالألوان.

وله مقبض نحاسي برّاق.

اضطجعت فيه بينطالها الأصفر المتموج ذي الرجل العريضة وشعرها معقوص بشريطة و معها حقيبتها الـ (غوغو) المصنوعة في انكلترا والتي كانت تحبها. كان وجهها شاحباً ومغضّناً كإبهام عامل تنظيف بسبب بقائها طويلاً في الماء. تجمّع الحشد حول التابوت، وانتفخت الكنيسة كحنجرة بصوت الغناء الحزين. أرجح الكهنة بلحاهم المجعّدة طاسات البخور من سلاسلها ولم يتسموا أبداً للأطفال كعادتهم في أيام الآحاد الاعتيادية.

كانت الشموع الطويلة الموضوعة على المذبح، محنية. القصيرة لم تكن كذلك.

سيدة عجوز متنكرة على أنها من الأقارب البعيدين (والتي لم يعرفها أحد)، ولكنها غالباً ما تظهر على السطح بجانب الجثث في الجنازات. (مدمنة جنازات؟ مشتهية موتى مستترة؟) وضعت كولونيا على حشوة قطن وبسيماء لطيفة مخلصة متحدية، مسحت بها جبين صوفي مول. فصارت لها رائحة كولونيا وخشب تابوت.

مارغريت كوتشاما، والدة صوفي مول الانكليزية، لم تسمح لتشاكو، والد صوفي مول البيولوجي، بوضع ذراعه حولها ليريحها.

وقفت العائلة مجتمعة، مارغريت، تشاكو، بيبي كوتشاما وإلى جانبها زوجة أخيها، ماماتشي ـ جدة إستا وراحيل (وصوفي مول) ـ كانت ماماتشي عمياء تقريباً، وتضع دوماً نظارت سوداء عندما تخرج من المنزل. سالت دموعها خلفها وارتعشت على فكها كقطرات مطر عند حافة سطح. بدت صغيرة ومريضة بساريها الأبيض المتموج. كان تشاكو ابن ماماتشي الوحيد. أساها الشخصي أحزنها، وحزنه دمرها.

بالرغم من أنه قد سُمح لآمو وإستا وراحيل أن يحضروا الجنازة، لكنهم أجبروا على الوقوف بشكل منفصل، وليس مع بقية العائلة. لم يكن أحد ينظر إليهم.

كان الجو حاراً في الكنيسة. تجعدت والتفت النهايات البيضاء لزنابق الليلك. وماتت نحلة في زهرة تابوت. ارتعشت يدا آمو وكتاب التراتيل فيهما. كان جلدها بارداً. وقف إستا بقربها، بالكاد مستيقظاً، وعيناه المتقرحتان تلتمعان كالزجاج، وجنته الملتهبة قبالة الجلد العاري لذراع آمو المرتجفة والممسكة بكتاب التراتيل.

من جهة أخرى، كانت راحيل يقظة جداً، حذرة بضراوة، وهشّة من الإنهاك من جراء معركتها ضد الحياة الواقعية.

ولاحظت أن صوفي مول مستيقظة من أجل جنازتها، ودفعت براحيل لملاحظة أمرين اثنين.

الأمر الأول، كان القبة العالية المطلية حديثاً للكنيسة الصفراء التي لم تكن راحيل قد نظرت إليها مطلقاً من الداخل. كانت قد طُليت بالأزرق كالسماء، مع سحب تطوف وطيارات نفاثة بالغة الصغر تئز، بذيول بيضاء تتقاطع مع السحب. إنه صحيح (ويجب أن يُقال) أن ملاحظة هذه الأشياء تكون أسهل إذا كان المرء مستلقياً في تابوت وناظراً إلى أعلى مما لو كان واقفاً في مقصورات الكنيسة مطوقاً بأوراك حزينة وكتب تراتيل.

فكّرت راحيل بمن تجشّم عناء الصعود إلى هناك مع علب دهان، أبيض للغيوم، أزرق للسماء، فضي للنفاثات، ومع الفراشي والتينر. تخيلته في الأعلى. شخصاً ما مثل فيلوثا، جسداً عارياً متألقاً. جالساً على لوح خشبي سميك، متأرجحاً على السقالات في القبة المرتفعة للكنيسة، يرسم نفاثات فضية في سماء كنيسة زرقاء.

فكّرت فيما كان سيحدث لو أن الحبل انقطع. تصورته يسقط فجأة كنجم مظلم خارج السماء التي رسمها، ممدداً على أرض الكنيسة الساخنة، ودم داكن يسيل من جمجمته مثل سر غامض.

في ذلك الحين كان إستا وراحيل قد تعلّما أن للدنيا طرقاً أخرى لتحطيم البشر. كانا معتادَين على الرائحة مسبقاً. حلاوة مغثية. مثل رائحة أزهار قديمة محمولة بنسيم.

الأمر الثاني الذي أرته صوفي مول لراحيل، كان الخفاش الصغير.

خلال صلاة الجنازة، راقبت راحيل خفاشاً صغيراً أسود يتسلق بمخالب مجعّدة ومتشبثة بلطف ساري بيبي كوتشاما الغالي الثمن والخاص بالجنازات. عندما وصل المكان الذي بين ساريها وقميصها، عند تسريحتها الخاصة بالحزن، في الجزء الأوسط من جسمها، صرخت بيبي كوتشاما وضربت الهواء بكتاب تراتيلها. توقف الترتيل من أجل «ما الأمر؟ مادا حدث؟»، ومن أجل أزيز فرو وصفق ساري.

نفض الكهنة لحاهم المجّعدة بأصابعهم ذات الخواتم الذهبية وكأن عناكب مخفية قد نسجت بيوتاً فجائية فيها.

طار الخفاش الصغير نحو السماء وتحول إلى نفاثة دون ذيل متقاطع.

وحدها راحيل لاحظت دولاب عربة نقل صوفي مول السري في تابوتها.

بدأ الترتيل الحزين ثانية، وغنوا المقطع الحزين ذاته مرتين. ومرة أخرى انتفخت الكنيسة الصفراء بالأصوات مثل حنجرة.

عندما أُنزلوا تابوت صوفي مول داخل الأرض في مقبرة صغيرة خلف الكنيسة، علمت راحيل أنها مازالت غير ميتة. سمعت (بالنيابة عن صوفي مول) الصوت الخفيف الرقيق للوحل الأحمر والصوت الثقيل القاسي للّطريط البرتقالي الذي أفسد لمعان التابوت البراق. سمعت الارتطام المكتوم من خلال خشب التابوت المصقول، ومن خلال بطانة التابوت المصنوعة الساتان. وأصوات الكهنة الحزانى الخامدة بسبب الطين والخشب.

نودع بين يديك، يا أبانا الأكثر رحمة،

روح طفلتنا الراحلة هذه،

ونودع جسدها في الثرى،

من تراب إلى تراب، من رماد إلى رماد، من غبار إلى غبار.

داخل الأرض، صرخت صوفي مول، ومزّقت الساتان بأسنانها، لكنك لا تستطيع سماع الصراخ عبر التراب والحجر.

ماتت صوفي مول لأنها لم تستطع أن تتنفس.

قتلتها جنازتها. *من غبا إلى غبا إلى غبا إلى غبا إلى غبا.* نُقش على حجر قبرها: *شعاع شمس أُعير لنا بإيجاز شديد.*

شرحت آمو فيما بعد أن **إيجاز شديد** عنَتْ، **لفترة قصيرة جداً.**

بعد الجنازة أخذت آمو التوأم إلى مركز شرطة كوتاياما. كانا يعرفان المكان. فقد أمضيا وقتاً لا بأس به من اليوم السابق هناك. متوقعين النتن الحاد الدخاني لبول قديم يتخلل الجدران والأثاث، شدّا بإحكام على منخريهما قبل أن تبدأ الرائحة.

سألت آمو عن شرطي المركز وعندما أدخلت إلى مكتبه، أخبرته أن هناك خطأً رهيباً وأنها تريد أن تدلي بإفادتها. وطلبت أن ترى فيلوثا.

اهتز شاربا ضابط الشرطة توماس ماثيو باهتياج كشاربي مهراجا هندي جوّي ودود، لكن عينيه كانتا ماكرتين وشرهتين. «لقد فات الأوان قليلاً على كل هذا، ألا تعتقدين ذلك؟». تكلم بلهجة كوتاياما الخشنة التي للمالايالام. وحدّق في نهدي آمو وهو يتحدث. قال أن الشرطة قد علمت ما أرادت أن تعلمه وأن شرطة كوتاياما لا تأخذ إفادات من *veshyas*[1] ولا من أولادهم غير الشرعيين. قالت آمو إنها ستراجع في هذا. دار ضابط الشرطة توماس ماثيو حول مكتبه ودنا من آمو بهراوته.

«لو كنت مكانك» قال «لذهبت إلى المنزل بهدوء». ثم نقر على نهديها

(١) ـ عاهرات. (المترجمة).

بهراوته. بلطف. *تيك، تيك*. كما لو كان يختار ثمار مانغا من سلة. مشيراً إلى التي يريدها أن تُصّر وتُجهّز. وبدا الضابط توماس ماثيو عارفاً أيها قد ينتقي وأيها لا.

فرجال الشرطة لديهم الغريزة.

خلفه كانت لوحة زرقاء وحمراء تقول:

أدب

طاعة

ولاء

ذكاء

كياسة

كفاءة[1]

كانت آمو تبكي عندما غادروا مركز الشرطة، فلم يسألها إستا وراحيل ماذا كانت تعني veshya، أو، وللسبب ذاته ماذا كانت تعني *أولاد حرام*. كانت المرة الأولى التي شاهدا فيها أمهما تبكي. لم تنشج. كان وجهها جامداً كالحجر، لكن الدموع انبجست من عينيها وكرّت على خديها الصلبتين. لقد جعل هذا التوأم مذعورين. جعلت دموع آمو كل شيء بدا حتى ذلك الحين غير حقيقي، حقيقياً. عادوا إلى أيمينيم بالباص. قاطع التذاكر، رجل هزيل في ثياب كاكية، انزلق تجاههم على قضبان الباص، وازن وركه ناتىء العظام على ظهر مقعد و طقطق لآمو بثقّابة البطاقات. *إلى أين*؟ كانت الطقطقة تريد أن تقول. استطاعت راحيل شمّ حزمة البطاقات و حموضة القضبان الفولاذية على يدي قاطع التذاكر.

«إنه ميت» همست له آمو «لقد قتلته».

---

(١) ـ ملاحظة: صيغت هذه الكلمات بحيث كان الحرف الأول في كلّ منها يقابل أحرف كلمة شرطة بالإنكليزية (Police). (المترجمة).

«أيمينيم» قال إستا بسرعة، قبل أن يفقد قاطع التذاكر مزاجه.

أخرج النقود من محفظة آمو. أعطاه قاطع التذاكر البطاقات. ثناهما إستا بعناية ووضعهما في جيبه. ثم وضع ذراعه الصغيرة حول أمه الصلبة الباكية.

بعد أسبوعين، أُعيد إستا. أُجبرتْ آمو على إعادته إلى أبيه الذي كان في ذلك الوقت قد استقال من عمله الوحيد في مزرعة الشاي في آسام، وانتقل إلى كالكوتا ليعمل في شركة لصنع أسود الكربون. كان قد تزوج ثانية، توقف عن الشرب (تقريباً)، ولم يعانِ إلاّ من انتكاسات في بعض الأحيان.

لم يلتق إستا وراحيل منذ ذلك الحين.

والآن، وبعد ثلاث وعشرين سنة، أعاد والدهما إستا ثانية. لقد ردّه إلى أيمينيم مع حقيبة ورسالة. كانت الحقيبة مليئة بثياب أنيقة جديدة. بيبي كوتشاما أطلعت راحيل على الرسالة. كانت مكتوبة بخط نسائي مائل، خط مدرسة رهبانية، لكن التوقيع في الأسفل كان توقيع والدها. أو على الأقل كان الاسم لوالدها. لم تكن راحيل لتميّز التوقيع. قالت الرسالة أنه، والدهما، قد تقاعد من عمله في أسود الكربون، وأنه يستعد للهجرة إلى أستراليا حيث حصل على عمل رئيس أمن في مصنع للسيراميك، وأنه لا يستطيع أخذ إستا معه. تمنى أفضل التمنيات لكل من في أيمينيم، وقال إنه سيزور إستا فيما لو عاد في حياته إلى الهند، الأمر الذي تابع في وصفه بغير المحتمل نوعاً ما.

أخبرت بيبي كوتشاما راحيل أنها تستطيع الاحتفاظ بالرسالة إن هي أرادت. أعادتها راحيل إلى مغلّفها. كانت الورقة قد أصبحت لينة، وطويت كالملابس.

كانت قد نسيت إلى أي مدى يمكن أن تكون الريح الموسمية في أيمينيم رطبة ومشبّطة. صرّت الخزائن المتوّرمة. انفجرت النوافذ المغلقة مفتوحةً. أصبحت الكتب طرية لينة ومموّجة بين أغلفتها. وظهرت حشرات غريبة، كالأفكار في الأمسيات وحرقت نفسها على مصباح بيبي كوتشاما الكهربائي الخافت ذي الأربعين واطاً. وفي أوقات النهار، كانت تكسو جثثها المتفضّنة المرمدة الأرض

وعتبات النوافذ بشكل مبعثر، ويبقى الجو يفوح برائحة شيء يحترق حتى تكنسها كوتشو ماريا بلقّاطة الغبار البلاستيكية.

لم يتغير مطر حزيران.

فُتحت السماء وانهمرت المياه، معيدةً إحياء البئر القديم المقاوم، كاسيةً بطحلبيات خضراء حظيرة الخنازير التي لا تحوي خنازير. مفجّرةَ كالسجاد برك الماء الصغيرة الموحلة والساكنة التي بلون الشاي، كما تُفجّر ذكريات بلون الشاي. بدا العشب أخضر ندياً ومسروراً. مرحت ديدان أرض سعيدة بلون أرجواني، في الطين. تمايلت قرّاصات خضراء. وانحنت الأشجار.

إلى البعيد، في الريح والمطر، على ضفاف النهر، في عتمة رعد النهار المفاجئة، كان إستا يمشي. مرتدياً كنزة قطنية زهرية بلون الفريز المعصور، قد تبللت على نحو أغمق الآن. وقد علم أن راحيل أتت.

كان إستا طفلاً هادئاً، ولذلك لم يستطع أحد أن يحدد ولا بأي درجة من الدقة متى (السنة، إذا ليس الشهر أو اليوم) توقف عن الكلام بالضبط. أي، متى توقف عن الكلام تماماً. الحقيقة أنه لم يكن هناك «متى محددة». كان هناك تخفيض تدريجي لأعمال المتجر الذي يوشك على الإغلاق. سكون بالكاد يلاحظ. كما لو أن الأحاديث كانت قد نفذت، ببساطة، ولم يتبق عنده شيء ليقوله. ومع ذلك لم يكن صمت إستا مطلقاً أخرق أو مربكاً. أبداً لم يكن متطفلاً. أبداً لم يكن ضاجاً. لم يكن صمتاً اتهامياً احتجاجياً بقدر ما كان نوعاً من قضاء الصيف في حالة خدر، أو سبات، ترادف نفسي لما يفعله السمك الرئوي ليجتاز الموسم الجاف، عدا أنه في حالة إستا بدا أن الموسم الجاف كما لو أنه سيدوم إلى الأبد.

اكتسب مع الوقت مهارة التمازج مع الخلفيات أينما كان ـ داخل رفوف الكتب، في الحدائق، عند الستائر، في المداخل، على الطرقات ـ ليبدو غير ذي حياة، وتقريباً غير مرئيٍ بالنسبة للعين غير المدرّبة. احتاج الغرباء عادةً، فترة قبل أن يلاحظوه حتى عندما كانوا معه في الغرفة ذاتها. ولقد استغرقوا وقتاً أطول

ليلاحظوا أنه لم يكن يتكلم أبداً، وبعضهم لم يلاحظ ذلك مطلقاً.

لقد احتل إستا مكاناً صغيراً جداً في العالم.

بعد جنازة صوفي مول، عندما أُعيد إستا، بعثه والدهما إلى مدرسة صبيان في كالكوتا، لم يكن تلميذاً استثنائياً، لكنه لم يكن متأخراً أيضاً، ولم يكن بخاصة سيئاً في أي شيء. *طالب عادي*، أو، *عمل مقبول*، كانا التعليقين الاعتياديين اللذين كتبهما أساتذته في تقرير تقدّمه السنوي. *لا يشارك في نشاطات اجتماعية*، كانت شكوى متكررة. رغم أنهم لم يقولوا أبداً ماذا عنَوا بـِ «نشاطات اجتماعية».

أنهى إستا المدرسة بنتائج متوسطة، لكنه رفض الالتحاق بالجامعة، وبدلاً من ذلك، ومسبباً الكثير من الإحراج لأبيه وامرأة أبيه، بدأ يقوم بأعمال المنزل. كما لو كان يسعى ليكسب مدّخراته بطريقته. قام بالمسح، بالكنس وبكل الغسيل. تعلّم الطبخ وتسوّق الخضراوات. تعوّد الباعة في البازار، الجالسون وراء أهرامات الخضار المزينة المنمّقة المتألقة، أن يميزوه وأن يولوه عنايتهم من بين زبائنهم الصاخبين الآخرين. كانوا يعطوه علبة أفلام صدئة ليضع فيها الخضراوات التي انتقاها. لم يجادل في السعر أبداً. ولم يغشوه كذلك. وعندما تكون الخضراوات قد وُزنت ودُفع ثمنها، كانوا ينقلونها إلى سلة تسوّقه البلاستيكية الحمراء (البصل في الأسفل، والبرينجال[1] والبندورة في الأعلى) ودوماً، غصينات كزبرة وحفنة فلفل حار مجانية. كان إستا يحملها إلى البيت في الترام المزدحم. فقاعة ساكنة تطفو فوق بحر من الضجيج.

عندما وصل السكون، بقي وانتشر عند إستا. امتد حتى رأسه وطوّقه بذراعيه المستنقعيتين. أرجحه نحو إيقاع جنيني قديم. لقد أرسل مجسّاته المختلسة الماصة تسير ببطء على امتداد دواخل جمجمته، ماسحةً كالهوفر، الهضاب والوهاد الصغيرة لذاكرته، مزيحةً الجمل القديمة، كانسةً إياها من على

---

(١) - نوع من الخضار الاستوائية. (المترجمة).

طرف لسانه. لقد عرّى أفكاره من الكلمات التي تصفها وتركتها مشذّبة وعارية. غير معبّر عنها. خَدِرٌ. ولذلك فهو بالنسبة لمراقب، بالكاد يكون موجوداً. وبشكل بطيء، على مرّ السنين انسحب إستا من العالم. واعتاد على الأخطبوط القلق المضطرب الذي عاش داخله وبخّ حبره المسكّن على ماضيه. وبالتدريج اختفى بعيداً سبب صمته، ودُفن في مكان ما عميقاً في الطيّات الملّطفة لحقيقته.

عندما قرر خوبشتاند هجينه المحبوب الأعمى والأجرد والمصاب بسلس البول والغائط، ذو السبعة عشرة عاماً، أن يجتاز موتاً متطاولاً جداً، مرّضه إستا خلال محنته الأخيرة كما لو كانت حياته الخاصة تعتمد على ذلك بطريقة ما. في الشهور الأخيرة من حياته كان خوبتشاند الذي يملك أفضل النوايا، لكن أسوأ مثانة يمكن الاعتماد عليها، يسحب نفسه إلى مصراع باب الكلب المتمفصل من أعلى والمبني في أسفل الباب المؤدي إلى الحديقة الخلفية، يدفع برأسه من خلاله، ويبول بشكل متقطع، *داخلًا* أصفر ساطعاً. ومن ثم، وبمثانة فارغة وضمير صافٍ، ينظر أعلى إلى إستا بعينين خضراوين كمداوين انتصبتا في جمجمته كبركتي زبد غثاء ويشق طريقه على نحو متعرّج عائداً إلى وسادته الرطبة تاركاً آثار أقدام مبللة على الأرض. عندما كان خوتشاند ممدداً يحتضر على وسادته، استطاع إستا أن يرى نافذة غرفة النوم منعكسةً في بؤبؤيه الأرجوانيين المصقولين، والسماء من خلفها، ومرةً رأى طيراً طار عابراً، بالنسبة لإستا ـ المشبع برائحة أزهار قديمة والمطلّع على مشهد دم في ذكريات رجل محطم ـ فإن حقيقة أن شيئاً شديد الهشاشة، ورقيقاً إلى درجة غير محتملة قد بقي على قيد الحياة، قد سُمح له بالوجود، هي معجزة. طيرٌ في طيران معكوس في بؤبؤي كلب عجوز. جعله يبتسم عالياً.

بعد موت خوبتشاند بدأ إستا سيره. سار لساعات دون انقطاع. في البدء خَفَرَ فقط الجوار، لكن وبالتدريج ذهب شارداً أبعد فأبعد.

اعتاد الناس على رؤيته على الطرقات. شاباً أنيقاً بمشية هادئة. أصبح وجهه غامقاً وخلوياً طلقاً. مغضّناً وقاسياً من الشمس. بدأ يبدو أكبر مما كان

في الحقيقة. كصياد في مدينة. يحمل أسرار البحر داخله.

الآن، وبكونه قد أُعيد مرة أخرى، سار إستا في أيمينيم كلها.

سار بعض الأيام على طول ضفاف النهر الذي تفوح منه رائحة الخراء ومبيدات جرذان تم شراؤها بقروض البنك العالمي. ماتت معظم الأسماك. والتي بقيت على قيد الحياة عانت من زعانف متعفّنة وأُصيبت بطفح جلدي من البثور.

وفي أيام أخرى سار نزولاً نحو الطريق. ماراً بالمنازل المشوية حديثاً، المبرّدة، والمبنية بأموال الخليج من قبل ممرضين وبنّائين وعاملي هاتف وكهرباء وموظفي بنوك، عملوا بجد وبتعاسة وشقاء في أماكن بعيدة. ماراً بالمنازل الأقدم المتعضة المشوبة بالخَضار من الحسد، منكمشة في دروبها الخاصة بين أشجارهم الخاصة من المطاط. كلٌّ منها إقطاعية متداعية مترنحة ذات ملحمة خاصة بها.

سار ماراً بمدرسة القرية التي بناها جده العظيم للأطفال المنبوذين[1].

ماراً بكنيسة صوفي مول الصفراء. بنادي شباب أيمينيم للكونغ فو، وبحضانة البراعم الغضة (لغير المنبوذين)، ماراً بمتجر المؤن الذي يبيع رزاً وسكراً وموزاً معلقاً في حزم صفراء من السطح. ومجلات داعرة خلاعية ملساء رخيصة حول شياطين جنس جنوب هنديين خياليين، مثبتة بملاقط ثياب على حبال متدلية من السقف. غُزلوا بكسل في النسيم الدافيء، مغرين مشترين مؤن فاضلين بلمحات خاطفة على نساء عاريات مغتصبات مستلقيات في برك سباحة من دم مزيّف.

في بعض الأحيان سار إستا ماراً **بالمطبعة المحظوظة** ـ مطبعة **الرفيق** العجوز ك. ن. م. بيلاي المطبوعة، والذي كان ذات مرة مكتب أيمينيم للحزب الشيوعي، حيث كانت تُعقد اجتماعات دراسة في منتصف الليل وتُطبع وتوزع كتيبات تحوي قصائد مثيرة من أغاني الحزب الماركسي. أصبحت الراية التي

---

(١) ـ احدى الطبقات الاجتماعية الدنيا في الهند. (المترجمة).

رفرفت على السطح منهكة وقديمة. ونزف اللون الأحمر بعيداً.

خرج الرفيق بيلاي ذاته في الصباحات بصدارة آرتيكس[1] رمادية، خصيتاه محددتان قبالة موندوه[2] الأبيض الطري. ماسحاً نفسه بزيت جوز هند مفلفل دافيء، ومدلكاً لحمه المسّن المترهل الممطوط بطواعية. مثل علكة. إنه يعيش وحده الآن. فزوجته كالياني توفيت بسرطان المبيض. وانتقل ابنه لينين إلى دلهي حيث يعمل كمتعهد خدمات للسفارات الأجنبية.

في حال كون الرفيق بيلاي خارج منزله يمسح نفسه بالزيت عند مرور إستا، فإنه كان يصرّ على تحيته.

«إستا مون» كان يصرخ، بصوته العالي الحاد القوي والمهترىء الآن، كقصب سكر قشّر لحاؤه.

«صباح الخير، نزهتك الصباحية؟»

وكان إستا يتابع غير وقح، ولا مهذب، هادئاً فحسب.

كان الرفيق بيلاي يصفع نفسه في جميع الأماكن ليجعل دورته الدموية تسير. لم يستطع أن يحدد فيما إذا كان إستا قد ميّزه بعد كل هذه السنوات أم لا. ولم يكن هذا ليعنيه بشكل خاص. وبالرغم من أن دوره في الأمر كله لم يكن صغيراً على الإطلاق، فإن الرفيق بيلاي لم يحمّل نفسه، بأية طريقة، مسؤولية ما حدث بشكل شخصي. وقد صرف النظر عن العمل بأكمله لكونه **النتائج المحتومة للسياسة الضرورية**. مسألة عجة البيض القديمة. لكن في ذلك الوقت، كان الرفيق ك. ن. م بيلاي رجلاً سياسياً بشكل أساسي. صانع عجة بيض محترفاً. سار عبر العالم مثل حرباء. من غير أن يفضح نفسه مطلقاً، ومن غير أن يبدو على هذه الصورة قط. منبثقاً من خلال هيولى التشوش و الفوضى سالماً ودون أذى.

كان أول شخص في أيمينيم سمع بعودة راحيل. لم يقلقه الأمر بقدر ما أثار فضوله. كان إستا غريباً تماماً تقريباً بالنسبة للرفيق بيلاي. فقد كان ترحيل

---

(١) ـ ماركة تجارية لصُنع قمصان داخلية قطنية، أو قمصان رياضية. (المترجمة).

(٢) ـ موندو: اللباس التقليدي في الهند. (المترجمة).

إستا من أيمينيم مفاجئاً جداً وغير رسمي، ومنذ زمن طويل للغاية. أما راحيل، فقد عرفها الرفيق بيلاي جيداً، لقد راقبها وهي تكبر. تساءل ما الذي أعادها. بعد كل هذه السنين.

كان الوضع ساكناً في رأس إستا إلى أن جاءت راحيل. لكنها جلبت معها أصوات قطارات عابرة والضوء والظلال التي تسقط عليك إذا كان مقعدك بجانب النافذة. حُجز العالم خارجاً لسنوات، وفجأة تدفق داخلاً، والآن لم يستطع إستا سماع نفسه بسبب الضجيج. قطارات. حركة المرور. موسيقى. البورصة. انفجر سد وجرفت المياه المتوحشة كل شيء في دوامة. مذنبات، آلات كمان، كواكب، وحدة، غيوم، لحى، متعصبون، لوائح، رايات، زلازل، اكتسح اليأس في دوامة متدافعة.

وإستا السائر على ضفة النهر، لم يستطع الإحساس برطوبة المطر أو بارتعاد الجرو البردان الذي تبناه مؤقتاً والذي كان يخوض في الماء الموحل إلى جانبه. سار ماراً بشجرة المانغو العجوز صعوداً إلى حافة دعامة لطريط نتأ خارجاً نحو النهر. جلس القرفصاء مستنداً على عجزه وأرجح نفسه في المطر. أصدر الطين الرطب تحت حذائه أصوات امتصاص خشنة. ارتجف الجرو البردان ـ وأخذ يراقب.

بيبي كوتشاما وكوتشو ماريا، الطباخة القزمة سريعة الغضب وذات المزاج النكد، كانتا الوحيدتين الباقيتين في منزل أيمينيم عندما أُعيد إستا مجدداً. ماماتشي، جدتهما، ماتت. وتشاكو يعيش الآن في كندا، ويدير تجارة غير ناجحة للتحف القديمة.

أما بالنسبة لراحيل.

بعد وفاة آمو (بعد آخر مرة عادت فيها إلى أيمينيم، متّورمة من الكورتيزون وخشخشة مقعقعة في صدرها تتردد كصراخ رجل بعيد)، سيقت راحيل. من مدرسة إلى مدرسة. أمضت عطلاتها في أيمينيم، مُتجاهَلة إلى حد كبير من قبل تشاكو و ماماتشي (اللذين أصبحا عليلين من الحزن، غارقين في إحساسهما

بفقدان الولد، كثنائي ثمل في بار تودي[1] متجاهلة بيبي كوتشاما إلى حد كبير. حاول تشاكو وماماتشي في المسائل المتعلقة بتربية راحيل،، لكنهما لم يستطيعا، لقد أمنّا الاحتياجات (طعام، ملابس، أجور)، لكنهما سحبا القلق والاهتمام.

خطا فقدان صوفي مول بنعومة ورقّة حول منزل أيمينيم مثل شيء هادىء في جوارب. اختبأ في الكتب والطعام، في حقيبة الكمان العائدة لماماتشي، في ندوب التقرّحات على قصبتي ساق تشاكو التي نهشته وأقلقته باستمرار، في ساقيه الرخوتين النسائيتين.

إنه من المثير للفضول كيف تحيا في بعض الأحيان ذكرى الأرواح الميتة أطول بكثير جداً من ذكرى الحياة التي استلبت منها. على مرّ السنين، وبينما شحبت ذكرى صوفي مول ببطء (ملتمسة الحكم الصغيرة: *أين تذهب الطيور الصغيرة لتموت؟ لماذا لا يسقط الموتى كالحجارة من السماء؟* نذيرة الواقع القاسي: *أنتما كليكما مّلونان[2] كاملان وأنا نصف ملونة.* المرشدة الناصحة للدم المتخثّر: *لقد شاهدت رجلًا في حادث، يتأرجح بؤبؤاه في نهاية عصب مثل اليويو.*) فإن فقدان صوفي مول ازداد قوة وحيوية. كان موجوداً دوماً. مثل فاكهة الموسم. كل موسم. مثل وظيفة الحكومة. وقد رافق راحيل عبر طفولتها (من مدرسة إلى مدرسة) وحتى أمومتها.

كانت راحيل على القائمة السوداء لأول مرة في دير نازاريث في سن الحادية عشرة، وذلك عندما قُبض عليها خارج بوابة حديقة المعلمة المسؤولة عن مكان إقامتها، تزيّن قطعة طازجة من روث البقر بأزهار صغيرة. وبعد الاجتماع في الصباح التالي جعلوها تبحث عن كلمة *فسوق* في قاموس أكسفورد وتقرأ معناها بصوت عالٍ. «*نوعية أو شرط كون المرء فاسقًا أو فاسدًا متعفنًا*» قرأت

---

(١) ـ شراب حار ومحلّى مسكر من النخيل. (المترجمة).

(٢) ـ استخدمت الكاتبة كلمة تستخدم في العامية الانكليزية لإهانة غير البيض، وبشكل خاص الغرباء القادمين من الشرق الأوسط. (المترجمة).

راحيل وصفٌ من الراهبات بتكشيرات كالحة صارمة، جالسات وراءها، وبحر من وجوه بنات المدرسة بضحكاتٍ مكتومة، أمامها. «نوعية *الشرير المنحرف: انحراف أخلاقي؛ الفساد الفطري للطبيعة الإنسانية تبعًا للخطيئة الأصلية؛ يأتي المختار وغير المختار كليهما إلى العلم في حالة* (د)[1] *كلية، وانسلاخ عن الله، ولا يستطيعون فعل أي شيء بأنفسهم إلّا الخطيئة. ز. ه. بلونت.*»

وطردت بعد ستة أشهر على إثر شكاوى من الفتيات الأكبر سناً. اتّهمت (وبشكل منصف تماماً) بالاختباء خلف الأبواب والاصطدام بتعّمد بزميلاتها الأكبر سناً. عندما سئلت من قبل المديرة عن سلوكها (بالمداهنة، بالحبس، وبالتجويع) اعترفت أنها فعلت ذلك لترى فيما إذا كانت النهود تؤلم. ففي المؤسسات المسيحية لم يكن معترفاً بالنهود. لم يكن من المفروض أن توجد. وإذا لم توجد فهل من الممكن أن تؤلم؟

كان هذا أول طرد من الثلاثة. الثاني كان بسبب التدخين. والثالث كان بسبب إشعال النار في كعكة الشعر المستعار للمعلمة المسؤولة عن مهجعها، والتي اعترفت راحيل بسرقتها؛ بعد الاحتجاز والتهديد.

في كل من المدارس التي ذهبت إليها كتبت المعلمات أنها:

أ ـ كانت طفلة مهذبة إلى حد بعيد.

ب ـ لم يكن لديها صديقات.

بدا الأمر كصيغة مهذبة، منعزلة للفساد. ومن أجل هذا السبب أجمعن كلهن وهن يستسغن استنكارهن الأستاذي، ويتلّمسنه بألسنتهن، ويمتّصنّه كحلوى ـ على الأمر الأكثر خطورة.

الأمر، همسن لبعضهن البعض، *كما لو أنها لم تكن تعرف كيف تكون بنتًا.*

لم يكن بعيدات عن الهدف.

على نحو غريب، بدا الإهمال مفضياً إلى انطلاقة للروح.

---

(١) ـ درجة أو علامة تُعطى للطالب الضعيف تحت المعدل. (المترجمة).

كبرت راحيل دون تعليمات. دون وجود أحد لُيرتّب لها زواجاً. دون أي أحد ليدفع دوطتها، ولذلك دون زوج إجباري يلوح في الأفق.

وهكذا وطالما أنها لم تكن صاخبة بهذا الشأن، بقيت حرة لتقوم بتحقيقاتها الخاصة: من خلال النهود وإلى أي مدى يمكنها أن تؤلم. من خلال كعكات الشعر المستعار وما هي جودة احتراقها. من خلال حياة وكيف يجب أن تُعاش.

عندما أنهت المدرسة، فازت بقبول في كلية متوسطة للهندسة المعمارية في دلهي. لم يكن ذلك حصيلة أي اهتمام حقيقي في هندسة العمارة. وفي الحقيقة، ولا حتى نتيجة لأي اهتمام سطحي. فقط، تصادف أن تقدّمت لامتحان القبول، وتصادف أن اجتازته. تأثرت هيئة الأساتذة بالحجم (هائل)، أكثر من البراعة التي لرسوماتها الفحمية للطبيعة الصامتة. الخطوط المهملة، اللامبالية وغير المتقنة، أُعيدت خطأً إلى ثقة فنية، مع أن مبدعها، في الحقيقة، لم يكن فناناً.

أمضت ثمانية أعوام في الكلية دون أن تنهي دراستها ذات الخمس سنوات وتحصل على شهادتها. كانت الأجور منخفضة، ولم يكن من الصعب نبش الرزق، والبقاء في بيت الشباب، والأكل من مقادير الطعام المقدّمة كمعونات للطلاب، الذهاب نادراً إلى الصف، والعمل بدلاً من ذلك في شركات معمارية مظلمة وكئيبة تستغل رخص عمل الطلاب لتسليم رسوماتهم الخاصة بالمشاريع، وللّومهم عندما تخفق الأمور. كان الطلاب الآخرون وبخاصة الذكور مرتعبين من أسلوب السجّانة الذي لراحيل، ومن افتقارها الرهيب والضاري للطموح. تركوها لوحدها. لم تُدعَ أبداً إلى بيوتهم الأنيقة أو إلى حفلاتهم الصاخبة. حتى أساتذتها كانوا حذرين قليلاً منها ـ من غرابتها، من مشاريع البناء غير العملية، المقدّمة على ورق بني رخيص، من اعتبارها لانتقاداتهم الغاضبة لا تقدّم ولا تؤخر.

كتبت بين الفينة والأخرى إلى تشاكو وماماتشي، لكنها لم تعد أبداً إلى أيمينيم. لا عندما ماتت ماماتشي، ولا عندما هاجر تشاكو إلى كندا.

كانت في مدرسة الهندسة المعمارية عندما التقت لاري ماكسلاين، الذي

كان في دلهي يجمع مواداً من أجل أطروحته للدكتوراه «*فعالية الطاقة في العمارة العامّية البلدية*». لاحظ راحيل لأول مرة في مكتبة المدرسة، ومن ثم بعد بضعة أيام في سوق الخان. كانت في جينز وكنزة قطنية بيضاء. وقطعة من غطاء سرير قديم، مزخرفة بمختلف الألوان والأشكال، مزرّرة إلى عنقها وتتجرجر خلفها مثل كاب. شعرها البري كان مربوطاً نحو الخلف ليبدو سابلاً بالرغم من أنه لم يكن كذلك. قطعة ماس صغيرة جداً ومضتْ في فتحة منخر. كان لديها ترقوة جميلة على نحو سخيف، وركضة رياضية.

هناك ينساب لحن جاز. قال لاري ماكسلاين لنفسه وتبعها إلى مكتبة حيث لم ينظر أي منهما إلى الكتب.

انقادت راحيل نحو الزواج كما ينقاد مسافرنحو كرسي شاغر في مطار متكاسل، بشعور جلوس. وعادت معه إلى بوسطن.

عندما حمل لاري زوجته بين ذراعيه، خدها في مواجهة قلبه، كان طويلاً كفاية ليرى قمة رأسها، الكومة الغامقة لشعرها. عندما وضع يده قرب زاوية فمها استطاع أن يشعر بنبض خفيف. أحب موقعه. والوثب الواهي الغامض، تحت جلدها تماماً. كان يلمسه، منصتاً بعينيه، مثل أب مترقب يشعر بطفله غير المولود يرفس داخل رحم أمه.

حملها كما لو كانت هبة، مُنحت له بالحب. شيئاً ساكناً وصغيراً. ثميناً إلى حد غير محتمل.

لكن عندما مارسا الحب أُهين من قبل عينيها. تصرفتا وكأنهما لشخص آخر، شخص ما يراقب. ينظر من النافذة إلى البحر. إلى مركب في نهر. أو شخص مار في سديم مرتدياً قبعة.

سخط لأنه لم يكن يعرف ماذا كانت *تعني* تلك النظرة. وضعها في مكان ما بين اللامبالاة واليأس. لم يعرف أنه في بعض الأماكن، كالبلد الذي تنتمي إليه راحيل، تتنافس أنواع متنوعة من اليأس على الصدارة. وأن اليأس *الشخصي* لا يمكن أبداً أن يكون باعثاً على اليأس كفاية. وأن شيئاً قد حدث عندما مرّ اضطراب شخصي عظيم على المزار المقدس الواقع على جانب طريق

الاهتياج العظيم، الضخم، العنيف، المطوّق، المدفوع، السخيف المجنون، غير المقبول والعام لأمة. أن إلهاً كبيراً عوى كريح ساخنة، وطالب بانحناءة إجلال. وانفصل إله صغير (حميمي ومحتوي، خاص ومحدود) مخدّراً ومُهمَّداً، ضاحكاً بخدرٍ وحيادية من طيشه الخاص. لقد أصبح مرناً ولامبالياً حقاً من جراء تعوّده على مكاره التأكيد على لامنطقيته ولأهميته الخاصة. لا شيء يهم كثيراً. لا شيء كثير يهم. وكلما قلّ ما يهم، قلّ ما يهم. لم يكن أبداً مهماً كفاية. لأن الأسوأ قد حدث. في البلد الذي هي منه، المتوازن للأبد بين ذعر الحرب ورعب السلم. أسوأ الأمور استمرت في الحدوث.

وهكذا ضحك الإله الصغير ضحكة مكبوتة، ووثب بعيداً على عجل، بابتهاج. مثل ولد غني في شورت، صفّر وركل الحجارة. إن مصدر تيهه الهش وسريع الزوال، هو الصغر النسبي لمحنته. لقد عرّش داخل عيون الناس وأصبح انطباعاً ساخطاً.

ما رآه لاري ماكسلاين في عيني راحيل لم يكن اليأس مطلقاً، لكنه كان نوعاً من التفاؤل المفروض بالقوة. وتجويفاً حيث كانت ترقد كلمات إستا. لم يكن من المتوقع منه أن يفهم ذلك. أن الخواء في أحد التوأمين لم يكن إلاّ نسخة عن الصمت والسكون في الآخر. أن الأمرين تطابقا معاً. مثل ملاعق مكدّسة. مثل أجساد محبين متآلفة.

بعد أن تطلّقا، عملت راحيل لبضعة شهور كنادلة في مطعم هندي في نيويورك. ومن ثم ولسنوات عديدة موظفة ليلية في حجرة ضد الرصاص في محطة بنزين خارج واشنطن، حيث تقيأ سكارى من حين إلى آخر داخل صينية النقود، وعرض قوّادون عليها عروض عمل مربحة أكثر. شاهدت مرتين رجالاً أُطلق عليهم النار عبر زجاج نوافذ سياراتهم. ومرةً رجلاً طُعن وقُذف من سيارة منطلقة وسكين مغروزة في ظهره.

ثم كتبت بيبي كوتشاما لتقول أن إستا قد أُعيد ثانية. تركت راحيل عملها في محطة البنزين وغادرت أميريكا بسرور. لتعود إلى أيمينيم. إلى إستا تحت المطر.

في البيت القديم على التل، جلست بيبي كوتشاما إلى طاولة الطعام تحكّ المرارة السميكة المزبدة عن خيار قديم. كانت تلبس عباءة ليلية قطنية بمربعات، رخوة بأكمام عريضة ولطخ كركم صفراء عليها. تحت الطاولة كانت تؤرجح قدميها الصغيرتين جداً ذوات الأظافر المقلّمة، كطفل صغير على كرسي عالٍ. كانتا منتفختين بالإديما[1] مثل وسادتي هواء على شكل قدمين. في الأيام الغابرة، وكلما زار أحد أيمينيم، كانت بيبي كوتشاما تقصد أن تجلب الانتباه إلى أقدامهم الكبيرة. كانت تطلب أن تجرب أحذيتهم، وتقول «انظروا كم هي كبيرة على قدميّ !» ثم كانت تمشي في أرجاء المنزل رافعةً ساريها بحيث يستطيع كل واحد أن يتعّجب من قدميها الصغيرتين جداً.

عملت بالخيار بسيماء نصرٍ بالكاد مكتوم. كانت مسرورة جداً لأن إستا لم يكلّم راحيل. لأنه نظر إليها واجتازها على الفور. إلى المطر. كما فعل مع كل شخص آخر.

كانت في الثالثة والثمانين. امتدت عيناها كالزبدة خلف نظارتها السميكة.

«أخبرتك، ألم أخبرك؟ ألم أفعل؟» قالت لراحيل «ماذا توقعتِ؟ معاملة خاصة؟ لقد فقد عقله، إنني أقول لكِ، لم يعد يميز الناس ! ماذا اعتقدتِ؟»

لم تقل راحيل شيئاً.

استطاعت الإحساس بإيقاع تأرجح إستا، وبرطوبة المطر على جلده. استطاعت سماع العالم الأجش المتدافع داخل رأسه.

رفعت بيبي كوتشاما بصرها نحو راحيل بحذر وقلق. لقد ندمت من قبل على كتابتها لها عن عودة إستا. لكن ما الذي كان بإمكانها أن تفعله عندها غير ذلك؟ أن تنشغل به لبقية حياتها؟ لماذا كان يتوجب عليها هذا؟ لم يكن مسؤوليتها، أم انه كان؟

جلس الصمت كشخص ثالث بين بنت الأخ الكبرى والطفلة الخالة

---

(١) ـ إديما: تراكم مفرط لسائل مصلي في فراغات نسيجية، أو في تجاويف الجسم. (المترجمة).

الكبرى. كغريب. متورم. بغيض. ذكّرت بيبي كوتشاما نفسها أن تقفل باب غرفة نومها ليلاً. حاولت أن تفكر بشيء لتقوله.

«هل تعجبك قصّة شعري القصيرة؟»

لمست بيديها الملوثتين بالخيار قصة شعرها الجديدة. وتركت لطخة لافتة من زبد الخيار خلفها.

لم تستطع راحيل أن تفكر بأي شيء لتقوله. راقبت بيبي كوتشاما تقشّر خيارها. شظايا صفراء من قشر الخيار رقّشت صدر ثوبها. شعرها المصبوغ بالأسود الفاحم، كان مرتباً عبر فروة رأسها كخيط غير ملفوف. لطّخ الصباغ جلد جبينها بلون رمادي شاحب، معطياً إياها خط شعر ظلّياً ثانياً. لاحظت راحيل أنها قد بدأت تضع مكياجاً. أحمر شفاه. كحلاً. ولمسة خفيفة من حمرة خدود. ولأن المنزل كان مغلقاً ومظلماً، ولأنها لم تكن تؤمن إلاّ بمصابيح الأربعين واطاً، انتقل أحمر شفاهها قليلاً خارج الحدود الطبيعية لفمها.

لقد نحلتْ عند وجهها وكتفيها، مما حوّلها من شخصٍ مدور إلى شخص مخروطي. لكن بجلوسها إلى طاولة الطعام وردفاها الضخمان مختفيان، تمكّنت من أن تبدو تقريباً رقيقة. ومحا ضوء غرفة الطعام الباهت التجاعيد عن وجهها تاركاً إياه ليبدو ـ بطريقة غريبة وغائرة ـ أكثر شباباً. كانت تضع الكثير من المجوهرات. مجوهرات جدة راحيل المتوفاة. جميعها. خواتم وامضة. حلق ماسية. أساور ذهبية. وسلسلة ذهبية مسطحة مصاغة بشكل جميل، والتي كانت تلمسها من وقت إلى آخر لتعيد تطمين نفسها أنها موجودة وأنها ما زالت ملكاً لها. مثل عروس شابة لم تستطع تصديق حظها الجيد.

إنها تعيش حياتها بشكل عكسي. فكّرت راحيل.

لقد كانت ملاحظة ملائمة على نحو تهكمي. *لقد* عاشت بيبي كوتشاما حياتها بشكل عكسي. عندما كانت شابة أنكرت العالم المادي، والآن، وكعجوز، بدت أنها تحبه وتتقبله بسرور. لقد عانقته وعانقت ماضيها كله.

عندما كانت بيبي كوتشاما في الثامنة عشرة، وقعت في حب راهب

إيرلندي وسيم شاب، الأب موليغان، الذي كان في كيرالا لمدة سنة بتفويض من معهده اللاهوتي في مادراس. كان يدرس الكتاب المقدس الهندوسي من أجل أن يتمكن من فهمهم وشجبهم بذكاء.

في صباح كل ثلاثاء، كان الأب موليغان يأتي إلى أيمينيم ليزور والد بيبي كوتشاما، الموّقر. ي. إبي، الذي كان قس كنيسة القديس توما. كان الموّقر إبي مشهوراً في المجتمع المسيحي بأنه الرجل الذي بورك شخصياً من قبل بطريرك انطاكيا، رأس الكنيسة المسيحية السورية ـ حدثٌ قد أصبح جزءاً من فولكلور أيمينيم.

في العام، ١٨٧٦عندما كان والد بيبي كوتشاما في السابعة من عمره، أخذه والده ليرى البطريرك الذي كان يزور الكنيسة السورية في كيرالا. وجدوا أنفسهم مباشرةً أمام مجموعة من الناس الذين كان البطريرك يخطب فيهم من أقصى غرب شرفة كاليني، في كوتشين. منتهزاً فرصته، همس والده في أذن ابنه الصغير ودفع الولد قصير القامة نحو الأمام. أطبق موّقر المستقبل المنزلق على قدميه والمتصلّب من الخوف، شفاهه على الخاتم في إصبع البطريرك الأوسط تاركاً إياه رطباً بالبصاق. مسح البطريرك خاتمه بكمه، وبارك الصبي الصغير. بعد أن كبر بمدة طويلة وأصبح قساً، بقي الموّقر إبي معروفاً بِـ *بونيان كونجو* ـ الصغير المبارَك ـ وجاء الناس على طول النهر في مراكب، طوال الطريق من آليبي وإركانو، مع أطفالهم ليبارَكوا من قبله.

بالرغم من وجود فارق عمر لا يستهان به بين الأب موليغان والموّقر إبي، وبالرغم من انتمائهما إلى طائفتين مختلفتين للكنيسة (اللتين كان شعورهما المشترك الوحيد هو الاستياء والنفور)، لكن كلا الرجلين تمتعا بصحبة بعضهما البعض، والأوقات التي كان يدعى فيها الأب موليغان للبقاء على الغداء كانت أكثر من تلك التي لم يكن يُدعى فيها. واحد من الرجلين فقط لاحظ الإثارة الجنسية التي استيقظت كالفيضان في الفتاة النحيلة التي كانت تحوم حول الطاولة لوقت طويل بعد رفع الأطباق.

حاولت بيبي كوتشاما في البدء أن تجذب الأب موليغان بمعارض أسبوعية

خيرية. كل صباح ثلاثاء، تماماً عندما يكون الأب موليغان على وشك الوصول، كانت بيبي كوتشاما تحمّم بالقوة طفلاً قروياً مسكيناً في البئر، بصابون أحمر قاسٍ يؤلم أضلاعه الناتئة.

«صباح الخير، أبتِ!» كانت بيبي كوتشاما تصرخ عندما تراه، بابتسامة على شفتيها متناقضة تماماً مع الإمساك المؤلم الذي تمسك به كالكمّاشة ذراع الطفل الزلقة بالصابون.

«صباح الخير يا بيبي!» كان الأب موليغان يقول متوقفاً وهو يطوي مظلته.

«هنالك شيء أريد أن أسألك عنه أبتِ» كانت تقول بيبي كوتشاما «في الكورينثي الأول، الفصل العاشر، المقطع الثالث والعشرين، يقول... «كل الأشياء شرعية لي، لكن كل الأشياء غير مناسبة» أبتِ، كيف يمكن أن تكون *كل* الأشياء شرعية له؟ أعني أستطيع أن أفهم إن كانت *بعض* الأشياء شرعية له، لكن..»

كان الأب موليغان أكثر من مجرد مُطْرىً بالمشاعر التي أثارها في الصبية الجذابة التي وقفت أمامه بفم مرتجف قابل للتقبيل، وعينين ملتهبتين بسواد الفحم. فهو أيضاً شابٌ، وربما لا يكون غير مدرك البتة من أن التفسيرات الدينية المقدسة والتي بدّد بها شكوكها الإنجيلية الزائفة، كانت في نزاع مع الوعد المثير الذي قدّمته عيناه الزمرديتان الساطعتان.

كل ثلاثاء، غير آبهين بشمس منتصف النهار عديمة الرحمة، كانا يقفان هناك، بجانب البئر. الصبية واليسوعي الباسل، يرتعد كلاهما بعاطفة غير مسيحية. مستخدمين الكتاب المقدس ذريعة ليكونا مع بعضهما البعض.

وبشكل ثابت، دون تغيير، وفي منتصف حديثهما، كان الطفل المُصَوْبَن سيء الحظ والذي أُجبر على الحمام، يتدّبر أمره في الانزلاق بعيداً، فيرتّد الأب موليغان بحدة إلى وعيه ويقول «أوه، من الأفضل أن تمسكيه قبل أن يمسكه البرد»

ثم كان يفتح مظلته ثانية ويمشي مبتعداً بردائه الذي بلون الشوكولاته

وصندله المريح، مثل جمل بخطوات عالية، مع موعد ليحفظه. ومعه قلب بيبي كوتشاما المتوّجع في رسن، يتخبّط وراءه، يترّنح فوق أوراق شجر وحجارة صغيرة، مرضوضاً ومحطّماً تقريباً.

مرّت سنة كاملة من أيام الثلاثاء. وجاء أخيراً وقت عودة الأب موليغان إلى مادراس. وحيث أن أعمال الخير لم تؤد إلى أية نتائج مادية ملموسة، استثمرت الصبية المهتاجة بيبي كوتشاما كل أملها في الإيمان.

عارضةً ميولاً فردية عنيدة (والتي كانت تُعتبر لفتاة شابة في تلك الأيام سيئة بقدر تشوه خلقي - شفة شرماء أو قدم حنفاء) تحدّت بيبي كوتشاما رغبات والدها، وأصبحت كاثوليك روم. ومع نظام ديني خاص من الفاتيكان، أدّت نذرها ودخلت دير في مادراس كمترهبنة متمّرنة. لقد أملتْ بطريقة ما أن هذا سيزودها بفرصة شرعية صحيحة لتكون مع الأب موليغان. تصوّرت أنهما معاً، في غرف كالقبر كئيبة ومظلمة بستائر مخملية سميكة وثقيلة، يناقشان اللاهوت. كان هذا كل ما أرادته. كل ما تجرأت على تمنيه. فقط أن تكون إلى جانبه. قريبةً كفاية لتشم لحيته. لترى النسيج الخشن لردائه. لتحبه بالنظر إليه فحسب.

أدركت بسرعة عبثية هذه المحاولة. لقد وجدت أن الأخوات الأقدم قد احتكرن الكهّان والأساقفة بشكوك إنجيلية أكثر سفسطائية مما قد تكون شكوكها في أي وقت. وأنه قد تمر سنوات طويلة قبل أن تصل إلى أي مكان يجعلها قريبة من الأب موليغان. أصبحت مؤرقة وتعيسة في الدير. اكتسبت طفحاً جلدياً تحسسياً عنيداً في جلدة رأسها من جراء الاحتكاك المتواصل بخمار الراهبة. شعرت أنها تتكلم الإنكليزية أفضل بكثير من أي شخص آخر، وهذا جعلها أكثر وحدةً من أي وقت مضى.

بعد أقل من سنة من التحاقها بالدير، بدأ والدها يتلقّى بالبريد رسائل ملغزة منها. *بابا الحبيب الغالي، أنا جيدة وسعيدة في خدمة سيدتنا، لكن كحل النور تبدو غير سعيدة و مشتاقة جدًا للبيت. بابا الحبيب الغالي، اليوم تقيأت كحل النور بعد الغذاء وارتفعت درجة حرارتها. بابا الحبيب الغالي، يبدو أن*

طعام الدير لا يلائم كحل النور، بالرغم من أنه يعجبني إلى حد كافٍ. بابا الحبيب الغالي، كحل النور منزعجة لأن عائلتها تبدو وكأنها لا تفهمها ولا تبالي بسعادتها وخيرها...

لم يعرف الموّقر ي. جون. إبي، أي كحل النور أخرى (في ذلك الوقت) غير أكبر ماسة في العالم. وتساءل كيف يمكن لفتاة ذات اسم مسلم أن تنتهي في دير كاثوليكي.

كانت والدة بيبي كوتشاما، من أدركت أخيراً أن كحل النور لم تكن إلاّ ابنتها بيبي كوتشاما ذاتها. لقد تذكرت أنها ومنذ زمن طويل قد أرت بيبي كوتشاما نسخة عن وصية والدها (جد بيبي كوتشاما) والذي يصف فيها أحفاده قائلاً: *لقد شاهدت جواهر، واحدة منها هي كحل النور الخاصة بي.* وتابع مورّثاً كلاً منهم مقداراً ضئيلاً من المال أو المجوهرات دون أن يوضح من الذي اعتبره منهم كحل النور الخاصة به. أدركت والدة بيبي كوتشاما ودونما سبب استطاعت أن تفكر به، أن بيبي كوتشاما قد افترضت أنه قد قصدها هي ـ وأنها خلال كل تلك السنين فيما بعد في الدير، وبمعرفتها أن كل رسائلها كانت تُقرأ من قبل الأم المشرفة قبل أن تُرسل، قد أحيتْ كحل النور ثانيةً لتوصل معاناتها لعائلتها.

ذهب الموقر إبي إلى مادراس وسحب ابنته من الدير. كانت سعيدة لمغادرتها، لكنها أصرّت أنها لن تعود وتغير طائفتها، وبقيت إلى آخر أيامها كاثوليكية روم. أدرك الموقر إبي أن ابنته قد اكتسبت «سمعة» وانه لم يكن من المحتمل أن تجد زوجاً. فقرر أنه، وحيث أنها لن تستطيع أن تحظى بزوج، فلن يكون هناك ضير من حصولها على تعليم. وهكذا قام بالترتيبات من أجل أن تحضر مجموعة دروس في جامعة روشيستر في أميركا.

بعد سنتين، عادت بيبي كوتشاما من روشيستر مع دبلوم في تزيين الحدائق، لكن أكثر حباً للأب موليغان من أي وقت مضى. لم يكن هناك أي أثر للفتاة النحيلة الجذابة التي كانتها. ففي سنواتها التي قضتها في روشيستر

أصبحت بيبي كوتشاما ضخمة بشكل مفرط. وفي الواقع، لنقل، بدينة. حتى أن الخياط الجبان الصغير تشيلابن عند جسر تشونغام، أصرّ على المطالبة بأجور غطاء لأكمة شجيرات من أجل قميص ساريها. أناط بها والدها مسؤولية الحديقة الأمامية لمنزل أيمينيم، ليبعدها عن الاكتئاب، حيث زرعت حديقة ضارية قاسية، كان يأتي الناس طوال الطريق من كوتايام لمشاهدتها.

كانت رقعة أرض دائرية منحدرة مع درب حصوي عالٍ ومنحدر حولها. حوّلتها بيبي كوتشاما إلى متاهة خضراء خصبة من سياج شجيرات قصيرة وحجارة وتماثيل كَرْغُل[١]. الأزهار التي أحبتها أكثر، كانت أنثوريام[٢] ، أنثوريام *أندرلينام*[٣] ، كان لديها مجموعة منها، «رابرام»[٤] و «شهر العسل»، وحشد من تشكيلات يابانية. تدّرج كافورهم النضر الفريد من ظلال الأسود المرّقش إلى الأحمر الدموي و البرتقالي المتلألىء. كان طلعها البارز المرقّط أصفر على الدوام. وفي وسط حديقة بيبي كوتشاما، المحاطة بمساكب من القنّا[٥] والفلوكس[٦] ، كان يوجد ملاك مرمري يبول قوساً فضياً لانهائياً داخل بركة ضحلة، حيث أزهرت زهرة لوتس زرقاء مفردة وفريدة. وعند كل زاوية من زوايا البركة تدلّى جص زهري لقزم باريس الخرافي بوجنتين ورديتين وقبعة حمراء مستدّقة الرأس.

أمضت بيبي كوتشاما أوقات بعد الظهر في حديقتها. في ساري وجزمة مطاطية. استخدمت ببراعة أزواجاً هائلة من مقصّات الشجيرات بقفازي

---

(١) ـ تماثيل لشخص بشع الوجه. (المترجمة).
(٢) ـ نوع من النباتات المدارية الاميريكية دائمة الخضرة، تستخدم للزينة لأوراقها الجذابة وأزهار الكافور الرائعة الحمراء غالباً. (المترجمة).
(٣) ـ نوع من نباتات اللّوف المدارية. (المترجمة).
(٤) ـ نبات قيقب متوسط القياس من شمال شرقي اميريكا ذا غصينات وبراعم ضاربة إلى الحمرة. (المترجمة).
(٥) ـ نبات استوائي مزهر عريض الأوراق. (المترجمة).
(٦) ـ نوع من نباتات أميريكا الشمالية، ذات أوراق وأزهار عديدة الألوان. (المترجمة).

حدائق برتقاليين زاهيين. ومثل مروّض أسود، دجّنت نباتات كرمة معرّشة ملتوية واعتنت بصبّارات ذات أشواك منتصبة قاسية. قللّت من الزريعة ودلّلت سحلبيات نادرة. شنّت حرباً على الطقس. وحاولت أن تنبت إديلويس[1] وجوافة صينية.

ودهنت كل ليلة قدميها بكريم حقيقي، ودفعت بشرة أظافرها الميتة المتصّلبة إلى الخلف.

ومؤخراً، وبعد أكثر من نصف قرن من العناية القاسية الدقيقة وكثيرة التطلّب، هُجرت الحديقة الزخرفية، تُركت إلى رغباتها ووسائلها الخاصة، فأصبحت معقدة وبريّة، مثل سيرك نسيت حيواناته حيلها. وغطّت العشبة الضارة التي يدعونها الناس بياتشا الشيوعي (لأنها ازدهرت في كيرالا كالشيوعية) النباتات الأكثر غرابة بكثافة. فقط النباتات المعترشة استمرت في النمو مثل أظافر أقدام في جثة. لقد وصلت حتى إلى فتحتي منخري الأقزام الجصية الزهرية وأزهرت في تجاويف رؤوسها معطيةً إياها انطباعاً بـ: نصف مندهش، ونصف على وشك أن يعطس.

سبب هذا الانصراف المفاجىء وغير الرسمي، كان حباً جديداً. فقد ركّبت بيبي كوتشاما صحناً هوائياً على سطح منزل أيمينيم. وطافت حول العالم من غرفة استقبالها بواسطة تلفزيون بقمر صناعي. لم يكن من الصعب فهم الإثارة المستحيلة التي ولّدها هذا في بيبي كوتشاما. فهو لم يكن أمراً قد حدث بالتدريج. بل فجأةً، بين ليلة وضحاها. شقرٌ، حروب، مجاعات، كرة قدم، جنس، موسيقى، انقلابات ـ وصلوا جميعاً في القطار ذاته. وتوقفوا في الفندق ذاته. وفي أيمينيم حيث كان أعلى صوت فيها، ذات مرة، هو نفير موسيقي لباص، أمكن الآن استدعاء الحروب والانقلابات والمجازر الحية وبيل كلينتون، جميعها، كخدم. وهكذا، وبينما كانت حديقتها التزينية تذوي

---

(١) ـ نبات من جبال الألب، أوروبي الأصل، ذو أوراق مغطاة بأزهار صغيرة مبيّضة. (المترجمة)

وتموت، تابعت بيبي كوتشاما ألعاب الفرسخ في قناة ن. ب. إي، وكريكت اليوم الواحد وكل مباريات التنس الكبيرة والصاخبة. شاهدت في أيام الأسبوع الجريء والجميلة، وسانتا باربارا، حيث شقراوات هشّات بحمرة شفاه وتسريحات شعر مثبتة بواسطة السبراي، أغوين رجالاً آلين ودافعن عن امبراطوريتهن الجنسية. أحبّت بيبي كوتشاما ملابسهن اللامعة وسرعة غريزتهن العهرية. وأثناء النهار كانت تعود إليها نتفٌ قصيرة غير مترابطة، تجعلها تضحك بينها وبين نفسها ضحكاً مكتوماً.

كوتشو ماريا، الطباخة التي ما زالت تلبس الأقراط الذهبية السميكة التي شوهت شحمة أذنها إلى الأبد. كانت تستمتع بعروض المصارعة الجنونية، حيث يلبس هالك موغان والسيد كامل، اللذان رقبتاهما أعرض من رأسيهما، قماطين جلديين متلألئين ويضربان بعضيهما بوحشية. لضحكة كوتشو ماريا ذاك الطابع القاسي الذي تكتنفه الازدراء واللامبالاة الذي للأطفال الصغار في بضع الأحيان.

كانتا تجلسان طوال اليوم في غرفة الاستقبال، بيبي كوتشاما على كرسي الزراعة بأذرعه الطويلة، أو على الشيزلونغ (بحسب حالة قدميها)، وكوتشو ماريا بجانبها على الأرض (تغيّر القنوات عندما تستطيع)، محتجزتين كلاهما في صمت تلفزيوني صاخب. شعر إحداهن أبيض كالثلج، والأخرى مصبوغ بأسود قاتم كالفحم. دخلتا في كل المناقشات والمسابقات مستفيدتين من كل التنزيلات التي كان يُعلن عنها، وقد ربحتا في مناسبتين، كنزة قطنية وترمساً حفظته بيبي كوتشاما وأغلقت عليه في خزانتها.

أحبّت بيبي كوتشاما منزل أيمينيم وتعلّقت بالأثاث الذي ورثته من جراء عمرها الطويل الذي لم يعشه أي شخص آخر. كمان ماماتشي وحامله، خزائن الأوتي، كراسي السلة البلاستيكية، سرر دلهي، المزيّنة[1] من فيينا ذات العقد العاجية المنفرجة، وطاولة طعام المصنوعة من خشب الورد والتي صنعها فيلوثا.

(١) ـ منضدة مع أدراج ومرآة للتزيّن. (المترجمة).

ارتعبت من مجاعات الـ ب. ب. سي وحروب التلفزيون التي صادفتها عندما كانت تبدّل القنوات. وأضرمت البلايا والمشاكل المتعلقة بالأعداد المتزايدة من البشر اليائسين والمطرودين والمفقودين، من جديد، مخاوفها القديمة من الثورة والخطر الماركسي - اللينيني. ورأت في التطهيرات العرقية والإبادات الجماعية تهديداً مباشراً لأثاثها.

أبقت أبوابها ونوافذها مغلقة، إلاّ في حال استخدامها. استخدمت نوافذها من اجل أهداف محددة. **لشهيق من هواء طلق. لتدفع ثمن الحليب. لتطرد دبوراً** (والذي كانت تجبر كوتشو ماريا على مطاردته في أرجاء المنزل بمنشفة). أقفلت حتى ثلاجتها المتداعية ذات الطلاء المتقّشر حيث تحفظ مؤنها الأسبوعية من كعكات الزبدة المحلاّة، التي تجلبها لها كوتشو ماريا من أفضل مخبز في كوتايام. وزجاجتي ماء الأرز الذي كانت تشربه عوضاً عن الماء العادي. على الرف تحت الصينية المحيّرة حفظت ما تبقّى من مجموعة ماماتشي لأطباق المائدة المطّعمة بالنقوش الصفصافية.

وضعت دزينة زجاجات الأنسولين أو ما يشبهها، التي جلبتها راحيل في علب الزبدة والجبنة. ارتابت أنه في هذه الأيام حتى السذّج ذوو العيون المدورة، قد يكونوا لصوص أوانٍ فخارية، أو راغبين بشدة بكعكات زبدة محلاّة، أو مصابين بداء البول السكري ويطوفون أيمينيم باحثين عن أنسولين مستورد.

لم تثق حتى بالتوأم. اعتبرتهما أنهما **قادران على فعل أي شيء**. أي شيء بلا استثناء. حتى *أنهما قد يسرقان هداياهما ويسترجعانها*، فكرت، وأدركت بغصّة، السرعة التي عادت بها للتفكير بهما ككيان واحد، ثانيةً. بعد كل تلك السنين. مصمّمةً ألاّ تدع الماضي ينسلّ إليها، بدّلت تفكيرها حالاً. هي، هي *قد تسرق هداياها وتسترجعها*.

نظرت إلى راحيل الواقفة بجوار طاولة الطعام ولاحظت التسلل الخفي والغريب، المخيف ذاته، والقدرة على البقاء هادئة وساكنة للغاية، الأمر الذي بدا إستا معلماً بارعاً فيه. بيبي كوتشاما كانت مرتعبة قليلاً من صمت وهدوء راحيل.

«إذاً» صرخ صوتها ثاقباً، رتيباً. «ما هي مشاريعك؟ كم من الوقت ستبقين؟ هل قررتِ؟»

حاولت راحيل أن تقول شيئاً ما. خرج مثّلماً. مثل قطعة قصدير. خطت باتجاه النافذة وفتحتها. من أجل نفسٍ من هواء طلق.

«أغلقيها عندما تنتهين منها» قالت بيبي كوتشاما، وحجبت وجهها كخزانة.

لم يعد باستطاعتك رؤية النهر من هنا.

كان باستطاعتك، إلى أن أغلقت ماماتشي الشرفة الخلفية بأول باب سحاّب قابل للطي في أيمينيم.

أُنزلت اللوحتان الزيتيتان للموقر إپي. جون إپي وأليوتي أماتشي (جديّ إستا وراحيل العظيمين) من الشرفة الخلفية وعلّقتا في الشرفة الأمامية.

إنهما معلّقان هناك الآن. الصغير المبارَك وزوجته، على جانبي رأس الثور الأميريكي المخطط والمعلّق على حامل.

ابتسم الموقر إپي ابتسامة أسلافه الواثقة، خارجاً عبر الطريق بدلاً من النهر.

أليوتي أماتشي، بدت مترددة أكثر. كما لو أنها أرادت أن تستدير لكنها لم تستطع. لعله لم يكن من السهل بالنسبة إليها أن تتخلى عن النهر. بعينيها نظرت في الاتجاه الذي نظر إليه زوجها. وبقلبها نظرت إلى البعيد. مطّ حلقها الكونوكو الذهبي الثقيل (تذكار من طيبة وصلاح الصغير المبارَك) شحمتي أذنيها وتتدلى (طوال الطريق) نزولاً حتى كتفيها. ومن خلال الفتحات في أذنيها، تستطيع رؤية النهر الساخن والأشجار الداكنة التي انحنت داخله. والصيادين في قواربهم، والأسماك أيضاً.

بالرغم من أنه لم يعد بإمكانك رؤية النهر من المنزل، لكنه، ومثل محارة بحرية تحمل دوماً حس البحر، مايزال منزل أيمينيم يحمل حسَّ النهر.

حساً مندفعاً، متموجاً، حس سباحة أسماك.

من نافذة غرفة الطعام حيث وقفت، والريح في شعرها، استطاعت راحيل

رؤية المطر يهطل قارعاً السطح الصدىء لما كان في السابق مصنع جدتهما للمخلل.

مخللات ومعلّبات الجنة.

إنه يقع بين المنزل والنهر.

كانوا يصنعون المخللات، والمهروسات، والمربيات، ومساحيق كاري وأناناساً معلّباً. ومربّى الموز (بشكل غير قانوني) بعد أن منعته م. م. غ (منظمة المنتجات الغذائية) لأنه وتبعاً لمواصفاتهم لم يكن لا مربىً ولا جيليه. فهو رقيق جداً بالنسبة لجيليه، وسميك جداً بالنسبة لمربّى. قوام ملتبس، غير قابل للتصنيف، هكذا قالوا.

تبعاً لكتبهم.

بدا لراحيل، وهي تفكر بالأمر الآن، وكأن الصعوبة التي مرّت بها عائلتها مع التصنيف قد ذهبت أعمق بكثير من مسألة مربّى - جيليه.

ربما كانوا آمو، وإستا، وهي، أسوأ الآثمين المنتهكين. ولكنهم لم يكونوا الوحيدين. كان الآخرون كذلك أيضاً. جميعهم انتهكوا القواعد. جميعهم عبروا في مناطق ممنوعة. جميعهم تلاعبوا بالقوانين التي تسّن وتنظم من يجب أن يُحب وكيف. وإلى أي حد. القوانين التي تجعل الجدات جدات، والأخوال أخوالاً، والأمهات أمهات، وأبناء الخال أبناء خال، والمربّى مربّى، والجيليه جيليه.

كان هناك وقت أصبح فيه الأعمام آباء، عشّاق أمهات، وماتت ابنة خال وكان لها جنازة.

كان هناك وقت أصبح فيه غير الممكن تصوره والتفكير به، ممكناً تصوره والتفكير به، ووقع المستحيل فعلاً.

عثرت الشرطة على فيلوثا، حتى فيما قبل جنازة صوفي مول.

كان يوجد تورّمات على ذراعيه في المكان الذي لمست فيه الأصفاد جلده. أصفاد باردة برائحة معدن حامضية. مثل سكك باص فولاذية والرائحة على يدي قاطع التذاكر من جرّاء مسكها.

بعد أن انتهى كل شيء، قالت بيبي كوتشاما «مثلما زرعتِ، ستحصدين». وكأنه لم يكن لها هي أي علاقة بالزرع والحصد. وعادت على قدميها الصغيرتين إلى تطريزها للقطب المتصالبة. لم تلمس أصابع قدميها الأرض أبداً. لقد كانت فكرتها أن يُعاد إستا.

التفّ حزن ومرارة مارغريت كوتشاما على ابنتها الميتة داخلها مثل ينبوع غاضب. لم تقل شيئاً، لكنها كانت تصفع إستا كلما تسنّى لها ذلك في الأيام التي كانت خلالها هناك قبل أن تعود إلى انكلترا.

راقبت راحيل آمو وهي توضّب صندوق الثياب الصغير.

«ربما يكونون على حق» قال همسُ آمو «ربما يحتاج الصبي لبابا».

رأت راحيل أن عينيها كانتا باهتتين على نحو أحمر.

استشاروا خبيرة توائم في هيديراباد. كتبت إليهم قائلة بأنه ليس من المستحسن فصل توأم حقيقي، لكن التوأم من بيضتين لا يختلفان عن شقيقين عاديين، وأنه في حين أنهما سيعانيان حتماً من أسى وألم طبيعيين يعاني منهما جميع الأطفال الذين هم من بيوت منهارة، إلاّ أن الأمر لن يتعدّى ذلك. لا شيء خارج المألوف.

وهكذا أُعيد إستا في قطار، مع صندوق ثياب من قصدير وحذاؤه البيج المستّدق الطرف ملفوف داخل حقيبته القماشية الخاكية. درجة أولى، طوال الليل في قطار مادراس ميل إلى مادراس، ومن ثم مع صديق لوالده من مادراس إلى كالكوتا.

كان معه علبة غذاء و ساندويتش طماطم داخلها. ودورق بشكل نسر مع نسر مركّب عليه. وكان يحمل صورة فظيعة في رأسه.

مطر. اندفاع. مياه حبرية. ورائحة. حلاوة مسببة للغثيان. مثل رائحة أزهار قديمة محمولة في نسيم.

لكن الأسوأ من كل شيء، أنه حمل داخله ذكرى شاب له فم رجل عجوز. ذكرى وجه متورّم ومهشّم، وابتسامة مقلوبة. ذكرى بركة منتشرة من

سائل صافي ومصباح عارٍ منعكس عليه. ذكرى عينين محتقنتين بالدم فُتحتا وجالتا ثم ثبتّتا حدقتيهما عليه. إستا. و ما الذي قد فعله إستا؟ لقد نظر في الوجه المحبوب وقال: نعم.

نعم، كان هو.

الكلمة التي لم يستطع أخطبوط إستا أن يبلغها: *نعم.* لم يبدو أن التنظيف بالهوفر يساعد. كانت مغروزة هناك، في عمق ثنية أو تجعيدة، مثل شعرة مانغو بين أضراس، والتي لا يمكن أن تُقلق وهي طليقة.

بفهم عملي مجرد، فإنه من المحتمل أن يكون صحيحاً القول بأن كل شيء بدأ عندما جاءت صوفي مول إلى أيمينيم. قد يكون صحيحاً أن الأمور تتغير في يوم. أن دزينة قليلة من الساعات قد تؤثر على حصيلة حياة بأكملها، وأنه عندما تفعل تلك الدزينة القليلة من الساعات ذلك، فإنها ومثل البقايا المنقَذة لبيت محروق ـ ساعة الحائط الملوّحة، والصورة الشائطة. والأثاث المسفوع ـ يجب أن تُنبش من بين الأنقاض وتُفحص. تُحفظ. ويُقدّم بياناً حولها.

الأحداث الصغيرة، والأمور الاعتيادية، تُسحق ويُعاد تشكيلها وتُصبغ بمعنى جديد. وفجأة تصبح العظام الحائلة لقصة.

ومع ذلك، فإن القول أن كل شيء بدأ عندما قدمت صوفي مول إلى أيمينيم، هو النظر إليه من طرف واحد فقط.

وبشكل مساوٍ، إنه من الممكن مناقشة، أنه قد بدأ فعلاً منذ آلاف السنين. قبل مجيء الماركسية بكثير. قبل أن يأخذ الانكليز ملابار، وقبل حكم الهولنديين، وقبل وصول فاسكو دي غاما، وقبل فتح زامورين لكاليكوت. قبل العثور إلى الأساقفة السوريين الثلاثة بأثوابهم الارجوانية، والمغتالين من قبل البرتغاليين، عائمين في البحر، وأفاعي بحر ملتفة تمتطي صدورهم، ومحاري معقودة بلحاهم المتشابكة. من الممكن انه بدأ قبل وقت طويل من وصول المسيحية في مركب و سيلانها في كيرالا كما يسيل الشاي من كيس شاي.

أنه بدأ حقاً في الأيام التي صيغت فيها قوانين الحب. القوانين التي سنّت من يجب أن يحب من، وكيف، وكم.

لكن، ولغايات عملية في عالم عملي على نحو يائس. ...

٢

فراشة[1] باباتشي

.... كان يوماً أزرق كلون السماء من كانون أول عام تسع وستين (المُغفَلون التسعة عشر). كان ذلك النوع من الزمن في حياة عائلة، عندما يحدث شيء يكز أخلاقياتها المخفية من مكان راحتها، ويجعلها تفور نحو السطح وتطفو لفترة. في رؤية واضحة. لكل شخص.

أسرعت بليموث زرقاء سماوية والشمس في رفرافها، مارة بحقول الأُرز الناشئة وبأشجار المطاط العجوز، في طريقها إلى كوتشين. أبعد إلى الشرق، في بلد صغير بمناظر طبيعية مشابهة (أدغال، أنهار، حقول أرّز، شيوعيون)، كانت تُلقى قنابل كافيةً لتغطيته بأكمله تحت ستة إنشات من الفولاذ. ولكن هنا، كان زمن سلام، وسافرت العائلة في البليموث دون خوف أو توّقع لشرّ.

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة كلمة تفيد معنى «عثة»، و «فراشة» في آن واحد، ولكن وحيث أن العثة تدل على حشرة متناهية في الصغر، و يتبينّ هنا، من سياق الرواية أنها ليست في مثل هذا الصغر، وحيث أن الفراشة تكون جميلة عامة وتشير إلى فأل خير في ثقافتنا، بينما استخدمتها الكاتبة هنا لأغراض بعيدة عن هذه تماماً، فقد ارتأينا استخدام كلمة هجينة بين فراشة وعثة لتُفيد المعنى الذي أرادته الكاتبة. (المترجمة).

كانت البليموث في الأصل لباباتشي، جد راحيل وإستا. الآن، وبكونه قد توفى، فهي لماماتشي، جدتهما، وراحيل وإستا كانا في طريقهما إلى كوتشين ليشاهدا صوت *الموسيقى* للمرة الثالثة. كانا يعرفان جميع الأغاني.

بعد ذلك، كانوا ذاهبين جميعاً لينزلوا في فندق **ملكة البحر**، الذي يفوح برائحة طعام بايت. كان الحجز قد تمّ. وفي وقت مبكر من الصباح التالي، سيذهبون إلى مطار كوتشين ليحضروا زوجة تشاكو السابقة ـ خالتهما الإنكليزية، مارغريت كوتشاما ـ وابنة خالهما صوفي مول، اللتين كانتا قادمتين من لندن لقضاء عيد الميلاد في أيمينيم. سابقاً في تلك السنة، كان زوج مارغريت كوتشاما الثاني، جو، قد قتل في حادث سيارة.

عندما سمع تشاكو عن الحادث، دعاهما إلى أيمينيم. قال أنه لا يستطيع أن يتحمل التفكير بهما وهما تمضيان عيد ميلاد وحيداً وكئيباً في إنكلترة. في بيت مليء بالذكريات.

قالت آمو أن تشاكو لم يتوقف أبداً عن حب مارغريت كوتشاما. لم توافق ماماتشي. أحبّت أن تعتقد أنه لم يحبها أبداً في الأصل.

لم تكن راحيل وإستا قد التقيا صوفي مول أبداً. ولو أنهما قد سمعا الكثير عنها في الأسبوع الفائت. من بيبي كوتشاما، من كوتشو ماريا، وحتى من ماماتشي. لم يكن أحد منهم قد التقاها أيضاً، لكنهم تصرفوا جميعاً وكأنهم عرفوها مسبقاً. لقد كان أسبوع *ماذا ستعتقد صوفي مول*؟.

طوال الأسبوع، استرقت بيبي كوتشاما السمع دون شفقة على محادثات التوأم الخاصة، وكلما قبضت عليهما يتكلّمان بالمالايالام، فرضت عليهما غرامة صغيرة كانت تُقتطع من المصدر. من مصروفهما اليومي. وجعلتهما يكتبان السطور ـ أسمتها «الفرائض» ـ *سأتكّلم دومًا بالانكليزية، سأتكّلم دومًا بالانكليزية*. مئة مرة كل واحد منهما. وعندما تُكتب السطور، كانت تعلّمها بقلم أحمر لتتأكد من أن السطور القديمة لن يُعاد صياغتها لعقوبات جديدة.

جعلتهما يتدرّبان على أغنية انكليزية للسيارة من أجل طريق العودة.

كان عليهما تشكيل الكلمات بدقة، وأن ينتبها للّفظهما بشكل خاص. **الـ لّا فظ**[1].

أس ـ بّح الـ ـ رّب دو ـ مًا[2]
وأقول ثانية أسبّح،
أسبّح،
أسبّح،
وأقول ثانية. أس ـ بّح.

كان اسم إستا الكامل، إستابن ياكو، واسم راحيل، كان راحيل. **وللوقت الراهن** لم يكن لديهم اسم عائلة لأن آمو كانت تفكر في العودة إلى اسمها وهي بكر، بالرغم من أنها قالت أن الاختيار بين اسم الأب واسم الزوج لم يُعطِ المرأة خياراً كبيراً.

كان لإستا عينان مائلتان ناعستان، وكانت أسنانه الأمامية الحديثة ما تزال غير مستوية عند نهايتها. أما أسنان راحيل الدائمة فكانت تنتظر داخل لثّتها، مثل كلمات في قلم. لقد سبّب الحيرة لكل شخص كيف أن اختلافَ عمرٍ بمقدار ثمان عشرة دقيقة من الممكن أن يسبّب مثل هذا التعارض في توقيت ظهور الأسنان الأمامية.

كان إستا يرتدي حذاءه البيج المنقّط وقميص إلفيس المنفوخ. **قميص النزهة الخاص.** كانت أغنية إلفيس المفضلة له «حفلة». *«يحب بعض الناس أن يتأرجحوا، ويحب بعض الناس أن يتدحرجوا»*. كان يدندن عندما يتيقّن من أن

---

(١) ـ هذا الكتاب مليء بالكلمات والتعابير الانكليزية غير السليمة. حيث تريد الكاتبة ان تؤكّد على الانكليزية السيئة ـ وخصوصاً من ناحية اللفظ ـ التي يتكلّم بها الهنود معتقدين أنهم يتكلمون انكليزية صحيحية. هنا فصلّت الكاتبة كلمة «اللفظ» بالطريقة التي يلفظها الهنود. prer NUN sea ashun وهي اللفظ الهندي لكلمة Pronunciation الانكليزية. (المترجمة).

(٢) ـ أُسبّح الرب دوماً. (المترجمة).

لا أحد يشاهده، مداعباً مضرب تنس، لاوياً شفتيه مثل إلفيس «*لكن الحركة و التشليم سترضي روحي، هيا لنقيم حفلة..*»[1]

استقرّ معظم شعر راحيل في قمة رأسها كالنافورة. كان مجموعاً مع بعضه بِـ «**الحب في طوكيو**» - خرزتان على شريط مطاطي، لا علاقة له بالحب أو بطوكيو. في كيرالا، صمد **الحب في طوكيو** أمام اختبار الزمن، وحتى الآن إذا كنت لتسأل في أي متجر سيدات محترم من الدرجة الأولى، فذلك ما ستحصل عليه. خرزتان على شريط مطاطي.

كان الوقت مرسوماً على ساعة معصم راحيل غير الحقيقية. الثانية إلاّ عشر دقائق. كان أحد طموحاتها أن تملك ساعة تستطيع تغيير الوقت بها كلّما أرادت (الأمر الذي، تبعاً لها، كان السبب في وجود الوقت في الأصل). نظارتها الشمسية البلاستيكية الحمراء ذات الإطار الأصفر، كانت تجعل العالم يبدو أحمر. قالت آمو بأنها مضرة لعينيها ونصحتها أن تقلّل من لبسها قدر الإمكان.

كنزتها البحرية الخاصة بالمطار كانت في حقيبة آمو. وكان لها بنطلون قصير، واسع ومزموم عند الركبة خاص منسجم معها.

كان تشاكو يقود. وهو أكبر من آمو بأربع سنوات. لم تستطع راحيل وإستا مناداته بِـ تشاتشن[2]، لأنهما لو فعلا لدعاهما تشيتان وتشيدوثي[3]. وإذا سمياه آمافن دعاهما آبوي وآماي[4]. وإذا نادياه خالي، دعاهما خالتي، الأمر الذي كان محرجاً أمام الناس. وهكذا دعواه تشاكو.

كانت غرفة تشاكو مزدحمة بالكتب المكّدسة من الأرض حتى السقف. كان قد قرأها جميعها واقتبس نصوصاً طويلةً منها دونما سبب واضح. أوعلى

---

(١) - كُتبت الأغنية هنا أيضاً بانكليزية مخلوطة بالهندية. (المترجمة).

(٢) - خالي بالهندية. (المترجمة). (المترجمة).

(٣) - ابن وابنة اختي بالهندية. (المترجمة).

(٤) - ابن وابنة اختي أيضاً بالهندية. (المترجمة).

الأقل دونما سبب يستطيع أن يسبر غوره أي كان. على سبيل المثال. ذلك الصباح، وبينما انطلقوا خارجاً عبر البوابة صائحين بكلمات وداعهم لماماتشي المتواجدة على الشرفة، قال تشاكو فجأة: «*لقد ثبت أن غَتسبي*[1] *كان على حق في النهاية، إنه ما اقترفه غَتسبي، إنه الغبار الكريه العفن العائم في يقظة أحلامه، الذي خلّصني إلى حين من اهتمامي بالأحزان المجهضة وتيه البشر القصير النفس.*»

كان الجميع معتادين جداً على مثل هذا الأمر بحيث لم يتجّشموا عناء لكز بعضهم أو تبادل الغمزات. كان تشاكو حائزاً على منحة رودز من اكسفورد، وكان مسموحاً له بشذوذات وتجاوزات لم يكن مسموحاً بها لأي شخص آخر.

ادّعى أنه يكتب سيرة حياة عائلة، ستجعل العائلة تضطر لأن تدفع له حتى لا ينشرها. آمو قالت انه يوجد شخص واحد فقط في العائلة هو المرشح الملائم لابتزاز يتعلّق بسيرة حياته، وذلك الشخص كان تشاكو نفسه.

بالطبع، كان هذا، آنذاك. قبل الرعب.

في البليموث، كانت آمو جالسة في الأمام إلى جانب تشاكو. كانت في السابعة والعشرين في ذلك العام، وفي تجويف بطنها حملت المعرفة الباردة، أنه، بالنسبة لها، كانت الحياة قد عيشت. كان لديها فرصة. وأخطأت. تزوجت بالرجل الخطأ.

أنهت آمو تعليمها المدرسي في العام نفسه الذي تقاعد فيه والدها من عمله في دلهي وانتقل إلى أيمينيم. أصرّ باباتشي أن التعليم الجامعي مدعاة إنفاق غير ضروري بالنسبة لفتاة، ولم يكن لدى آمو خيار آخر غير مغادرة دلهي والانتقال معهم. لم يكن هناك شيء آخر تفعله فتاة شابة في أيمينيم عدا انتظار عروض الزواج بينما تساعد أمها في أعمال المنزل. وحيث انه لم يكن لدى والدها مال كافٍ ليدفع دوطة مناسبة، لم تتلّق آمو أية عروض. ومرّت سنتان.

---

(١) - الشخصية الرئيسية في كتاب: «غَتسبي العظيم». «المترجمة»

أتى عيد ميلادها الثامن عشر وولّى. غير مُلاحَظة، أو على الأقل غير مثيرة لاهتمام والديها. وأصبحت آمو يائسة تدريجياً. كانت تحلم طوال اليوم بالهرب من أيمينيم ومن براثن والدها سيء المزاج ووالدتها اللاذعة الصبورة. دبّرت عدة خطط بائسة. وأخيراً، نجحت إحداها. فقد وافق باباتشي على تركها تمضي الصيف مع خالة بعيدة كانت تسكن في كالكوتا.

هناك، وفي استقبال حفلة زفاف شخص آخر، التقت آمو بزوج المستقبل.

كان في إجازة من عمله في آسام حيث كان يعمل كمدير مساعد في مزرعة شاي. كانت عائلته فيما مضى من أثرياء الإقطاعيين الذين هاجروا من بنغال الشرقية بعد التقسيم.

كان رجلاً صغيراً، لكن ذو بنية جيدة. لطيف المظهر. وقد وضع نظارة قديمة الطراز جعلته يبدو جاداً وناقضت تماماً سحر سماحته ويفاعته، لكن مع حس فكاهة ملطّف كليةً. كان في الخامسة والعشرين، وكان قد عمل لمدة ست سنوات في مزرعة الشاي. لم يكن قد انتسب إلى الجامعة، الأمر الذي يعلّل مزاج تلميذ المدرسة الذي لديه. تقدّم لآمو بعد خمسة أيام من لقائهما الأول. لم تتظاهر آمو بأنها تحبه. وزنت فقط الأفضليات، وقبلت. فكرّت أن *أيّ شيء*، أي رجل على الاطلاق، سيكون أفضل من العودة إلى أيمينيم. كتبت إلى والديها تعلمهما بقرارها. لم يجيبا.

كان لآمو عرس كالكوتي متقن. فيما بعد، وبالتفكير ثانيةً بذلك اليوم، أدركت آمو أن ذلك التألّق المحموم الذي كان في عيني العروس على نحو طفيف، لم يكن حباً، ولا حتى الإثارة من النعيم الجسدي الشهواني، ولكن ثمانية مقادير على وجه التقريب من الويسكي. متواصلة. وصرفة.

كان حمو آمو رئيس مجلس السكة الحديدية وكان قد حاز على قفاز الملاكمة الأزرق من كامبريدج. كان أمين سر الـ (ا. ب. م. هـ) ـ اتحاد البنغال للملاكمين الهواة. وقدأعطى الزوج الشاب سيارة فيات مدهونة بلون وردي بناءً على طلبه كهدية، والتي قادها بعد الزواج بنفسه، مع كل الحلي ومعظم الهدايا

الأخرى التي كانت قد أُعطيت لهما. مات قبل ولادة التوأم ـ على طاولة العمليات أثناء عملية إزالة قرح في المثانة. وحُضرتْ مراسم إحراق جثته من قبل جميع الملاكمين في البنغال. حشدٌ من لابسي ثياب الحداد المتقّجعين بفكوك ناتئة وخدود غائرة وأنوف مكسورة.

عندما انتقلت آمو وزوجها إلى آسام، أصبحت آمو الجميلة، الشابة واللعوب، الشخص الذي يُشرب نخبه في نادي المزارعين. ارتدت بلوزات مكشوفة الظهر مع أثواب الساري وحملت محفظة فضية برّاقة مزودة بسلسلة. دخنّت السجائر بواسطة برّ وتعلّمت كيف تنفخ دوائر دخان كاملة. انتهى زوجها لا كسكير كبير فحسب، وإنما إلى كحولي كامل مع كل انحرافات الكحوليين وسحرهم المأساوي. كانت هناك أمور تتعلق به لم تستطع آمو فهمها. وبعد أن تركته بزمن طويل لم تتوقف أبداً عن التساؤل عن سبب كذبه على نحو فاضح ومسخط عندما لم يكن هناك من داعٍ. وخصوصًا عندما لم يكن هناك من داعٍ. ففي محادثة مع أصدقائه كان يتكلم عن مدى حبه لسمك السلمون المدّخن، في الوقت الذي كانت آمو تعرف أنه يكرهه. أو حين كان يأتي من النادي ويقول لآمو أنه شاهد ***لاقني في سانت لويس***، في حين يكونون قد عرضوا فعلاً ***راعي البقر البرونزي***. وعندما كانت تواجهه بهذه الأمور، لم يكن يوّضح أو يعتذر، كان يقهقه فحسب، مغضباً آمو إلى درجة لم تكن تعتقد أنها قادرة عليها.

كانت آمو حاملاً في الشهر الثامن عندما اندلعت الحرب مع الصين. كان ذلك في تشرين الأول ١٩٦٢. وكانت زوجات وأولاد المزارعين قد تمّ إجلاؤهم عن آسام. آمو، الحامل بشكل كبير لا تستطيع معه السفر، بقيت في المزرعة. في تشرين الثاني، وبعد ركوب باص متّخبط إلى شيلونغ على نحو يسبب انتصاب شعر الرأس، وسط إشاعات عن احتلال صيني وهزيمة موشكة للهند، وُلد إستا وراحيل. على ضوء الشموع. في مستشفى سُوّدت نوافذها من الخارج. بزغا دون جلبة كبيرة، بفارق ثمان عشرة دقيقة بينهما. اثنان صغيران، بدلاً من واحد كبير. فقمتان توأم، زلقان بسبب نسغ أمهما. متجعدان من

مكابدة الولادة. تفحّصتهما آمو مخافة وجود تشوهات قبل أن تغلق عينيها وتنام.

أحصت أربع أعين، أربع آذان، فمين، أنفين، عشرين أصبعاً، وعشرين ظفراً لأصابع قدم صحيحة كاملة.

لم تلاحظ الروح السيامية الواحدة. كانت سعيدة بهما. والدهما، الممدّد خارجاً على مقعد قاسٍ في ممر المستشفى، كان مخموراً.

ببلوغ التوأم عامهما الثاني، كان شرب والدهما، المتفاقم من حياة الوحدة في مزرعة الشاي، قد قاده إلى غيبوبة كحولية. أيام بكاملها مرّت وهو مستلقٍ فحسب في السرير، دون أن يذهب إلى العمل. أخيراً، استدعاه مديره الانكليزي السيد هوليك إلى بنغله[1]، من أجل «حديث جدي».

جلست آمو على شرفة منزلها تنتظر بقلق عودة زوجها. كانت متأكدة أن السبب الوحيد الذي أراد هوليك أن يراه من أجله، هو صرفه من الخدمة. دُهشت عندما عاد جزعاً ولكن ليس مدّمراً. أخبر آمو أن السيد هوليك قد عرض أمراً، والذي يحتاج أن يناقشه معها. بدأ بشكل حييّ، متجنباً نظراتها المحدقة، لكنه استجمع شجاعته متابعاً. بالنظر إليه بشكل عملي، إنه في خاتمة المطاف، عرض سيفيد كليهما، قال. في الحقيقة جميعهم، إذا ما أخذا بعين الاعتبار تعليم الأولاد.

كان السيد هوليك صريحاً مع مساعده الشاب. أعلمه بالشكاوى التي تلقّاها من العمال ومن مدرائه المساعدين الآخرين أيضاً.

«أخشى أنه ليس لديّ خيار». قال «غير طلب استقالتك».

سمح للصمت بأن يفعل فعله. ترك الرجل المثير للشفقة الجالس أمامه على الطاولة يبدأ بالارتجاف. بالبكاء. ثم تكلّم هوليك ثانية.

«حسناً، في الواقع *قد* يكون هناك خيار آخر.. ربما نستطيع ايجاد شيئاً

(١) - بيت من طابق واحد. (المترجمة).

ما. التفكير بإيجابية، هو ما أقوله دوماً. فكّر كم أنت محظوظ». توقف هوليك قليلاً ليطلب فنجان قهوة سوداء. «إنك رجل محظوظ جداً، كما تعلم، عائلة رائعة، طفلان جميلان، وزوجة جذابة لا مثيل لها...». أشعل سيجارة وترك عود الكبريت يشتعل إلى أن لم يعد بإمكانه إمساكه أكثر.

«زوجة جذابة إلى حد بعيد...».

توّقف البكاء. ونظرت عينان مرتبكتان في عينين خضراوين متوهجتين محمرتي العروق. علاوة على القهوة، عرض السيد هوليك أن يذهب بابا بعيداً لفترة. لعطلة. إلى عيادة ربما، من أجل علاج. طوال الوقت الكافي لكي يتحسّن. ومن أجل الوقت الذي يكون فيه بعيداً، اقترح السيد هوليك أن تُرسل آمو إلى بنغله لتتم «رعايتها».

لقد كان في المزرعة مسبقاً، عدد من الأطفال فاتحي البشرة، بثياب رثة، الذين أورثهم هوليك لقاطفات الشاي اللواتي شُغف بهن. كانت هذه أولى غزواته داخل دوائر الإدارة.

راقبت آمو فم زوجها يتحرك وهو يصيغ الكلمات. ولم تقل شيئاً. أصبح بالتدريج متضايقاً ومن ثم مغتاظاً من صمتها. فجأة، اندفع نحوها، أمسك بشعرها، ولكمها، ثم أُغمي عليه من الجهد.

أنزلت آمو أثقل كتاب استطاعت أن تجده على رف الكتب - ***أطلس العالم التابع لريدرز دايجست*** - وضربته به بأقوى ما استطاعت. على رأسه. على رجليه. على ظهره وكتفيه. عندما استعاد وعيه كان محتاراً بشأن كدماته. اعتذر بذل على العنف، لكنه بدأ فوراً يلّح عليها بشكل متواصل على مساعدته في نقله. وأصبح هذا نمطاً اعتيادياً. عنف سُكر يُتبع بإلحاح ما بعد السُكر متواصل.

كانت آمو تشمئز من الرائحة الدوائية للكحول النتن التي يتسرب من جلده، ومن القيء المتصلّب الذي يشكّل قشرة تغطي فمه كالفطيرة كل صباح. عندما بدأت نوبات عنفه تطال الطفلين، وعندما بدأت الحرب مع الباكستان

غادرت آمو زوجها وعادت، غير مرحّب بها إلى منزل والديها في أيمينيم. إلى كل شيء كانت قد فرّت منه قبل بضع سنوات فقط.. باستثناء أن لديها الآن طفلين صغيرين. ودون مزيد من الأحلام.

لم يكن باباتشي ليصدق قصتها ـ ليس لأنه كان يعتقد أن زوجها كان رجلاً جيداً، لكن ببساطة لأنه لم يصدق أن رجلاً انكليزياً، *أي* رجل انكليزي قد يشتهي زوجة رجل غيره.

أحبّت آمو ولديها بلا شك، لكن قابليتهما الساذجة للعطب، ورغبتهما في حب الناس الذين لا يحبونهما في الحقيقة، أغضبتها في بعض الأحيان وجعلتها ترغب في معاملتهما بقسوة ـ فقط على سبيل التربية، على سبيل الحماية.

بدا الأمر كما لو أن النافذة التي اختفى عبرها والدهما، بقيت مفتوحة ليدخل منها أيٌّ كان ويُرّحب به.

كان التوأم بالنسبة لآمو مثل زوج منذهل من الضفادع مستغرقين بصحبة بعضهما البعض، يتواثبان ذراعاً بذراع باتجاه أوتستراد حافل بحركة مرور مندفعة بسرعة وعنف. غافلين كلياً عمّا تستطيع الشاحنات أن تفعله بالضفادع. راقبتهما آمو وحرصت عليهما بضراوة. شدّتها يقظتها، وجعلتها متشنّجة ومتوترة. كانت سريعة في تأنيب ولديها، لكنها كانت أكثر سرعة في تحمّل الإهانة نيابةً عنهما.

علمت أنه لن يكون هناك فرص أخرى من أجلها. لم يكن هناك سوى أيمينيم الآن. شرفة أمامية وشرفة خلفية. نهر حار ومصنع مخلل.

وفي الخلفية، كان هناك المواء المستمر، العالي، المنتحب للاستنكار المحلي.

خلال الشهور الأولى لعودتها إلى منزل والديها، تعلّمت آمو بسرعة أن تميّز وتحتقر الوجه البشع للشفقة. قريبات إناث عجائز بلحى بازغة وذقون عديدة مرتعشة، قمن برحلات ليلية إلى أيمينيم ليواسينها بشأن طلاقها. ضغطن على ركبتها وحدّقن بها شامتات. قاومت رغبتها بصفعهنّ. أو فتل حلماتهن. بمفتاح ربط العزقات. مثل تشابلن في ***الأوقات الحديثة***.

عندما كانت تنظر إلى نفسها في صور زفافها، شعرت آمو أن المرأة التي نظرت إليها كانت امرأة أخرى. عروساً غبيةً مزينةً بجواهر.

ساريها الحريري الذي لونه بلون الغروب الموّشح بالذهب. خواتم في كل أصبع. نقط بيضاء من خشب الصندل أُلصقت فوق حاجبيها المقوسين. بالنظر إلى نفسها على هذا الشكل، كان فم آمو الناعم الأملس يلتوي في ابتسامة، ابتسامة مرّة بسبب الذكرى ـ ليست ذكرى الزفاف بحدّ ذاته، بقدر حقيقة أنها قد سمحت لنفسها بأن تُزيَّن على نحو مُجهد للغاية قبل أن تُساق إلى المشنقة. بدا الأمر سخيفاً جداً. وعبثياً إلى حد بعيد.

مثل تلميع موقد.

ذهبت إلى صائغ القرية وطلبت أن يُصهر خاتم زواجها الثمين ويُحوّل إلى سوار رفيع برأس أفعى، والذي خبأته من أجل راحيل.

كانت آمو تعلم أن حفلات الزفاف لم تكن شيئاً يسهل تجنّبه تماماً. على الأقل ليس بالكلام بشكل عملي. لكن، ولبقية حياتها، أيّدت حفلات زفاف *بسيطة* بثياب *عادية*. لقد اعتقدت أن ذلك يجعلها أقل شناعة.

عندما كانت آمو تستمع بين الفينة والأخرى إلى أغان تحبها في الراديو، كان شيء ينشط داخلها، توقٌ موجع سائل انتشر تحت جلدها، وانسحبت من العالم مثل ساحرة، إلى أماكن أفضل، وأكثر سعادة. في أيام كهذه، كان هناك شيء متململ، قلق وبريّ فيما يتعلق بها. وكأنها كانت قد وضعت جانباً، إلى حين، أخلاقيات الأمومة والطلاق. حتى مشيتها تغيرت من مشية أم آمنة إلى نوع آخر من المشي البريّ الجامح. كانت تضع وروداً في شعرها وتحمل أسراراً سحرية في عينيها. لم تتكلم مع أحد. وأمضت ساعات على ضفة النهر مع الراديو البلاستيكي الصغير الخاص بها والذي بشكل مندرين. دخّنت السجائر وسبحت في منتصف الليل.

ما الذي كان قد أوصل آمو إلى هذه الحافة الخطرة؟ هذه الحالة من التقلّب؟ لقد كان ما قاومته داخلها. مزيجاً غير قابل للمزج. الرقة اللامتناهية للأمومة والرغبة العارمة المتهورة التي لقاذف قنابل انتحاري. كان هذا ما نما

داخلها، وقادها، آخر الأمر، لأن تحب في الليل، الرجل الذي أحبه ولداها في النهار. لتستعمل في الليل القارب الذي استخدمه ولداها في النهار. القارب الذي جلس عليه إستا، ووجدته راحيل.

في الأيام التي كان الراديو يعزف أغاني آمو، كان الآخرون يحترسون قليلاً منها. لقد أدركوا بطريقة ما أنها تعيش في ظلال منقوصة بين عالمين، تماماً فيما وراء سيطرة نفوذهم. أن المرأة التي كانوا قد لعنوها، لم يتبق لديها إلاّ القليل لتخسره، ولذلك، فمن الممكن أن تكون خطرة. وهكذا، في الأيام التي كان الراديو يعزف أغاني آمو، تجنّبها الناس، قاموا بدورات صغيرة حولها، لأن الجميع اتفقوا على أن من الأفضل **تركها لتكون** فحسب.

في أيام أخرى كان لها غمازات عميقة عندما تبتسم.

كان لها وجه دقيق منحوت، حاجبان مقوسان مثل جناحي نورس محلّق، أنف صغير مستقيم، وبشرة نيّرة بلون البندق. في يوم كانون الأول الذي بلون زرقة السماء ذاك، أفلت شعرها المعقوص الجامح، في خصلات في ريح السيارة. وتألق كتفاها في بلوز ساريها الذي بدون أكمام وكأنهما قد صُقلا بملّمع أكتاف شمعي شديد الفعالية. كانت في بعض الأحيان أجمل امرأة شاهدها إستا وراحيل في حياتهما. وفي أحيان أخرى لم تكن كذلك.

على المقعد الخلفي في البليموث، بين إستا وراحيل، جلست بيبي كوتشاما، الراهبة السابقة وصاحبة منصب الطفلة الخالة الكبرى. بالطريقة التي يكره بها أحياناً تعيس الحظ، من هو تعيس الحظ مثله، كرهت بيبي كوتشاما التوأم. لأنها اعتبرتهما ذوي قدر مشؤوم ولقيطين من دون أب. والأسوأ، أنهما كانا هجينين نصف هندوسيين لن يتزوجهما أي مسيحي سوري يحترم نفسه.

كانت لاذعة معهما جداً ليُدركا أنهما (مثلها هي) يعيشان في منزل أيمينيم على مضض، منزل جدتهما لأمهما، حيث لم يكن لهما الحق في أن يعيشا. اغتاظت بيبي كوتشاما من آمو لأنها رأتها تتنازع مع القدر الذي شعرت، هي، بيبي كوتشاما ذاتها، أنها قبلته بسماحة نفس. قدر امرأة بائسة من دون رجل. بيبي كوتشاما الحزينة، التي بدون الأب موليغان. لقد تدبرت أمرها

عبر السنين بأن تقنع نفسها أن حبها غير المُحقّق للأب موليغان كان عائداً بكلّيته لكبحها وتحفّظها هي وتصميمها هي على أن تفعل الصواب.

أيّدت من القلب وجهة النظر المُعتَقد بها عموماً، أن الفتاة المتزوجة ليس لها مكان في بيت والديها. أما بالنسبة لابنة *مطّلقة* ـ تبعاً لبيبي كوتشاما، ليس لها موقع في أي مكان على الإطلاق. أما بالنسبة لابنة *مطلقة* من زواج حب، حسناً، لم تستطع الكلمات أن تصف الإهانة التي أحست بها بيبي كوتشاما. أما بالنسبة لابنة *مطلقة* من زواج حب *قائم بين مجتمعين* ـ اختارت بيبي كوتشاما أن تبقى صامتة بارتعاد إزاء هذا الموضوع.

كان التوأم صغيرين جداً على فهم كل هذا، وهكذا، أنكرت عليهما بيبي كوتشاما لحظاتهما من السعادة البالغة، عندما يرفع يعسوب أمسكاه، حجرة صغيرة، بقدميه، من راحة أيديهما . أو عندما يكونان قد حصلا على الإذن بتحميم الخنازير، أو عندما يجدان بيضة طازجة من دجاجة. لكنها حسدتهما أكثر من كل شيء، على الراحة التي استدّراها من بعضهما البعض. لقد توقعت منهما نموذج تعاسة وشقاء نوعاً ما. على الأقل.

في طريق العودة من المطار، جلست مارغريت كوتشاما في الأمام مع تشاكو لأنها كانت زوجته في السابق، وجلست صوفي مول بينهما. وانتقلت آمو إلى الخلف.

كان يوجد ترمسا ماء. ماء مغلي لمارغريت كوتشاما وصوفي مول، وماء صنبور للآخرين.

كانت الأمتعة في صندوق السيارة.

فكّرت راحيل أن *صندوق السيارة* كلمة محببة إلى النفس. كلمة أفضل بكثير من على أية حال من *قوي*. *قوي* كانت كلمة رهيبة. مثل اسم قزم. *القوي كوشي أومن* koshy oommen ـ قزم لطيف ودمث من الطبقة الوسطى، يخاف الله، بركبتين واهنتين ومفرق شعر جانبي.

فوق الرف المركّب على سطح البليموث، كانت هناك لوحة إعلانات من خشب رقيق الطبقات بأربعة وجوه وخطوط قصديرية، كُتب عليها من الجهات

الأربع بكتابة متقنة *مخللات ومعلبات الجنة*. وتحت الكتابة كان يوجد زجاجات ملونة من مربى كوكتيل الفواكه ومخلل ليمون حار وزيت صالح للأكل، عليها أوراق كُتب عليها بخط منمّق *مخللات ومعلبات الجنة*. إلى جانب الزجاجات كانت هناك قائمة بجميع منتجات الجنة وراقص كاثاكالي[١] بوجهه الأخضر وتنورته المدوّمة. وعلى امتداد الخط السفلي للدوامة التي بشكل حرف S والتي صنعتها تنورته المنتفخة، كُتب بالتفاف أخذ شكل S ، *أباطرة عالم النكهة* - والذي كان من إسهام الرفيق بيلاي غير المُلتمس. كانت ترجمة حرفية لِـ *روتشي لوكاثيند راجافو*، والتي بدت أقل إثارة للضحك بقليل من *أباطرة عالم النكهة*. لكن، وحيث أن الرفيق بيلاي كان قد طبعها مسبقاً، فإن أحداً لم يطاوعه قلبه أن يطلب منه إعادة الطباعة بأكملها. وهكذا، وعلى نحو غير سار. أصبحت *أباطرة عالم النكهة* ميزة دائمة على ملصقات مخللات الجنة.

قالت آمو أن راقص الكاثاكالي كان سمك الرنكة الأحمر ولا علاقة له بأي شيء. قال تشاكو أنه أعطى المنتجات **نكهة محلية** ستنفعهم كثيراً عندما سيدخلون **سوق ما وراء البحار**.

قالت آمو أن لوحة الإعلانات جعلتهم يبدون سخفاء مضحكين مثل سيرك رحّال. بزعانف ذيلية.

بدأت ماماتشي في صنع المخللات تجارياً بعد أن تقاعد باباتشي من خدمة الدولة في دلهي وجاء ليعيش في أيمينيم بوقت قصير. كانت جمعية كوتاياما الإنجيلية تقيم سوقاً خيرياً وطلبت من ماماتشي أن تصنع إحدى مربياتها الشهيرة

---

(١) - الرقص الكاثاكالي، هو رقص مشهدي دراماتيكي مذهل من المنطقة الجنوبية لكيرالا. يتضمن قصصاً عن أبطال وآلهة وأوغاد وأنصاف آلهة وشياطين، يتطلّب مكياجاً معقداً وأزياء تزينية. تُتلى الأبيات المرافقة من قبل مغّنين في خلفية المسرح، وتُنتج الموسيقى المصاحبة بواسطة صنجات وأجراس وطبول. (المترجمة).

للموز، ومخلل المانغو الطري. نَفَذَتْ بسرعة، ووجدت ماماتشي أنه كان لديها طلبات أكثر مما تستطيع إنجازه. مبتهجةً بنجاحها، قررت أن تواصل عملها في المربيات والمخللات، وسرعان ما وجدت نفسها مشغولة على مدار السنة. باباتشي من طرفه، كان يعاني من مشكلات في التغلّب على خزي التقاعد. كان أكبر من ماماتشي بسبعة عشر عاماً، وقد أدرك بصدمة انه كان رجلاً عجوزاً في الوقت الذي كانت فيه زوجته في ريعان شبابها.

بالرغم من أن ماماتشي كان لديها قرنية مخروطية وكانت قد أصبحت عمياء عملياً، إلا أن باباتشي لم يكن يساعدها في صنع المخلل، لأنه اعتبر ان صنع المخلل لا يليق بموظف حكومي سابق عالي المرتبة. لطالما كان رجلاً غيوراً، ولهذا فقد أنكر بشدة الاهتمام الذي كانت تلقاه زوجته. كان يمشي متهدلاً حول المجمّع، بيذاته المُخاطة على نحو خالٍ من العيوب، راسماً دوائر غاضبة حول أكوام الفلفل الأحمر الحار والكركم الأصفر المسحوق حديثاً، مراقباً ماماتشي وهي تشرف على عمليات شراء ووزن وتمليح وتجفيف الليمون الحامض والمانغا الطرية. كان يضربها كل ليلة بآنية زهور نحاسية. لم يكن الضرب أمراً جديداً، ما كان جديداً هو التكرار الذي كان يحدث به. وفي إحدى الليالي كسر باباتشي قوس كمان ماماتشي ورماه في النهر.

ثم أتى تشاكو من أكسفورد لقضاء عطلة الصيف. كان قد كبر وأصبح رجلاً كبيراً. وكان قوياً في تلك الأيام من مباريات التجديف التي كان يشارك بها لصالح باليول[1]. بعد أسبوع من وصوله، وجد باباتشي يضرب ماماتشي في المكتب. دخل تشاكو الغرفة بخطوات واسعة، قبض على يد باباتشي الممسكة بإناء الزهر ولواها خلف ظهره.

«لا أريد أن يتكرر هذا ثانية». قال لوالده. «أبداً».

جلس باباتشي لبقية ذلك اليوم في الشرفة وحدّق خارجاً نحو الحديقة

(١) - كلية في أكسفورد. (المترجمة).

التزينية بجمود خالٍ من التعبير، متجاهلاً أطباق الطعام التي أحضرتها كوتشو ماريا. في وقت متأخر من الليل دخل مكتبه وأخرج كرسيه الهزاز الماهوغاني المفضّل. وضعه في وسط الممر وحطّمه إلى قطع صغيرة بمفتاح ربط أدوات السمكري. تركه هناك تحت ضوء القمر، كومة من شرائح طولانية مصقولة وخشب متشظٍ. لم يلمس ماماتشي ثانية، لكنه لم يكلّمها أيضاً طوال حياته. عندما كان يحتاج لشيء ما، كان يستخدم كوتشو ماريا وبيبي كوتشاما كوسيطتين.

في الأمسيات، عندما يعلم أن هناك زواراً متوقعين، كان يجلس في الشرفة ويخيط زراً لم يكن مفقوداً من قميصه، ليخلق انطباعاً أن ماماتشي كانت تهمله. وقد نجح إلى درجة نسبية ما في إفساد نظرة أيمينيم أكثر تجاه الزوجات العاملات.

اشترى بليموث زرقاء سماوية من عجوز انكليزي في مانار. وأصبح منظراً مألوفاً في أيمينيم، أن يهبط الطريق الضيق بسيارته العريضة بأنفة، وهو يبدو أنيقاً في الظاهر، لكنه يتصبب عرقاً بشكل كبير داخل بذّاته الصوفية. لم يكن يسمح لماماتشي أو لأي أحد آخر من العائلة باستخدامها، أو حتى بالجلوس فيها. كانت البليموث انتقام باباتشي.

كان باباتشي عالم حشرات امبراطوري في معهد بوسا. بعد الاستقلال، وعندما غادر البريطانيون، تغيّر منصبه من عالم حشرات امبراطوري إلى مدير مشترك في علم الحشرات. وفي السنة التي تقاعد فيها كان قد رُقّي إلى درجة تساوي مركز مدير.

كانت هزيمة حياته الكبرى، هي عدم تمكّنه من إطلاق اسمه على الفراشة التي اكتشفها هو.

لقد سقطت في شرابه ذات مساء بينما كان جالساً في شرفة منزل راحة بعد يوم طويل في الحقل. وعندما التقطها لاحظ الكثافة غير المألوفة لزغبها الظهري. نظر إليها نظرة أقرب، وبإثارة متزايدة أعدّها للفحص وأخذ مقاساتها،

ووضعها في الصباح التالي في الشمس لبضعة ساعات حتى يتبخر الكحول. ثم استقل أول قطار عائداً إلى دلهي. من أجل اهتمام تصنيفي، ومتأملاً بالشهرة. بعد ستة شهور غير محتملة من القلق، ولخيبة باباتشي الشديدة، قيل له أن فراشته قد عُيّنت هويتها أخيراً على أنها نوع غير مألوف قليلاً من أنواع معروفة جداً وتنتمي إلى عائلة الليمانتريداي الاستوائية.

أتت الكارثة الحقيقية بعد اثني عشر عاماً، فكنتيجة لإعادة تعديل تصنيفي جذرية، قرر علماء حشرات قشريات الأجنحة أن فراشة باباتشي ***كانت*** في الواقع نوعاً منفصلاً وجنساً غير معروفٍ للعلم. بحلول ذلك الوقت، بالطبع، كان بابانشي قد تقاعد وانتقل إلى أيمينيم، وكان الأوان قد فات ليؤكد حقه في المطالبة بالاكتشاف. وسميت فراشته باسم **المدير المنفّذ في إدارة علم الحشرات**، وهو موظف ذو مرتبة أدنى لطالما كرهه باباتشي.

وطوال السنين اللاحقة، حُملّت فراشة باباتشي مسؤولية أمزجته السوداء ونوبات انفعاله المفاجئة، بالرغم من أنه كان رديء الطبع سريع الغضب قبل وقت طويل من اكتشافه للفراشة. لازم شبحها الخبيث الرمادي المكسو بالفراء ذو الكثافة غي الاعتيادية لزغبها الظهري كل منزل عاش فيه. عذّبه وعذّب أولاده وأولاد أولاده.

إلى اليوم الذي مات فيه، وحتى في حرارة أيمينيم الخانقة، لبس باباتشي كل يوم بذّته ذات القطع الثلاثة والمكوية جيداً وساعة جيبه الذهبية. على المزينة، إلى جانب عطره وفرشاة شعره الفضية، احتفظ بصورة لنفسه وهو شاب، بشعره المملّس نحو الأسفل، المأخوذة في استوديو تصوير في فيينا، حيث قام بدراسة لمدة ستة أشهر لدبلوم أهلّه ليتقدّم لوظيفة عالم حشرات امبراطوري. أثناء تلك الشهور التي أمضياها في فيينا أخذت ماماتشي دروسها الأولى في الكمان. بُترت هذه الدروس بشكل مفاجيء عندما قام أستاذ ماماتشي لونسكي تيفيينثال بخطأ إبلاغ باباتشي أن زوجته كانت موهوبة بشكل استثنائي وأنها في رأيه تمتلك امتيازاً كامناً لأداء الحفلات الموسيقية.

ألصقت ماماتشي في ألبوم صور العائلة، القصاصة من ***إنديان اكسبرس*** التي نقلت خبر وفاة باباتشي. والتي تقول:

> ***عانى عالم الحشرات الشهير، شري بيغان جون إبي، ابن مؤقر أيمينيم الراحل إبي جون (والمعروف شعبياً بيونيان كونجو)، من نوبة قلبية شديدة وتوفى الليلة الفائتة في مستشفى كوتايام العامة. وكان قد عانى من آلام صدرحوالي ١,٠٥ بعد الظهر ونُقل بسرعة إلى المستشفى. وأتت النهاية في الساعة ٢,٤٥ صباحاً. كانت صحة شري إبي معتدلة للشهور الستة الأخيرة. توفى عن زوجته سوشاما وولدين.***

في جنازة باباتشي، بكت ماماتشي وانزلقت عدساتها اللاصقة هنا وهناك في عينيها. أخبرت آمو التوأم أنها كانت تبكي لأنها اعتادت عليه أكثر من أنها أحبته. كانت قد اعتادت عليه يختل حول مصنع المخلل، واعتادت على ان تُضرب من حين لآخر. قالت آمو أن الكائنات البشرية هي مخلوقات العادة، وأنه لمن المذهل نوعية الأشياء التي يستطيعون الاعتماد عليها. ما عليكما إلاّ النظر حولكما، قالت آمو، لتريا أن الضرب بأواني زهور نحاسية هو أقلّها.

بعد الجنازة، طلبت ماماتشي من راحيل أن تساعدها في تحديد موقع عدساتها اللاصقة وإزالتها بماصة برتقالية أتت مع علبتها الخاصة. سألت راحيل ماماتشي، فيما إذا كان بمقدورها أن ترث الماصة بعد موت ماماتشي. أخرجتها آمو من الغرفة وصفعتها.

«لا أريد أبداً أن أسمعك تناقشين مع الناس موتهم مرة أخرى.» قالت.

قال إستا أنها كانت تستحق ذلك لأنها كانت دون إحساس مطلقاً.

أُعيد تأطير صورة باباتشي المأخوذة في فيينا، والتي يبدو فيها بشعره المملّس نحو الأسفل، ووضعت عالياً في غرفة الاستقبال.

كان رجلاً تليق به الصور، أنيقاً ومهتماً بنفسه، برأس رجل ضخم قليلاً. كان لديه ذقن ثانية ابتدائية من شأنها أن تتوضح إن هو نظر نحو الأسفل أو أحنى رأسه. في الصورة، كان قد اهتم بإبقاء رأسه عالياً كفاية ليخفي ذقنه المزدوجة، ومع ذلك ليس عالياً جداً بحيث يبدو متغطرساً. كانت عيناه البنيتان

الفاتحتان مهذبتين، لكن شريرتين، وكأنه كان يقوم بجهد ليبدو متمدّناً أمام المصور. بينما هو يخطط لقتل زوجته. كانت لديه كتلة لحمية صغيرة في وسط شفته العلوية سقطت فوق شفته السفلية بنوع من التجّهم المتخنث ـ ذلك النوع الذي يظهر عند الأطفال الذين يمصون ابهامهم. وكان لديه غمازة متطاولة في ذقنه، والتي تفيد في تأكيد تهديد العنف الهوسي الجنوني المستور. نوع من الوحشية المكبوحة. كان يلبس سروال ركوب خيل كاكياً بالرغم من أنه لم يركب خيلاً في حياته. عكس حذاء الركوب خاصته أضواء استوديو التصوير وتوّضع سوط ركوب قصير ذو مقبض عاجي برشاقة فوق حجره.

كان للصورة هدوء حذر، أضفت قشعريرة ضمنية على الغرفة الدافئة التي علّقت فيها.

عندما توفى، ترك باباتشي صناديق ثياب مليئة ببذات غالية، وعلب شوكولاتة مملوءة بأزرار لربط أكمام القمصان، والتي وزّعها تشاكو على سائقي سيارات الأجرة في كوتايام. حيث فُصلت وصُنّع منها خواتم وأقراط وقلادات لمهور البنات غير المتزوجات.

عندما سأل التوأم عمّا كان الغرض من أزرار أكمام القمصان[1] هذه ـ «لربط الأكمام مع بعضها»، أخبرتهما آمو ـ كانا مهتزين طرباً من مقدار المنطق الصغير هذا في ما كان حتى الآن لغة غير منطقية. ***أكمام*** + ***ربط***= ***ربط الأكمام***. بالنسبة لهما كان هذا يضاهي الدقة والمنطق اللذين للرياضيات. لقد منحتهما ***ربط الأكمام*** رضى جامحاً (إذا كنا لنبالغ)، وولعاً حقيقياً باللغة الانكليزية.

قالت آمو أن باباتشي كان مصاباً بداء ت. ت. ب البريطانية، والتي كانت اختصاراً لـِ *تشي تشي بوتش* في الهندية، وتعني ممسحة الخراء.

قال تشاكو أن الكلمة المناسبة لأشخاص مثل باباتشي كانت *المحب*

---

(١) ـ الجملة بالانكليزية، وهما يتكلمان الهندية. (المترجمة).

لانكلترة والانكليز. وجعل راحيل وإستا يبحثان عن ***المحب لانكلترة والانكليز*** في القاموس الموسوعي الكبير لريدرز دايجست. كانت تعني ***شخص مَيَّال للانكليز***. ثم كان على إستا وراحيل البحث عن معنى ***مَيَّال***[1].

كانت تعني:

١ ـ *يرتب على نحوٍ ملائم في نظام خاص.*

٢ ـ *يجعل العقل في حالة معينة.*

٣ ـ *يتصرف بِ، يصرف عن، يهّدم، ينهي، يستقر، يلتهم (طعامًا)، يقتل، يبيع.*

قال تشاكو أنه في حالة باباتشي كانت تعني الحالة (٢) *يجعل العقل في حالة معينة*. والتي قال تشاكو أنها تعني أن باباتشي كان قد دُفع إلى وضع جعله يهوى الانكليز.

أخبر تشاكو التوأم انه وبالرغم من أنه يكره الإعتراف بذلك إلاّ أنهم كانوا جميعاً محبين للانكليز. كانوا *عائلة* من محبي الانكليز. موّجهين في الاتجاه الخاطىء، واقعين في شرك خارج تاريخهم الخاص، وغير قادرين على استعادة خطاهم لأن آثار خطاهم قد مُسحت. شرح لهما أن التاريخ مثل بيت قديم في الليل. حيث المصابيح مضاءة بأكملها، والأجداد يهمسون في الداخل.

«من أجل فهم التاريخ» قال تشاكو «علينا أن ندخل ونصغي إلى ما يقولونه. وأن ننظر في الكتب والصور التي على الجدران. وان نشم الروائح».

لم يكن لدى إستا وراحيل أي شك بأن البيت الذي قصده تشاكو كان البيت الواقع على الضفة الأخرى من النهر؛ وسط مزرعة مطاط مهجورة، حيث لم يذهبا أبداً. منزل كاري سايبو. **الصاحب**[2] **الأسود**. الانكليزي الذي

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة كلمة لها معانٍ عدة بالانكليزية، أما هنا فقد ذُكرت الكلمة المناسبة المقابلة بالعربية. (المترجمة).

(٢) ـ Sahib: الصاحب: لقب بمعنى سيد يخاطب به الهنود شخصاً أوروبياً. (المترجمة).

«أصبح ابن بلد». الذي تكلم بالمالايالام ولبس الموندوس. الكورتز الخاص بأيمينيم. أيمينيم **قلب ظلماته السري**. لقد أطلق النار على رأسه. منذ عشر سنوات عندما أخذ والدا حبيبه، الصبي منه وأرسلاه إلى المدرسة. بعد الانتحار، أصبحت الممتلكات موضوع خصومة قضائية شديدة بين طباخ كاري سايبو وسكرتيره. بقي المنزل فارغاً بضع سنين. قلة قليلة من الناس رأته. لكن التوأم استطاعا تخيّله.

بيت التاريخ.

بأرضيات حجرية باردة وجدران معتمة وظلال بشكل سفن. حيث تعيش سحليات ضخمة نصف شفافة خلف صور قديمة، وأسلاف شمعيون متفسخون ذوو أظافر أقدام قاسية وأنفاس برائحة الخرائط الصفراء تثرثر في همس ورقي صافر.

«لكننا لا نستطيع الدخول» أوضح تشاكو «لأننا قد حُجزنا في الخارج، وإذا ما نظرنا من خلال النوافذ، فإن كل ما نراه هو الظلال. وعندما نحاول أن نصغي، فإن كل ما نسمعه هو الهمس. ونحن لا نستطيع فهم الهمس، لأن عقولنا اجتيحت بحرب. حرب ربحناها وخسرناها. حرب هي الأسوأ على الإطلاق بين كل الحروب. حرب استولت على أحلامنا، وحلمت بها من جديد. حرب جعلتنا نعبد غزاتنا ونكره أنفسنا».

«إن *الزواج* من غزاتنا هو أمر أشبه به» قالت آمو بجفاف مشيرة إلى مارغريت كوتشاما. تجاهلها تشاكو. وجعل التوأم يبحثان عن كلمة *يزدري*. كانت تعني: *يحتقر*، *يتفحص باحتقار*، *يهزأ بازدراء*.

قال تشاكو أنه في سياق الحرب التي كان يتكلم عنها ـ حرب الأحلام ـ فإن *يزدري* كانت تعني كل هذه الأمور.

«نحن سجناء الحرب» قال تشاكو «لقد تم التلاعب بأحلامنا. نحن لا ننتمي إلى أي مكان. نحن نبحر دون رسو في بحار متلاطمة. وقد لا يُسمح لنا أبداً بالتوجه إلى شاطىء. أشجاننا لن تكون حزينة كفاية. أفراحنا لن تكون

سعيدة كفاية. أحلامنا لن تكون كبيرة كفاية. وحيواتنا لن تكون مهمة كفاية. لتؤثر».

ثم، ومن أجل إعطاء إستا وراحيل حسّاً بالمنظور التاريخي (بالرغم من ان المنظور كان شيئاً سيفتقده تشاكو ذاته بألم، في الأسابيع التالية)، أخبرهما عن **المرأة الأرض**. جعلهما يتخيلان أن الأرض ـ ذات الأربعة آلاف وستة مئة مليون عاماً ـ كانت إمرأة في السادسة والأربعين من عمرها ـ أي، بعمر المعلمة ألياما، التي كانت تعطيهما دروس المالايالام. لقد استغرق كامل حياة **المرأة الأرض** لتصبح الأرض ما آلت إليه. من أجل ان تنفصل المحيطات. ومن أجل أن تبزغ الجبال. كانت **المرأة الأرض** في الحادية عشرة من عمرها، قال تشاكو، عندما ظهرت الكائنات الحية الأولى ذات الخلية الواحدة. أما الحيوانات الأولى، المخلوقات من مثل الديدان والأسماك الهلامية، فلم تظهر إلاّ عندما كانت في الأربعين من عمرها. وكانت في الخامسة والأربعين من عمرها، أي منذ ثمانية أشهر فقط، عندما كانت الديناصورات تجوب الأرض.

«الحياة الإنسانية بأكملها كما نعرفها» قال تشاكو للتوأم «لم تبدأ إلاّ منذ **ساعتين** فقط من حياة **المرأة الأرض**. الوقت الذي يستغرقنا لنقود من أيمينيم إلى كوتشين».

لقد كانت فكرة ملهمة مهيبة ومذّلة، قال تشاكو، فكرت راحيل أن *مذلة* هي كلمة لطيفة، *التذلل قدمّا دون عناية في العالم*، إن التاريخ المعاصر بأكمله، **الحروب العالمية، حرب الأحلام، الإنسان والقمر**، العلم، الأدب، الفلسفة، السعي وراء المعرفة ـ لم يكن سوى ومضة في عيني **المرأة الأرض**.

«ونحن، يا عزيزيّ، كل ما نحن عليه، وكل ما سنكونه يوماً ـ غمضة في عينيها فحسب». قال تشاكو بتفخيم، مستلقياً على سريره، محدقاً في السقف.

عندما يكون في مزاج من هذا النوع، كان تشاكو يستشهد **بقراءاته** بصوت عالٍ. كان لغرفته جو كنيسة. لم يكن ليهتم فيما إذا كان أحد يستمع إليه أم لا. وإذا كانوا يستمعون إليه، لم يكن يهتم فيما إذا كانوا يفهمون ما يقوله. أسمتهم آمو أمزجة أكسفورد.

فيما بعد، في ضوء كل ما حدث، بدت *ومضة* كلمة خاطئة تماماً في

وصف التعبير في عين **المرأة الأرض**. كانت ومضة كلمة بحواف مجعّدة سعيدة.

بالرغم من ان **المرأة الأرض** كان لها وقْع مستديم على التوأم، لكن **بيت التاريخ** ـ أقرب بكثير من متناولهما ـ كان هو الذي فتنهما حقاً. فكرا به مراراً. المنزل الواقع على الضفة الأخرى من النهر.

يلوح **قلب الظلمات**.

منزل لا يستطيعان دخوله، مليء بهمس لا يستطيعان فهمه.

لم يعرفا عندها، انهما قريباً سيدخلان، أنهما سيعبران النهر، ويكونان حيث لا يُفترض بهما أن يكونا، مع رجل لم يكن بالمفترض بهما أن يحبّاه. أنهما سيراقبان بعينين باتساع طبق عشاء، بينما يكشف التاريخ ذاته لهما في الشرفة الخلفية.

في الوقت الذي كان اطفال آخرون في عمرهما يتعلمون أموراً أخرى، تعلّم إستا وراحيل كيف يتداول التاريخ مصطلحاته ويجبي ديونه من أولئك الذين يحطمون قوانينه. سمعا صوت ضربه المقزز. شمّا رائحته ولم ينسياها أبداً.

رائحة التاريخ.

مثل رائحة أزهار قديمة محمولة بنسيم.

سيكمن للأبد في أشياء عادية. في مشاجب المعطف. في الطماطم. في القطران على الطرقات. في ألوان محددة. في أطباق المطاعم. في غياب الكلمات. وفي خواء الأعين.

سيكبران متشبثين بطرق للتعايش مع ما حدث. سيحاولان أن يقولا لنفسيهما أنه كان حدثاً تافهاً في لغة الزمن الجيولوجي. فقط ومضة في عين **المرأة الأرض**. أن **أسوأ الأمور** قد حدثت. أن **أسوأ الأمور** استمرت في الحدوث. لكنهما لن يجدا الراحة في التفكير.

قال تشاكو ان الذهاب لرؤية ***صوت الموسيقى*** كان تمريناً موسعاً في حب

الانكليز.

قالت آمو «اوه هيا، إن العالم بأكمله يذهب لرؤية *صوت الموسيقى*، إنه صرعة العالم».

«ومع ذلك يا عزيزتي» قال تشاكو بصوته العالي الخاص بالقراءة «و. مع. ذلك» .

كانت ماماتشي غالباً ما تقول ان تشاكو كان بيسر أحد أذكى رجال في الهند. «بحسب من ؟» كانت آمو تسأل «استناداً على *أية* أسس؟» كانت ماماتشي تحب أن تروي قصة (قصة تشاكو) كيف أن أحد المدرسين في أكسفورد قال أنه في رأيه أن تشاكو كان ذكياً لامعاً ومصنوعاً من مادة رؤساء الوزراء.

بالنسبة لهذا كانت آمو تقول دوماً «ها، ها، ها» مثلما يفعل الناس في المسرحيات الكوميدية.

كانت تقول:

أ ـ الذهاب إلى أكسفورد لا يجعل بالضرورة الشخص ذكياً.

ب ـ الذكاء لا يجعل بالضرورة رئيس وزراء جيداً.

جـ ـ إذا كان الشخص لا يستطيع حتى ان يدير مصنع مخلل بشكل مربح، فكيف سيكون ذلك الشخص قادراً على أن يدير بلداً بأكمله؟

والأكثر أهمية من كل هذا:

د ـ جميع الأمهات الهنديات مهووسات بأبنائهن ولذلك فهن لا يملكن مقدرة الحكم على إمكانياتهم.

وكان تشاكو يقول:

أ ـ أنت لا *تذهب* إلى اكسفورد، انت *تدرس* في اكسفورد.

ب ـ بعد *الدراسة* في أكسفورد، أنت *تتخرج*(١).

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة كلمة تعني (تسقط) أيضاً. (المترجمة).

«هل تعني سقوطاً نحو الأرض ؟» كانت آمو تقول «هذا ما تفعله بالتأكيد. مثل طائراتك الشهيرة».

كانت آمو تقول أن القدر المحزن ولكن المُتنبأ به تماماً لطائرات تشاكو، كان مقياساً نزيهاً لامكانياته.

مرة في الشهر (عدا أثناء الرياح الموسمية)، كان يصل لتشاكو طرد بريدي. يتضمن صندوق عدة لنموذج طيراني من خشب البالسا. كان تشاكو يستغرق من ثمانية إلى عشرة أيام لتجميع الطائرة بخزان وقودها الصغير والدافع المزوّد بمحرك. وعندما تجهز، يأخذ إستا وراحيل إلى حقول الأرز في ناتاكوم ليساعداه في تطييرها. لم تطر أي منها اكثر من دقيقة. شهراً بعد شهر كان تشاكو يركّب بعناية الطائرات المحطمة في حقول الأرز الموحلة، التي كان إستا وراحيل ينتشران فيها مثل كلاب صيد مدّربة لإنقاذ البقايا.

ذيل. خزان. جناح.

آلة جريحة.

كانت غرفة تشاكو مليئة بفوضى طائرات محطمة. وفي كل شهر كان يصل صندوق عدة آخر. لم يلق تشاكو أبداً بلائمة التحطمات على صندوق العدة.

بعد وفاة باباتشي، استقال تشاكو من عمله كمحاضر في كلية مادراس المسيحية، وأتى إلى أيمينيم بمجداف باليول وأحلامه المخللية البارونية. استبدل معاشاته ورأسمالاً احتياطياً ليشتري آلة لإغلاق الزجاجات من نوع بهارات[1]. وتعلّق مجدافه (مع أسماء رفاق فريقه منقوشة بالذهب) من كلاّبات حديدية على جدار المعمل.

---

(١) - Bharat= بهارات: نوع من الرقص التقليدي الهندي. (المترجمة).

حتى الوقت الذي وصل فيه تشاكو، كان المعمل عبارة عن مشروع صغير لكنه مربح. أدارته ماماتشي تماماً كما تدير مطبخاً كبيراً. سجلّه تشاكو على أساس شراكة وأخبر ماماتشي أنها كانت الشريك النائم. أنفق على المعدّات (آلات تعليب، مراجل، أفران طبخ) وعلى توسيع القوة العاملة. وعلى الفور تقريباً، بدأ الانزلاق المالي، لكنه دُعم على نحو اصطناعي بقروض مصرفية باهظة، والتي رفعها تشاكو عن طريق رهن حقول أرز العائلة المحيطة بمنزل أيمينيم. بالرغم من أن آمو عملت في المعمل تماماً كتشاكو، لكنه وكلما كان يتعامل مع مراقبي الطعام، أو مهندسي الصحة، كان يشير دوماً إليه بوصفه معملي، *أناناساتي*، مخللاتي. كان الوضع على هذا الشكل قانونياً، لأن آمو، كإبنة، لم يكن لها حق المطالبة بالملكية.

أخبر تشاكو راحيل وإستا بان آمو لم يكن لديها **حق في الملكية.**

كانت آمو تقول «شكراً لمجتمعنا الشوفيني الذكوري الرائع».

وكان تشاكو يقول «ما هو لك، لي، وما هو لي، لي، أيضاً».

كانت له ضحكة عالية بشكل يدعو للإستغراب بالنسبة لرجل في حجمه وسمنته. وعندما يضحك، كان يهتز بكامله دون ان يبدو أنه يتحرك.

إلى حين وصول تشاكو إلى ايمينيم، كان مصنع ماماتشي دون اسم. وكان الجميع يشير إلى مخللاتها ومربياتها **بمانغو سوشا الطري، ومربى الموز الخاص بسوشا.** كان سوشا اسم ماماتشي الأول. سوشاما.

لقد كان تشاكو من عمّد مخللات الجنة ومعلباتها وقام بتصميم اللصاقات وطبعها في مطبعة الرفيق ك. م. بيلاي. أراد في البدء تسميته مخللات ومعلبات زيوس، لكن تلك الفكرة رُفضت لأن الجميع قال أن زيوس كان مبهماً جداً وليس له أية صلة محلية، في حين أن الجنة لها صلة محلية. (اقتراح الرفيق بيلاي - مخللات باراشورام[1] - رُفض للسبب المعاكس: محليٌّ *جدًا*).

(١) - باراشورام: التجسيد السادس من التجسدات العشرة للإله الهندوسي فيشنو. (المترجمة)

لقد كانت فكرة تشاكو أن تُدهن وتُركّب لوحة إعلانات فوق محمل سقف البليموث.

وفي الطريق إلى كوتشين، الآن، جلجلت.

وكان عليهم التوقف بالقرب من فايكوم لشراء حبال لتوثيقها بشكل محكم أكثر. أخّرهم هذا حوالي عشرين دقيقة. بدأت راحيل تقلق بشأن تأخرها على *صوت الموسيقى*.

ثم، وبينما أخذوا يقتربون من ضواحي كوتشين، انخفضت الذراع الحمراء والبيضاء لبوابة تقاطع السكة الحديدية. علمت راحيل ان هذا قد حدث لأنها أملت ألاّ يحدث.

لم تكن قد تعلمت أن تتحكم **بآمالها**. قال إستا ان ذلك كان **نذير شؤم**.

إذاً، كانا سيفوتان بداية الفيلم الآن. عندما تبزغ جولي اندروز كبقعة على التل ثم تكبر وتكبر إلى أن تنبثق على الشاشة بصوتها الذي كماء بارد ونَفَسها الذي كنعنع فلفلي.

اللافتة الحمراء على الذراع البيضاء كانت تقول **قف** بالأبيض.

«**فق**»[1] قالت راحيل.

ولوحة صفراء كُتب عليها: كن هندياً، اشترِ بضاعة هندية.

«**تيدنه تعاضب رتشا، ايدنه نك**»[2] قال إستا.

كان التوأم مبكريّ النضوج بقراءتهما. كانا قد تسابقا من خلال *الكلب العجوز توم*، *جانيت وجون*، وخلال دفتر وظائفهما *رونالد ريداوت*. وفي الليل كانت آمو تقرأ لهما من *كتاب أدغال كيبلنغ*.

---

(١) - مقلوب قف. (المترجمة).

(٢) - مقلوب العبارة «كن هندياً، اشتر بضاعة هندية». (المترجمة).

الآن يجلب الصقر تشيل إلى المنزل الليل

الذي أطلقه الخفاش مانغ..

كان الزغب على ذراعيهما يقف حتى نهايته، ذهبياً في ضوء مصباح السرير الجانبي. وبينما كانت آمو تقرأ، كانت تستطيع جعل صوتها أجشاً مثل صوت شيرخان، أو منتحباً مثل صوت تاباكي.

«*أنت اختر وانت لا تختر، ما هذا الكلام عن الاختيار؟ أقسم بالثور الذي قتلته، هل أنا من يقف ليتشمم في وكر كلبك من اجل حقي المشروع؟ إنه أنا شيرخان من يتكلم!*»

«*وإنه أنا، راشكا (الجني) من يجيب*». يصرخ التوأم بصوتين عاليين. ليس سوية. لكن تقريباً.

«*جرو الإنسان لانغري هذا هو لي ـ لي أنا! سوف لن يُقتل*. سيعيش *ليركض مع المجموعة وليصطاد مع المجموعة؛ وفي النهاية، انظر أنت يا صياد الجراء الصغيرة العارية ـ يا آكل الضفادع ـ يا قاتل الأسماك ـ سيصطادك أنت!*»

بيبي كوتشاما التي كانت قد أوكلت إليها مهمة تعليمهما الرسمي، كانت قد قرأت لهما رواية ***العاصفة***، مختصرة من قبل تشارلز وماري لامب.

«*أينما تمتص النحلة، أمتص أنا*» ويجيب إستا وراحيل قائلين «*في جرس زهرة الربيع، أضطجع*».

وهكذا، وعندما أعطت صديقة بيبي كوتشاما المبشّرة الاسترالية الانسة ميتين، إستا وراحيل كتاب أطفال ـ *مغامرات سوزي سكويرل* ـ كهدية عندما كانت تزور أيمينيم، أحسّا بإهانة عميقة. قرآه في البداية قدماً. الآنسة ميتين التي تنتمي إلى طائفة المسيحيين المولودين ثانية، قالت أن أملها قد خاب قليلاً بهما عندما قرآه لها بصوت عالٍ، على نحو عكسي.

«تارماغم يزوس لريوكس. يف دحأ تاحابص عيبرلا تظقيتسا يزوس

لريو كس»[1].

أوضحا للآنسة ميتين كيف انه من الممكن قراءة *مالا يالام*، *ومدام، أنا آدم*، بشكل عكسي وأمامي[2]. لم يسلّيها هذا وتبينّ أنها لم تكن تعلم حتى ما هي مالايالام. قالا لها أنها اللغة التي يتكلم بها الجميع في كيرالا. لكنها قالت أنه كان لديها الانطباع بأنها تُدعى الكيرالية. إستا الذي كان قد اتخذ حينذاك موقف كراهية فعلية تجاه الآنسة ميتين، قال لها أنه بمقدار ما كان الأمر يعنيه، فإنه انطباع غبي للغاية.

اشتكت الآنسة ميتين لبيبي كوتشاما بشأن وقاحة إستا، وبشان قراءتهما العكسية. وأخبرت بيبي كوتشاما أنه قد رأت ابليس في عينيهما. *سليبا يف امهينيع*[3].

أُجبرا على كتابة *لن نقرأ بشكل عكسي في المستقبل. لن نقرأ بشكل عكسي في المستقبل*. مئة مرة. قُدماً.

قُتلت الآنسة ميتين بعد أشهر قليلة بشاحنة حليب في هوبارت، عبر الطريق من ملعب الكريكت البيضوي. بالنسبة للتوأم، كان هناك عدالة خفية في ان الشاحنة كانت *تسير بشكل عكسي*.

توقفت باصات وسيارات أخرى على جانبي التقاطع. سيارة إسعاف كُتب عليها مستشفى *القلب المقدس* كانت مليئة بجماعة من الناس في طريقهم إلى حفلة زفاف. كانت العروس تحدق من النافذة الخلفية، محُجب وجهها، بشكل جزئي، بالدهان المتقشّر للصليب الأحمر الضخم.

جميع الباصات كانت تحمل أسماء فتيات. لوسي كاتي، مولي كاتي،

---

(١) - مقلوب: مغامرات سوزي سكويرل، في أحد صباحات الربيع، استيقظت سوزي سكويرل. (المترجمة).

(٢) - Malayalam - Madam, I m Adam (المترجمة).

(٣) - مقلوب: ابليس في عينيهما. (المترجمة).

بينا مول. في المالايالام، تعني مول، بنت صغيرة، ومون، صبي صغير. كان بينا مول مكتظاً بحجاج حلقوا رؤوسهم عند تيروباتي[1]. استطاعت راحيل أن ترى صفاً من الرؤوس الحليقة فوق خطوط قيء متباعدة بانتظام. كانت أكثر من فضولية بعض الشيء بشأن التقيؤ. لم تكن قد تقيأت أبداً. ولو لمرة واحدة. إستا كان قد تقيأ، وعندما كان يتقيأ كان جلده يسخن ويشّع، وعيناه تصبحان عاجزتين وجميلتين، وآمو تحبه أكثر من المعتاد. كان تشاكو يقول أن إستا وراحيل كانا بصحة جيدة على نحو مشين. وكذلك صوفي مول. ويقول أن السبب في ذلك يعود إلى أنهم لم يولدوا من زيجات داخلية مثل معظم السوريين المسيحيين. والبارسيين[2].

ماماتشي كانت تقول أن أحفادها يعانون من شيء أسوأ بكثير من الزيجات الداخلية. وكانت تعني أن لهم والدين مطلقين. وكأن هذين، كانا، الخيارين الوحيدين المتاحين للناس: الزيجات الداخلية أو الطلاق.

لم تكن راحيل متأكدة مما كانت تعاني، لكنها تدرّبت بين الفينة والأخرى على وجوه حزينة، وعلى التنهّد طويلاً أمام المرآة.

«إن ما أفعله أفضل بكثير، بكثير، من كل ما فعلته في حياتي». كانت تقول لنفسها بحزن. تلك كانت راحيل وهي سيدني كارتون، وهي تشارلز دارني، عندما وقف على الدرجات منتظراً إعدامه بالمقصلة، في النسخة الكلاسيكية المزوّدة بالرسوم التوضيحية لـ*قصة مدينتين*.

تساءلت مالذي دفع بالحجاج الحليقين لأن يتقيأوا على هذا النحو المنتظم، وفيما إذا كانوا قد تقيأوا في حركة واحدة منسقة جداً (مع الموسيقى ربما، مع ايقاع زمور الباص)، أم بشكل منفصل، كل فرد على حدة.

في البدء، عندما كان قاطع العبور قد أُغلق للتو، كان الجو مشحوناً

---

(١) - تيروباتي: المكان الذي ولد فيه الفيلسوف الهندوسي رامانوجا. وتُدعى الآن ولاية تاميل نادو، وتقع في جنوب الهند. (المترجمة).

(٢) - زدراشتي متحدّر من الفرس اللاجئين المقيمين في الهند. (المترجمة).

بأصوات نافذة الصبر لمحركات متسكعة. لكن عندما خرج الرجل الذي يدير التقاطع من كشكه، على رجليه المقوستين إلى الوراء وأومأ بمشيته العرجاء الخفاقة إلى كشك الشاي الذي كانوا ينتظرون فيه طويلاً، أطفأ السائقون محركاتهم واستداروا، ومددوا أرجلهم.

بإيماءة طائشة من رأسه الضجر والنعس، استحضر إله تقاطع السكة الحديدية أرواح المتسولين بضماداتهم، رجالاً مع صوانٍ يبيعون جوز هند طازجاً، وباريبو فاداس على أوراق موز. ومشروبات باردة، كوكا كولا، فانتا، وروز ميلك.

تسوّل شحاذ ذو عصابة متصلّبة عند نافذة السيارة.

«ذلك يبدو لي كالميكروكروم» قالت آمو، عن دمه الزاهي بشكل مبالغ فيه.

«تهانينا» قال تشاكو. «تتكلمين كإمرأة برجوازية حقيقية».

ابتسمت آمو وتصافحا، وكأنها كانت حقاً تُمنح جائزة الاستحقاق لكونها برجوازية مخلصة ـ لِـ ـ صلاح البرجوازية الأصيلة. لحظات كهذه، ادخرها التوأم ونظماها مثل خرزة ثمينة في عقد (هزيل إلى حد ما).

سحق راحيل وإستا أنفيهما على نافذة البليموث الربعية. تائقين لحلوى الخطمي التي يحملها اطفال غامضون خلفهما. قالت آمو «لا» بحزم، وبإدانة.

أشعل تشاكو تشارمينار[1]. أخذ نفساً بعمق وأزال رقاقة صغيرة من التبغ بقيت على لسانه.

داخل البليموث، لم يكن من السهل بالنسبة لراحيل أن ترى إستا، لأن بيبي كوتشاما برزت بينهما مثل هضبة. كانت آمو قد أصرّت على أن يجلسا بشكل منفصل لمنعهما من الشجار. عندما كانا يتشاجران كان إستا يدعو راحيل **بحشرة مصاصة لاجثة**، وتدعوه راحيل بـ**إلفيس البيلفيس** وتقوم برقصة

---

(١) ـ نوع من السيجار. (المترجمة).

تويست مضحكة تُخنق إستا. وعندما كانا يقتتلان قتالاً جسدياً، كانا متكافئين بشكل مماثل بحيث ان العراك كان يستمر إلى الأبد، والأشياء التي تكون في طريقهما ـ مصابيح منضدة، منافض سيكارة، وأباريق ماء ـ تتحطم، أو تخرب بشكل لا يمكن إصلاحه.

كانت بيبي كوتشاما تُمسك بظهر المقعد الأمامي بذراعيها. وعندما كانت السيارة تتحرك، كانت شحمة ذراعها تتأرجح مثل غسيل ثقيل في الريح. إنها تتدلى الآن مثل ستارة لحمية، حاجبة إستا عن راحيل.

في جانب إستا من الطريق، كان يقع كشك الشاي الذي يبيع شاياً وبسكويت غلوكوز سيء المذاق في علب زجاجية معتمة مع ذباب. وكانت هناك صودا ليمون في زجاجات سميكة ذات سدادة مرمرية للحفاظ على الغاز في الداخل. وعلب ثلج حمراء كُتب عليها بشكل حزين نوعاً ما: *تغدو الأمور أفضل مع كوكا كولا*.

جلس موروليدهاران، مجنون تقاطع السكة الحديدية، القرفصاء ومتوازناً تماماً على المَعْلَم. تدلّت خصيتاه وقضيبه نحو الأسفل، دالّين إلى الشارة التي تقول:

كوتشين

كان موروليدهاران عارياً إلاّ من كيس بلاستيكي طويل كان أحدهما قد ثّبته على رأسه مثل قبعة طاهٍ شفافة، والتي استمر المنظر الطبيعي خلالها ـ باهتاً وبشكل قبعة طاهٍ، لكنه متواصل. لم يكن باستطاعته أن ينزع قبعته حتى لو أراد ذلك، لأنه لم يكن يملك ذراعين. كانتا قد بُترتا في سينغافورة في الـ ٤٢،خلال الأسبوع الأول لهروبه من الوطن لينضم إلى القوات المسلحة المقاتلة للجيش الوطني الهندي. بعد الاستقلال سجّل نفسه بوصفه مناضل حرية من الدرجة الأولى، وخصّص له تذكرة قطار مجانية ومن الدرجة الأولى مدى الحياة. هذه أيضاً كان قد أضاعها (كما أضاع عقله)، وهكذا لم يعد باستطاعته أن يعيش

في القطارات أو في غرف وجبات الطعام السريعة لمحطات السكة الحديدية. لم يكن لدى موورليدهاران منزل، ولا أبواب كي تُقفل، لكن مفاتيحه القديمة كانت مربوطة بعناية حول خصره. في حزمة متألقة. كان عقله مليئاً بخزائن فوضوية من المتع السرية.

ساعة منبه. سيارة حمراء بزمور موسيقي. موسيقى. كوب احمر للحمام. زوجة تتزين بالألماس. حقيبة بأوراق سرية. عودة إلى المنزل بعد العمل. و *أنا آسف كولونيل سابهاباتي، لكني أخشى أنني قد قلت ما أريد*. ورقاقات هشة من الموز للأطفال.

راقب القطارات تأتي وتذهب. وأحصى مفاتيحه.

راقب الحكومات تتشكّل وتسقط. وأحصى مفاتيحه.

راقب أطفالاً غائمين وراء نوافذ سيارات بأنوف تتحرّق على حلوى الخطمي.

المشرودون، العاجزون المقهورون، المرضى، الصغار والتائهون، جميعهم مرّوا بنافذته مسجّلين محفوظين. ومازال يحصي مفاتيحه.

لم يكن متأكداً أبداً أية خزانة قد يتحتم عليه فتحها، أو متى. جلس على المَعلَم الحارق بشعره الأشعث وعينيه اللتين كنافذتين، وكان سعيداً بمقدرته على النظر بعيداً أحياناً. وبامتلاكه لمفاتيحه كي يحصيها ويتحقق من إحصائها ثانية.

الأرقام قد تفي بالغرض.

الخدر سيكون فعالاً.

كان موورليدهاران يحرك فمه وهو يعدّ، ويصوغ كلمات جيدة الديباجة.

أونر

راندر

مونر

لاحظ إستا ان شعر رأسه كان رمادياً، وان شعر إبطيه اللذين دون ذراعين، واللذين تعصف بهما الريح، كان خصلاً سوداء، وأن شعر عانته كان

أسود ورطباً. رجل واحد بثلاثة انواع من الشعر. تساءل إستا كيف من الممكن لذلك أن يحدث. حاول أن يتفكّر فيمن يسأله.

شحن الانتظار راحيل حتى باتت على وشك أن تنفجر. نظرت إلى ساعتها. كانت الثانية إلاّ عشر دقائق. فكرّت في جولي أندروز وكريستوفر بلامر وهما يقبّلان بعضهما البعض جانبياً كي لا يتصادم أنفاهما. تساءلت فيما إذا كان الناس يقبلّون بعضهم البعض جانبياً على الدوام. حاولت ان تتفكّر فيمن تسأله.

ثم، ومن بعد، اقتربت همهمة من السير المعوق وغطته كعباءة. السائقون الذين كانوا يمددون أرجلهم، عادوا داخل عرباتهم وصفقوا الأبواب. اختفى المتسولون والبائعون. وخلال دقائق لم يبق أحد على الطريق. عدا موروليدهاران. جاثماً بمؤخرته على المَعْلَم المحرق. غير مبلبل، وإنما فضولياً باعتدال فحسب.

وكان هناك تدافع وهرج ومرج. وصفارات شرطة.

ومن وراء خط المرور المنتظر والمقترب، ظهر رتل من الرجال بأعلام حمراء ورايات يصدرون همهمة ما فتئت تتعاظم وتتعاظم.

«ارفعوا زجاج نوافذكم»، قال تشاكو. «وابقوا هادئين، لن يؤذوننا».

«لماذا لا تنضم إليهم يا رفيق ؟» قالت آمو «سأقود أنا».

لم يقل تشاكو شيئاً. توترت عضلة تحت كتلة الشحم في فكه. قذف بعيداً بسيجارته ورفع زجاج نافذته.

كان تشاكو ماركسياً على طريقته. يدعو كل إمرأة جميلة تعمل في المصنع إلى غرفته، وبذريعة محاضرتهن عن حقوق القوة العاملة وعن قانون نقابة العمال، كان يغازلهن على نحو فاحش. يدعوهن رفيقات، ويصرّ على أن ينادينه رفيق بالمقابل (الأمر الذي كان يجعلهن يقهقهن). ويجبرهن على الجلوس معه إلى الطاولة وشرب الشاي مما كان يسبب الكثير من الإحراج لهن والهلع لماماتشي.

حتى أنه ذات مرة اصطحبهن لحضور دروس في نقابة العمال والتي كانت تجري في أليبي. ذهبن بالباص، وعدن بالقارب. كنّ سعيدات، بأساور زجاجية وورود في شعورهن.

كانت آمو تقول أن ذلك كله كان سخفاً. حالة أمير صغير يلعب دور رفيق! رفيق! فحسب. تجسيد أكسفوردي للعقلية الاقطاعية القديمة - إقطاعي يفرض مجاملاته على نساء يعتمدن عليه في تحصيل رزقهن.

بينما كانت المسيرة تقترب، رفعت آمو زجاج نافذتها. وكذلك فعل إستا، وكذلك فعلت راحيل. (بجهد جهيد، لأن المقبض الأسود للمسكة كان قد وقع).

فجأة، بدت البليموث السماوية مترفة على نحو سخيف في الطريق الضيق المحفّر. مثل سيدة عريضة محشورة في ممر ضيق. مثل بيبي كوتشاما في الكنيسة وهي في طريقها لتناول الخبز والخمر.

«انظروا نحو الأسفل» قالت بيبي كوتشاما، بينما كانت الصفوف الأولى للموكب تقترب من السيارة «تجنبوا التقاء الأعين، إن ذلك ما يثيرهم حقاً».

وعلى جانب رقبتها، كان نبضها يخفق بقوة.

وفي غضون دقيقة، غرق الطريق بآلاف من البشر الزاحفين. جزر سيارات في نهر من الناس. كان الفضاء أحمر بالرايات التي كانت تنخفض وترتفع عندما كان المتظاهرون يحنون رؤوسهم تحت بوابة تقاطع السكة الحديدية ويجتاحون عبر خطوط السكة الحديدية في تموّج أحمر.

غطى صوت الآلاف المرور المتجمد مثل مظلة ضوضاء.

Inquilab Zindabad!

Thozhilali Ekta Zindabad!

«عاشت الثورة !» كانوا يصرخون «يا عمال العالم اتحدوا !»

حتى تشاكو لم يكن لديه تفسير كامل عن سبب كون الحزب الشيوعي ناجحاً أكثر بكثير في كيرالا منه في أي مكان آخر تقريباً في الهند، باستثناء البنغال ربما.

كان هناك العديد من النظريات المتنافسة. إحداها كانت ان الأمر يتعلق بالتعداد الكبير للمسيحيين الذين يقطنون الولاية. عشرون بالمئة من سكان كيرالا كانوا من المسيحيين السوريين، الذين اعتقدوا بانهم من سلالة الإبراهيميين المئة الذين هداهم القديس توما إلى المسيحية عندما سافر شرقاً بعد البعث. بنيوياً ـ مضى هذا الجدل البدائي نوعاً ما ـ كانت الماركسية بديلاً بسيطاً عن المسيحية. استبدل الله بماركس، والشيطان بالبرجوازية، واستبدلت الجنة بمجتمع غير طبقي، والكنيسة بالحزب، وتبقى صيغة وهدف الرحلة مشابهة. سباق حواجز مع جائزة عند خط النهاية. في حين كان على العقل الهندوسي أن يقوم بتسويات معقدة أكثر.

المشكلة في هذه النظرية كانت أنه في كيرالا كان المسيحيون السوريون على العموم، من الأغنياء. مالكي مزارع (مديري مصانع مخلل) وأسياد اقطاعيين، والذين بالنسبة لهم كانت الشيوعية تمثل قدراً أسوأ من الموت، ولهذا كانوا يصوتون دائماً لصالح حزب المؤتمر.

وادّعت نظرية ثانية أن الأمر يتعلق بالمستوى العالي لمعرفة القراءة والكتابة في الولاية. من الجائز. عدا أن مستوى معرفة القراءة والكتابة العالي، كان غالباً، بسبب الحركة الشيوعية.

السر الحقيقي كان أن الشيوعية زحفت إلى كيرالا بشكل ماكر. فهي، كحركة إصلاحية لم تُشكّك جهاراً بالقيم التقليدية لمجتمع طبقي تمييزي تقليدي إلى حد متطرف. عمل الماركسيون من *داخل* التقسيمات المشاعية الجماعية، من غير أن يتحدونها أبداً، ودون أن يظهروا بشكل مخالف لذلك. لقد طرحوا ثورة كوكتيل. خليطاً مسكراً مندفعاً من ماركسية شرقية وأرثوذكسية هندوسية، مرززة بحقنة ديمقراطية.

بالرغم من ان تشاكو لم يكن عضواً يحمل بطاقة الحزب، إلاّ انه تحوّل إليه مبكراً، وبقي مؤيداً ملتزماً عبر جميع مخاضاته.

لم يكن قد تخرج بعد من دلهي أثناء نشوة ١٩٥٧ العارمة، عندما فاز الشيوعيون بانتخابات مجلس نواب الولاية ودعاهم نهرو لتشكيل حكومة.

بطل تشاكو الرفيق ي. م. س نامبوديرباد، البراهيمي صاحب الاسلوب المنمق، الكاهن الأعلى للماركسية في كيرالا، أصبح رئيس وزراء لأول حكومة شيوعية منتخبة بشكل ديمقراطي في العالم. وفجأة، وجد الشيوعيون انفسهم في وضع استثنائي غريب ـ قال عنه النقاد انه وضع فوضوي سخيف ـ من اضطرارهم لحكم الناس وتحريض الثورة في آن. انشأ الرفيق ي. م. س نامبوديرباد نظريته الخاصة حول كيفية القيام بهذا الأمر. درس تشاكو بحثه في *الانتقال السلمي إلى الشيوعية* بدأب هوسي لمراهق وبموافقة حماسية متقدة غير مسائلة لمعجب. عرض البحث بالتفصيل كيف تنوي حكومة الرفيق ي. م. س نامبوديرباد فرض استصلاح الأراضي وتحييد الشرطة، وتقويض النظام الشرعي، و «كفّ يد حكومة المؤتمر الرجعية عدوة الشعب».

لسوء الحظ، وقبل انقضاء السنة، وصل الجزء المهادن من الانتقال السلمي إلى نهاية.

كل صباح، على الفطور، كان عالم الحشرات الامبراطوري يهزأ من ابنه الماركسي وذلك بقراءته عالياً لتقارير اخبارية في الجرائد عن الشغب والإضرابات والحوادث الناجمة عن وحشية الشرطة والتي هزّت كيرالا.

«كارل ماركس، إذاً!» كان باباتشي يسخر عندما يأتي تشاكو إلى الطاولة. «ما الذي سنفعله بأولئك الطلاب المأفونين الآن؟ إن الأغبياء البلهاء يشحنون الشعور العام ضد حكومة شعبنا. هل نبيدهم ؟ أحقاً لم يعد الطلاب بشراً ؟».

على مدى السنتين التاليتين انزلق الخلاف السياسي المدعوم من قبل حزب المؤتمر والكنيسة إلى فوضى سياسية. وبحلول الوقت الذي أنهى فيه تشاكو شهادته وانتقاله إلى اكسفورد ليقوم بأخرى، كانت كيرالا على حافة حرب أهلية. أقصى نهرو الحكومة الشيوعية وأعلن انتخابات جديدة. وعاد حزب المؤتمر إلى السلطة مجدداً.

ولم يعاد انتخاب حزب الرفيق ي. م. س نامبوديرباد إلاّ في ١٩٦٧ ـ تقريباً بعد عشر سنوات بالضبط من مجيئه الأول إلى السلطة. وهذه المرة كجزء

من ائتلاف بين ما قد تحول الآن إلى حزبين منفصلين ـ حزب الهند الشيوعي وحزب الهند الشيوعي (الماركسي). ح. هـ. ش و ح. هـ. ش (م).

كان باباتشي قد مات وقتذاك. وتشاكو تطلّق. وكان عمر مخللات الجنة سبع سنوات.

كانت كيرالا تترنح جراء كارثة مجاعة وريح موسمية محبطة. كان الناس يموتون. صارعلى الجوع أن يُدرج في أعلى قائمة الأولويات لأية حكومة مقبلة.

أثناء مدته الثانية في الحكم، شرع الرفيق ي. م. س نامبوديرباد في تحقيق الانتقال السلمي بطريقة أكثر اتزاناً. مما جرّ عليه غضباً شديداً من الحزب الشيوعي الصيني. شجبوه بسبب **«قماءته البرلمانية»** واتهموه بـِ **«توفير الراحة للناس وبالتالي تبليد عقولهم وحرفهم عن الثورة»**.

حوّلت بكين رعايتها إلى الزمرة الأحدث والأكثر نضالاً من ح. هـ. ش (م) ـ الناكساليين ـ الذين قاموا بعصيان مسلح في ناكسالباري، قرية في البنغال. نظمّوا الفلاحين في أطر قتالية، استولوا على الأراضي، وطردوا المالكين، وأقاموا **محاكم الشعب لمحاكمة الأعداء الارستقراطيين**. انتشرت الحركة الناكسالية عبر البلاد وزرعت الرعب في قلب كل برجوازي.

في كيرالا، ساد الاهتياج والذعر الجو الفزع في الأصل. بدأ القتل في الشمال. في شهر أيار ذاك، ظهرت صور ضبابية في الجرائد لمالك أراضٍ في بالغهات قيّد إلى عمود نور وضرب عنقه. توّضع بالقرب منه، على مسافة ما، بعيداً عن جسمه، في بركة غامقة من الممكن أن تكون ماءً، ومن الممكن أن تكون دماً. كان من الصعب التمييز بالأسود والأبيض. في ضوء ما قبل الفجر الرمادي.

عيناه المندهشتان كانت مفتوحتين.

طرد الرفيق ي. م. س نامبوديرباد (*الكلب العميل، جاسوس السوفييت*) الناكساليين من حزبه وتابع أعمال تسخير الغضب لأغراض انتخابية.

كانت المسيرة التي ماجت حول البليموث السماوية في يوم كانون الأول السماوي ذاك، جزءاً من تلك العملية. كانت قد نظّمت من قبل اتحاد العمال الماركسي التريفاندري الكوتشيني[1]. كان قادتهم سيسيرون إلى أمانة السر ويقدمون ميثاق مطالب الشعب إلى الرفيق ي. م. س شخصياً. الأوركسترا تقدم عريضة قائدها. كانت مطالبهم أن يُسمح لعمال حقول الأرز الذين كانوا يُجبرون على العمل في الحقول لمدة إحدى عشرة ساعة ونصف يومياً - من الساعة السابعة صباحاً وحتى السادسة والنصف مساءً - أن يأخذوا فرصة ساعة للغذاء. وان تُرفع أجور النساء من روبية واحدة وخمس وعشرين بيزة في اليوم، إلى ثلاث روبيات. وأجور الرجال من روبيتين وخمسين بيزة إلى أربع روبيات وأربعين بيزة. وكانوا يطالبون ايضاً بألاّ يخاطب المنبوذين بأسماء طوائفهم الاجتماعية بعد الآن. طالبوا *بألّا* يخاطَبوا بـِ آتشو *باريان*، أو كيلان *بارافان*، أو كوتان *بولايان*، ولكن بـِ آتشو وكيلان وكوتان فقط.

قدم ملوك الهال وكونتات القهوة وبارونات المطاط - رفاق المدرسة الداخلية القدامى - من مزارعهم النائية ورشفوا بيرة مثلجة في **النادي المُبحر**. رفعوا أقداحهم. «*وردة من قبل أي اسم آخر...*» قالوا، وضحكوا ضحكات مكبوتة ليخفوا ذعرهم المتعاظم.

كان المتظاهرون، في ذلك اليوم، من أعضاء في الحزب ومن عمال ومن الطلاب أنفسهم. المنبوذون وغير المنبوذين. حملوا على أكتافهم برميلاً من غضب قديم أُشعل بفتيل حديث. كان هناك حدٌّ لهذا الغضب الذي كان ناكسالياً، وجديداً.

من خلال نافذة البليموث، استطاعت راحيل أن ترى أن أعلى كلمة كان يقولونها كانت Zindabad. وان أوردتهم كانت تنتصب في رقابهم عندما

(١) - نسبة إلى المدينتين: تريفاندرم وكوتشين. (المترجمة).

يتلفظونها. وان أذرعهم التي تحمل الأعلام والرايات كانت متصّلبة ومعقودة بأنشطة.

كان الجو حاراً وساكناً داخل البليموث.

ربض خوف بيبي كوتنشاما مطوياً على أرضية السيارة مثل شيروت[1] رطب ودبق. كان هذا بدايته فقط. الخوف الذي سينمو عبر السنين ليستنفذها. الذي سيجعلها تقفل أبوابها ونوافذها. الذي سيعطيها خطي شعر وفمين. خوفها، أيضاً، كان خوفاً قديماً، خوفاً بطول عمر بأكمله. الخوف من الاستلاب وفقدان الملكية.

حاولت أن تعد الخرزات الخضر في سبحتها، لكنها لم تستطع التركيز. يد مفتوحة صفقت بعنف على نافذة السيارة. وقبضة مكوّرة خبطت على غطاء المحرك السماوي الملتهب. فارتد مفتوحاً. بدت البليموث مثل حيوان أزرق بارز العظام في حديقة حيوان مطالباً أن يُطعم.

كعكة محلاّة.

موزة.

صفقت قبضة مكورة أخرى فوقه، وأُغلق غطاء المحرك. أنزل تشاكو زجاج نافذته وهتف للرجل الذي قام بذلك «شكراً، *keto*[2]» قال «*valarey*[3] شكراًا».

«لا تكن متملقاً إلى هذا الحد، يا رفيق» قالت آمو «لم يكن يقصد أن يساعد فعلاً. كيف من *الممكن* له أن يعلم انه في هذه السيارة يخفق قلب ماركسي حقيقي ؟».

---

(١) - نوع من السيجار. (المترجمة).
(٢) - رفيق. (المترجمة).
(٣) - رفيق شيوعي. (المترجمة).

«آمو» قال تشاكو، كان صوته ثابتاً ولامبالياً بشكل متعمّد «هل من الممكن لك على الاطلاق أن تمنعي مزاجك الساخر المستنزف من صبغ كل شيء تماماً؟».

ملأ الصمت السيارة مثل اسفنجة مشبعة. قطعت كلمة مستنزف مثل سكينة في جسم طري. أشرقت الشمس بتنهيدة مرتعدة. كانت هذه هي العلّة في الأُسَر. إنهم مثل الأطباء المؤذين، يعلمون بالضبط أين موضع الألم ويشدون عليه.

في تلك اللحظة ذاتها رأت راحيل فيلوثا. ابن فيليا بابن، فيلوثا. فيلوثا أحبّ صديق إلى قلبها. فيلوثا السائر بعلم أحمر. بقميص أبيض وموندو[1] وأوردة غاضبة في رقبته. لم يكن من عادته أن يرتدي قميصاً، أبداً.

أنزلت راحيل زجاج نافذتها في لحظة.

ونادته «فيلوثا!، فيلوثا!».

تجمّد في مكانه للحظة، وأصغى وهو يحمل علمه. ما سمعه كان صوتاً مألوفاً في ظروف غير مألوفة. برزت راحيل الواقفة على مقعد السيارة مثل قرن سائب مرفرف لأيلٍ له شكل سيارة. بنافورة معقوصة بالحب - في - طوكيو ونظارة شمسية حمراء بإطار بلاستيكي.

«فيلوثا! *Ividay*! فيلوثا!». وهي أيضاً ظهر لها أوردة في رقبتها.

خطا جانباً واختفى برشاقة داخل الغضب الموجود حوله.

داخل السيارة، التفتت آمو، وكانت عيناها غاضبتين. صفعت ربلة ساق راحيل، التي كانت الجزء الوحيد الباقي في السيارة ليُصفع. ربلات سيقان وأقدام سمراء في صنادل باتا[2].

---

(١) - منشفة كبيرة يرتديها الهنود. (المترجمة).
(٢) - ماركة أحذية. (المترجمة).

«تهذّبي!» قالت آمو.

سحبت بيبي كوتشاما راحيل نحو الأسفل، فحطّت على المقعد بصوت سقوط متفاجىء. فكرت أنه لا بد وأنه قد حصل سوء فهم ما.

«لقد كان فيلوثا !» أوضحت مع ابتسامة. «وكان يحمل علماً!».

كان العلم قد بدا بالنسبة لها الجزء الأكثر تأثيراً من المعدات. الشيء المناسب ليحمله صديق.

«أنت فتاة صغيرة غبية وسخيفة!» قالت آمو.

ثبّت غضبها المفاجىء الضاري، راحيل إلى مقعد السيارة. كانت راحيل مشوشة. لماذا كانت آمو غاضبة إلى هذا الحد؟ وما هو الدافع ؟

«لكنه *كان* هو !». قالت راحيل.

«اخرسي» قالت آمو.

رأت راحيل أن هناك طبقة تعرّق رقيقة على جبين آمو وعلى شفتها العلوية، وأن عينيها أصبحتا قاسيتين كالرخام. مثل عيني باباتشي في صورة استوديو فيينا. (كيف تهمس فراشة باباتشي في عروق أولاده !)

رفعت بيبي كوتشاما نافذة راحيل.

بعد سنوات من ذلك، في صباح خريفي نضر في شمالي نيويورك، في قطار أحد ينطلق من غراند سينترال إلى كروتون هارمون، عاد فجأة لراحيل ذلك التعبير على وجه آمو. مثل جزء شاذ في أحجية. مثل اشارة استفهام سُحبت على مدى صفحات كتاب ولم تستقر أبداً في نهاية أية جملة.

تلك النظرة الرخامية القاسية في عيني آمو. تلألؤ العرق على شفتها العلوية. وذلك الصمت المؤذي المفاجىء.

ماذا كان يعني ذلك كله ؟

كان قطار الأحد فارغاً تقريباً. مواجهةً لراحيل، عبر ممر القطار، كان هناك إمرأة بخّدين متشققين وشارب سعلت وأخرجت بلغماً وغلّفته بفتيلة من ورق

جرائد مزّقتها من كومة جرائد الأحد التي كانت في حجرها. رتبت الرزم الصغيرة في صفوف متقنة على المقعد الفارغ امامها وكأنها كانت تشيّد مقصورة من البلغم. وبينما تقوم بذلك أخذت تهمس لنفسها بصوت مهدّىء سار ورضيّ.

الذاكرة كانت، تلك المرأة، في القطار. جنونية في الطريقة التي تُمحّص فيها خلال الأشياء القائمة في خزانة وتبزغ بتلك الأكثر بعداً عن التوقع ـ نظرة خاطفة، شعور. رائحة دخان. مسّاحةُ حاجب النافذة. عينا أم رخاميتان. عاقلة تماماً في الطريقة التي تركت فيها بقعاً هائلة من الظلمة المحجوبة. غير مُتَذكّرة.

أراح راحيل جنون شريكتها في السفر. جذبها أكثر داخل رحم نيويورك المختّل. وبعيداً عن الآخر، أمور رهيبة أخرى لازمتها. *رائحة معدن حمضية، مثل سكك باص فولاذية، ورائحة يدي قاطع تذاكر الباص من جراء إمساكها، شاب له فم رجل عجوز.*

خارج القطار، تلألأت **هدسون**، وكانت الأشجار بلون البني المحمّر الذي للخريف. كان الجو بارداً قليلاً فقط.

«هناك حلمة في الجو» قال لاري ماكاسلين لراحيل، ووضع راحة يده برفق مواجهة مسحة اعتراض من حلمة مقرورة من خلال كنزتها القطنية. تساءل تُرى لماذا لم تبتسم؟

تساءلت لماذا كلما فكرّت في الوطن، كان ذلك على الدوام في ألوان الخشب الداكن المزيّت للقوارب، والألباب الفارغة لألسنة اللهب التي تخفق في مصابيح نحاسية.

لقد *كان* فيلوثا!

كانت راحيل واثقة للغاية من الأمر. لقد شاهدته. وشاهدها. كانت تعرفه في أي مكان، وفي أي زمان. ولو لم يكن يلبس قميصاً لكانت ميّزته من الخلف. كانت تعرف ظهره. لقد حُملت عليه. لمرات أكثر من ان تستطيع إحصاءها. كان عليه وحمة بنية فاتحة اللون. بشكل ورقة شجر جافة مدببة. قال

لها أنها كانت ورقة تجلب الحظ، وتجعل الرياح الموسمية تأتي في موعدها. ورقة بنية على ظهر اسود. ورقة خريفية في الليل. ورقة شجر تجلب الحظ لم تكن ميمونة كفاية.

لم يكن بالمفترض بفيلوثا أن يكون نجاراً.

سميّ فيلوثا ـ والتي كانت تعني ابيض في المالايالام ـ لأنه كان أسود للغاية. والده، فيليا بابن، كان Paravan[١]. مستخرج تودي[٢]. له عين زجاجية. كان يشكّل قطعة من الغرانيت بواسطة مطرقة عندما طارت شظية إلى عينه اليسرى وشطبتها مباشرة.

عندما كان فيلوثا صبياً صغيراً، كان يأتي مع فيليا بابن إلى المدخل الخلفي لمنزل أيمينيم ليُسلّم جوز الهند الذي جنوه من أشجار المجمّع. لم يكن باباتشي ليدع Paravans يدخلون المنزل، لم يكن أحد يسمح بذلك. ولم يكن من المسموح لهم أن يلمسوا أي شيء يلمسه غير المنبوذين. الطوائف الهندوسية والطوائف المسيحية. أخبرت ماماتشي راحيل وإستا أنها باستطاعتها تذكّر وقتٍ في طفولتها، حيث كان يُتوقّع من الـParavans أن يزحفوا نحو الخلف مع مكنسة، لمسح آثار أقدامهم بحيث لا يُدنّس البراهيميون والمسيحيون السوريون انفسهم بالخطو خطأً على آثار أقدام الـparavans. في زمن ماماتشي، لم يكن مسموحاً لِـparavans كما لباقي المنبوذين أن يسيروا في الطرقات العامة، ولا أن يغطوا القسم العلوي من أجسادهم، ولا ان يحملوا مظلات. وكان عليهم ان يضعوا أيديهم على أفواههم عندما يتكلمون، لتحويل نَفَسهم الملوث بعيداً عن أولئك الذين يخاطبونهم.

عندما قدم الانكليز إلى مالابار، تحول عدد من الـparavans وpelayas وpulayas[٣] (ومن بينهم جدّ فيلوثا، كيلان) إلى المسيحية وانضموا إلى

---

(١) ـ انظر الحاشية ٣٥. (المترجمة).

(٢) ـ عصارة النخيل الطازجة أو المخمرة. (المترجمة).

(٣) ـ أسماء طبقات المنبوذين في الهند. (المترجمة).

الكنيسة الانجيلية ليتخلصوا من بلاء النبذ. ومنحوا القليل من المال والطعام كحافز إضافي. وسمّوا بالمتنصرين الأرزيين[١]. لم يستغرقوا وقتاً طويلاً ليدركوا أنهم قد قفزوا من وعاء القلي إلى النار. أجبروا على اتخاذ كنائس منفصلة، بخدمات منفصلة، وكهنة منفصلين. وكمعروف خاص منحوا حتى أسقفهم المنبوذ الخاص. بعد الاستقلال وجدوا أنهم لم يحظوا بأية إعانات حكومية من مثل حجوزات عمل أو قروض بنك بنسب فوائد منخفضة، لأنهم، رسمياً، على الورق، كانوا مسيحيين، وبالتالي دون طبقة. كان الأمر يشبه قليلاً كما لو انه كان عليك مسح آثار أقدامك دون مكنسة. أو أسوأ. ألاّ يكون مسموحًا لك على الاطلاق أن تترك آثار أقدام.

ماماتشي القادمة في إجازة من دلهي، وعالم الحشرات الامبراطوري، هما أول من لاحظ البراعة اللافتة ليديّ فيلوثا الصغير. كان فيلوثا في الحادية عشرة من عمره آنذاك، أصغر من آمو بحوالي ثلاث سنوات. مثل ساحر صغير. باستطاعته صنع دمى معقدة من قصبات نخيل جافة ـ طواحين هواء صغيرة جداً، أجراس مجلجلة، صناديق مجوهرات دقيقة منمنمة؛ ونحت قوارب متقنة من جذوع التابيوكا[٢] و نقش تماثيل صغيرة على مكسرات الكاجو. كان يجلبهم لآمو واضعاً إياهم في راحة يده (كما كان قد لُقّن) بحيث لا تضطر إلى لمسه عندما تأخذهم. بالرغم من أنه كان أصغر من آمو، إلاّ انه كان يدعوها آموكوتي ـ آمو الصغيرة. أقنعت ماماتشي فيليا بابن أن يرسله إلى مدرسة غير المنبوذين التي كان قد أسسها حموها بونيان كونجو (الصغير المُبارَك).

كان فيلوثا في الرابعة عشر من عمره عندما جاء جون كلين، نجار من نقابة النجارين في بافاريا، إلى كوتايام وأمضى ثلاث سنوات مع المجتمع الارسالي المسيحي، كمدير لمشغل مع نجارين محليين. بعد ظهر كل يوم، بعد المدرسة، كان فيلوثا يأخذ باصاً إلى كوتايام حيث يعمل مع كلين حتى الغسق.

---

(١) ـ المتنصر الأرزي: معتنق المسيحية لمنافع مادية. (المترجمة).

(٢) ـ تابيوكا: نبات يُحصل عليه من جذور الدرنية النشوية لنبتة المنيهوت الاستوائية واسعة الانتشار. (المترجمة).

وببلوغه عامه السادس عشر، أنهى فيلوثا دراسته الثانوية وأصبح نجاراً مكتملاً. وكان لديه مجموعته الخاصة لأدوات النجارة وحس ألماني مميز في التصميم. صنع لماماتشي طاولة طعام من طراز باوهاوس[1] مع اثني عشر كرسياً من خشب الورد وكرسي طويل (شيزلونغ) بافاري تقليدي من خشب جاك فاتح اللون. ومن أجل ألعاب بيبي كوتشاما السنوية الخاصة بعيد الميلاد، صنع كومة من أجنحة ملائكة مؤطرة بأسلاك تركّب على ظهور الأطفال مثل حقائب ظهر، وغيوماً من كرتون ليظهر الملاك جبريل من خلالها، ومعلفاً قابل للاتلاف ليولد فيه المسيح. وعندما نضب قوس ملاك حديقتها الفضي دونما تفسير، كان الدكتور فيلوثا من أصلح مثانته من أجلها.

علاوة على مهارته في النجارة، كان لفيلوثا طريقة مع الآلات. كثيراً ما كانت ماماتشي تقول (بمنطق محكم لغير المنبوذين) لو لم يكن Paravan، لكان من الممكن له ان يصبح مهندساً. فهو يصلح أجهزة راديو، وساعات، ومضخات مياه. كما أنه تولّى أمر السمكرة وجميع الأدوات الكهربائية التي في المنزل.

وعندما قررت ماماتشي أن تُغلق الشرفة الخلفية، فإن فيلوثا هو من صمم وبنى الباب السحّاب، الذي أصبح فيما بعد آخر موضة في أيمينيم.

كان فيلوثا خبيراً بآلات المصنع أكثر من أي شخص آخر.

عندما استقال تشاكو من عمله في مادراس وعاد إلى ايمينيم بآلة لإغلاق الزجاجات من نوع بهارات، كان فيلوثا من أعاد تركيبها و شغلّها. وفيلوثا من أصلح آلة التعليب الجديدة وآلة تقطيع الأناناس الاوتوماتيكية. وفيلوثا من زيّت مضخة الماء ومحرك الديزل الصغير. وفيلوثا من بنى صفائح الألمنيوم المبطنة، وسطوح التقطيع سهلة التنظيف، والأفران الأرضية المستوى لغلي الفاكهة.

---

(١) ـ مدرسة ألمانية للتصميم، أسست في ١٩١٩، اثّرت بشكل عميق في العمارة والفن. مبدؤها تحقيق حاجات المجتمع. وتُعرف أيضاً بالطراز العالمي. تتميز بالبساطة وبغياب الزينة. (المترجمة).

بيد أن، والد فيلوثا، فيليا بابن، كان Paravan **قديم الطراز**. رأى **أياماً زاحفة بشكل عكسي**، وكان امتنانه لماماتشي وعائلتها لأجل كل ما قدموه له، واسعاً وعميقاً كسيل نهر. عندما حصل معه حادث شظية الحجر، نسّقت ماماتشي ودفعت من أجل عينه الزجاجية. لم يكن قد تخلّص من دَيْنه بعد، ومع أنه كان يعلم انه لم يكن مُنتظراً منه القيام بذلك، وانه لن يكون بمقدوره أبداً ـ لكنه شعر ان عينه لم تكن تخصه. عرّض امتنانه ابتسامته، وحنى ظهره.

كان فيليا بابن يخشى على ابنه الأصغر. لم يستطع أن يحدد ما الذي كان يخيفه. لم يكن شيئاً قد قاله. أو عمله. لم يكن *ما* يقوله، وإنما *الطريقة* التي يقوله بها، ولا *ما* يفعله، إنما *الطريقة* التي يفعله بها.

ربما كان مجرد نقص في التردد. ثقة لا مبرر لها. بالطريقة التي يمشي بها. الطريقة التي يحمل بها رأسه. الطريقة الهادئة التي يقدّم بها اقتراحات دون أن يكون قد سُئل. أو الطريقة الهادئة التي يعارض بها اقتراحات دون أن يبدو متمرداً.

في حين انه كانت تلك ميزات مقبولة تماماً وحتى مرغوبة عند غير المنبوذين، اعتقد فيليا بابن أنها عندالـParavans من الممكن أن (وسوف، وفي الواقع، يجب *أن*) تُفسّر على انها صفاقة.

حاول فيليا بابن أن ينبّه فيلوثا. لكن وحيث أنه لم يستطع أن يضع إصبعه على الأمر الذي كان يزعجه، أساء فيلوثا فهم القلق المشوش. بدا الأمر بالنسبة له كما لو أن والده كان قد ضنّ عليه بتدريبه الموجز ومهاراته الفطرية. وسرعان ما تدهورت نوايا فيليا بابن الطيبة إلى شكوى وجدل وجو من التباغض بين الأب وابنه. وبدأ فيلوثا يتجنّب العودة إلى المنزل، مسبباً الكثير من الهلع لأمه. كان يعمل حتى وقت متأخر. يصطاد سمكاً من النهر ويطبخه على نار مكشوفة. وينام في الخلاء، على ضفاف النهر.

ثم اختفى في أحد الأيام. ولأربع سنوات لم يعرف أحدٌ أين هو. سرت شائعة أنه كان يعملُ في موقع بناء تابع لمديرية **الاسكان والرفاه** في تريفاندروم. ومنذ فترة أقرب، قالت الشائعة، التي لا غنى عنها، أنه قد أصبح ناكسالياً. وانه

في السجن. وقال أُحدهم انه شوهد في كيلون.

لم يكن هناك من طريقة للعثور عليه عندما توفت أمه تشيللا في السل. ثم وقع أخوه الأكبر، كوتابن، عن شجرة جوز هند وآذى عموده الفقري، وأصبح مشلولاً وعاجزاً عن العمل. سمع فيلوثا بالحادث بعد سنة كاملة من حدوثه.

كان قد مضى خمسة أشهر على رجوعه إلى أيمينيم. لم يتحدث أبداً عن المكان الي كان فيه، أو ما الذي قد فعله هناك.

أعادت ماماتشي توظيف فيلوثا كنجار في المصنع وجعلته مسؤولاً عن الصيانة العامة. الأمر الذي سبب الكثير من السخط والاستياء عند عمال المصنع الآخرين غير المنبوذين، لأنه، وتبعاً لهم، لم يكن *من المفروض* بالـParavan أن يكونوا نجارين. وبشكل مؤكد، إنه من غير المفروض أن يعاد توظيف Paravans مبذرين سفهاء.

لإسعاد الآخرين، وحيث ان ماماتشي كانت تعلم أن أحداً لن يوظفه كنجار، دفعت لفيلوثا أجراً أقل مما تدفع لنجار غير منبوذ، ولكن أكثر مما تدفع لِـParavan. لم تشجعه ماماتشي على دخول المنزل (باستثناء عندما كانت تحتاجه لإصلاح أو تركيب شيء ما). اعتقدت أن عليه أن يكون ممتناً لأنه سُمح له بأن يكون في بناء المصنع في الأصل، وبأن يلمس أشياءً يلمسها غير المنبوذون. كانت تقول أن ذلك كان خطوة كبيرة لِـParavan.

عندما عاد فيلوثا إلى أيمينيم بعد غيابه سنيناً عن البيت، كان ما يزال يمتلك الفطنة ذاتها. واليقين ذاته. وخشي فيليا بابن عليه أكثر من أي وقت مضى. لكنه في هذه المرة حافظ على سكينته وهدوئه، ولم يقل شيئاً.

على الأقل ليس قبل استيلاء الرعب عليه. ليس قبل رؤيته، ليلة بعد ليلة، قارباً صغيراً يُجدِّف عبر النهر. ليس قبل رؤيته له يعود عند الفجر. ليس قبل رؤيته لما قد لمسه ابنه المنبوذ. وأكثر من لمسه.

دخله.

أحبه.

عندما استولى الرعب عليه، ذهب فيليا بابن إلى ماماتشي. حدّق مباشرة نحو الأمام بعينه المرهونة. وبكى بعينه الخاصة. التمع خدٌّ بالدمع. وبقي الآخر جافاً. هزّ رأسه الخاص من جانب إلى جانب إلى جانب حتى أمرته ماماتشي بالتوقف. اصطك بجسده الخاص مثل رجل مصاب بالملاريا. أمرته ماماتشي أن يتوقف لكنه لم يستطع لأنك لا تستطيع أن تلقي الأوامر على خوف يتجوّل. ولا حتى خوف Paravan. أخبر فيليا بابن ماماتشي عمّا كان قد رآه. طلب مغفرة الله لأنه خلّف وحشاً. عرض أن يقتل ابنه بيديه العاريتين. أن يدّمر ما كان قد خلقه.

في الغرفة المجاورة كانت بيبي كوتشاما قد سمعت الضجيج وجاءت لتستطلع الأمر. رأت لوعة وبلية أمامها، واغتبطت، سراً، في أعماق قلبها.

قالت (من ضمن أمور أخرى) - « *كيف استطاعت أن تحتمل الرائحة ؟ ألم تلاحظي، إن لهم رائحة معينة هؤلاء الـParavan ؟*»

وانتفضت بشكل مسرحي متصنّع مثل طفل أُجبر على أكل السبانخ. إنها تفضّل رائحة يسوعي ايرلندي على رائحة Paravan معينة.

أكثر بكثير. أكثر بكثير.

كان فيلوثا وفيليا بابن وكوتابن يعيشون في كوخ لطريط، باتجاه النهر من منزل ايمينيم. على مسافة ثلاث دقائق ركض عبر أشجار جوز الهند بالنسبة لإستابن وراحيل. كانا قد وصلا لتوّهما إلى أيمينيم و كانا صغيرين جداً ليتذكرا فيلوثا عندما غادر. ولكن خلال شهور من عودته أصبحوا أصدقاء أعزاء. كانا ممنوعين من زيارة منزله، لكنهما كانا يزورانه. يجلسان لساعات معه، على وركيهما - علامات ترقيم محدودبة في بركة من قشور خشب - ويتساءلان كيف كان يبدو دوماً عارفاً أية أشكال ناعمة تنتظره داخل الخشب. أحبّا الطريقة التي كان يبدو فيها الخشب، بين يدي فيلوثا، وكأنه يلين، ويتحول لدناً مطواعاً كالبلاتيسين[1]. كان يعلّمهما كيفية استخدام الملّق. كان منزله يفوح

---

(١) - البلاتيسين: مادة لدائنية تشبه الطين. (المترجمة).

(في يوم حسن) برائحة قشور خشب نضرة منعشة وبرائحة الشمس. برائحة كاري سمك أحمر مع تمر هندي أسود. أفضل كاري سمك، بحسب إستا، في العالم كله.

لقد كان فيلوثا من صنع لراحيل صنارتها الأوفر حظاً على الاطلاق وعلّمها وإستا صيد السمك.

وفي يوم كانون الأول ذاك، كان هو من رأته خلال نظارتها الحمراء، سائراً مع علم أحمر عند خط التقاطع خارج كوتشين.

أحدثت صفارات شرطة فولاذية مجلجلة ثقوباً في مظلة الضوضاء. استطاعت راحيل أن تلمح عبر ثقوب المظلة المثلّمة قطعاً من سماء حمراء. وفي السماء الحمراء، جالت طائرات ورقية حمراء هائجة تبحث عن فئران. وفي عيونهم الصفراء المحجوبة كان هناك طريق وأعلام حمراء سائرة. وقميص أبيض فوق ظهر أسود عليه وحمة.

سائراً.

امتزج الرعب بالعرق ببودرة التالك في عجينة بنفسجية فاتحة بين حلقات شحم في رقبة بيبي كوتشاما. وتخثّر البصاق في كتل بيضاء صغيرة عند زوايا فمها. تخيّلت أنها رأت رجلاً في الموكب يشبه الصورة التي كانت في الجرائد لناكسالي يُدعى راجان، الذي أُشيع أنه كان قد انتقل من بالغهات نحو الجنوب. تصورّت أنه قد نظر مباشرة إليها.

رجل مع علم أحمر ووجه مثل أنشوطة فتح باب راحيل لأنه لم يكن مقفلاً. كان الممر يغصّ بالرجال الذين توقفوا ليحدّقوا.

«أتشعرين بالحر يا صغيرتي ؟» سأل الرجل، الذي كالأنشوطة، راحيل بلطف بالمالايالام. ثم وبقسوة «اطلبي من والدك أن يشتري مكيف هواء !» ونعب كالبوم مبتهجاً من ظرافته وتوقيته. ردّت راحيل عليه بابتسامة، مسرورة من خلطه تشاكو بأبيها. مثل عائلة طبيعية.

«لا تجيبي !» همست بيبي كوتشاما بصوت أجش «انظري نحو الأسفل! انظري نحو الأسفل فحسب !».

حول الرجل ذو العلم انتباهه إليها. كانت تنظر إلى أرضية السيارة. مثل عروس خجلة مذعورة زُوّجت إلى رجل غريب.

«مرحباً، يا أختي» قال الرجل بالانكليزية بتأنٍ. «ما اسمك من فضلك ؟»

عندما لم تُجب بيبي كوتشاما، استدار إلى شريكه في الأسئلة والتعليقات المضايقة.

«ليس لديها اسم».

اقترح أحدهم بقهقهة «ما رأيك بـِ مودالالي ماريا كوتي؟» . مودالالي تعني إقطاعياً في المالايالام.

«أ، ب، ت، ث، هـ، و، ي» قال رجل آخر بشكل لا علاقة له بسياق المحادثة.

تجمّع عدد أكبر من الطلاب. كانوا يضعون جميعاً مناديل أو مناشف يد مطبوعة بومبايّة[1] الصباغة على رؤوسهم ليدرؤوا الشمس. بدوا مثل ممثلين من نسخة سندباد: *الرحلة الأخيرة*، التي بالمالايالام، يتسكعون بعيداً عن المجموعة.

أعطى الرجل الذي كأنشوطة علمه لبيبي كوتشاما كهدية. «تفضلي» قال «امسكيه».

حملته بيبي كوتشاما، ولمّا تنظر إليه.

«لوّحي به» أمرها.

كانت مضطرة لأن تلّوح به. لم يكن لديها خيار آخر. فاحت منه رائحة ثياب جديدة ومحل تجاري. مجعّد ومغّبر. حاولت أن تلّوح به وكأنها لم تكن تلوّح به.

«والآن قولي *Inquilab Zindabad!*»[2]

«*Inquilab Zindabad!*» همست بيبي كوتشاما.

«أحسنت».

---

(١) ـ نسبة إلى بومباي. (المترجمة).

(٢) ـ عاشت الثورة، بالهندية. (المترجمة).

ضجّ الجمع بالضحك. ونُفخت صفارة حادة.

«حسناً، إذاً» قال الرجل لبيبي كوتشاما بالانكليزية، وكأنهما كانا قد أنهيا للتو صفقة عمل ناجحة. «وداعاً !»

صفق باب البليموث السماوية مغلقاً إياه. ترّنحت بيبي كوتشاما. انفضّ الحشد المتجمع حول السيارة وتابع مظاهرته.

لفّت بيبي كوتشاما العلم ووضعته في أعلى المقعد الخلفي. أعادت مسبحتها إلى بلوزتها حيث وضعتها مع شماماتها. شغلت نفسها بهذا وذاك، محاولة إنقاذ بعض الكرامة.

بعد أن مرّ آخر بضعة الرجال، قال تشاكو أنه لا بأس الآن من إنزال زجاج النوافذ.

«هل أنت متأكدة من أنه كان هو ؟» سأل تشاكو راحيل.

«منْ ؟» قالت راحيل، متّنبهة فجأة.

«هل انت متأكدة انه كان فيلوثا ؟»

«آآآ...؟» قالت راحيل متلاعبة لبعض الوقت، محاولة فكّ رموز شيفرة إشارات أفكار إستا المحمومة.

«قلت، هل أنت متأكدة أن الرجل التي رأيته كان فيلوثا ؟» قال تشاكو لمرة الثالثة.

«آآآ...ننعم. يي.. تتقريباً». قالت راحيل.

«أنت تقريباً متأكدة ؟» قال تشاكو.

«لا.. كان تقريباً فيلوثا» قالت راحيل. «بدا تقريباً مثله...»

«إذن، أنت لست متأكدة ؟»

«تقريباً لا» زلقت راحيل نظرة إلى إستا لأجل الموافقة.

«لا بد وأنه كان هو» قالت بيبي كوتشاما. «إنها تريفاندام التي فعلت هذا

به، إنهم جميعاً يذهبون هناك ويعودون معتقدين انفسهم سياسيين عظماء».

لم يبدُ أحد معجباً بنباهتها.

«يجب أن نراقبه» قالت بيبي كوتشاما «إذا ما بدأ أعماله النقابية في المصنع... لقد لاحظت بعض البوادر، شيئاً من الوقاحة، شيئاً من نكران الجميل... منذ بضعة أيام طلبت منه أن يمدني بالأحجار لسريري الحصوي و -»

«لقد رأيت فيلوثا في المنزل قبل أن نغادر»، قال إستا بذكاء. «فكيف يكون هو».

«من أجله» قالت بيبي كوتشاما، بشكل مظلم، «آمل ألاّ يكون هو. ثم لا تقاطع في المرة القادمة، يا إستابن».

كانت مستاءة من أن أحداً لم يسألها ما هو السرير الحصوي.

في الايام التي تلت، صبّت بيبي كوتشاما، كل غضبها، من الإذلال العلني، الذي لحق بها، على فيلوثا. شحذته مثل قلم رصاص. أصبح يمثّل، في عقلها، المظاهرة. والرجل الذي أجبرها على التلويح بعلم الحزب الماركسي. والرجل الذي عمّدها باسم مودالالي ماريا كوتي. وكل الرجال الذين سخروا منها.

بدأت تكرهه.

علمت راحيل، من الوضعية التي اتخذها رأس آمو، أنها ما تزال غاضبة. نظرت إلى ساعتها. الثانية إلاّ عشر دقائق. ولا قطار حتى الآن. وضعت ذقنها على أسكفة النافذة. استطاعت أن تشعر بالغضروف الرمادي للبّاد الموسّد لزجاج النافذة يضغط على جلد ذقنها. خلعت نظارتها لتحظى بنظرة أفضل إلى الضفدعة الميتة المهروسة على الطريق. كانت ميتة جداً، ومهروسة بشكل مسطّح للغاية حتى أنها بدت كلطخة على الطريق بشكل ضفدعة أكثر منها كضفدعة. تساءلت راحيل فيما إذا كانت الآنسة ميتين قد تحوّلت إلى لطخة بشكل الآنسة ميتين بشاحنة الحليب التي قتلتها.

.

طمأن فيليا بابن التوأم، بيقين مؤمن حقيقي، أنه لم يكن هناك من وجود

لقطة سوداء في العالم. قال أنه يوجد في الكون فقط ثقوب سوداء بشكل قطة.

كان هناك العديد من اللطخ على الطريق.

لطخ بشكل آنسة ميتين مهروسة في الكون.

لطخ بشكل ضفادع مهروسة في الكون.

غربان مهروسة، حاولت أن تأكل اللطخ التي بشكل ضفادع مهروسة، في الكون.

كلاب مهروسة، أكلت اللطخ التي بشكل غربان مهروسة، في الكون.

ريش. ثمار مانغا. بصاق.

طوال الطريق إلى كوتشين.

أشرقت الشمس عبر نافذة البليموث إلى الأسفل مباشرة على راحيل. أغلقت عينيها وردّت الاشراقة. حتى من وراء جفنها، كان الضوء ساطعاً وحاراً. كانت السماء برتقالية، وكانت أشجار جوز الهند بحراً من شقائق نعمان تلّوح بمجسّاتها، متأملة أن توقع في شراكها غيمة بريئة. أفعى شفافة منقّطة ذات لسان متشعّب خفقت عبر السماء. ثم جندي روماني شفاف على حصان منقّط. الأمر الغريب بشأن الجنود الرومان في أفلام الكرتون، بحسب راحيل، كان كمية العناء الذي يتجشمونه في دروعهم وخوذهم، ثم، وبعد كل ذلك، فإنهم يتركون أرجلهم عارية. لم يكن ذلك منطقياً على الاطلاق. متنبىء طقس أم غاية أخرى؟

كانت آمو قد أخبرتهما قصة يوليوس قيصر وكيف طُعن من قبل بروتوس، صديقه الأعزّ، في مجلس الشيوخ. وكيف وقع على الأرض والسكاكين في ظهره وقال، «Et tu? Brutus?[1] - *ثم سقط قيصر*».

«إن هذا لَيبّين لنا فقط» قالت آمو «أنكما لا تستطيعان أن تثقا بأي أحد.

---

(١) - حتى أنت يا بروتوس. (المترجمة).

لا أم، ولا أب، ولا أخ، ولا زوج، ولا أفضل صديق. لا أحد».

مع الأطفال، كانت تجيب (عندما كانا يسألانها)، يبقى الأمر ليتوضح. كانت تقول إنه من المحتمل تماماً، على سبيل المثال، أن يكبر إستا ليصبح خنزيراً ذكرياً شوفينياً.

في الليل، كان إستا يقف في سريره وشرشفه ملفوف حوله ويقول «*Et tu? Brutus?* - ثم سقط قيصرا!». وينهار في سريره دون أن يثني رجليه، مثل جثة مطعونة. كوتشو ماريا، التي كانت تنام على الأرض على حصيرة، كانت تقول أنها سوف تشتكي لماماتشي.

«قل لأمك أن تأخذك إلى منزل والدك» كانت تقول «هناك تستطيع أن تكسر أسرّة قدر ما تريد. هذه ليست أسرّتك. هذا ليس سريرك *أنت*».

كان إستا ينتفض من الموت، ويقف في سريره ويقول:

«*Et tu? Kochu Maria?*[1] - *ثم يسقط إستا!» ويموت ثانية.*

كانت كوتشو ماريا متأكدة أن *Et tu?* كانت تعني فحشاً في الانكليزية وكانت تنتظر فرصة مناسبة لتشكي إستا لماماتشي.

كان يوجد فتات بسكويت حول فم المرأة التي في السيارة المجاورة. أشعل زوجها سيجارة ما بعد البسكويت.

نفث نايين من الدخان عبر منخريه وللحظة خاطفة بدا مثل خنزير بري. سألت السيدة «خنزير بري»، راحيل عن اسمها بصوت طفل.

تجاهلتها راحيل ونفخت فقاعة بصاق ساهية.

كانت آمو تكره أن ينفخا فقاعات بصاق. كانت تقول أن ذلك يذكرها ببابا. والدهما. قالت انه كان ينفخ فقاعات بصاق ويهز رجله. تبعاً لآمو، فقط

---

(١) - حتى أنت يا كوتشو ماريا؟ (المترجمة).

الموظفون كانوا يتصرفون على هذه الشاكلة، وليس الارستقراطيون.

الارستقراطيون أناسٌ لا ينفخون فقاعات بصاق ولا يهزون أرجلهم. ولا يلتهمون ويزدردون.

بالرغم من أن بابا لم يكن موظفاً، إلاّ ان آمو كانت تقول أنه كثيراً ما كان يتصرف كواحد منهم.

كان إستا وراحيل عندما يتواجدان وحدهما، يتظاهران في بعض الأحيان أنهما موظفان. كانا ينفخان فقاعات بصاق ويهزّان أرجلهما ويلتهمان مثل الحمقى. ويتذكران والدهما الذي كانا قد عرفاه بين حربين. أعطاهما مرة نَفَساً من سيجارته وانزعج لأنهما مصّاه ورطّبا الفيلتر بالبصاق.

«انه ليس حلوى متوردة !» قال، غاضباً بحق.

كانا يتذكران غضبه. وغضب آمو. تذكرا نفسيهما يُدفعان ذات مرة حول غرفة، من آمو إلى بابا إلى آمو إلى بابا مثل كرات بيليارد. وآمو تدفع إستا بعيداً: «خذ، احتفظ بواحد منهما. لا أستطيع الاعتناء بهما معاً» فيما بعد، عندما استفسر إستا من آمو حول ذلك، عانقته وقالت أن عليه ألاّ يتخيّل أموراً.

في الصورة الوحيدة التي شاهداها له (التي سمحت لهما آمو أن يرياها)، كان يلبس قميصاً أبيض ونظارات. ويبدو كلاعب كريكت وسيم مولع بالدراسة. يحمل إستا بإحدى ذراعيه على كتفيه. كان إستا يبتسم، وذقنه متكئ على رأس والده. وكانت راحيل محمولة مواجهة لجسده بذراعه الأخرى. بدت مشاكسة وسيئة الطبع، برجلي الطفلة المتدليتين. كان أحدهما قد لوّن فقاعات وردية على وجنتيهما.

قالت آمو أنه كان قد حملهما فقط من أجل الصورة وحتى عندها كان ثملاً للغاية إلى درجة أن آمو خشيت أن يوقعهما. قالت آمو انها كانت تقف خارج الصورة تماماً، جاهزة لإمساكهما في حال أوقعهما. مع ذلك، وباستثناء وجنتيهما، اعتقد إستا وراحيل أنها كانت صورة لطيفة.

«هل لك ان تتوقفي!» قالت آمو، بصوت عالٍ لدرجة أن مورليدهاران، الذي كان قد قفز عن المَعْلَم ليحدّق في البليموث، تراجع، واهتزت أعقابه في ارتياع.

«ماذا؟» قالت راحيل، لكنها علمت في الحال ماذا. فقاعات بصاقها. «آسفة، آمو».

«الأسف لا يجعل الرجل الميت حياً» قال إستا.

«أوه هيا!» قال تشاكو «ليس بامكانك فرض ما تفعله *بصاقها* الخاص!»

«اهتم بشؤونك» نترت آمو.

«إن ذلك يعيد الذكريات» شرح إستا لتشاكو، بحكمته.

وضعت راحيل نظارتها. أصبح العالم ملوناً بالغضب.

«اخلعي هذه النظارة السخيفة !» قالت آمو.

خلعت راحيل نظارتها السخيفة.

«انها لطريقة فاشية، تلك التي تتعاملين بها معهم»، قال تشاكو «إكراماً لله! حتى الأطفال لهم بعض الحقوق»،.

«لا تستخدم اسم الرب سدىً» قالت بيبي كوتشاما.

«إنني لا أفعل، أنا أستخدمه لسبب صالح جداً».

«توقف عن تمثيل دور **منقذ الأطفال العظيم** !» قالت آمو. «عندما نناقش الحقائق الهامة الجوهرية، فإنك لا تبدي أي اهتمام ملعون بهما. أو بي».

«وهل يجب عليّ؟» قال تشاكو «هل هما مسؤوليتي *أنا* ؟». قال أن آمو وإستا وراحيل كانوا كأحجار رحى معلقة حول عنقه.

أصبح ظهر رجلي راحيل رطباً ومتعرقاً. انزلق جلدها فوق النجادة الحبيبية لمقعد السيارة. كانت وإستا يعرفان أحجار الرحى. في *التمرّد في الكرم*[1]، وعندما كان الناس يموتون في البحر، كانوا يُلفون بشراشف بيضاء ويُرمَوْن خارج السفينة بأحجار رحى حول أعناقهم وذلك حتى لا تطفو الجثث. لم يكن

---

(١) ـ اسم فيلم سينمائي. (المترجمة).

إستا متأكداً كيف قرروا عدد أحجار الرحى التي عليهم اصطحابها معهم قبل أن يبدؤوا في رحلتهم.

وضع إستا رأسه في حجره.

كانت نفخة شعره قد أُفسدت.

تسرّب هدير قطار بعيد عن طريق لطخ الضفادع. بدأت أوراق البطاطا الحلوة على جانبي درب السكة الحديدية تهز رأسها في موافقة جماعية. *نعمنعمنعمنعمنعم.*

بدأ الحجاج الحليقون في ين مول بأغنية باص أخرى.

«أقول لكما، إن هؤلاء الهندوسيين»، قالت بيبي كوتشاما بتقوى، «ليس لديهم حس *بالخصوصية*».

«إن لهم قروناً وجلوداً حرشفية» قال تشاكو بتهكّم. «وقد سمعت أن أطفالهم يفقسون من البَيض».

كان لدى راحيل ندبتان على جبينها، قال إستا أنهما ستكبران لتتحولا إلى قرنين. على الأقل إحداهن، لأنها كانت نصف هندوسية. لم تكن سريعة البديهة كفاية لتسأله عن قرونه. لأن أيّاً ما كانته، كانه هو أيضاً.

صفع القطار ماراً تحت عمود من دخان كثيف أسود. كان هناك إثنتان وثلاثون عربة، وكانت الممرات مليئة بالشباب بقصات شعر بشكل خوذ، والذين كانوا في طريقهم إلى **حافة العالم** ليروا ماذا حدث للناس الذين سقطوا. أولئك الذين ارتفعوا بعيداً جداً هم ذاتهم الذين سقطوا عن الحافة. و في الظلمة المرفرفة، تحولت قصّات شعورهم بالمقلوب.

كان القطار قد ابتعد بسرعة كبيرة بحيث أصبح من المتعّذر تخيّل أن الجميع قد انتظر كل هذا الوقت الطويل من أجل لحظة عابرة. تابعت أوراق البطاطا الحلوة في هز رؤوسها بعد وقت طويل من ذهاب القطار، وكأنها كانت تتفق معه كلياً وليس لديها أدنى شك في ذلك.

رفرفت دثارة رقيقة شفافة من غبار فحمي نحو الأسفل مثل مباركة قذرة و خنقت رويداً رويداً حركة المرور.

شغّل تشاكو البليموث. حاولت بيبي كوتشاما أن تكون مرحة. وبدأت أغنية.

«هناك نوع حزين من الرنين
من الساعة التي في القاعة
ومن أجراس برج الكنيسة أيضًا.
وعاليًا في دار الحضانة
طائر
سخيف صغير
يقعقع خارجًا ليقول ـ»

ونظرت إلى إستا وراحيل منتظرة أن يقولا كو ـ كو.

لم يقولا.

هبّ نسيم سيارة. اندفعت أشجار وأعمدة هاتف مارة بالنافذة. انزلقت طيور ساكنة على أسلاك متحركة، مثل أمتعة منسية في المطار.

تدلّى قمر نهار شاحب بشكل ضخم في السماء وذهب أينما ذهبوا. كبير كبطن رجل مدمن على البيرة.

٣

اللالتين[١]، رجل كبير، والمومباتي[٢]، رجل صغير

حاصرت القذارة بيت أيمينيم مثل جيش من العصور الوسطى يتقدّم نحو معقل الأعداء. تخثّرت في كل شق، وعَلِقت في الألواح الزجاجية.

طنّت ذبابات صغيرة في أباريق الشاي. وارتمت حشرات ميتة في مزهريات فارغة. أصبحت الارضية زلقة. وتحولت الجدران البيضاء إلى رمادية متفاوتة. مفصلّات وقبضات الأبواب، كانت باهتة وزيتية الملمس. سُدّت فيش الكهرباء المستعملة نادراً، بالسخام. وتوّضعت على المصابيح الكهربائية الضوئية غشاوة من الزيت. الشيء الوحيد الذي ازدهر، كان الصراصير العملاقة التي تعدو هنا وهناك مثل سعاة ملّمعين في مجموعة فيلم.

توقفت بيبي كوتشاما عن ملاحظة هذه الأشياء منذ وقت طويل. وكوتشو ماريا التي لاحظت كل شيء، لم تعد تهتم بذلك.

هشّم الشيزلونغ، الذي كانت تضطجع عليه بيبي كوتشاما، قواقع الفول

---

(١) - فانوس بالهندية. (المترجمة).

(٢) - شمعة بالهندية. (المترجمة).

السوداني المحشوة داخل تشققات نجادته المتفسّخة النتنة.

في ايماءة لاشعورية من ديمقراطية التلفزيون المفروضة، خربشت كلٌّ من السيدة والخادمة بشكل غافل في وعاء المكسرات نفسه. قذفت كونشو ماريا مكسراتها في فمها. بينما وضعت بيبي كوتشاما مكسراتها في فمها على نحو لائق.

في *أفضل ما يقدّمه دوناهو*، شاهد جمهور الاستوديو لقطة من فيلم حيث كان مغنٍ متجول أسود يغني *في مكان ما فوق قوس القزح* في محطة ميترو. غنّى من صميم قلبه، وكأنه حقاً يصدّق كلمات الأغنية. رددت بيبي كوتشاما الأغنية معه، ثَخُن صوتها الرفيع المتهدّج بعجينة الفول السوداني. ابتسمت حينما عادت كلمات القصيدة إليها. نظرت كوتشو ماريا إليها كما لو قد جُنّت، وخطفت أكثر من حصتها العادلة من المكسرات. رمى المغني المتجول برأسه إلى الوراء عندما ضرب الملاحظات العالية (*مكان المكان ما*)، وملأ سقف فمه المخدّد الوردي شاشة التلفزيون. كان رثّاً مثل نجم روك، لكن أسنانه المفقودة وشحوب جلده السقيم، تكلما ببلاغة عن حياة العوز والحرمان واليأس. كان عليه أن يتوقف عن الغناء كلّما وصل أو غادر قطار، الأمر الذي كان كثيراً ما يحدث.

ثم علت الأضواء في الاستوديو وقدّم دوناهو الرجل نفسه، الذي، وبتلقين مرّتب مسبقاً، بدأ الأغنية من النقطة التي كان عليه أن يتوقف عندها (من أجل قطار) ـ محققاً، بذكاء، نصراً مؤثراً، لأغنية، في ميترو.

المرة التالية التي قوطع فيها المغني المتجول في منتصف الأغنية، كانت فقط عندما وضع فيل دوناهو ذراعه حوله وقال: «شكراً لك. شكراً جزيلاً».

إن مقاطعته من قِبَل فيل دوناهو كان أمراً مختلفاً تماماً، بالطبع، عن مقاطعته بهدير ميترو. كانت متعة. شرفاً.

صفق جمهور الاستوديو وبدا متعاطفاً.

اتقّد المغني المتجول **بسعادة الأوقات الأصيلة**، واتخذ الحرمان، للحظات

مقعداً خلفياً. قال، أنه لطالما كان حلمه أن يغني في برنامج دوناهو، دون أن يدرك أنه قد أُغتصب ذلك للتو منه أيضاً.

هنالك أحلام كبيرة وأحلام صغيرة. «الصاحب لالتين هو رجل كبير، ومومباتي رجل صغير»، هذا ما كان يقوله حمّال بيهاري[1] عجوز، والذي كان يلتقي بحفلة الرحلة التي تقيمها مدرسة إستا في محطة القطار (عاماً بعد عام، دورياً)، عن الأحلام.

الفانوس رجل كبير. قضيب **الشحم** رجل صغير.

غَفِل عن قول، *أضواء الفلاش*، *رجل عملاق*، *ومحطة الميترو*، *رجل صغير*.

كان المعلمون يساومونه وهو يسير مجهداً وراءهم حاملاً حقائب الأولاد، رجلاه المقوستان مقوستان أكثر، وأولاد المدرسة القساة يقلّدون مِشيته. كانوا يدعونه **كرات بين قوسين**.

عروق الدوالي هي الرجل الأصغر، نسي، أن يذكر ذلك، وهو يترّنح بأقل من نصف المال الذي كان قد طلبه وبأقل من عُشر ما يستحق.

في الخارج، كان المطر قد توقف. تخثّرت السماء الرمادية ورتّبت السحب نفسها في كتل، مثل حشوة فراش غير قياسية.

ظهر إستابن عند باب المطبخ، مبللاً (وأكثر حكمة مما كان في الحقيقة). التمع العشب الطويل خلفه. وقف الجرو على الدرجات بقربه. انزلقت قطرات مطر عبر القاع المنحني للمزراب الصدىء على حافة السطح، مثل خرزات مضيئة في مِعْداد.

رفعت بيبي كوتشاما نظرها عن التلفزيون.

«ها قد جاء» أعلنت لراحيل، دون أن تزعج نفسها وتخفض صوتها.

---

(١) ـ البيهار: منطقة في وسط شرق الهند، حيث أمضى بوذا أيامه الأولى فيها. (المترجمة).

«راقبي الآن. لن يقول شيئاً. سوف يمشي *مباشرة* إلى غرفته. فقط راقبي!».

انتهز الجرو الفرصة وحاول أن يتدّبر دخولاً مشتركاً. ضربت كوتشو ماريا الأرض براحة يدها بعنف، وقالت «هوب، هوب! *Poda patti!*».

فأحجم الجرو بحكمة. بدا أنه كان معتاداً على هذا الروتين.

«راقبي» قالت بيبي كوتشاما. بدت متحمسة. «سيسير *مباشرة* إلى غرفته ويغسل ثيابه. إنه نظيف مهووس بالنظافة. لن يقول *كلمة* !».

كان لها هيئة مراقب لعبة يشير إلى حيوان ما على العشب. مفتخرةً بقدرتها على التنبؤ بحركاته. بمعرفتها المتفوقة بعاداته وميوله.

كان شعر إستا ملتصقاً نحو الأسفل في مجموعات، مثل تويجات مقلوبة لوردة. ولاحت شظايا من فروة رأس بيضاء خلاله. انحدرت نهيرات مياه على وجهه ورقبته. سار إلى غرفته.

ظهرت هالة شماتة حول رأس بيبي كوتشاما. «أرأيتِ ؟». قالت.

استغلّت كوتشو ماريا الفرصة لتبدّل القنوات وتشاهد قليلاً من *أجساد بارزة*.

تبعت راحيل إستا إلى غرفته. غرفة آمو. فيما مضى.

حفظت الغرفة سرّه. لم تشِ بشيء. لا في فوضى ملاءات مجعّدة، ولا في بعثرة حذاء مرفوس بعيداً، ولا في منشفة مبللة معلّقة على ظهر كرسي. ولا في كتاب نصف مقروء. كانت مثل غرفة في مستشفى بعد أن غادرتها الممرضة للتو. كانت الأرض نظيفة، والجدران بيضاء. الخزانة مغلقة. الأحذية مرتبة. وسلة المهملات فارغة.

كانت نظافة الغرفة الهوسية المفرطة، الإشارة الايجابية الوحيدة التي تدلّ على الارادة من قبل إستا. الاقتراح الباهت الوحيد بأنه لربما كان لديه خطة للحياة. همس الإحجام عن الاقتيات من الفضلات التي يقدّمها الآخرون، فحسب. على الجدار، بجانب النافذة، توضعَت مكواة على طاولة الكوي. كومة من الثياب المطوية والمجّعدة انتظرت أن تُكوى.

تعلّق الصمت في الجو مثل فقدان سري.

تجمّع الشبح المرعب، لألعاب من المستحيل أن تُنسى، على شفرات مروحة السقف. مقلاع. كوالا كانتاس[1] (من الآنسة ميتين) بزريّ عينين محلولين. إوزة قابلة للنفخ (والتي انفجرت بسيجارة شرطي). قلمان لهما طرفان كرويان وترامات وباصات لندن صامتة تطفو صعوداً وهبوطاً فيهما.

فتح إستا الحنفية، فقرع الماء في دلو بلاستيكي. خلع ثيابه في الحمام اللامع. خرج من جينزه المبلل. المتصلّب. الأزرق الغامق. الصعب أن يُخلع. سحب كنزته القطنية التي بلون فريز مهروس، فوق رأسه، ذراعان ناعمتان نحيلتان عضليتان، عبرتا على جسده. لم يسمع أخته عند الباب.

راقبت راحيل معدته ممصوصة نحو الداخل و قفصه الصدري يرتفع بينما كانت كنزته القطنية المبللة تُقشر بعيداً عن جلده، تاركةً إياه مبللاً وبلون العسل. كان وجهه ورقبته ومثلث بشكل حرف (V) عند قاعدة حنجرته أغمق من بقيّته. ذراعاه أيضاً كانتا مزدوجتي اللون. أبهت عند الموضع الذي تنتهي فيه أكمام كنزته. رجل أسمر غامق في ثياب عسلية باهتة. شوكولاه في لفّة قهوة. وجنتان عاليتان وعينان مطارَدتان. صياد في حمّام أبيض البلاط، بأسرار البحر في عينيه.

هل رآها ؟ هل كان مجنونًا حقًا؟ هل عرف أنها كانت هناك ؟

لم يخجلا قط من جسديهما، لكنهما لم يكونا كباراً كفاية ليعرفا ما هو الخجل.

كانا الآن كذلك. كباراً كفاية.

كبارًا.

عمر قابل للحياة، قابل للموت.

---

(١) ـ خدمات نقل جوية، بدأت في استرالية في عام ١٩٢٠ . (المترجمة).

كم كانت *كبارًا* كلمة مضحكة بحد ذاتها، فكرّت راحيل، وقالت لنفسها: *كبارًا*.

راحيل عند باب الحمام. نحيلة الورك. «قل لها أنها ستحتاج لعملية قيصرية!» قال طبيب نسائي ثمل لزوجها بينما كانا ينتظران فكّتهما في محطة البنزين). سحليّة فوق خريطة على كنزتها القطنية حائلة اللون. شعر طويل جامح مع وميض حناء أحمر غامق، أرسل أصابعَ حَرِنة نحو الأسفل داخل الجزء الأصغر من ظهرها. ومضت الماسة في منخرها. أحياناً. وأحياناً لا. توّهج سوار نحيف ذهبي برأس أفعى مثل دائرة برتقالية مضيئة حول رسغها. حيّتان نحيلتان تهمسان لبعضهما البعض، رأساً لرأس. خاتم زواج أمها المصهور. ملّطفةً في الأسفل الخطوط الحادة لذراعيها الرفيعتين الزاويتين.

للوهلة الأولى كانت تبدو كما لو أنها كبرت في جلد أمها. وجنتان عاليتان. غمّازتان عميقتان لو ضحكت. لكنها كانت أطول، أصلب، أكثر تسطحاً، وأكثر زاويّةً مما كانت آمو. أقل حُسناً ربما بالنسبة لأولئك الذين يحبون الاستدارة والنعومة والليونة في النساء. فقط عيناها كانتا أجمل بلا جدال. كبيرتين. *تدعوان للغرق فيهما*، كما قال لاري ماكسلين واكتشف على حسابه.

بحثت راحيل في عري شقيقها عن إشارات لنفسها. في شكل ركبتيه. في قوس مشط قدمه. في انحدار كتفيه. في الزاوية التي تلتقي بها بقية ذراعه بكوعه. في الطريقة التي تدّيت أظافر أصابع قدميه نحو الأعلى. التجاويف المنحوتة على كلا الجانبين من ردفيه المشدودين الجميلين. خوختان محكمتان مشدودتان. لا تنمو مؤخرات الرجال أبداً. مثل حقائب المدرسة، تستدعي ذكريات فورية للطفولة. التمعت علامتا تلقيح على ذراعه مثل قطعتي نقود. علامتا التلقيح الخاصتان بها كانتا على فخذها.

علامات التلقيح عند البنات تكون دوماً على أفخاذهن، كانت آمو تقول.

راقبت راحيل إستا بفضول أم تراقب ابنها المبلّل. أخت أخ. إمرأة رجل. توأم توأم.

طيّرت الطائرات الورقية هذه على الفور.

كان غريباً عارياً أُجتمع به في لقاء عابر. كان الذي عرفته قبل أن تبدأ الحياة. الذي قادها سابحاً عبر أعضاء أمهما التناسلية المحبوبة.

كلا الشيئين مرهقان في قطبيتهما. في فرديتهما المتباعدة.

لمعت قطرة مطر في نهاية شحمة أذن إستا. سميكة وفضية في الضوء، مثل خرزة ثقيلة من الزئبق. امتدّت إليها. لمستها. وأخذتها.

لم ينظر إستا إليها. انكفأ في سكون أعمق. وكأن لجسده القدرة على اختطاف المشاعر نحو الداخل (معقودة، وبشكل بيضة)، بعيداً في مكان استراحة أعمق وأكثر مناعة.

جمع الصمت تنانيره وانزلق، مثل المرأة العنكبوت، فوق جدار الحمّام الزلق.

وضع إستا ملابسه المبلّلة في دلو وبدأ بغسلها بصابون أزرق زاهٍ مفتت.

٤

آبهاليش توكيز

أعلنت آبهاليش توكيز نفسها بوصفها أول صالة سينما في كيرالا يبلغ اتساع شاشتها ٧٠مم. وللتأكيد على ذلك، صُمّمت واجهتها كصورة اسمنتية طبق الأصل عن شاشة السينما المحدّبة. وكُتب في الأعلى (بكتابة إسمنتية وأضواء نيون) *آبهاليش توكيز*، بالمالايالام وبالانكليزية.

كانت المراحيض تُدعى **له** و **لها**. **لها** من أجل آمو وراحيل وبيبي كوتشاما. و له من أجل إستا وحده، لأن تشاكو كان قد ذهب ليراجع بشأن الحجز في فندق **ملكة البحر**.

«هل ستكون بخير ؟» سألت آمو قلقة.

هز إستا برأسه.

عبر الباب الفورميكا الأحمر الذي ينغلق تلقائياً ببطء، تبعت راحيل آمو وبيبي كوتشاما داخل **لها**. استدرات لتلوّح عبر الأرضية الرخامية الزيتية الزلقة لإستا الذي بمفرده (مع مشط)، في حذائه البيج المستدّق الطرف. انتظر إستا في الردهة الرخامة القذرة مع المرايا المهجورة حتى غيّب الباب الأحمر أخته. ثم استدار ودلف إلى **له**.

في **لها** اقترحت آمو أن توازن راحيل نفسها في الهواء لتتبوّل. قالت إن

كراسي المراحيض العامة قذرة. مثلما هي النقود. فالمرء لا يعرف من يلمسها. مجذوم. لحّام. ميكانيكي سيارة. (بول. دم. شحم.)

عندما أخذتها ذات مرة كوتشو ماريا إلى دكان اللحّام، لاحظت راحيل أنه كان على ورقة الخمس روبيات الخضراء الذي أعطاهما إياها، قطرة صغيرة جداً من لحم أحمر. مسحت كوتشو ماريا القطرة بإبهامها. ترك العصير لطخة حمراء. وضعت النقود في صدريّتها. نقود عليها دم برائحة لحم.

كانت راحيل أقصر من أن تتوازن في الهواء، فساعدتها آمو وبيبي كوتشاما في رفعها عالياً، تعلّقت رجلاها فوق ذراعيهما. قدماها ذوات الأصابع كأصابع الحمام، في صندل باتا. مرتفعة في الهواء بسروالها التحتي منزلاً إلى الأسفل. للحظة لم يحصل شيء، ونظرت راحيل إلى أمها وأخت جدها بيبي بإشارة استفهام ملعونة (والآن ماذا ؟) في عينيها.

«هيا» قالت آمو. «سسسسس.»

سسسسس ترمز لصوت سو ـ سو[1]؟. ومممم ترمز **لصوت الموسيقا**[2].

قهقهت راحيل. قهقهت آمو. وقهقهت بيبي كوتشاما. عندما بدأ التنقيط، عدّلتا وضعها الهوائي. لم تكن راحيل محرجة. انتهت وكان مع آمو ورق تواليت.

«هل تفعلين أنت أم أفعل انا ؟» قالت بيبي كوتشاما لآمو.

«لا فرق» قالت آمو. «باشري. أنتِ».

أمسكت راحيل حقيبتها. ورفعت بيبي كوتشاما ساريها المجعّد. درست راحيل رجلي أخت جدها بيبي الهائلتين. (سيبرق هذا المشهد أمامها بعد

---

(١) ـ صوت البول بالنسبة للأطفال. (المترجمة).

(٢) ـ استخدمت الكاتبة الكلمة بالشكل الذي يلفظها به الهنود. (المترجمة).

سنوات خلال درس تاريخ يُقرأ في المدرسة ـ ـ *كان للامبراطور بابور*[1] *بشرة قمحية وفخذان كالدعامات* ـ توازنت بيبي كوتشاما مثل طائر كبير فوق كرسي مرحاض عام. أوردة زرقاء مثل حياكة متكتّلة تسري نحو أعلى قصبتي ساقيها نصف الشفافتين. ركبتان سمينتان منقّرتان. عليهما شعر. قدمان صغيرتان جداً مسكينتان لتحملا مثل هذا الحمل!) انتظرت بيبي كوتشاما لنصف نصف دقيقة. الرأس مدفوع نحو الأمام. وابتسامة سخيفة بليدة. الثديان يتأرجحان منخفضين. شمّام في البلوزة. الردفان عالياً وخارجاً. وعندما أتى صوت البقبقة والقرقرة، استمعت بعينيها. وخرّ جدول أصفر عبر ممر جبلي.

أحبت راحيل كل هذا. إمساك الحقيبة. الكل يبول أمام الكل. مثل الأصدقاء. لم تكن حينها تعرف شيئاً حول كم كان هذا شعوراً ثميناً. *مثل الأصدقاء*. لن يكونوا معاً على هذا الشكل مرة أخرى قط. آمو وبيبي كوتشاما وهي.

عندما انتهت بيبي كوتشاما، نظرت راحيل إلى ساعتها وقالت «لقد استغرقت وقتاً طويلاً للغاية يا بيبي كوتشاما» . «إنها الثانية إلاّ عشر دقائق».

ترالا ترالا (فكرت راحيل)
ثلاث نساء في حوض استحمام
قال البطء: امكث لبرهة.

فكرت بالبطء كإسم. البطء كوريان. البطء كوتي. البطء مول. البطء كوتشاما.

البطء كوتي. السريع فيرغيس. وكورياكوز. ثلاثة أشقاء بقشرة رأس.

فعلت آمو خاصتها في همس. مقابل جانب المبولة بحيث لا يستطيع المرء أن يسمع. كانت قسوة والدها قد غادرت عينيها، عادتا عيني آمو ثانية. كان

---

(١) ـ اسمه الحقيقي زاهر الدين محمد (١٤٨٠ ـ ١٥٣٠) مؤسس العائلة الحاكمة لموغال في الهند. كان في الثانية عشر عندما خلف والده وأسس الامبراطورية الأولى (١٥٢٠ ـ ١٥٣٠). (المترجمة).

لديها غمازتان عميقتان في ابتسامتها ولم تعد تبدو غاضبة. لابشأن فيلوثا ولافقاعة البصاق.

كانت تلك إشارة جيدة.

كان على إستا الذي بمفرده في لهٔ أن يبول فوق كرات النفتالين واعقاب السيجارات التي في المبولة. ستكون هزيمة أن يبول في كرسي المرحاض. ولأن يبول في المبولة كان يحتاج لارتفاع. بحث عن ارتفاع، وفي زاوية لهٔ، وجده. مكنسة قذرة، قارورة يقطين نصف مملوءة بسائل حليبي (فينيل) مع أشياء سوداء طافية. ممسحة أرض رخوة، وعلبتي لا شيء قصديريتين صدئتين. من الممكن أن تكونا من منتجات مخللات الجنة. قطع أناناس في عصير. أو شرائح. شرائح أناناس. أسترجع شرفه بواسطة علب جدته، رتّب إستا الذي بمفرده علب اللاشيء الصدئة أمام المبولة. ووقف عليهما، قدماً فوق كل واحد منهما. وبال بتأنٍ، بأقل ما يمكن من التذبذب. كرجل. أصبحت أعقاب السيجارات التي كانت آنئذ مشبعة، مبلّلة ومُدّومة. ومن الصعب إشعالها. عندما انتهى، نقل إستا العلب إلى الحوض أمام المرآة. غسل يديه وبلّل شعره. ثم مُقَزَّماً بحجم مشط آمو الذي كان كبيراً جداً عليه، جدّد نفخة شعره بعناية. مسّده من الخلف، ثم دفعه نحو الأمام وأداره جانباً عند طرفه الأقصى. أعاد المشط إلى جيبه، وخطا من فوق العلب وأعادها مكانها مع القارورة والممسحة والمكنسة. انحنى لهم جميعاً. طاقم التصوير بأكمله. القارورة. المكنسة. العلب. وممسحة الأرض الرخوة.

«انحن» قال، وابتسم، لأنه عندما كان أصغرمن ذلك، كان لديه انطباع أن على المرء أن يقول «انحن» عندما ينحني. أن على المرء أن *يقولها* حتى يفعلها. «انحن إستا» كانوا يقولون. وكان هو ينحني ويقول «انحن»، وكانوا ينظرون إلى بعضهم البعض ويضحكون، وكان هو يتوّجس.

إستا ذو الأسنان غير المستوية، الذي بمفرده.

في الخارج، انتظر أمه واخته وبيبي أخت جده. وعندما خرجوا، قالت آمو «على ما يرام يا إستابن ؟»

قال إستا «على ما يرام» وهزّ رأسه بتأن ليحافظ على نفخة شعره.

على ما يرام؟ على ما يرام. أعاد المشط إلى حقيبتها. شعرت آمو بقبضة حب مفاجئة لابنها المتحفظ الوقور في حذائه البيج والمستدق الطرف، الذي كان قد أنهى للتو أول مهمة له كبالغ. داعبت شعره بأصابع محبة. فأفسدت نفخة شعره.

قال الرجل ذو المصباح اليدوي الفولاذي أن الفيلم بدأ، ولذا يجب الإسراع. كان عليهم الجري فوق الدرجات الحمر المغطاة بسجادة حمراء قديمة. درج أحمر بلطخ بصاق حمراء في الزاوية الحمراء. قضم الرجل ذو المصباح اليدوي مونوده[1] عالياً وأمسكه بيده اليسرى مطوياً تحت خصيتيه. أثناء صعوده، تصلّبت عضلات ساقه تحت جلده الصاعد مثل قذائف مدفعية مشعرة. أمسك المصباح اليدوي بيده اليمنى. وأسرع بعقله.

«لقد بدأ منذ زمن طويل» قال.

وهكذا فقد فاتتهما البداية. فاتتهما الستارة المخملية المتموجة وهي تُرفع، واللمبات الضوئية في الشرّابات الصفراء المتجّمعة، ببطء نحو الأعلى، والموسيقى من الممكن أن تكون ***نزهة الفيل الطفل من هاتاري***. أو ***مسيرة الكولونيل بوغي***.

أمسكت آمو يد إستا. وأمسكت بيبي كوتشاما التي ترتقي الدرجات، يد راحيل. بيبي كوتشاما المثقلة بشمّاماتها، لن تقرّ لنفسها بأنها كانت تترقّب الفيلم. فضلّت أن تشعر بأنها كانت تفعل ذلك فقط من أجل الأولاد. حفظت في عقلها تقريراً منظماً حذراً حول الأمور التي يجب القيام بها من أجل الناس، وحول الأمور التي لم تفعلها لنفسها.

كانت تُفضّل اللقطات المبكّرة الخاصة بمشاهد الراهبات، وأملت أن لا تكون قد فاتتهما. شرحت آمو لإستا وراحيل أن الناس دوماً يفضلون ما *يتطابق* معهم. افترضت راحيل أنها تتطابق أفضل تطابق مع كريستوفر بلامرالذي لعب

---

(١) ـ منشفة كبيرة يلبسها الرجال في الهند. (المترجمة).

دور الكابتن فون تراب. لم يكن تشاكو يتطابق معه على الاطلاق، وكان يدعوه الكابتن فون كلاب تراب.

كانت راحيل مثل بعوضة مُثارة في رسن. تطير. عديمة الوزن. درجتين إلى الأعلى. ودرجتين إلى الأسفل. درجة إلى الأعلى. صعدت خمس تحليقات من الدرج الأحمر في مقابل واحدة لبيبي كوتشاما.

أنا باباي البحار تراالا لا لا
أعيش في كارافان تراالا لا لا
أفتح الباب
وأقع على الأرض
أنا باباي البحار تراالا لا لا

اثنتين إلى الأعلى. إثنتين إلى الأسفل. واحدة إلى الأعلى. إقفزي، إقفزي.

«راحيل» قالت آمو «لم تتعلمي درسك بعد. أليس كذلك ؟»

كان لدى راحيل: *الإثارة تقود دومًا إلى الدموع*. تراالا لا لا.

وصلا عند بهو **الأميرة الدائرية**. مرّوا بالمقصف حيث تنتظر مشروبات البرتقال. و تنتظرمشروبات الليمون. البرتقال برتقال جداً. والليمون ليمون جداً. والشوكولاة مائعة جداً.

فتح الرجل ذو المصباح اليدوي باب **الأميرة الدائرية** الثقيل داخل ظلمة أزيز المروحة ومضغ الفول السوداني. كانت تفوح رائحة تنفس الناس ودهن شعر. وسجادات قديمة. رائحة *صوت الموسيقى* السحرية التي كانت تتذّكرها راحيل وتدخرها. الروائح كالموسيقى تحتفظ بالذكريات. تنّفست بعمق، وعبأتها في زجاجات للأجيال القادمة.

كانت البطاقات مع إستا. رجل صغير. يعيش في كارافان. تراالا لا لا.

وجّه رجل المصباح اليدوي ضوءه على البطاقات الوردية. الصف ج. الأرقام ١٩، ١، ١٧ . إستا، آمو، راحيل، بيبي كوتشاما. انحشروا مارّين مُغضبين الناس الذين كانوا يحرّكون أرجلهم إلى هنا وهناك ليُفسحوا مجالاً.

كانت مقاعد الكراسي يجب أن تُسحب نحو الأسفل. أمسكت بيبي كوتشاما مقعد راحيل إلى الأسفل بينما كانت هي تتسلّقه. لم تكن ثقيلة كفاية، فانطوى الكرسي على نفسه مثل سندويتش محشوة، وشاهدت هي من بين ركبتيها. ركبتان ونافورة. أما إستا ذو الكرامة الزائدة، فقد جلس على طرف الكرسي.

كانت ظلال المروحة على جوانب الشاشة حيث لم يكن الفيلم.

مُطفأً بالمصباح الكهربائي مُضاءً بصرعة العالم.

ارتفعت الكاميرا عالياً في السماء الزرقاء (بلون السيارة) السماء الاسترالية، مع الصوت الحزين الواضح لأجراس الكنيسة.

بعيداً إلى الأسفل، على الأرض في فناء الدير، كانت الحصى تلتمع. مشت الراهبات عبرها. مثل مجموعة من السيجار. راهبات هادئات تجمّعن حول أمهن المّوقرة الهادئة، التي لم تقرأ رسائلهن قط. تجّمعن مثل نمل حول كسرَة خبز محمّص. مجموعة من السيجار حول السيجار الملكة. دون شعر على ركبهنّ. دون شمّامات في بلوزاتهنّ. وأنفاسهنّ كالنعنع. كان لديهن شكاوى ليقدّمنها لأمهن الموقرة. شكاوى غناء عذب. حول جولي آندروز التي ما زالت في أعلى الهضبة تغني ***ما زالت الهضاب حية بصوت الموسيقى*** وتأخرت مرة أخرى على القداس.

تسلّقت شجرة وخدشت ركبتها

تسلّلت الراهبات على نحو موسيقي استعراضي.

تمزّق ثوبها.

ورقصت الفالس في طريقها إلى القدّاس

وصفّرت على الدرج.

كان المتفرجون يتلفتون حولهم.

«هش !» قالوا.

هش ! هش ! هش !

وتحت خمارها

لديها جعدات في شعرها!

كان هناك صوت خارج الفيلم. كان واضحاً وحقيقياً، قاطعاً خلال ظلمة أزيز المروحة ومضغ الفول السوداني. كان هناك راهبة بين المتفرجين. التفتت الرؤوس مثل سدادات قوارير. أصبحت خلفيات الرؤوس ذوات الشعر الأسود، وجوهاً بأفواه وشوارب. أفواهاً مهسهسة بأسنان قرش. العديد منهم. مثل ملصقات على بطاقة.

«هش !» قالوا معاً.

كان إستا من يغني. راهبة بنفخة شعر. راهبة إلفيس بلفيس. كان ذلك خارجاً عن إرادته.

«أخرجوه من هنا !» قال المشاهدون عندما وجدوه.

اخرس أو اخرج. اخرج أو اخرس.

كان المتفرجون رجلاً كبيراً. وكان إستا رجلاً صغيراً، مع بطاقات.

«إستا، من أجل السماء اخرس!» قال همسُ آمو العنيف.

وهكذا خرس إستا. واستدارت الأفواه والشوارب بعيداً. لكن بعد ذلك، ودون إنذار، عادت الأغنية ثانية، ولم يستطع إستا أن يوقفها.

«آمو، هل أستطيع أن أذهب وأغنيها في الخارج ؟» قال إستا (قبل أن تصفعه أمو) «سأعود بعد أن تنتهي الأغنية».

«لكن لا تتوقع مني أن أُخرجك ثانية» قالت آمو «إنك *تحرجنا جميعًا*».

لكن ذلك كان فوق إرادة إستا. وقف ليذهب. ماراً بآمو الغاضبة، وبراحيل المركّزة من خلال ركبتيها. ماراً ببيبي كوتشاما. ماراً بالمتفرجين الذين كان عليهم ان يحركوا أرجلهم ثانية إلى هذه الناحية أو تلك. كان مكتوباً عل اللافتة الحمراء فوق الباب خروج بالضوء الأحمر. خرج إستا.

في البهو، كانت مشروبات البرتقال تنتظر. ومشروبات الليمون تنتظر. والشوكولاة الذائبة تنتظر. وأرائك السيارة الجلدية الرغوية الزرقاء الكهربائية، تنتظر. وملصقات *القادم قريبًا!* تنتظر.

جلس إستا الذي بمفرده على أرائك السيارة الجلدية الرغوية الزرقاء

الكهربائية، في بهو **الأميرة الدائرية لـِ آبهاليش توكيز**، وغنى. بصوت راهبة، صافياً كالماء النقي.

ولكن كيف تجعلينها تبقى

وتستمع إلى كل ما تقولينه؟

استيقظ الرجل وراء طاولة المقصف، الذي كان نائماً على صف من الكراسي الصغيرة دون مَسْنَدْ، منتظراً الفاصل. رأى بعينين لزجتين، إستا الذي بمفرده بحذائه البيج والمستدق الطرف. وبنفخة شعره المُفسَدة. مسح الرجل طاولته الرخامية بخرقة متسخة اللون. وانتظر. ومسح منتظراً. وانتظر ماسحاً. وراقب إستا وهو يغني.

كيف تحتفظ بموجة على الرمل؟

أوه، كيف تحل مشكلة مثل ماري. يا؟

«Ay! Eda cherukka!» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون، بصوت أجش ثخين بالنوم. «ماذا تعتقد نفسك فاعلاً بحق الجحيم ؟»

كيف تمسك

شعاع قمر

في يدك ؟

غنّى إستا.

«آي !» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. «انظر، هذا وقت استراحتي. سرعان ما سيكون عليّ أن أستيقظ وأعمل. لذلك فأنا لا أستطيع أن أحتملك تردّد أغنيات انكليزية هنا. توقف». كانت ساعة معصمه الذهبية مخفية تقريباً بشعر ساعده المجعّد. وسلسلته الذهبية غائرة تقريباً في شعر صدره. وكان قميصه التيرلين[1] الأبيض مفصوم العرى إلى حيث ابتدأ تضخّم بطنه. بدا مثل دب فظ مزيناً بالمجوهرات. كان يوجد خلفه مرايا من أجل أن يتملّى الناس أنفسهم وهم يشترون المشروبات الباردة والمنعشة. ليتبيّنوا نفخات

---

(١) - نوع قماش. (المترجمة).

شعورهم، وليركّزن كعكات شعورهن. أخذت المرايا تتفرجّ على إستا.

«أستطيع ان أرفع بك شكوى مكتوبة» قال الرجل لإستا «ما رأيك بذلك؟ شكوى مكتوبة ؟»

توقف إستا عن الغناء ونهض ليعود إلى الداخل.

«الآن بعد أن استيقظت» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. «الآن وبعد أن أيقظتني من استراحتي، بعد أن *أزعجتني*، على الأقل تعال واشتر شراباً. إنه أقل ما تستطيع فعله.»

كان وجهه بخدين غير حليقين. أسنانه التي مثل مفاتيح بيانو صفراء، راقبت إلفيس البيلفيس.

«لا شكراً لك» قال إلفيس بتهذيب. «إن عائلتي تنتظرني. وقد أنفقت مصروف جيبي.»

«مصروف جيب ؟»[1] قال رجل مشروبات البرتقال والليمون بأسنانه التي ما تزال تراقب. «في البداية أغنيات انكليزية، والآن مصروف جيب ! أين تعيش ؟ في القمر ؟»

استدار إستا ليذهب.

«انتظر لحظة!» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون بحدّة. «لحظة فقط!» قال ثانية، بلطف أكثر. «أعتقد أنني سألتك سؤالاً».

كانت أسنانه الصفراء مغناطيساً. حدّقت، ابتسمت، غنّت، شمّت، وتحركت. أُفتتنت.

«سألتك أين تقطن» قال، غازلاً نسيجه الشريرالبذيء.

«في أيمينيم» قال إستا. «أعيش في أيمينيم. جدتي تملك **مخللات ومعلبات الجنة**. إنها الشريك النائم».

«أحقاً هي كذلك، الآن ؟» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون.

---

(١) ـ قالها بانكليزية هندية. (المترجمة).

«ومن الذي تنام معه ؟» ضحك ضحكة بذيئة بحيث لم يستطع إستا أن يفهم. «لا عليك. لن يكون بمقدورك أن تفهم.»

«تعال واشرب شراباً» قال. «شراباً بارداً مجانياً. تعال. تعال هنا وأخبرني كل شيء عن جدتك».

«ذهب إستا. مسحوراً بالأسنان الصفراء.

«هنا، وراء الطاولة» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. خفض صوته إلى همس. «يجب أن يبقى ذلك سراً لأن المشروبات ليست مسموحة قبل الفاصل. وإلاّ فستعدّ إهانة للمسرح.»

«مُدرَكاً» أضاف بعد وقفة.

ذهب إستا خلف طاولة المقصف من أجل شرابه البارد المجاني. رأى الكراسي الصغيرة العالية التي دون مسند مرتبة في صف مستقيم لينام عليها رجل مشروبات البرتقال والليمون. كان الخشب لامعاً من كثرة جلوسه عليه.

«الآن لو تمسك هذا من أجلي من فضلك» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون، مسلّماً إستا قضيبه من فتحة سرواله التحتي الموسليني الأبيض الناعم الطري، «سأجلب لك شرابك. برتقال ليمون؟»

أمسكه إستا لأنه كان مجبراً على ذلك.

«برتقال؟ ليمون؟» قال الرجل «برتقال ليموني ؟»

«ليمون، من فضلك» قال إستا بتهذيب.

حصل على زجاجة باردة وشيليمونة. وهكذا أمسك زجاجة بيد وقضيباً باليد الأخرى. صلباً، حامياً، بعروق. ليس شعاع قمر.

أطبقت يد رجل مشروبات البرتقال والليمون على يد إستا. كان أظفر إبهامه طويلاً مثل أظافر النساء. حرّك يد إستا إلى الأعلى وإلى الأسفل. ببطء في البداية. ثم أسرع.

كان شراب الليمون بارداً وحلواً. وكان القضيب حامياً وصلباً.

كانت مفاتيح البيانو تراقب.

«فإذاً جدتك تدير معملاً ؟» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. «أي نوع من المعامل ؟»

«العديد من المنتجات» قال إستا، دون أن ينظر، والشيليمونة في فمه. «يقطين، مخللات، مربيات، بودرة كاري، شرائح اناناس.»

«جيد.» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. «ممتاز.»

أطبقت يده بإحكام أكثر على يد إستا. محكمة ومتعرقة. وما زالت أسرع.

سريع أسرع أسرع
لا تدعه أبداً يرتاح
حتى يصبح السريع أسرع،
والأسرع أكثر سرعة

صعدت حلاوة الليمون السائل عبر الشيليمونة الورقية المشبعة (المفلطحة تقريباً بالبصاق والخوف). نافخاً عبرالشيليمونة (بينما يده الأخرى تتحرك)، نفخ إستا فقاعات داخل الزجاجة. فقاعات ليمونية حلوة دبقة من الشراب الذي لم يستطع أن يشربه. ودوّن في رأسه منتجات جدته.

المخللات	المساحيق	المربيات
مانغا	*برتقال*	*موز*
فليفلة خضراء	*عنب*	*فواكه ممزوجة*
قرع مر	*أناناس*	*مربى كريب*
ثوم	*مانغا*	
ليمون حامض مملح		

ثم تلوّى الوجه الغضروفي الكثير الشعر، وكانت يد إستا رطبة وساخنة ودبقة. وبدا عليها بياض بيضة. بياض بيضة بيضاء. ربع مغلية.

كان الشراب الليموني بارداً وحلواً. والقضيب طرياً وذابلاً مثل محفظة

صرافة جلدية فارغة. مسح الرجل بخرقته المتسخة اللون، يد إستا الأخرى.

«أنهِ الآن شرابك» قال، وقرص بتودّد خدّاً من مؤخرة إستا. خوختان مشدودتان في أنابيب تصريف. وحذاء بيج ومستدق الطرف. «يجب ألاّ تبدده» قال «فكّر في كل الناس الفقراء الذين ليس لديهم شيء ليأكلوه أو ليشربوه. أنت صبي غني محظوظ، بمصرورف جايب[1] ومعمل جدة لترثه. عليك أن تشكر الله لأنك خالٍ من الهموم. أنهِ الآن شرابك.»

وهكذا، خلف طاولة المقصف، في بهو **الأميرة الدائرية في آبهاليش توكيز** في القاعة ذات الشاشة الأولى في كيرالا باتساع ٧٠ مم، أنهى إستابن ياكو زجاجته المجانية المملوءة بالخوف الفوّار الليموني الطعم. ليمونه ليموني جداً، بلرد جاداً. حلو جداً. صعد الفوران إلى أنفه. سيُعطى زجاجة أخرى قريباً (مجانية، وبخوف فوّار). لكنه لا يعرف ذلك بعد. أبقى يده الدبقة الأخرى بعيداً عن جسده.

لم يكن من المفروض أن تلمس شيئاً.

عندما أنهى إستا شرابه، قال رجل مشروبات البرتقال والليمون «انتهيت ؟ أحسنت.»

أخذ الزجاجة الفارغة والشيليمونة المفلطحة، وأرسل إستا داخل ***صوت الموسيقى***.

عائداً إلى داخل ظلمة دهن الشعر، أبقى إستا يده الأخرى بحذر (عالياً، وكأنه كان يمسك برتقالة مُتَخَيّلة). انزلق ماراً بالمتفرجين (بأرجلهم المتحركة إلى هذا وذاك الجانب)، ماراً بيبي كوتشاما، ماراً براحيل (التي ما زالت مائلة نحو الخلف) ماراً بآمو (التي ما زالت منزعجة). جلس إستا، وهو ما يزال يمسك ببرتقالته الدبقة.

وهناك كان الكابتن فون كلاب تراب. كريستوفر بلامر. متعجرفاً. قاسي

---

(١) - مصروف جيب. كُتبت بلفظ خاطىء جداً، لتبيان غرابتها (بوصفها كلمة انكليزية) بالنسبة لرجل من هذا الوسط. (المترجمة).

القلب. بفم مثل ثقب. وصفارة بوليس فولاذية حادة. كابتن مع سبعة أطفال. أطفال نظيفين، مثل علبة من النعنع. كان يتظاهر بانه لا يحبهم، لكنه كان يحبهم. وكان يحبها (جولي آندروز). وهي كانت تحبه، وهما كانا يحبان الأطفال، والأطفال كانوا يحبونهما. كانوا جميعاً يحبون بعضهم البعض. كانوا أطفالاً بيضاً نظيفين، وكانت أسرتهم طرية بوسائد الريش.

يوجد في المنزل الذي يقطنون فيه بحيرة وحديقة، ودرج عريض، وأبواب ونوافذ بيضاء، وستائر مزيّنة بالورود.

كان الأطفال البيض النظيفون، حتى الكبيرون منهم، يرتجفون خوفاً من الرعد. ولتريحهم، وضعتهم جولي آندروز جميعاً في سريرها النظيف، وغنت لهم أغنية نظيفة حول بعض من أشيائها المفضلة. هذه كانت بعضاً من أشيائها المفضلة:

١ ـ فتيات في أثواب بيضاء ذات وشاحات ساتان زرقاء.

٢ ـ أوزات برية تطير والقمر على أجنحتها.

٣ ـ أباريق نحاسية براقة.

٤ ـ أجراس وزلاجات ذات رؤوس.

٥ ـ إلى آخره.

ومن ثم، في عقلي عضوي توأم بيضتين مؤكدين من جمهور آبهاليش توكيز، انبثقت بعض الأسئلة، التي احتاجت أجوبة، أي:

أ ـ *هل كان الكابتن فون كلاب تراب يهزّ رجله؟*

لم يكن يفعل ذلك.

ب ـ *هل كان الكابتن فون كلاب ينفخ فقاعات بصاق؟ هل كان يفعل ذلك؟*

بكل تأكيد لم يكن يفعل ذلك.

ت ـ *هل كان يلتهم ويزدرد؟*

لم يكن يفعل ذلك.

أوه، كابتن فون تراب، كابتن فون تراب، هل باستطاعتك أن تحب الزميل

الصغير ذا البرتقالة في الصالة ذات الرائحة الكريهة؟

لقد أمسك للتو قضيب رجل مشروبات البرتقال والليمون بيده، لكن هل باستطاعتك أن تحبه مع ذلك ؟

وشقيقته التوأم؟ المائلة نحو الخلف بنافورتها في الحب ـ في ـ طوكيو؟ هل باستطاعتك أن تحبها ؟

كان لدى الكابتن فون تراب بعض الأسئلة الخاصة به.

أ ـ *هل هما طفلان أبيضان نظيفان؟*

لا. (لكن صوفي مول كذلك.)

ب ـ *هل ينفخان فقاعات بصاق؟*

نعم. (لكن صوفي مول لا تفعل.)

ت ـ *هل يهزّان أرجلهما ؟ مثل الموظفين؟*

نعم. (لكن صوفي مول لا تفعل.)

ث ـ *هل أمسك أحدهما أو كلاهما، أبدًا، قضيبًا لغرباء؟*

لـ... نعم. (لكن صوفي مول لم تفعل ذلك.)

«إذن أنا آسف» قال الكابتن فون كلاب تراب «إنه أمر مستحيل. لا أستطيع أن أحبهم. لا أستطيع ان أكون بابا لهما. أوه كلا.»

لم يستطع الكابتن فون كلاب تراب.

وضع إستا رأسه في حجره.

«ما الأمر ؟» قالت آمو «إذا كنت تقطّب ثانية، سآخذك مباشرة إلى البيت. اجلس من فضلك. وتفرّج. هذا ما أُحضرت لأجله إلى هنا.»

أنهِ الشراب.

تفرج على الفيلم.

فكر في كل الناس الفقراء.

صبي غني محظوظ له مصروف جيب. دون هموم.

جاشت معدته. شعر شعوراً سفلي، سحيقاً، طافياً، مليئاً بأعشاب البحر، متكتّلاً، مائياً سميكاً، متموجاً أخضر.

«آمو ؟» قال.

«ماذا الآن ؟» نهشت الـ *ماذا*، نبحت، وبُصقت خارجاً.

«أشعر أنني أريد التقيؤ» قال إستا

«تشعر فقط أم أنك تريد أن تتقيأ ؟» كان صوت آمو قلقاً.

«لا أعرف.»

«هل نذهب ونحاول ؟» قالت آمو. «سيجعلك هذا تتحسن.»

«حسناً» قال إستا.

حسناً ؟ حسناً.

«إلى أين تذهبان ؟» أرادت بيبي كوتشاما أن تعرف.

«إستا سيحاول أن يتقيأ»، قالت آمو

«إلى أين تذهبان ؟» سألت راحيل.

«أشعر بغثيان» قال إستا.

«هل أستطيع أن آتي وأتفرج ؟»

«لا» قالت آمو.

مرّا بالمتفرجين ثانية (وأرجلهم إلى هذه وتلك الناحية). المرة السابقة للغناء. هذه المرة لمحاولة التقيؤ. خرجا عبر خروج. في الخارج، في البهو الرخامي، كان رجل مشروبات البرتقال والليمون يأكل قطعة حلوى. وخده منفوخ بالحلوى المتحركة. كان يصدر أصوات إمتصاص طرية مثل مياه تنزح من حوض. كانت هناك ورقة غلاف باري[1] خضراء على الطاولة. قطع الحلوى مجانية لهذا الرجل.

---

(١) ـ اسم حلوى. (المترجمة).

كان لديه صف من قطع الحلوى في قوارير باهتة. مسح طاولته الرخامية بخرقته متسخة اللون التي كان يمسكها بيده المشعرة التي يضع فيها الساعة. انزلق ظل عبر وجهه عندما رأى المرأة المتألقة ذات الكتفين المصقولين وصبياً صغيراً، ثم ابتسم ابتسامة البيانو المحمول خاصته.

«خارجاً ثانية بهذه السرعة ؟» قال.

كان إستا يتهوّع مسبقاً. واكبته آمو على سطح القمر إلى حمام **الأميرة الدائرية. لها.**

حُمل، محشوراً بين الحوض القذر وجسد آمو. الرجلان متدليتان. كان للحوض صنابير فولاذية، وبقع صدأ. وشبكة غشائية بنية من التشققات الرفيعة. مثل خريطة طرق لمدينة ما كبيرة معقدة.

تشنّج إستا، لكن لم يخرج شيئاً. وساوس فحسب. وقد طفت خارجاً ثم طفت في الداخل. لم تستطع آمو أن تراها. حوّمت مثل سحب عاصفة فوق مدينة الحوض. لكن رجال ونساء الحوض تابعوا أعمالهم الحوضية الاعتيادية. سيارات حوضية، باصات حوضية، ما زالت تئز هنا وهناك. استمرت الحياة الحوضية.

«لا ؟» قالت آمو.

«لا» قال إستا.

لا ؟ لا.

«اغسل وجهك إذن» قالت آمو. «الماء يساعد دوماً. اغسل وجهك ولنذهب ونشتري شراب ليمون فوّار.»

غسل إستا وجهه ويديه ووجهه ويديه. أصبحت رموشه مبللة و تشابكت مع بعضها البعض.

طوى رجل مشروبات البرتقال والليمون ورقة غلاف الحلوى الخضراء و ثبّت الثني بأظفر ابهامه المدهون. دوّخ ذبابة بمجلة ملفوفة. ونقفها برقة من على حافة الطاولة على الأرض. وقعت على ظهرها ولوّحت أرجلها الخائرة.

«صبي عذب هذا» قال لآمو. «يغني بشكل ظريف».

«إنه إبني»، قالت آمو.

«حقاً ؟» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون، ونظر إلى آمو بأسنانه. «حقاً ؟ لا يوحي عمرك بهذا !»

«إنه مريض قالت آمو» فكرت أن شراباً بارداً قد يجعله يتحسن. «

«بالطبع»، قال الرجل. «بالطبع بالطبع. ليمون برتقالي؟ برتقال ليموني؟»

سؤال مرعب يدعو للتوجس.

«لا شكراً لك». نظر إستا إلى آمو. قاع سحيق، مليء بأعشاب البحر، أخضر التموج.

«ماذا عنك؟» سأل رجل مشروبات البرتقال والليمون آمو.

«كوكا كولا فانتا ؟ بوظة روز ميلك ؟»

«لا. لا أريد. شكراً لك» قالت آمو. إمرأة متألقة بغمازات عميقة.

«خذ» قال الرجل، بقبضة مليئة بالحلوى، مثل مضيف كريم. «هذه من أجل رجلك الصغير.»

«كلا شكراً لك»، قال إستا، ناظراً إلى آمو.

«خذها إستا»، قالت آمو «لا تكن فظاً»

أخذها إستا.

«قل شكراً»، قالت آمو.

«شكراً لك» قال إستا. (من أجل الحلوى، ومن أجل بياض البيضة البيضاء.)

«ولو» قال رجل مشروبات البرتقال والليمون بالانكليزية.

«إذاً !» قال. «يقول الصبي أنكم من أيمينيم ؟»

«نعم»، قالت آمو.

«كثيراً ما أذهب إلى هناك»، قال رجل مشروبات البرتقال والليمون. «أهل زوجتي من أيمينيم. أعرف أين معملكم. **مخللات الجنة**، أليس كذلك ؟ هو أخبرني. صبيّك.»

كان يعرف أين يجد إستا. وهذا ما أراد أن يقوله. لقد كان إنذاراً.

رأت آمو عيني إبنها الزريتين المتقدّتين بالحمى.

«علينا أن نذهب»، قالت. «علينا ألاّ نخاطر. ابنة خالهما آتية غداً»، شرحت للعم. ثم، أضافت بشكل عرضي، «من لندن.»

«من لندن ؟» ومض احترام جديد في عيني العم. العائلة ذات صلات لندنية.

«إستا، ابقَ أنت هنا مع العم. وسأذهب أنا لأحضر بيبي كوتشاما وراحيل»، قالت آمو.

«تعال»، قال العم. «تعال واجلس معي على كرسي عالٍ دون مسند.»

«لا، آمو! لا، آمو! أريد أن أذهب معك!»

آمو المستغربة من الإلحاح العاليٰ الصوت لإبنها الهادىء عادةً، اعتذرت من عم مشروبات البرتقال والليمون.

«في العادة لا يكون هكذا. تعال إذن، إستابن.»

رائحة العودة في الداخل. ظلال المروحة. مؤخرات الرؤوس. الرقاب. ياقات. شعور. كعكات شعر. ضفائر. ذيول حصان.

نافورة في الحب ـ في ـ طوكيو. فتاة صغيرة وراهبة سابقة.

كان أولاد الكابتن فون تراب النعنعيون السبعة قد تحمموا حمّاماً نعنعياً، وكانوا واقفين في صف نعنعي بشعورهم المملسة نحو الأسفل، يغنون بأصوات نعنعية مطيعة للمرأة التي كاد الكابتن أن يتزوجها. البارونة الشقراء التي كانت تشّع كالألماس.

الهضاب حيّة

بصوت الموسيقى.

«علينا أن نذهب» قالت آمو لبيبي كوتشاما وراحيل.

«لكن آمو»، قالت راحيل. «لم تحصل الأمور الجوهرية حتى بعد! لم *يقبّلها* حتى! ولم يمزّق علم هتلر حتى! ولم يشِ رولف ساعي البريد حتى!»

«إستا مريض»، قالت آمو. «هيا !»

«لم يأتِ الجنود النازيون حتى!»

«هيا!» قالت آمو. «انهضي!»

«لم يؤدوا حتى» *كان هناك راعي ماعز وحيدًا في أعلى الهضبة* «!»

«يجب أن يكون إستا بصحة جيدة من أجل صوفي مول، أليس كذلك؟» قالت بيبي كوتشاما.

«لا، لا يجب عليه ذلك» قالت راحيل، لكن لنفسها على الأغلب.

«ماذا قلت؟» قالت بيبي كوتشاما، متخذة الاتجاه العام، لكن ليس ماقد قيل فعلاً.

«لا شيء»، قالت راحيل.

«أنا *سمعتك*»، قالت بيبي كوتشاما.

في الخارج، كان العم يعيد تنظيم قواريره الباهتة. ويمسح بخرقته متسخة اللون لطخ الماء الدائرية الشكل التي تركوها على طاولة مقصفه الرخامية. مهيئاً من أجل الفاصل. كان عم مشروبات البرتقال والليمون نظيفاً. كان لديه قلب مضيف طيران واقع في فخ جسم دب.

«ذاهبون إذن ؟» قال.

«نعم»، قالت آمو «أين يمكننا الحصول على تاكسي ؟»

«خارج البوابة، في أعلى الطريق، على يسارك»

قال، ناظراً إلى راحيل. «لم تخبريني ان لديك بنتاً[1] صغيرة أيضاً.» أخرج

---

(١) ـ قال كلمة (البنت) بالهندية. (المترجمة).

حلوى أخرى «خذي، يا بنت ـ لك.»

«خذي خاصتي!» قال إستا بسرعة، رافضاً أن تقترب راحيل من الرجل.

لكن راحيل كانت قد بدأت بالسير تجاهه. وبينما كانت تقترب منه، ابتسم لها، شيئاً بشأن ابتسامة البيانو المحمول تلك، وشيئاً بشأن التحديقة الثابتة التي شملها بها، جعلها تجفل منه. كان أقبح شيء رأته في حياتها. استدارت لتنظر إلى إستا.

وارتدت عن الرجل المشعراني.

ضغط إستا حلوى باري خاصته داخل يدها وأحسّت أصابعه الساخنة المحمومة التي كانت أطرافها باردة كالموت.

«وداعاً، يا صبي» قال العم لإستا. «سأراك في أيمينيم يوماً ما.»

إذاً، الدرجات الحمر مرة أخرى. هذه المرة راحيل تتباطأ، متثاقلة.

لا، لا أريد أن أذهب. طن من الطوب في رسن.

«شاب لطيف، صاحب مشروبات البرتقال والليمون ذاك»، قالت آمو.

«تشي[1]!» قالت بيبي كوتشاما.

«لا يبدو كذلك، لكنه كان لطيفاً مع إستا بشكل يدعو للاستغراب»، قالت آمو

«إذاً فلماذا لا تتزوجينه ؟» قالت راحيل مستفزة.

توقف الزمن على الدرجات الحمر. توقف إستا. وتوقفت بيبي كوتشاما.

«راحيل» قالت آمو.

تجمّدت راحيل. كانت آسفة على نحو يائس على ما قالته. لم تعرف من أين أتت تلك الكلمات. لم تكن تدري أنها كانت في أعماقها. لكنها كانت قد خرجت منها الآن، ولن تعود داخلاً. كانت تتسكع على الدرج الأحمر مثل

---

(١) ـ دلالة على الاستهجان. (المترجمة).

موظفي مكتب حكومي. بعضهم واقفون، وبعضهم جالسون ويهزون أرجلهم.

«راحيل»، قالت آمو. «هل تدركين ما قد فعلت للتو ؟»

عينان فزعتان ونافورة ردّت النظرة لآمو.

«لا بأس. لا تخافي»، قالت آمو. «فقط أجيبيني. هل تدرين؟»

«ماذا ؟» قالت راحيل بأخفض صوت لديها.

«هل تعلمين ماذا يحدث عندما تجرحين الناس؟» قالت آمو «عندما تجرحين الناس، يبدأ حبهم لك بالتناقص. هذا ما تفعله الكلمات الطائشة غير المكترثة. إنها تجعل الناس يحبونك أقل بعض الشيء.»

فراشة باردة ذات كثافة غير مألوفة لزغبها الظهري، حطّت بخفة على قلب راحيل. اقشعرّت واصطكت حيث لمستها أرجلها الثلجية. ست قشعريرات على قلب راحيل اللامبالي.

كانت آموها تحبها أقل قليلاً.

وهكذا، خارج البوابة، في أعلى الطريق، وإلى اليسار. كانت التاكسي واقفة. أم مجروحة، راهبة سابقة، وطفل ساخن وآخر بارد. ست قشعريرات وفراشة.

كانت تفوح في التاكسي رائحة نوم. وثياب قديمة ملفوفة. ومناشف رطبة. وإبطين. لقد كانت منزل سائق التاكسي على كل حال. كان يعيش داخلها. المكان الوحيد الذي لديه ليخزّن فيه روائحه. كانت المقاعد قد قُتلت وأُغتصبت. انسكبت لفافة من اسفنج أصفر وسخ خارجاً واهتزّت على المقعد الخلفي مثل كبد صفراوي هائل. كان للسائق يقظة منقّبة لقارض صغير. وأنف روماني معقوف وشارب ريتشارد صغير. كان ضئيلاً جداً بحيث أنه راقب الطريق عبر عجلة القيادة. كان الأمر يبدو بالنسبة للعابرين كتاكسي بركاب من دون سائق. كان يقود، بشكل مشاكس، منقضاً على المساحات الفارغة، دافعاً السيارات الأخرى خارج طريقها. مستعجلاً عند تقاطع الزيبرا. أنوار قافزة.

«لماذا لا تستخدم حشية أو وسادة أو شيئاً ما؟» اقترحت بيبي كوتشاما

بصوتها الودود. «ستكون قادراً على الرؤية بشكل أفضل.»

«لماذا لا تهتمين بشؤونك، يا أخت؟» اقترح السائق بصوته العدواني.

متجاوزين البحر الحبري، وضع إستا رأسه خارج النافذة. كان بامكانه أن يتذوق النسيم المالح الساخن في فمه. كان بامكانه أن يشعر به يرفع شعره. كان يعرف أنه لو اكتشفت آمو ما فعله مع رجل مشروبات البرتقال والليمون، فانها ستحبه أقل أيضاً. أقل كثيراً. شعر بالغثيان المدّوم الجائش المتمخض المخزي في معدته. تاق للنهر. لأن الماء يساعد دوماً.

اندفع الليل النيوني الدبق ماراً بنافذة التاكسي. كان الجو حاراً وهادئاً داخل التاكسي. بدت بيبي كوتشاما متوردة ومتوترة. كانت لا تحب أن تكون سبباً في سقم أحد. وفي كل مرة ينحرف كلب ضال على الطريق، كان السائق يقوم بجهد مخلص صريح لقتله.

في موقف سيارات فندق ملكة البحر، كانت البليموث السماوية تثرثر مع سيارات أخرى أصغر. *Hsnooh Hslip Hslip - snah*.[1] سيدة كبيرة في حفلة سيدات صغيرات. رفارف خافقة منفعلة.

«الغرفتان ٣١٣ و ٣٢٧» قال الرجل في الاستقبال. «بدون تكييف. أسرة مزدوجة. المصعد مغلق بسبب الإصلاح.»

خادم الفندق[2] الذي اصطحبهم إلى الأعلى، لم يكن صبياً ولم يكن بحوزته جرس. كان له عينان باهتتان وزرّان مفقودان من معطفه الكستنائي المهترىء. وكان قميصه التحتاني المتحول رمادياً ظاهراً. كان عليه أن يضع قبعته السخيفة الخاصة بخادم الفندق بشكل جانبي مائل، وقد غار إسارها البلاستيكي في غببته المتدلية. لقد بدا قاسياً بشكل غير ضروري إجبار رجل عجوز على ارتداء قبعة جانبياً بهذا الشكل وإعادة تنظيم بشكل اعتباطي متعسف الطريقة التي اختارها العمر في أن يتدلّى من ذقنه.

---

(١) ـ أصوات السيارات على أرض براقة ناعمة. (المترجمة).

(٢) ـ Bellboy . الترجمة الحرفية: صبي الجرس. (المترجمة).

كان هناك المزيد من الدرجات الحمر ليصعدوها. السجادة الحمراء من قاعة السينما ذاتها كانت تتبعهم. سجادة طائرة سحرية.

كان تشاكو في غرفته. ضُبط يتلذّذ. دجاج مشوي، رقائق اصبعية، ذرة حلوة وشوربة دجاج، قطعتا خبز وبوظة فانيليا مع صلصة شوكولاة. صلصة في قارب صلصة. كان تشاكو كثيراً ما يقول أن طموحه لو يموت من فرط الأكل. ماماتشي تقول أنها إشارة أكيدة على تعاسة مكبوتة. لكن تشاكو يقول أن لا شيء من هذا القبيل. وأن الأمر شره محض.

كان تشاكو مرتبكاً لرؤيته الجميع عائدين باكراً جداً، لكنه تظاهر باللامبالاة. واستمر في التهام طعامه.

كانت الخطة الأصلية أن ينام إستا مع تشاكو، وراحيل مع آمو وبيبي كوتشاما. لكن الآن وحيث أن إستا لم يكن بحالة جيدة والحب قد أُعيد توزيعه (كانت آمو تحبها أقل قليلاً)، فإنه سيكون على راحيل أن تنام مع تشاكو، وإستا مع آمو وبيبي كوتشاما.

أخرجت آمو بيجامة راحيل وفرشاة أسنانها من الحقيبة ووضعتهما على السرير.

«خذي»، قالت آمو.

طقطقتان لتنغلق الحقيبة.

طقطقة. وطقطقة.

«آمو»، قالت راحيل «هل يجب أن أفوت العشاء كعقوبة لي؟»

كانت متحمسة لتبادل العقوبات. لا عشاء، في مقابل ان تحبها آمو كالسابق.

«كما يحلو لك»، قالت آمو. «لكن أنصحك أن تأكلي. إذا أردت أن تكبري، هذا هو الأمر. ربما تستطيعين أن تشاركي تشاكو في القليل من دجاجاته.»

«ربما وربما لا»، قال تشاكو.

«لكن ماذا عن عقوبتي؟» قالت راحيل. «لم تعاقبينني!»

«بعض الأمور تأتي مع عقوباتها الخاصة»، قالت بيبي كوتشاما. وكأنها كانت تشرح استنتاجاً لا تستطيع راحيل فهمه.

بعض الأمور تأتي مع عقوباتها الخاصة. مثل غرف نوم مع خزائن مبنية داخلها. سيتعلمون جميعاً أكثر بخصوص العقوبات قريباً. أنها تأتي في قياسات مختلفة. أن بعضها كانت كبيرة جداً، كانت مثل الخزائن المبنية داخل غرف النوم. بامكانك قضاء حياتك بأكملها داخلها، هائماً في الإقصاء المظلم.

تركت قبلة بيبي كوتشاما الخاصة بتصبحين على خير، قطرة بصاق صغيرة على خد راحيل. مسحتها بكتفها.

«تصبحين على خير فليباركك الله» قالت آمو. لكنها قالتها بظهرها. كانت قد ذهبت مسبقاً.

«تصبحين على خير» قال إستا، أكثر مرضاً من أن يحب أخته.

راقبتهم راحيل الوحيدة ينزلون ممر الفندق مثل أشباح صامتة لكن حقيقية. اثنان كبيران، وواحد صغير بحذاء بيج مستدق الطرف. أبعدت السجادة الحمراء أصوات خطواتهم.

وقفت راحيل في مدخل غرفة الفندق مليئة بالحزن.

كان في أعماقها حزن قدوم صوفي مول. حزن كون آمو تحبها أقل قليلاً. وحزن أيٍّ كان ما فعله رجل مشروبات البرتقال والليمون لإستا في آبهاليش توكيز.

هبّت ريح قارصة عبر عينيها المتوجعتين الجافتين.

وضع تشاكو رجل دجاجة وبعض رقائق أصبعية في ربع صحن من أجل راحيل.

«لا شكراً لك» قالت راحيل، متأمّلة أن تلغي آمو عقوبتها، إذا ما استطاعت هي بطريقة ما أن تطبق عقوبتها الخاصة.

«وماذا عن قليل من البوظة مع صلصة شوكولاة؟» قال تشاكو.

«لا شكراً لك» قالت راحيل.

«حسناً» قال تشاكو. «لكنك لا تدرين ماذا تفوّتين.»

أنهى كل الدجاج ومن ثم كل البوظة.

بدّلت راحيل وارتدت بيجامتها.

«أرجوك ألاّ تخبريني عن سبب معاقبتك»، قال تشاكو. «لا أستطيع احتمال معرفته.» كان يمسح صلصة الشوكولاة الأخيرة في مركب الشوكولاة مع قطعة من باراثاس. حلواه المقرفة لما بعد الحلوى. «ماذا كان السبب؟ حك قرصات البعوض حتى نزفت؟ عدم قول «شكراً» لسائق التاكسي؟»

«أمر أكثر سوءاً بكثير من ذلك»، قالت راحيل وفية لآمو.

«لا تخبرينني»، قال تشاكو. «لا أريد أن أعرف.»

قرع من أجل خدمة الغرف، وقدم حامل مرهق ليأخذ الأطباق والعظام. حاول أن يمسك بروائح العشاء، لكنها هربت وتسلقت داخل ستائر الفندق البنية الرخوة.

ابنة أخت دون عشاء وخالها المليء بالعشاء، نظفا أسنانهما سوية في حمام فندق **ملكة البحر**. هي، مُدانة قصيرة بدينة مهجورة بائسة في بيجامة مخططة ونافورة الحب ـ في ـ طوكيو. وهو، في صداره القطني وبنطاله الداخلي. صداره، مشدود وممطوط فوق معدته الدائرية مثل جلد ثانٍ، تقاعس فوق غور صرته.

عندما ثبّتت راحيل فرشاة أسنانها المزبدة وحركت أسنانها عوضاً عنها، لم يقل أن عليها ألاّ تفعل ذلك.

فهو ليس فاشياً.

بصقا كلّ بدوره. تفحصت راحيل ملياً رغوة البيانكا[1] البيضاء وهي تسيل إلى الأسفل على جانب الحوض بتأنٍ، لترى ما تستطيع ان تراه.

---

(١) ـ بيانكا: نوع من أنواع معجون الأسنان. (المترجمة).

ما هي الألوان والمخلوقات الغريبة التي لُفظت من الفراغات التي بين أسنانها؟

لا شيء الليلة. لاشيء غريب. فقط فقاعات بيانكا.

أطفأ تشاكو النور الكبير.

في السرير، نزعت راحيل الحب ـ في ـ طوكيو خاصتها ووضعتها بجانب نظارتها الشمسية. هبطت نافورتها قليلاً، لكنها بقيت واقفة.

استلقى تشاكو في السرير في بركة من النور من مصباح سريره الجانبي. رجلاً سميناً على مسرح معتم. امتدّ إلى قميصه الملقي مجعداً عند قدم سريره. أخرج محفظته من جيبه، ونظر إلى صورة صوفي مول التي أرسلتها له مارغريت موتشاما منذ عامين.

راقبته راحيل ونشرت فراشتها الباردة أجنحتها ثانية. ببطء نحو الخارج، ببطء نحو الداخل. ومضة كسولة لحيوان مفترس.

كانت الشراشف خشنة لكن نظيفة.

أغلق تشاكو محفظته وأطفأ النور. في العتمة، أشعل شارمينار[1] وتساءل كيف تبدو ابنته الآن. في التاسعة من عمرها. في آخر مشهد لها كانت حمراء ومتغضنة. بالكاد إنسان. بعد ثلاثة أشهر، مارغريت زوجته، حبه الوحيد، بكت وأخبرته عن جو.

أخبرت مارغريت تشاكو انها لم يعد باستطاعتها العيش معه. أخبرته أنها تحتاج لفضائها الخاص. وكأن تشاكو كان يستخدم رفوفها هي من أجل ملابسه هو. الأمر الذي، بمعرفته، من الجائز أنه قد فعله.

طلبت منه الطلاق.

تلك الليالي الملّوعة القليلة الأخيرة قبل أن يغادرها، كان تشاكو ينزلق

(١) ـ نوع سيجار. (المترجمة).

خارج سريره مع مصباحه اليدوي وينظر إلى طفلته النائمة. ليدرسها. ليطبعها في ذاكرته. ليضمن أنه حين يفكر فيها، فإن الطفلة التي سيستحضرها ستكون صحيحة تماماً. حفظ عن ظهر قلب الجزء السفلي البني لجمجمتها الطرية. شكل فمها المجعّد المتحرك باستمرار. الفراغات التي بين أصابع قدميها. اقتراح شامة. ومن ثم، ودون أن يقصد وجد نفسه يفتش في ابنته عن علامات لـ«جو». قبضت الطفلة على إصبعه الكشاف بينما كان يقود دراسته (المضاءة بمصباح يدوي)، الحسودة المحطمة والمجنونة. برزت صرّتها من بقعة معدتها المتخمة مثل نصب تذكاري مقبّب فوق هضبة. وضع تشاكو أذنه مقابلها واستمع بتعجّب إلى القرقرة في الداخل. كانت الرسائل تُرسل من هنا إلى هناك. أعضاء جديدة تتعرّف على بعضها البعض. حكومة جديدة تؤسس أنظمتها. منظمة توزيع العمل، مقررة من سيقوم بماذا.

كانت تفوح برائحة حليب وبول. دُهش تشاكو كيف أن أحداً في هذه الدرجة من الصغر وعدم التحديد، مبهماً جداً في شبهه، من الممكن أن يفرض الانتباه والحب *وسلامة العقل* على رجل ناضج.

عندما غادر، شعر أن شيئاً قد مُزّق منه. شيئاً كبيراً.

لكن جو ميت الآن. قتل في حادث سيارة. ميت مثل مقبض باب. ثقب بشكل جو في الكون.

في صورة تشاكو، كانت صوفي مول في السابعة من عمرها. بيضاء وزرقاء. زهرية الشفاه، ليست مسيحية سورية في أي مكان. بالرغم من أن ماماتشي المحدقة في الصورة، أصّرت أن لها أنف باباتشي.

«تشاكو؟» قالت راحيل من سريرها المُعتّم. «هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟»

«اسألي اثنين»، قال تشاكو.

«تشاكو، هل تحب صوفي مول أكثر من أي أحد آخر في العالم؟»

«انها ابنتي»، قال تشاكو.

أخذت راحيل ذلك في اعتبارها.

«تشاكو؟ هل من *الضروري* أن **على** الناس أن يحبوا أولادهم أكثر من أي أحد آخر في العالم؟»

«لا توجد قواعد»، قال تشاكو. «لكن الناس يفعلون ذلك عادة.»

«تشاكو على سبيل المثال»، قالت راحيل. «فقط على سبيل *المثال*، هل من الممكن ان تحب آمو صوفي مول أكثر مني ومن إستا؟ أو ان تحبني أنت أكثر من صوفي مول، على سبيل *المثال*؟»

«أي شيء ممكن في الطبيعة البشرية»، قال تشاكو في صوته العالي الخاص بالقراءة. متكلماً إلى العتمة الآن، فاقداً الاحساس فجأة بابنة أخته الصغيرة ذات الشعر النافوري. «الحب. الجنون. الأمل. الفرح اللانهائي.»

من بين الأمور الأربعة المحتملة في الطبيعة البشرية، اعتقدت راحيل أن *الفرح اللانهائي* يبدو الأكثر حزناً. ربما بسبب الطريقة التي قالها فيها تشاكو.

الفرح اللانهائي. بصوت كنائسي. مثل سمكة حزينة بزعانف على جميع أنحاء جسمها.

فراثة باردة رفعت ساقاً باردة.

تموّج دخان السيجارة في الليل. واستلقى الرجل السمين والفتاة الصغيرة مؤرقين في الصمت.

على بعد بضعة غرف، وبينما كانت البيبي أخت جدته تشخر، استيقظ إستا.

كانت آمو نائمة وجميلة في ضوء ليل الطريق المخطط الداخل من خلال النافذة المزودة بقضبان. ابتسمت ابتسامة نوم حالمة بدلافين وبأزرق غامق مخطط. كانت ابتسامة لا تحمل أية علامة على أن الشخص الذي تنتمي إليه كان قنبلة على وشك الانفجار.

سار إستا الوحيد بشكل منسوج متذبذب إلى الحمام. تقيأ سائلاً فواراً براقاً ليمونياً مرّاً واضحاً. الطعم اللاذع للمواجهة الأولى لرجل صغير مع الخوف. ترالا لا.

شعر بتحسّن قليل. انتعل حذاءه ومشى خارج الغرفة، مجرجراً رباط حذائه، في الممر، ووقف بهدوء على باب راحيل.

وقفت راحيل على كرسي وفتحت قفل الباب له.

لم يزعج تشاكو نفسه في أن يتساءل كيف كان من الممكن لها معرفة أن إستا كان عند الباب. لقد كان معتاداً على غراباتهما في بعض الأحيان.

استلقى مثل حوت شاطئي على سرير الفندق الضيق وتساءل بتثاقل فيما إذا كان حقاً فيلوثا من رأته راحيل. لم يفكر بالأمر على أنه محتمل. كان كل شيء يجري بشكل جيد مع فيلوثا. كان Paravan له مستقبل. تساءل فيما إذا كان فيلوثا قد أصبح عضواً عاملاً في حزب الرفيق ك. ن. م. بيلاي. وفيما إذا كان يلتقي بالرفيق ك. ن. م. بيلاي مؤخراً.

في وقت سابق من السنة، كانت طموحات الرفيق ك. ن. م. بيلاي السياسية قد مُنحت انتعاشاً غير متوقع. فقد طرد عضوان محليان من الحزب الرفيق ج. كاتوكاران والرفيق جوهان مينون كمشتبهين ناكساليين. وأحدهما ـ الرفيق جوهان مينون ـ كان قد أُستميل ليكون مرشح الحزب لانتخابات كوتاياما من أجل مجلس النواب التشريعي المستحقة في شباط القادم. وقد خلق اقصاؤه عن الحزب فراغاً بحيث أن عدداً من المتأملين المتفائلين كانوا يخدعون ويناورون ليملأوه. من بينهم كان الرفيق ك. ن. م. بيلاي.

كان الرفيق ك. ن. م. بيلاي قد بدأ في متابعة ما يحدث في **مخللات الجنة** بحماسة وحرص احتياطي في لعبة كرة قدم. ليُدخل اتحاد عمال جديد، لكن صغير، إلى ما أمل أن تكون دائرته الانتخابية المستقبلية، الأمر الذي سيكون بداية ممتازة لرحلته إلى المجلس النيابي التشريعي.

حتى ذلك الحين، وفي **مخللات الجنة**، لم تكن رفيق! رفيق! (كما كانت قد صاغتها آمو) أكثر من لعبة غير مؤذية تُلعب خارج ساعات العمل. ولكن إذا ما ارتفعت الرهانات، وانتزعت هراوة المدير من تشاكو، كان الجميع يعرف (عدا تشاكو) أن المصنع الغارق في الديون، سيقع في كارثة.

فالأمور لم تكن تجري بشكل جيد على الصعيد المالي، كان يُدفع للعمال أجور أقل من الحد الأدنى المحدد من قبل نقابة العمال. طبعاً كان تشاكو نفسه من نبّههم إلى هذا ووعدهم أنه حالما تتحسن الأمور، فإن رواتبهم ستُعدّل. كان يعتقد أنهم يثقون به ويعرفون أنه يحرص جداً على مصالحهم في أعماقه.

لكن كان هناك من يفكر بطريقة أخرى. في الأمسيات، وبعد انتهاء مناوبة المصنع، كان الرفيق ك. ن. م بيلاي يكمن للعاملين في **مخللات الجنة** ويسوقهم إلى مطبعته. وبصوته النحيل الحاد كان يدفعهم إلى الثورة. تناول في خطاباته مزيجاً ذكياً من القضايا المحلية الوثيقة الصلة بالموضوع وبلاغة ماوية[1] مفخّمة والتي بدت أفخم حتى بالمالايالام.

«يا شعوب العالم»، كان يزقزق «كونوا شجعان، *تجرؤوا* على القتال، *تحدّوا* الصعاب وتقدموا موجة إثر موجة. عندها العالم بأجمعه سيكون للشعوب. يجب أن تباد الوحوش من كل الأنواع. يجب أن تطالبوا بحقوقكم. علاوات سنوية. صناديق إدخار. تأمين ضد الحوادث». حيث كانت هذه الخطابات بروفة لحين يخطب العضو المحلي للمجلس النيابي التشريعي، الرفيق ك. ن. م بيلاي، في الجماهير المحتشدة، فقد كان هناك شيء غريب في حدّتها وإيقاعها. كان صوته مليئاً بحقول الأرز الخضراء والرايات التي تنحني تحت سماوات زرقاء بدلاً من غرفة صغيرة حارة ورائحة حبر الطابعة.

لم يجاهر الرفيق ك. ن. م. بيلاي علانية أبداً ضد تشاكو. وكلما كان يشير إليه في خطاباته كان حريصاً على تجريده من سماته الانسانية وتقديمه

---

(١) - نسبة إلى ماو. (المترجمة).

كمجرد موظف في مؤامرة كبيرة. بناء نظري. بيدق بيد المؤامرة البرجوازية الفاحشة الشنيعة لتقويض الثورة. لم يكن يُشير إليه أبداً بالاسم، وإنما دوماًبـ «الادارة». وكأن تشاكو كان العديد من الناس. علاوة على كونه الشيء الصحيح الذي يجب أن يُفعل تكتيكياً، هذا الفصل بين الرجل وعمله، ساعد الرفيق بيلاي على المحافظة على ضميره مرتاحاً بشأن معاملاته التجارية الخاصة مع تشاكو. أعطاه عقده في طباعة ملصقات **مخللات الجنة** دخلاً كان في أشد الحاجة إليه. قال لنفسه أن تشاكو ـ الزبون وتشاكو ـ الادارة، كانا شخصين مختلفين. مستقلين تماماً بالطبع عن تشاكو ـ الرفيق.

كان فيلوثا النتوء الوحيد في ترتيبات الرفيق ك. ن. م. بيلاي. فمن بين جميع العمال في **مخللات الجنة**، كان فيلوثا الوحيد عضواً يحمل بطاقة الحزب، وذلك أعطى الرفيق بيلاي حليفاً كان يفضّل ألاّ يكون. فهو يعرف أن بقية العمال غير المنبوذين ممتعضون من فيلوثا لأسباب قديمة تخصهم. كان الرفيق بيلاي يخطو بحذر حول هذه العثرة، منتظراً فرصة مناسبة ليزيلها.

بقي على اتصال مستمر مع العمال. وجعل من أولوياته أن يعرف بالضبط ماذا يجري في المصنع. سخر منهم لقبولهم الأجور الزهيدة، في حين أن حكومتهم، حكومة الشعب، كانت في السلطة.

وعندما جلب بوناتشين المحاسب الذي يقرأ لماماتشي الصحف كل صباح، أخباراً عن أقاويل بين العمال حول المطالبة بزيادة، غضبت ماماتشي. «قل لهم أن يقرؤوا الصحف. هناك مجاعة قائمة. لا يوجد هناك وظائف. الناس يموتون من الجوع. يجب أن يكونوا ممتنين لأن لديهم عملاً *في الأصل*.»

كلما حدث أي شيء هام في المصنع، كانت الأخبار تُنقل دوماً إلى ماماتشي وليس إلى تشاكو. ربما لأن ماماتشي كانت تتلاءم كما ينبغي مع المخطط التقليدي. كانت الرئيس الحقيقي. وتقوم بدورها تماماً. فقد كانت ردودها، القاسية على أية حال، مباشرة ومتنبأ بها. بينما تشاكو، من الناحية

الأخرى، بالرغم من كونه رجل البيت، وبالرغم من أنه كان يقول، «مخللاتي *أنا*، مربياتي *أنا*، بودرة الكاري *خاصتي*»، إلاّ أنه كان مشغولاً جداً بتجريب أزياء مختلفة مما كان يشوش خطوط المعركة.

حاولت ماماتشي أن تحذّر تشاكو. سمعها، لكنه لم يكن يُصغي إلى ما تقوله. وهكذا بالرغم من الهدير المبكر للاستياء في فرضيات **مخللات الجنة**، استمر تشاكو في بروفته للثورة، في لعب *رفيق*! *رفيق*!

تلك الليلة، على سرير الفندق الضيق، كان يفكر باسترخاء حول التمهيد لأخذ مكان الرفيق بيلاي بتنظيم عماله في نوع من اتحاد عمال خاص. سينظم انتخابات لهم. سيجعلهم يصوتون. سيكون بامكانهم شغل مناصب ممثلين منتخبين كلٌ بدوره. ابتسم لفكرة إقامة مفاوضات طاولة مستديرة مع الرفيق سوماتي، أو، حتى أفضل، الرفيق لاكيكوتين الذي يملك شعراً أجمل بكثير.

عادت أفكاره إلى مارغريت كوتشاما وصوفي مول. أربطة عاتية عنيفة من الحب أُحكمت حول صدره حتى استطاع بالكاد أن يتنفس. اضطجع مستيقظاً وأحصى الساعات الباقية لهم ليغادروا المطار.

على السرير المجاور، نام ابنة أخته وابن أخته وذراعاهما حول بعضهما البعض. توأم حار وآخر بارد. هو وهي. **نحن** ونا[1]. غير غافلين تماماً، بطريقة ما، عن إشارة الهلاك وكل ما ينتظرهما في الأجنحة.

حلما بنهرهما.

بأشجار جوز الهند التي انحنت داخله وراقبت بعينين جوز هنديتين، القوارب وهي تنزلق عابرة. عكس التيار في الصباحات. وباتجاه التيار في الأمسيات. وبالصوت الرتيب المتجهم لعصي الملاحين الخيزرانية وهي ترتطم على خشب القارب الغامق المزيّت.

---

(١) ـ ضمير المتكلم للجماعة. (المترجمة).

كانت دافئة، المياه. خضراء رمادية. مثل حرير متموج.

بأسماكها...

بسمائها وأشجارها...

وفي الليل، القمر الأصفر المكسور فيها.

وأصبحا تعبين من الانتظار، صعدت روائح العشاء من الستائر وانجرفت عبر نوافذ **ملكة البحر** لترقص الليل بعيداً على بحر يفوح برائحة عشاء.

كان الوقت الثانية إلاّ عشر دقائق.

٥

بلد الله الخاص

بعد سنوات من ذلك، عندما عادت راحيل إلى النهر، حيّاها بابتسامة جمجمة مريعة، وبتجويف موضع الأسنان، وبيد هزيلة رخوة ارتفعت من سرير مستشفى.

أمران اثنان كانا قد حدثا.

تقلّص هو. وهي كبرت.

كان قد شيّد سد للمياه المالحة باتجاه التيار، في مقابل تصويت جماعة مزارعي الأرز النافذين. كان السد ينظم تدفق المياه المالحة القادمة من المياه الراكدة المفتوحة على بحر الخليج العربي. وهكذا أصبح لديهم حصادان بدلاً من واحد في السنة. أرز أكثر، كثمن لنهر.

بالرغم من حقيقة أنه كان شهر حزيران، وأنها كانت تمطر، لم يكن النهر أكثر من مجرور متورّم. شريطة رفيعة من المياه السميكة التي تلتف بضجر في الضفتين الموحلتين على كلا الجانبين، مرصعةً بالانحراف العرضي للأسماك الفضية الميتة. كان مختنقاً بالأعشاب الغضة التي كانت جذورها البنية الفروية تتموج مثل مجسات تحت الماء. كوارع زنبقية برونزية الأجنحة مشت عبره. مفلطحة الأرجل. حذرة.

فيما مضى كان لديه القدرة على إثارة الخوف. على تغيير الحيوات. ولكن الآن، سُحبت أسنانه وأُستهلكت روحه. عشب شريطي أخضر موحل يقود النفاية المنتنة إلى البحر فحسب. أكياس بلاستيكية براقة هبّت عبر سطحه اللزج المليء بالأعشاب الضارة، مثل أزهار شبه استوائية مرفرفة.

والدرجات الحجرية التي كانت في الماضي تقود السابحين مباشرة داخل الماء، والصيادين إلى الأسماك، كانت قد هُجرت تماماً وأصبحت تقود من لا مكان إلى لا مكان، مثل نصب تذكاري عبثي سخيف يحيي ذكرى لاشيء. واندفعت السراخس عبر التشققات.

على الجهة الأخرى من النهر، تحولّت ضفاف النهر الموحلة شديدة الانحدار على نحو مفاجىء إلى جدران وحل منخفضة من معسكرات الأكواخ. كان الأطفال يدلّون مؤخراتهم ويتغوطون مباشرة فوق الوحل الماص الذليل لسرير النهر المشكوف. أما الأولاد الأصغر سناً فقد كانوا يتركون خطوط خردلهم المتقّطر لتجد طريقها إلى الأسفل. أخيراً، وبحلول المساء، يستنهض النهر نفسه ويقبل عروض النهار ويرسّبها في البحر، تاركاً خطوطاً متماوجة من الرغوة البيضاء في يقظته. وضد التيار، كانت أمهات نظيفات يغسلن الملابس والقدور في الجريان غير المغشوش. والناس تستحم. أبدان مبتورة تغسل أنفسها بالصابون، مصفوفة مثل تماثيل نصفية في مرج شريطي مهتز نحيل.

في الأيام الحارة كانت رائحة الخراء تترك النهر وتحوّم فوق أيمينيم كقبعة.

أبعد إلى الداخل، اشترت سلسلة فنادق خمس نجوم **قلب الظلمات**.

بيت التاريخ (حيث أسلاف بأنفاس الخرائط وأظافر أقدام قاسية، همسوا ذات مرة) لم يعد بالامكان الاقتراب منه انطلاقاً من النهر. كان قد أدار ظهره لأيمنم. وأصبح نزلاء الفندق يُنقلون عبر المياه الراكدة الخلفية مباشرة من كوتشين. كانوا يصلون بقوارب سريعة، محدثين زبداً بشكل حرف V على الماء، تاركين خلفهم غشاوة قوس قزحية من البنزين.

كان المنظر جميلاً من الفندق، لكن هنا أيضاً المياه سميكة وسامة. وقد نصبت شارات *لا سباحة* بخط أنيق دارج. وبنوا جداراً طويلاً ليحجبوا حي الفقراء وليمنعوهم من الاعتداء على مزرعة كاري سايبو. لم يكن هناك الكثير مما يستطيعون فعله بشأن الرائحة.

ولكن لديهم مسبحاً يتمتعون من حوله. وتاندوري بومفريت وكريب سوزيت على لائحة طعامهم.

كانت الأشجار ما تزال خضراء، والسماء ما تزال زرقاء، الأمر الذي احتسب من أجل شيء ما. وهكذا انطلقوا وسدّوا جنتهم المنتنة ـ كانوا يدعونها في نشراتهم «**بلد الله الخاص**» ـ لأنهم كانوا يعرفون، جماعة الفنادق الأذكياء أولئك، أن النتانة مثل فقر الناس الآخرين، مجرد قضية تعوّد. مسألة انضباط. **الرعشة** وتكييف هواء. لا أكثر.

كان منزل كاري سايبو قد جُدّد ودهن. أصبح القطعة المركزية في تقاطعات تفصيلية معقدة وقنوات اصطناعية وجسور رابطة. كانت قوارب صغيرة تتمايل في الماء. وكان البنغل[1] الاستعماري القديم بشرفاته العميقة وأعمدته الدورية[2]، قد أُحيط بمنازل خشبية أصغر وأكثر قدماً ـ منازل سلفية ـ اشترتها سلسلة الفنادق من عائلات هرمة وزرعتها في **قلب الظلمات**. **لعب تاريخ** ليلعب فيها سياح أغنياء. كانت المنازل القديمة قد رُتبت حول **بيت التاريخ** في وضعية خضوع، مثل حزم الأرز في حلم يوسف، أو حشد من المواطنين المشتاقين التوّاقين يقدّمون عريضة إلى قاضٍ انكليزي. كان الفندق يُدعى «**التراث**» .

أحب جماعة الفندق أن يخبروا زوارهم أن المنزل الأقدم من المنازل الخشبية، بمخزنه ذي الحشوات الكتيمة والذي كان من الممكن أن يتسع لأرز بما يكفي لإطعام جيش، كان المنزل الموروث للرفيق ي. م. س. نامبوديرپياد، «الماو

---

(١) ـ منزل بطابق واحد. (المترجمة).

(٢) ـ خاص بأقدم وأبسط الطرز المعمارية الاغريقية القديمة. (المترجمة).

تسي ـ تانغ الخاص بكيرالا» ، كما كانوا يشرحون لغير العارفين. كانت المفروشات والتحف معروضة. مظلة خيزرانية. كنبة من أغصان أملود. صندوق دوطة خشبي. وكانت مُعلّمة بلصاقات معرّفة تقول: *مظلة كيرالية تقليدية و صندوق دوطة زفافي تقليدي.*

وهكذا إذن التاريخ والأدب مجنّدان للبيع والشراء. كورتز وكارل ماركس يشاركان النخيل في تحية السياح الأغنياء وهم ينزلون من قواربهم.

كان يُستخدم منزل الرفيق نامبوديريباد كغرفة طعام الفندق، حيث يرشف سياحٌ نصف مدبوغين بالشمس، في ثياب استحمام، ماء جوز هند ريّان (مُقدّم في قواقع)، وحيث ينحني قليلاً شيوعيون قدماء يعملون الآن كحاملين متزّلفين في ثياب عرقية عنصرية ملونة خلف صواني المشروبات.

في الأمسيات (ومن أجل نكهة محلية) كان الزوار يُستضافون ليقطعوا مسرحيات كاثاكالية («آماد انتباه قصيرة» كان أُناس الفندق يشرحون للراقصين). وهكذا انهارت وبُترت قصص عريقة. وابتسرت كلاسيكيات مدتها ست ساعات إلى ظهور مختصر من عشرين دقيقة.

كانت تُقدّم الرقصات على طرف المسبح. وبينما تُقرع الطبول ويرقص الراقصون، يمرح زوار الفندق مع أطفالهم في الماء. وبينما تذيع كونتي سرها لكارنا على ضفة النهر، يدلك أزواج متغازلين زيت البرونزاج لبعضهما البعض. وفيما يلعب آباء ألعاباً جنسية تصعيدية مع بناتهم المراهقات القابلات للزواج، كانت بوثانا تُرضع كريشنا الصغير من صدرها المسمم. وبهيما تنزع أحشاء دوشاسانا وتحمم شعر دراوبادي في دمائه.

كانت الشرفة الخلفية لبيت التاريخ (حيث تجّمع حشد من رجال الشرطة غير المنبوذين، وحيث انفجرت أوزة قابلة للنفخ) قد أُغلقت وتحولت إلى مطبخ هوائي. لم يكن هناك أسوأ من الكباب وكستر الكارميلا الذي كان يُصنع هناك. كان الرعب قد انقضى. قُهر برائحة الطعام. أُسكت بهمهمة الطهاة. بالتقطيع المبتهج لقطع الزنجبيل والثوم. بنزع أحشاء أحطّ الثدييات ـ الخنازير والماعز. بتكعيب اللحم. ونزع حراشف السمك.

شيء ما تمدّد مدفوناً في الأرض. تحت العشب. تحت ثلاثة وعشرين عاماً من مطر حزيران.

شيء صغير منسيّ.

لاشيء قد يفتقده العالم.

ساعة معصم بلاستيكية لطفلة، بالوقت مرسوم عليها.

كانت تُعلن الثانية إلاّ عشر دقائق.

تبعت كوكبة من الأطفال راحيل في نزهتها.

«مرحبا، أيتها الهيبية»، قالوا، متأخرين جداً بخمسة وعشرين عاماً. «ما اسمك؟»

ثم رماها أحدهم بحجر صغير، وأفلتت طفولتها، مرفرفة أذرعها النحيلة.

في طريق عودتها، وهي تدور حول منزل أيمنيم، برزت راحيل على الطريق الرئيسية. هنا أيضاً كانت المنازل قد نبتت كالفطر، ولم تكن هناك سوى حقيقة انها قد عششت تحت الأشجار، وان الدروب التي تتفرع عن الطريق الرئيسية وتقود إليها، لم تكن صالحة لمرور المركبات، مما أعطى ايمينيم مظهرالسكون الريفي. في الواقع، كان سكانها قد تضخموا إلى حجم مدينة صغيرة. وخلف الواجهة الهشّة للخُضرة كانت تعيش جمهرة من الناس تستطيع أن تتجمع في لحظة الإخطار. ليضربوا حتى الموت سائق باص مهملاً. ليسحقوا الواجهة الزجاجية لسيارة تجرأت أن تخاطر في يوم مظاهرة للمعارضة. وليسرقوا أنسولين بيبي كوتشاما المستورد وكعكات الزبدة خاصتها التي أُتت طوال الطريق من بيست باكري[1] في كوتايام.

خارج المطبعة المحظوظة، كان الرفيق ك. ن. م بيلاي واقفاً عند جداره يتكلم مع رجل على الجهة المقابلة. كانت ذراعا الرفيق بيلاي متصالبتين فوق صدره، وكان يحضن إبطيه بشكل غيور وكأن أحدهم كان قد طلب

(١) ـ أفضل مخبز. (المترجمة).

استعارتهما ورفض هو للتو. كان الرجل عبر الجدار يخلط باقة من الصور في كيس بلاستيكي في هيئة اهتمام مفتعل. كانت الصور في معظمها لابن الرفيق ك. ن. م. بيلاي، لينين، الذي يعيش ويعمل في دلهي - حيث يقوم بأعمال الدهان والسمكرة وأية أعمال كهربائية - للسفارتين الهولندية والألمانية. ومن أجل تهدئة أية مخاوف قد تكون لدى زبائنه بشأن ميوله السياسية، كان قد عدّل اسمه قليلاً. كان يدعو نفسه الآن ليفين. ب. ليفين.

حاولت راحيل أن تعبر دون ان تُلاحَظ. لقد كان سخفاً منها أن تتصور أن بإمكانها القيام بذلك.

«ها، البنت راحيل !» قال الرفيق ك. ن. م. بيلاي، متعرّفاً عليها حالاً.
«أوركونيللي؟ العم الرفيق؟»

«أوير»، قالت راحيل.

هل تذّكرته ؟ قالت نعم.

لم يكن لا السؤال ولا الجواب يعنيان شيئاً أكثر من تمهيد مهذب لمحادثة. كلاهما، هو وهي، كانا يعلمان أن هناك أموراً من الممكن أن تُنسى. وأموراً لا يمكن نسيانها - تجلس على رفوف مغبّرة مثل طيور محنّطة بعيون مؤذية محدّقة جانبياً.

«إذاً!» قال الرفيق بيلاي. «أعتقد أنك في أمايريكا[1] الآن ؟»

«لا»، قالت راحيل. «أنا هنا.»

«نعم نعم»، بدا متبرماً قليلاً، «لكن بطريقة أخرى في أمايريكا، أعتقد؟»

فكّ الرفيق بيلاي تصالب ذراعيه. استرقت حلمتاه النظر إلى راحيل من فوق الجدار مثل عيني القديس بيرنارد الحزينتين.

«هل عرفتها؟» سأل الرفيق بيلاي الرجل صاحب الصور، مشيراً إلى راحيل بذقنه.

---

(١) - أميريكا. لفظها على طريقة الهنود. (المترجمة).

لم يعرفها الرجل.

«ابنة ابنة **مخللات جنة** كوتشاما القديمة»، قال الرفيق بيلاي.

بدا الرجل مشوشاً. من الواضح أنه كان غريباً. وليس آكل مخللات. حاول الرفيق بيلاي مساراً مختلفاً.

«بونيان كونجو؟» سأله. ظهر بطريرك انطاكيا بشكل موجز في السماء - ولوّح بيده الذاوية.

بدأت الأمور تأخذ مكانها بالنسبة للرجل صاحب الصور. هزّ رأسه بحماس.

«ابن بونيان كونجو؟ بنان جون إبي؟ الذي كان في دلهي؟» قال الرفيق بيلاي.

«*أوير أوير أوير*»، قال الرجل.

«هذه ابنة ابنته. في أمايريكا الآن.»

أومأ المومىء بينما كان نسب راحيل السلالي يأخذ مكانه بالنسبة إليه.

«*أوير أوير أوير*. في أمايريكا الآن، أليس كذلك.» لم يكن سؤالاً. كان إعجاباً محضاً.

تذكّر بغموض نفحة فضيحة. لقد نسي التفاصيل، لكنه تذكر أنها تضمنت جنساً وموتاً. وأنها كُتبت في الجرائد. بعد صمت وجيز وسلسلة أخرى من الايماءات الصغيرة، سلّم الرجل كيس الصور للرفيق بيلاي.

«حسناً إذن، يا رفيق، سأرحل.»

كان عليه ان يلحق بباص.

«إذاً !» اتسعّت ابتسامة الرفيق بيلاي وهو يحوّل كل اهتمامه إلى راحيل. كانت لثته وردية على نحو مريع، المكافأة على نباتية عمرٍ عنيدة. إنه ذلك النوع من الرجال الذين من الصعب تخيّل أنهم قد كانوا صبياناً. أو

أطفالاً. كان يبدو وكأنه قد وُلد كهلاً. بخط شعر متراجع.

«وزوج البنت؟» أراد أن يعرف.

«لم يأتِ»

«هل هناك من صور؟»

«لا.»

«الاسم.»

«لاري. لاورنس.»

«*ويو. لاورنس.*» هزّ الرفيق برأسه وكأنه كان موافقاً عليه. وكأنه إن أعطي خياراً، فسيختاره هو بالضبط.

«أية ذرية ؟»

«لا.» قالت راحيل.

«ما زال في مراحل التخطيط، كما أفترض؟ أم أنك تنتظرين ؟»

«لا.»

«لا بد من واحد. صبياً بنتاً. أيّاً كان»، قال الرفيق بيلاي. «اثنان هو خيارك بالطبع.»

«نحن مطلقان.» أملت راحيل أن تصدمه و تسكته.

«مط ـ لقان ؟» ارتفع صوته إلى نبرة عالية لدرجة أنه فرقع بإشارة الاستفهام. حتى انه لفظ الكلمة وكأنها صيغة موت.

«إن ذلك هو النحس الأكبر»، قال، عندما ثاب. ولسبب ما كان يستخدم لغة كتبية لا لمسة فيها. «الن ـ حس الأكبر».

ظهر للرفيق بيلاي ان هذا الجيل من الممكن أنه يدفع ثمن انحطاط أسلافه لبرجوازي.

أحدهما كان مجنونًا. والأخرى مط ـ لقة. ومن المحتمل أن تكون عاقرًا.

ربما كانت *هذه* هي الثورة الحقيقية. بدأ البرجوازيون المسيحيون تدمير الذات.

أخفض الرفيق بيلاي صوته وكأنه هنالك من يستمع، بالرغم من خلو المكان.

«والصبي؟» همس على انفراد. «كيف هو ؟»

«بخير»، قالت راحيل. «إنه بخير»،

بخير. مسطح وبلون العسل. إنه يغسل ملابسه بصابون مقتت.

«*أيوو باڤام*[1]»، همس الرفيق بيلاي، وتدلّت حلمتاه بفزع زائف. «يا للمسكين.»

تساءلت راحيل عما جناه من سؤالها بهذا القرب ومن ثم تجاهل إجاباتها كلياً. من الواضح أنه لم يكن يتوقع منها أن تقول الحقيقة، ولكن لماذا لم يكلّف نفسه على الأقل بالتظاهر بعكس ذلك ؟

«لينين في دلهي الآن»، جهر بها الرفيق بيلاي أخيراً، عاجزاً عن إخفاء فخره. «إنه يعمل مع سفارات اجنبية. انظري!»

سلّم راحيل كيس السيلولفان. كانت في معظمها صوراً للينين وعائلته. زوجته، ولده، دراجته الباجاج[2] الجديدة. كانت هناك واحدة للينين وهو يصافح رجلاً أنيقاً جداً، رجلاً وردياً للغاية.

«السكرتير الأول الألماني»، قال الرفيق بيلاي.

بدا لينين وزوجته مبتهجين في الصورة. وكأنهما كانا قد حصلا على براد جديد في قاعة استقبالهما ودفعة أولى في شقة.

تذكرت راحيل الحادثة التي جعلت لينين يسبح إلى داخل المركز كشخص حقيقي بالنسبة لها ولإستا، عندما توقفا عن اعتباره كمجرد ثنية في ساري أمه. كانت هي وإستا في الخامسة من عمرهما، و كان لينين في الثالثة

---

(١) - مثير للشفقة. (المترجمة).

(٢) - اسم ماركة دراجة هوائية. (المترجمة).

ربما أو الرابعة. التقوا في عيادة الدكتور فيرغيس فيرغيس (طبيب أطفال كوتاياما ولامس الأمهات الطليعي). كانت راحيل مع آمو وإستا (الذي كان قد أصرّ على أن يذهب معهما). وكان لينين مع أمه، كالاياني. كان لدى راحيل ولينين الشكوى ذاتها ـ أشياء غريبة مقيمة في أنفيهما. يبدو الأمر مصادفة عجيبة الآن، لكن بطريقة ما لم يكن يبدو كذلك عندها. إنه لمن الطريف كيف تكمن السياسة حتى في ما يختاره الأطفال لحشوِ أنوفهم به. هي، حفيدة عالم حشرات امبراطوري، وهو ابن عامل راديكالي أساسي في الحزب الماركسي. وهكذا، هي خرزة زجاجية، وهو غرام أخضر.

كانت غرفة انتظار محتشدة.

همهمت أصوات شريرة من وراء ستارة الطبيب، مقطوعة بعواءات من أولاد بربريين. كان هناك صليل زجاج فوق معدن، ووشوشة فقاعات ماء يغلي. لعب صبي بلافتة (*الطبيب موجود الطبيب غير موجود*) الخشبية الموجودة على الجدار، محركاً اللوحة النحاسية إلى الأعلى والأسفل. حزق طفل محموم على صدر أمه. وشرّحت مروحة السقف البطيئة الهواء السميك المذعور في حلزون لانهائي دوّم ببطء نحو الأرض مثل جلد مقشور لبطاطا لانهائية.

لم يكن أحد يقرأ المجلات.

جاءت من تحت الستارة الهزيلة التي كانت تنسدل عبر المدخل الذي يقود مباشرة إلى الشارع، الصفعة المنزلقة القاسية لأرجل متحررة من الجسد في نعال. العالم الصاخب الهانئ لأولئك الذين **لا يوجد شيء يعكّر صفاءهم.**

تبادلت آمو وكالياني الأطفال. دُفعت الأنوف نحو الأعلى، ولُويت الرؤوس إلى الخلف، وحُوّلت نحو الضوء ليُرى فيما لو تستطيع أم ان ترى ما فات الأم الأخرى أن تراه. عندما لم يُجد ذلك نفعاً، استرجع لينين المرتدي مثل تاكسي ـ قميصاً أصفر، وبنطالاً قصيراً أسود ستريتش ـ حضن أمه النايلوني (وعلبته الشكليس). جلس على ورود ساري وتفحّص من موقع القوة المنيع ذاك

المشهد بفتور. أدخل سبابته في منخره الشاغر وتنفس بصخب من فمه. كان له فرق جنب مرتب. وكان شعره قد مُلّس نحو الأسفل بزيت الأيورفديك. كانت الشيكلس له *ليمسكها* قبل أن يراه الطبيب، ولتُستهلك فيما بعد. كان العالم كله بخير. ربما كان صغيراً جداً ليعلم ان جو غرفة الانتظار، بالاضافة إلى الصراخ من وراء الستارة، لا بد وأن تُضاف منطقياً إلى **الخوف الصحي** من الطبيب ف. ف.

قام جرذ بكتفين مكسوين بالشعر برحلات نشيطة عديدة بين غرفة الطبيب واسفل الخزانة في غرفة الانتظار.

ظهرت ممرضة واختفت عبر باب الطبيب الستاري المهترىء. استخدمت ببراعة أسلحة غريبة. قارورة صغيرة جداً. مستطيلاً من الزجاج ملطخاً بالدم. انبوب اختبار لبول لامع مضاء من الخلف. صينية فولاذية خالية من البقع من الأبر المغلية. كان الشعر على رجليها مضغوطاً في مواجهة جوربها الأبيض نصف الشفاف. وكان الكعبان الصندوقيان لصندلها الأبيض البالي مهترئين من الداخل، ويدفعان قدميها للميلان نحو الداخل باتجاه بعضهما البعض. ثبتت دبابيس شعر برّاقة مثل أفاعٍ معدّلة قبعة الممرضة المنشّاة إلى شعرها المزيّت.

بدت وكأن لديها مصفاة جرذان في نظارتها. فلم يبدُ عليها أنها لاحظت الجرذ ذي الكتفين المكسوتين بالشعر حتى عندما انطلق ماراً بين قدميها. نادت على الأسماء بصوت عميق، مثل صوت رجل: «أ. نينان.. س. كوسومالاثا. ب. ف روشيني... ن. أمبادي...» وتجاهلت الجو الحلزوني المذعور.

كانت عينا إستا صحنين صغيرين مرعوبين. كان مفتوناً بلافتة *الطبيب موجود الطبيب غير موجود*.

صعد تيار من الهلع داخل راحيل.

«آمو، لنحاول مرة ثانية.»

أمسكت آمو مُؤخرة رأس راحيل بيدها. سدّت بإبهامها الملفوف بمنديل المنخر الخالي من الخرزة. كانت كل العيون التي في غرفة الانتظار على راحيل.

كان من الممكن اعتبار ما ستقوم به أهم إنجاز في حياتها. تهيأ تعبير إستا لنفخ أنفه. تجمعت التجاعيد على جبينه وأخذ نفساً عميقاً.

استجمعت راحيل كل شجاعتها. *أرجوك يا رب، أرجوك أن تجعلها تخرج.* من أخمص قدميها، من أعماق قلبها، نفخت في منديل أمها.

وانبثقت في اندفاع من مخاط وارتياح. خرزة بنفسجية صغيرة في طبقة طين براّق. مزهوّة كلؤلؤة في محارة. تجمّع الأطفال ليُعجبوا بها. كان الصبي الذي يلعب باللافتة لامبالياً ومُسْتَهْزِئاً.

«أستطيع أن أفعل ذلك بسهولة!» أعلن.

«حاول وانظر أية صفعة ستتلقى»، قالت أمه.

«الآنسة راحيل!» صرخت الممرضة ونظرت حولها.

«خرجت!» قالت آمو للممرضة. «لقد خرجت.» أمسكت منديلها المجعّد عالياً.

لم يكن لدى الممرضة أية فكرة عما كانت تعنيه.

«لا بأس. سنغادر»، قالت آمو. «خرجت الخرزة.»

«التالي»، قالت الممرضة، وأغلقت عينيها خلف مصفاة الجرذان. («إنها تصطاد جميع الأنواع» قالت لنفسها.) «س. ف. س. كوروب!»

أطلق الصبي المستهزىء عواءً بينما كانت أمه تدفعه داخل غرفة الطبيب.

غادر إستا وراحيل العيادة منتصرين. وبقي لينين الصغير ليُجّس منخره بأدوات فولاذية باردة من قبل الطبيب فيرغيس فيرغيس، ولتُجسّ أمه بأدوات أخرى أكثر ليناً.

كان ذلك لينين آنئذ.

الآن، لديه منزل ودراجة باجا. وزوجة *وذرية.*

أعادت راحيل كيس الصور للرفيق بيلاي وهمّت بالذهاب.

«دقيقة واحدة»، قال الرفيق بيلاي. كان مثل راقص متعرٍّ في سياج. يغوي الناس بحلمتيه ومن ثم يفرض صور ابنه عليهم. قلّب رزمة الصور (دليل مصوّر لحياة لينين في - دقيقة، بالت - فصيل) حتى الصورة الأخيرة. «أوركونونلدو؟ *Orkunnundo?*»

كانت صورة قديمة بالأبيض والأسود. واحدة التقطها تشاكو بالكاميرا الروليفلكس التي أحضرتها له مارغريت كوتشاما كهدية عيد الميلاد. كان أربعتهم في الصورة. لينين، إستا، صوفي مول، وهي، واقفين قبالة منزل أبيهم، وراء زينة بيبي كوتشاما المتدلية في أناشيط من السقف. ونجمة من الكرتون مربوطة إلى مصباح كهربائي. كان لينين وراحيل وإستا يبدون مثل حيوانات مذعورة باغتتهم أضواء سيارة. الركب مضغوطة معاً، الابتسامات متجمدة على وجوههم، الأذرع مدّبسة إلى الجوانب، والصدور أمامية لتواجه الصورة. وكأن الوقوف بشكل جانبي يُعتبر خطيئة.

فقط صوفي مول، بمهارة العالم المتقدم، كانت قد هيأت لنفسها وجهاً، من أجل صورة والدها البيولوجي. قلبت داخل جفنيها خارجاً بحيث بدت عيناها مثل تويجات لحمية معرّقة بالوردي (رماديتان في صورة بالبيض والأسود). كانت تضع أسناناً ناتئة مزيفة قُطعت من القشرة الصفراء لليمون حلو. وكان لسانها قد دُفع من خلال فخ أسنانها وكشتبان ماماتشي الفضي في نهايته. (كانت قد اختطفته يوم وصولها ونذرت أن تمضي عطلتها وهي لا تشرب إلاّ من الكشتبان.). كانت تحمل شمعتين مضاءتين في كل يد. وبنطالها الواسع الأرجل من الدنيم[1] ثُني ليعرض ركبة بيضاء عظمية هزيلة بوجه مرسوم عليها. قبل أن تُلتقط الصورة بدقائق، كانت قد انتهت من الشرح لإستا وراحيل (داحضة أي دليل معاكس للصور والذكريات) كيف أنه كان هناك فرصة جيدة جداً في أن يكونا ابني حرام، وماذا كان «ابن حرام»

(١) - نوع من القماش. (المترجمة).

حقاً. وقد استتبع هذا وصفاً متضمناً للجنس وإن كان غير دقيق. «تريان، إن ما يفعلاه هو...»

كان هذا قبل أيام فقط من وفاتها.

صوفي مول.

شاربة الكشتبان.

ذات التابوت المُدْوَلب

وصلت على رحلة طيران بومباي ـ كوتشين. بقبّعة، بينطال ذي أرجل واسعة، ومحبوبة منذ البداية.

٦

كناغر كوتشين

في مطار كوتشين، كان سروال راحيل القصير منقطاً برقصة البولكا ومايزال مجعّداً. كانت البروفات قد تُدرّب عليها. كان يوم الأداء. ذروة أسبوع *ما الذي ستعتقده صوفي مول ؟*

في الصباح في فندق **ملكة البحر**، ساعدت آمو - التي كانت قد حلمت في الليل بدلافين وزرقة كحلية - راحيل على ارتداء عباءة المطار الرقيقة. وهي واحدة من تلك الشذوذات المحيّرة في ذوق آمو، عدد من الأشرطة الصفراء الصلبة بزينة فضية صغيرة جداً وقوس على كل كتف. وكانت التنورة المكشكشة مدّعمة بقماش بقرم[1] ليجعلها تتموج. كانت راحيل قلقة لأنها لم تكن تنسجم حقاً مع نظارتها الشمسية.

أمسكت آمو لها سروالها القصير المنسجم المجعّد. تسلّقت راحيل ويداها على كتفي آمو داخل سروالها القصير الجديد (الرجل اليسرى، الرجل اليمنى) وأعطت آمو قبلة على كل غمّازة (الخد الأيسر، الخد الأيمن). نقف المطاط بصوت واطىء فوق بطنها.

---

(١) - قماش قاسٍ لتجليد الكتب. (المترجمة).

«شكراً، آمو»، قالت راحيل.

«شكراً ؟» قالت آمو.

«من أجل عباءتي وسروالي القصير الجديدين»، قالت راحيل.

ابتسمت آمو. «على الرحب والسعة يا حبيبتي»، قالت، لكن بحزن.

على الرحب والسعة يا حبيبتي.

رفعت الفراشة التي على قلب راحيل رجلاً مزغبة. ثم أعادتها. كانت رجلها الصغيرة باردة. *كانت أمها تحبها أقل بعض الشيء.*

كانت تفوح من غرفة ملكة البحر رائحة بيض وفيلتر قهوة.

في الطريق إلى السيارة، حمل إستا الترمس المعبأ بماء حنفية والذي بشكل نسر. وحملت راحيل الترمس المعبأ بماء مغلي والذي بشكل نسر أيضاً. ترمسان بشكل نسر عليهما نسران مفرّغان من الهواء بجناحيهما ممتدين وبكرة أرضية معلّقة في مخالبهما. نسران مفرّغان، كان يعتقد التوأم أنهما يشاهدان العالم طوال النهار، ويطيران حول ترمسهما طوال الليل. يطيران بصمت كالبومة، والقمر على أجنحتهما.

كان إستا يرتدي قميصاً أحمر بأكمام طويلة وقبة مدبّبة وبنطالاً أسود ضيقاً. بدت نفخة شعره مجّعدة ومذهولة. مثل بياض بيضة مخفوقة جيداً.

قال إستا ـ لابد من الاعتراف بذلك، ببعض الأسس ـ أن راحيل كانت تبدو سخيفة بعباءتها الخاصة بالمطار. صفعته راحيل، وردّ لها الصفعة.

لم يكلّما بعضهما البعض في المطار.

تشاكو الذي يرتدي عادة موندو، كان يلبس بدلة ضيقة مضحكة وابتسامة مشرقة. سوّت آمو ربطة عنقه التي كانت غريبة ومنحرفة نحو الجانب. كانت قد تناولت فطورها وتشعر بالرضى.

قالت آمو، «ماذا حدث فجأة ـ لرجل الجماهير ؟»

لكنها قالتها بغمازتيها، لأن تشاكو كان متفجراً جداً. وسعيداً بلا حدود.

لم يصفعها تشاكو.

ولذلك فهي لم تردّ له الصفعة.

اشترى تشاكو من بائع الزهور في **ملكة البحر** زهرتين حمراوين وحملهما بتأنٍ.

بشكل سمين.

بولع وحنان.

كان المحل التجاري في المطار المُدار من قبل شركة تطوير السياحة الكيرالية، مكتظاً بمهراجات[1] الطيران الهندي (صغيرة وسط كبيرة)، فيلة من خشب الصندل (صغيرة وسط كبيرة) وأقنعة من ورق ماشي لراقصين كاثكاليين (صغيرة وسط كبيرة). وكانت رائحة خشب الصندل المتخمة وآباط قطن التيري (صغيرة وسط كبيرة) معلّقة في الهواء.

في ردهة «الوصول»، كانت هناك أربعة حيوانات كنغر اسمنتية بالحجم الطبيعي ذات جرابات اسمنتية مكتوب عليها استخدمني. كان يوجد في جراباتها أعقاب سجائر، عيدان ثقاب مستعملة، سدادات زجاجات، قواقع فول سوداني، أوراق مجعّدة وصراصير.

بلّلت لطخ بصاق تانبول معدتهم الكنغرية مثل جروح حديثة.

كان لحيوانات الكنغر التي في المطار ابتسامات بأفواه حمراء.

وآذان وردية الحواف.

بدت وكأنها في حال ضغطتها فانه من الممكن أن تقول «ما ـ ما» بأصوات بطارية فارغة.

عندما ظهرت طائرة صوفي مول في سماء بومباي ـ كوتشين السماوية، تدافع الحشد باتجاه الدرابزين الحديدي ليروا كل شيء بوضوح أكثر.

---

(١) ـ جمع مهراجا. (المترجمة).

كانت ردهة «الوصول» جمهرة من الحب والشوق، لأن رحلة طيران بومباي ـ كوتشين رحلة قدم عليها المغتربون العائدون إلى الوطن.

كانت عائلاتهم قد قدمت لاستقبالهم. من كل أنحاء كيرالا. في رحلات باص طويلة. من راني، من كوميلي، من فيزهينجام، وأحضروا طعامهم معهم. ورقاقات تاپيوكا وتشاكا فيلايتشثو للتسلّي بها في طريق العودة.

كانوا جميعهم هناك ـ الأقارب الطرشان الذين من جهة الأم، وأقارب الأب العاجزون والمشاكسون، الزوجات المتلهفات، والأعمام الماكرون، أولاد يُجرّون. والخطيبات ليُعاد تقييمهم. زوج المعلمة ما يزال ينتظر فيزته إلى السعودية، شقيقة زوج المعلمة منتظرة دوطتها. الزوجة الحبلى لعامل الهاتف.

«إنهم من طبقة الكنّاسين غالباً.» قالت بيبي كوتشاما بتجّهم، وأشاحت بنظرها عندما صوّبت أم لا ترغب في التخلي عن موقعها الجيد قرب الدرابزين، قضيب طفلها الذاهل داخل زجاجة فارغة بينما كان هو يلّوح للناس حوله مبتسماً.

«سسس..» هسهست أمه. بشكل مقنع في البداية، ثم بهمجية. لكن طفلها كان يعتقد أنه البابا. كان يبتسم ويلّوح ويبتسم ويلّوح. وقضيبه في الزجاجة.

«لا تنسيا أنكما سفيرا الهند»، قالت بيبي كوتشاما لراحيل وإستا. «ستعطيانهما انطباعهما الأول عن بلدكما.»

سفيرا توأم بيضتين. سعادة السفيرين إ (لفيس). بيلفيس، وحــ (شرة). ماصة.

بدت راحيل بثوبها ذي الأشرطة الصلبة ونافورتها في الحب ـ في ـ طوكيو كجنيّة مطار ذات ذوق مريع. كانت محاطة بأوراك رطبة (كما ستكون مرة أخرى، في جنازة في كنيسة صفراء) وشوق متجهّم. وفراثة جدها على قلبها. تجنّبت الطائر الفولاذي الصارخ في السماء السماوية والذي كان يحتوي على ابنة خالها داخله، وما شاهدته كان هذا: كناغر بأفواه حمراء ذات ابتسامات ياقوتية تتحرك بثبات عبر أرض المطار.

كعب وأصبع قدم

كعب وأصبع قدم

قدم مسطّحة طويلة.

نفاية المطار في جرابات أطفالهم.

مدّ الأصغر رقبته كالناس في الأفلام الانكليزية الذين يحلّون ربطات عنقهم بعد العمل. فتّشت الوسطى في جرابها عن عقب سيجارة طويلة لتدّخنها. وجدت حبة كاجو قديمة في كيس بلاستيكي أسود. قضمتها بأسنانها الأمامية مثل جرذ. تلاعبت الكبرى باللافتة المنتصبة التي تقول ***شركة تطوير السياحة الكيرالية ترحب بكم*** مع راقص كاثاكالي يقوم برقصة الناماستي. لافتة أخرى غير مؤرجحة من قبل كنغر، كانت تقول: ***ألهأ مكب يف لحاس لباوت دنهلا***[1].

فتّشت السفيرة راحيل، على نحو عاجل، خلال حشد الناس، عن شقيقها وشريكها السفير.

أنظر إستا ! انظر إستا انظر !

لم يكن السفير إستا لينظر. لم يُرد. كان يراقب الهبوط الوعر وترمسه الذي بشكل نسر والمملوء بماء حنفية مدلّى حوله، وبإحساس سفلي سحيق: كان رجل مشروبات الليمون والبرتقال يعرف أين يجده. في المصنع في أيمينيم. على ضفاف الميناتشال.

كانت آمو تراقب بحقيبة يدها.

وتشاكو بزهراته.

وبيبي كوتشاما بشامة رقبتها البارزة.

ثم خرج أناس بومباي ـ كوتشين. من الهواء البارد إلى الهواء الساخن. وتملّس الناس المجعدون[2] في طريقهم إلى ردهة الوصول.

---

(١) ـ مقلوب العبارة: أهلاً بكم في ساحل توابل الهند. (المترجمة).

(٢) ـ من جراء جلوسهم الطويل في الطائرة. (المترجمة).

وكانوا هناك، العائدون الغرباء، في بذلاتهم «غسيل ولبس» ونظاراتهم الشمسية القوس قزحية. مع نهاية للفقر الطاحن في حقائبهم الارستقراطية. بسقوف اسمنتية لمنازلهم المسقوفة بالقش، وسخّانات لحمامات والديهم. بشبكات مياه مجاري وأحواض عفن. أثواب ماكسي وكعوب عالية. أكمام منفوخة وحمرة شفاه. بخلاّطات وفلاشات أوتوماتيكية لكاميراتهم. بمفاتيح ليحصوها، وخزائن ليقفلوها. بجوع للكابا ولمين فيفيتشاثو[1] التي لم يأكلوها منذ وقت طويل. بحب ولحسة خجل من أن عائلاتهم التي قدمت لملاقاتهم بدوا... مغفلين. جداً. جداً... *انظروا إلى الطريقة التي يلبسون بها! مؤكدًا أن لديهم ثيابًا تليق أكثر بالمطار! لماذا للمالاياليين مثل هذه الأسنان الرهيبة؟*

والمطار نفسه! إنه أشبه بمحطة باص داخلية! براز العصافير على الأبنية! أوه ولطخ البصاق على الكناغر!

آه! إن الهند في طريقها إلى الخراب.

عندما تلتقي رحلات باص طويلة وانتظار طوال الليل في المطار، مع الحب ولحسة الخجل، تظهر تشققات صغيرة، والتي ستكبر وتكبر، وقبل أن ينتبهوا لذلك، سيقع العائدون الغرباء في الفخ خارج **بيت التاريخ**، وسيُعاد حلم أحلامهم.

ثم، وبين بذلات «غسيل ولبس» والحقائب اللماعة، كانت صوفي مول.

شاربة الكشتبان.

ذات التابوت المُدولب.

سارت على المدرّج، ورائحة لندن في شعرها. خفقت الأطراف العريضة السفلية من بنطالها حول كاحليها. رفرف شعر طويل من تحت قبعتها القشية. يد بيد أمها. والأخرى تتأرجح كيد جندي (يسار، يسار، يسار يمين يسار).

---

(١) ـ تاپيوكا، وسمك مسلوق. (المترجمة).

كان هناك
بنتٌ
طويلة و
بيضاء
وكان شعرها برقة لون
الزنـ ـ جبـ ـ يل (يساريسار، يمين)
كان هناك
بنتٌ ـ

قالت لها بيبي كوتشاما أن توقف ذلك.

فأوقفته.

قالت آمو، «هل بإمكانك رؤيتها، راحيل؟»

استدارت لتجد ابنتها ذات السروال القصير المجعّد تناجي جرابات إسمنتية. ذهبت وأحضرتها بعد توبيخ. قال تشاكو أنه لا يستطيع حمل راحيل على كتفه لأنه كان في الأصل يحمل شيئاً. زهرتين حمروانين.

بشكل سمين.

بولع وحنان.

عندما دخلت صوفي مول ردهة «الوصول»، قرصت راحيل، ضحية الانفعال والسخط، إستا، بقوة. كان جلده بين أظافرها. أعطاها إستا سواراً صينياً، فاتلاً جلد معصمها باتجاهين مختلفين بكل يد من يديه. أصبح جلدها معلّماً ومؤلماً. كان طعمه مالحاً عندما لعقته. والبصاق على معصمها، بارداً ومريحاً.

لم تلاحظ آمو مطلقاً.

عبر الدرابزين الحديدي الطويل الذي يفصل **الملتقين** من **اللقا**[1]، **والمحيين** من **التح**[2]، انحنى تشاكو المتألق المتفجّر في بذلته وربطة عنقه المائلة جانبياً

---

(١) ـ اللقاء. تعمّدت الكاتبة إنقاص الأحرف الباقية في غمزة ساخرة لطفلة. (المترجمة).

(٢) ـ التحية. تعمّدت الكاتبة إنقاص الأحرف الباقية في غمزة ساخرة لطفلة.(المترجمة).

لابنته الجديدة وزوجته السابقة.

في عقله، قال إستا، «انحنِ.»

«مرحباً، أيتها السيدتان»، قال تشاكو بصوته العالي الخاص بالقراءة (صوت الليلة الماضية الذي قال به، *الحب. الجنون. الأمل. الفرح اللانهائي*.).

«وكيف كانت رحلتكما ؟»

وبدا الجو مليئاً بأفكار وأمور يجب أن تُقال. لكن في أوقات كهذه، فقط الأمور الصغيرة هي التي دوماً تُقال. وتكمن الأمور الكبيرة في الداخل غير مُفصح عنها.

«قولي مرحباً وكيف حالك؟» قالت مارغريت كوتشاما لصوفي مول.

«مرحباً وكيف حالك؟» قالت صوفي مول عبر الدرابزين الحديدي لكل واحد دوره.

«واحدة لك، وواحدة لك»، قال تشاكو بزهرتيه.

«وشكراً ؟» قالت مارغريت كوتشاما لصوفي مول.

«وشكراً ؟» قالت صوفي مول لتشاكو، مقلّدة، بهزء، إشارة استفهام أمها.

هزّتها مارغريت كوتشاما قليلاً بسبب وقاحتها.

«على الرحب والسعة»، قال تشاكو. «والآن اسمحا لي أن أقدّم الجميع.» ثم، ومن أجل المتفرجين والمتنصتين، لأن مارغريت كوتشاما لم تكن بحاجة فعلاً إلى تعريف، «زوجتي، مارغريت.»

ابتسمت مارغريت وهزّت زهرتها باتجاهه. *زوجة سابقة، تشاكو !* صاغت شفاهها الكلمات، بالرغم من أن صوتها لم ينطقها أبداً.

كان من الممكن لأي كان أن يرى أن تشاكو رجل فخور وسعيد لأنه حظي بزوجة مثل مارغريت. بيضاء. في عباءة مزّهرة مطبوعة وساقيها تظهران من تحتها. وبنمش بني على ظهرها. ونمش على ذراعيها.

لكن، كان الجو من حولها، حزيناً، بطريقة ما. وخلف الابتسامة، في عينيها، كان الأسى أزرق حديثاً مشعّاً. جراء حادث تحطّم سيارة مفجع. بسبب ثقب بشكل جو في الكون.

«مرحباً، جميعاً»، قالت. «أشعر أنني أعرفكم منذ سنوات.»

مرحبًا أيها الجدار[1]،

«ابنتي، صوفي» قال تشاكو، وضحك ضحكة عصبية صغيرة تخوفاً من احتمال أن تقول مارغريت كوتشاما «ابنة سابقة». لكنها لم تفعل. كانت ضحكة سهلة الفهم. وليست كضحكة رجل مشروبات الليمون والبرتقال التي لم يفهمها إستا.

«حبا»[2] قالت صوفي مول.

كانت أطول من إستا. وأكبر. كانت عيناها زرقاوين رماديتين. وكان جلدها الشاحب بلون رمل الشاطىء. لكن شعرها المغطى بقبعة كان بنياً محمرّاً غامقاً وجميلاً. ونعم (أوه نعم!) كان أنف باباتشي ينتظر داخل أنفها. أنف عالم حشرات امبراطوري ـ ضمن ـ أنف. أنف عاشق حشرات. كانت تحمل حقيبتهاالـغوغو المصنوعة في انكلترا، التي كانت تحبها.

«آمو، أختي»، قال تشاكو.

قالت آمو مرحبا على طريقة الناضجين لمارغريت كوتشاما ومر ـ حبآ على طريقة الأطفال لصوفي مول. راقبت راحيل، بعيني صقر، وحاولت أن تقيس مقدار حب آمو لصوفي مول، لكنها لم تستطع.

تسكّع الضحك عبر ردهة «الوصول» مثل نسيم مفاجىء. فآدور باسي الممثل الكوميدي الأكثر شهرة والمحبوب أكثر من الجميع في السينما المالايالامية، كان قد وصل للتو (بومباي ـ كوتشين). مثقلاً بعدد من الطرود

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة العبارة بحيث تكون على القافية مع «مرحباً جميعاً» كتفكير هازىء لطفلة. *"Hello wall"* ,"Hello all" (المترجمة)..

(٢) ـ الأحرف الأخيرة من مرحبا. (المترجمة).

صعبة التدبير وبتملّق علني عام جريء، فشعر أنه مضطر للتمثيل. كان ما ينفك يوقع طروده ويقول، «Eee sadhanangal ! Ende Deivomay!»[1]

ضحك إستا ضحكة عالية مبتهجة.

«انظري آمو! إن آدور باسي يوقع أشياءه!»

«إنه يفعل ذلك عمداً»، قالت بيبي كوتشاما في لهجة بريطانية جديدة غريبة. «تجاهلوه، فحسب.»

«إنه ممثل أفلام»، شرحت لمارغريت كوتشاما وصوفي مول، جاعلة آدور باسي يبدو وكأنه **ممثل أف** يقوم من وقت لآخر **بلام**[2]. «إنه يحاول فقط جذب الانتباه.» قالت بيبي كوتشاما، ورفضت بعزم ان يُجذب انتباهها.

كانت بيبي كوتشاما مخطئة. *فلم* يكن آدور باسي يحاول جذب الانتباه، كان يحاول فقط أن يستحق الانتباه الذي سبق له أن جذبه.

«خالتي، بيبي»، قال تشاكو.

انشدهت صوفي مول، حدّقت ببيبي كوتشاما باهتمام عينين خرزيتين. كانت قد علمت بأطفال بقر وأطفال كلاب. أطفال دببة ـ نعم. (وقريباً ستشير إلى راحيل بصفتها الطفلة الوطواط.) لكن أطفال *خالة*، أذهلتها.

بيبي كوتشاما قالت، «مرحبا، مارغريت»، و «مرحبا، صوفي مول.» قالت أن صوفي مول كانت جميلة جداً بحيث انها ذكّرتها بجنيّة الخشب. بآرييل[3].

«هل تعلمين من كان آرييل؟» سألت بيبي كوتشاما صوفي مول. «آرييل في *العاصفة*؟»

قالت صوفي مول أنها لا تعرف.

---

(١) ـ اوه ! يا إلهي ! كل هذه الأشياء! (المترجمة).
(٢) ـ بسبب اللهجة التي كانت تتكلّم بها، قطّعت العبارة «ممثل أفلام» إلى «ممثل أف لام». (المترجمة).
(٣) ـ روح خبيثة في «العاصفة» لشكسبير. (المترجمة).

«أينما تمتص النحلة، أمتص أنا ؟» قالت بيبي كوتشاما. ويجوب إستا وراحيل قائلين «*في جرس زهرة الربيع، أضطجع*».

قالت صوفي مول أنها لا تعرف.

«في جرس زهرة الربيع، أضطجع ؟».

قالت صوفي مول أنها لا تعرف.

«***العاصفة*** لشكسبير ؟» ألحّت بيبي كوتشاما.

كان هذا كله، بالطبع، لتعلن قبل كل شيء، عن أوراق اعتمادها لمارغريت كوتشاما. من أجل إبعاد نفسها عن طبقة الكنّاسين.

«إنها تحاول أن تتبجّح»، همس السفير أ. بيلفيس في أذن السفير ح. حشرة. أفلتت ضحكة السفير راحيل في فقاعة خضراء زرقاوية (لون ذبابة ثمرة الجاك[١]) وانفجرت في هواء المطار الحار. كان بففف! هو الصوت الذي أصدرته.

شاهدت بيبي كوتشاما ذلك، وعلمت إنه كان إستا من بدأه.

«والآن إلى الشخصين المهمين جداً»، قال تشاكو (وهوما يزال يستخدم صوته العالي الخاص بالقراءة).

«ابن أختي، إستابن.»

«إلفيس بريسلي»، قالت بيبي كوتشاما منتقمة. «أخشى أننا، هنا، متأخرون قليلاً في الزمن.» نظر الجميع إلى إستا وضحكوا.

ارتفع من نعل حذاء البيج والمدبب للسفير إستا، ا شعور غاضب، وتوقف حول قلبه.

«كيف حالك، يا إستابن؟» قالت مارغريت كوتشاما.

«بخير شكراً لك.» كان صوت إستا ممتعضاً.

---

(١) ـ ثمرة لشجرة الجاك المدراية. (المترجمة).

«إستا»، قالت آمو برقة، «عندما يقول أحد **كيف حالك**، فمن المفترض بك أن تسأله بدورك **كيف حالك؟**. وليس «بخير، شكراً» . هيا، **قل كيف حالك أنتِ؟**»

نظر السفير إستا إلى آمو.

«هيا تابع»، قالت آمو لإستا. «**كيف حالك أنتِ؟**»

كانت عينا إستا الناعستان، عنيدتين.

قالت آمو بالمالايالامية، «هل سمعت ما قلته؟»

أحسّ السفير إستا بعينين زرقاوين رماديتين عليه، وأنف عالم حشرات امبراطوري. لم يكن يملك **كيف حالك أنتِ؟** في أعماقه.

«إستابن!» قالت آمو. وتعالى شعور غاضب داخلها وتوقف حول قلبها. شعور **غاضب أكثر من اللازم بكثير**. أحسّت بإنها أُهينت بطريقة ما بهذه الانتفاضة العلنية في منطقة صلاحياتها. كانت قد أرادت أداءً لطيفاً. جائزة تُمنح لولديها في **مباراة السلوك الهندي ـ البريطاني**.

قال تشاكو بالمالايالامية، «أرجوكِ، فيما بعد، ليس الآن.»

قالت عينا آمو الغاضبتان المسلطتان على إستا، حسنًا. *فيما بعد*.

وأصبحت **فيما بعد** كلمة تهديد مرعبة تسبب القشعريرة.

فيما. بعد.

مثل جرس عميق الرنين في بئر مكسوة بالطحالب. مرتعش. وفروي. مثل أرجل فراشة.

فسُدت اللعبة. مثل المخلل في الرياح الموسمية.

«وابنة أختي»، قال تشاكو «أين راحيل؟» نظر من حوله ولم يستطع العثور عليها. فالسفيرة راحيل، غير القادرة على مجاراة التغيّرات المتقلّبة في حياتها، كانت قد شبكت نفسها كالسجق داخل سجادة المطار القذرة، ولم تكن لتنفّك. سجق بصندل باتا.

«فقط تجاهلوها»، قالت آمو. «أنها تحاول جذب الانتباه فحسب.»

آمو أيضاً كانت مخطئة. فراحيل كانت تحاول فقط ألاّ تجذب الانتباه الذي تستحقه.

«مرحبا، راحيل»، قالت مارغريت كوتشاما لسجادة المطار القذرة.

«**كيف حالك أنتِ؟**» أجابت السجادة القذرة في دمدمة.

«ألن تخرجي وتقولي مرحبا؟» قالت مارغريت كوتشاما بصوت معلمة مدرسة حنون. «كصوت الآنسة ميتين قبل أن ترى إبليس في عينيهما.)

لم تخرج السفيرة راحيل من السجادة لأنها لم تستطع. لم تستطع لأنها لم تستطع. لأن كل شيء كان على نحو خاطىء. وحالاً سيكون هناك **فيما بعد** لكليهما، هي وإستا.

ممتلئة بعثّات فروية وفراشات متجّلدة. وأجراس عميقة الرنين. وطحالب. وبومة.

كانت سجادة المطار القذرة راحة كبيرة وظلمة ودرعاً.

«تجاهلوها فحسب»، قالت آمو، وابتسمت بتوتر.

كان عقل راحيل مليئاً بأحجار رحى ذات عينين زرقاوين رماديتين.

صارت آمو تحبها أقل، الآن. وأصبح الأمر واضحاً مع تشاكو.

«تعالي، صوفيكينز، لنجلب حقائبك!» قال تشاكو بابتهاج، سعيداً بالهرب.

صوفيكينز.

راقبهم إستا فيما كانوا يسيرون على طول الدرابزين مقتحمين الحشد الذي تنحّى جانباً، مُرهباً ببذلة تشاكو وربطة عنقه المنحرفة جانباً وبسلوكه المتنجر بعامة. كان تشاكو يحمل نفسه بطريقة تجعله يبدو وكأنه يصعد مرتفعاً طوال الوقت. متفاوضاً مع منحدرات الحياة الزلقة وشديدة الانحدار. كان يمشي على أحد جانبي الدرابزين، ومارغريت كوتشاما وصوفي مول على الجانب الآخر.

صوفيكينز.

الرجل الجالس ذو القبعة والأكتاف، والمُرهب أيضاً ببذلة تشاكو وربطة عنقه المنحرفة جانباً، سمح له بالدخول إلى قسم المطالبة بالحقائب.

عندما لم يعد يوجد درابزين فيما بينهم، قبّل تشاكو مارغريت كوتشاما، ومن ثم التقط صوفي مول.

«في آخر مرة قمت بهذا حصلت على قميص مبلل مقابل آلامي»، قال تشاكو وضحك. عانقها وعانقها وعانقها. قبّل عينيها الزرقاوين الرماديتين، وأنفها أنف عالم حشرات امبراطوري، وشعرها البني المحمّرالمغطّى بقبعة.

ثم قالت صوفي مول لتشاكو، «أمممم... عفواً ؟ هل تعتقد أن بامكانك إنزالي الآن؟ فأنا لللل... لست معتادة في الواقع على أن أُحمل.»

فأنزلها تشاكو.

رأى السفير إستا (بعينين عنيدتين) أن بذلة تشاكو أصبحت فجأة أوسع وأقل تفجّراً.

وبينما كان تشاكو يُحضر الحقائب، أصبحت الـ **فيما بعد الآن** عند النافذة السجادية القذرة.

رأى إستا كيف لعقت شامة رقبة بيبي كوتشاما قطعها ونبضت بتوّقع لذيذ مشّهٍ. *ترالا لا لا*، *ترالا لا لي* بدّلت لونها مثل حرباء، ترالا أخضر متقشّر، ترالا أزرق مسوّد متقشّر، ترالا أصفر خردلي متقشّر.

سيكون هناك

توأم للشاي

«حسناً»، قالت آمو. «هذا يكفي. كلاكما. تعالي من هناك راحيل!»

داخل السجادة، أغلقت راحيل عينيها وفكّرت بالنهر الأخضر، بالأسماك الصامتة التي تسبح عميقاً، وبالأجنحة الخيطية الدقيقة لليعاسب (التي تستطيع رؤيتها خلفها) في الشمس. فكّرت بصنارة الصيد الأكثر حظاً التي صنعها لها فيلوثا. خيزرانية صفراء ذات عوّامة تغمس في كل مرة سمكة غبية مطلوبة. فكّرت في فيلوثا وتمنّت لو كانت معه.

ثم فكّها إستا. وكانت الكناغر الاسمنتية تتفرّج.

نظرت آمو إليهما. كان الجو صمتاً فيما عدا نبض شامة رقبة بيبي كوتشاما.

«وإذاً»، قالت آمو.

وكان في الواقع سؤالاً. وإذاً ؟

ولم يكن له من جواب.

نظر السفير إستا إلى الأسفل، ورأى أن حذاءه (من حيث صعد الشعور الغاضب) كان بيجاً ومدبباً. نظرت السفيرة راحيل إلى الأسفل ورأت أنه في صندلها الباتا كانت أصابع قدميها تحاول الانفصال عن بعضها البعض. كانت تختلج لتنضّم لقدمي أحد آخر. ولم يكن باستطاعتها إيقافهم. ستصبح حالاً بدون أصابع وبعصابة مثل مجذوب تقاطع السكة الحديدية.

«إذا أنتما أبداً»، قالت آمو «وأنا أعني هذا، **أبداً**، أبداً عصيتماني جهاراً، فإني أتعهّد بأن تُرسلا إلى مكان ما حيث ستتعلمان بشكل جيد كيف ينبغي أن تُحسنا التصرف. هل هذا واضح ؟»

عندما تكون آمو غاضبة حقاً، كانت تقول **بشكل جيد كيف ينبغي**. كانت **بشكل جيد كيف ينبغي**، بعمق، بأناس أموات يضحكون فيها.

«هل. هذا. واضح ؟» قالت آمو ثانية.

عينان مذعورتان ونافورة ردّت النظرة لآمو.

عينان ناعستان ونفخة شعر متفاجئة ردّت النظرة لآمو.

رأسان أومآ ثلاث مرات.

نعم. إنه. واضح.

لكن بيبي كوتشاما كانت مستاءة من فشل الموقف الذي كان مليئاً بالامكانيات والتوقعات. حرّكت رأسها.

«كما لو أن !» قالت

كما لو أن !

التفتت آمو إليها، وكانت استدارة رأسها بمثابة استفهام.

«لا جدوى»، قالت بيبي كوتشاما. «إنهما ماكران. إنهما فطان، إنهما مخادعان. إنهما يتحولان همجيين. أنت لا تستطيعين تدّبر أمورهما.»

عادت آمو والتفتت إلى إستا وراحيل وكانت عيناها جوهرتين ضبابيتين.

«الجميع يقول أن الأولاد يحتاجون إلى بابا. وأنا أقول لا. ليس *ولدَيّ*. هل تعرفان لماذا ؟»

رأسان أومآ.

«لماذا. أخبراني»، قالت آمو.

قال إستابن وراحيل وليس معاً، لكن تقريباً: «لأنك أنت آمونا وبابانا[1] وتحبيننا ضعفاً.»

«أكثر من الضعف»، قالت آمو. «إذاً تذكّرا ما قلته لكما. إن مشاعر الناس ثمينة. وعندما تعصيانني علانيةً، فإن *كل* شخص يأخذ الانطباع الخاطىء.»

«يا لكما من سفيرين ونصف!» قالت بيبي كوتشاما.

دلّى السفير إ. بيلفيس والسفيرة ح. حشرة رأسيهما.

«والأمر الآخر يا راحيل»، قالت آمو. «أعتقد انه آن الأوان لك لتعرفي الفرق بين **نظيف** و**قذر**. خاصة في هذا البلد.»

نظرت السفيرة راحيل إلى الأسفل.

«فستانك ـ كان ـ نظيفاً» قالت آمو. «تلك السجادة **قذرة**. حيوانات الكنغر تلك قذرة. يداك **قذرتان**.»

ذُعرت راحيل من الطريقة التي كانت آمو تقول بها **نظيف** و**قذر** بصوت عالٍ جداً. وكأنها كانت تتكلم إلى شخص أصم.

---

(١) ـ ينادي الطفلان أمهما بآمو، ووالدهما يبابا. (المترجمة).

«والآن أريدكما أن تذهبا وتقولا مرحبا كما ينبغي»، قالت آمو. «هل ستفعلان ذلك أم لا ؟»

رأسان أومآ مرتين.

سار السفير إستا والسفيرة راحيل باتجاه صوفي مول.

«إلى أين تظنين يُرسل الناس ليتعلّموا بشكل جيد كيف ينبغي حسن التصرف ؟» سأل إستا راحيل في همس.

«إلى الحكومة»، ردّت راحيل همساً، لأنها كانت تعلم.

«كيف حالك ؟» قال إستا لصوفي مول بصوت عالٍ كفاية لتسمعه آمو.

«مثل الضراط على البلاط[1]»، همست صوفي مول لإستا. كانت قد تعلمت هذا من رفيق باكستاني.

نظر إستا إلى آمو.

كانت نظرة آمو تقول، *لا تهتم بها طالما أنك قد قمت بالعمل الصحيح.*

في طريق عودتهما عبر موقف سيارات المطار، زحف الجو الحار داخل ملابسهم ورطّب السروال القصير المجعد. تباطأ الأولاد في الخلف، يشقوّن طريقهم ملّتفين حول السيارات والتاكسيات المصفوفة.

«هل تضربكما التي لكما ؟» سألت صوفي مول.

راحيل وإستا غير المتأكدين من السياسة هذه، لم يقولا شيئاً.

«التي لي تفعل»، قالت صوفي مول بإغراء. «التي لي تصفع حتى.»

«التي لنا لا تفعل»، قال إستا بولاء.

«محظوظان»، قالت صوفي مول.

صبي غني محظوظ له مصروف جيب. ومصنع جدة ليرثه. لا هموم.

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة قولاً بذيئاً آخر، لكننا آثرنا استخدام هذا التقول من أجل القارئ العربي. (المترجمة).

مرّوا بعلامة الإضراب عن الطعام ليوم واحد لاتحاد عمال المطار من الفئة الثالثة. ومرّوا بالناس الذين يتفرجون على علامة الإضراب عن الطعام ليوم واحد لاتحاد عمال المطار من الفئة الثالثة.

ومرّوا بالناس الذين يتفرجون على الناس الذين يتفرجون على الناس.

كُتب على لافتة قصديرية صغيرة على شجرة تين فارعة *لأجل شكاوى جنسية تناسلية اتصل مع الطبيب و. ك. جوي.*

«من تحبين أكثر في العالم ؟» سألت راحيل صوفي مول.

«جو»، قالت صوفي مول دون تردد. «أبي. توفي منذ شهرين. وقدمنا هنا لنتعافى من الصدمة.»

«لكن تشاكو هو أبوك»، قال إستا.

«انه أبي *الحقيقي* فحسب»، قالت صوفي مول. «جو هو أبي. إنه لا يضرب أبداً. نادراً.»

«كيف يضرب إن كان ميتاً ؟» سأل إستا بشكل منطقي.

«أين *أبوكما* ؟» أرادت صوفي مول أن تعرف.

«إنه..» ونظرت راحيل إلى إستا طلباً للمساعدة.

«... ليس هنا». قال إستا.

«هل أخبرك بقائمتي ؟» سألت راحيل صوفي مول.

«كما تشائين»، قالت صوفي مول.

كانت «قائمة» راحيل محاولة لتنظيم الفوضى. تنقحّها باستمرار، ممزقة للأبد بين الحب والواجب. لم تكن على الاطلاق معياراً حقيقياً لمشاعرها.

«أولاً آمو وتشاكو»، قالت راحيل. «ثم ماماتش -»

«جدّتنا»، وضّح إستا.

«أكثر من شقيقك ؟» سألت صوفي مول.

«نحن لا نحسب»، قالت راحيل. «وعلى أية حال من الممكن أن يتغيّر. تقول آمو.»

«ماذا تقصدين ؟ يتغيّر إلى ماذا ؟» سألت صوفي مول.

«إلى خنزير ذكوري شوفيني»، قالت راحيل.

«من المستبعد جداً»، قال إستا.

«على كل حال، بعد ماماتشي، فيلوثا، ثم ـ»

«من هو فيلوثا؟» أرادت صوفي مول أن تعرف.

«رجل نحبه»، قالت راحيل. «وبعد فيلوثا، أنت»، قالت راحيل.

«أنا؟ تحبينني من أجل ماذا ؟» قالت صوفي مول.

«لأننا أقارب من الدرجة الأولى. لذا فأنا مضطرة»، قالت راحيل بشكل زائف.

«لكنك لا تعرفينني حتى»، قالت صوفي مول. «وعلى أية حال، أنا لا أحبك.»

«لكنك ستحبينني، عندما ستعرفينني»، قالت راحيل بثقة.

«أشك بذلك»، قال إستا.

«لم لا ؟» قالت صوفي مول.

«لأن»، قال إستا. «وعلى كل حال على الأرجح أنها ستصبح قزماً.»

وكأن محبة قزم أمر مستحيل كلياً.

«لن أصبح»، قالت راحيل.

«بل ستصبحين»، قال إستا.

«لن أصبح.»

«بل ستصبحين.»

«لن أصبح.»

«بل ستصبحين. نحن توأم»، شرح إستا لصوفي مول، «وانظري فقط كم هي أقصر مني.»

أخذت راحيل بكرم أخلاق نفساً عميقاً، دفعت صدرها خارجاً ووقفت ظهراً لظهر مع إستا في موقف سيارات المطار، من أجل أن ترى صوفي مول تماماً كم كانت أقصر.

«ربما ستصبحين قزماً وسطاً»، اقترحت صوفي مول. «إنه أطول من قزم وأقصر من... إنسان.»

كان الصمت متشككاً من هذه التسوية.

«هل تعرفان كيف تتهاديان؟» أرادت صوفي مول ان تعرف.

«لا. نحن لا نتهادى في الهند»، قال السفير إستا.

«حسناً نحن نفعل في انكلترا»، قالت صوفي مول. «جميع عارضات الأزياء يفعلن ذلك. على التلفزيون. انظرا - إنه سهل.»

وتهادى ثلاثتهم بزعامة صوفي مول عبر موقف سيارات المطار، يتهادون مثل عارضات الأزياء، والترمسان اللذان بشكل نسر وحقيبة الغوغو المصنوعة في انكلترا يرتطمون حول أوراكهم.

أقزام رطبة بمشية متطاولة.

لحقت الظلال بهم. نفاثات فضية في سماء زرقاء لكنيسة، مثل عثّات في شعاع ضوء.

كان لدى البليموث السماوية ذات الرفاريف ابتسامة من أجل صوفي مول. ابتسامة قرش ماص صدمات كرومي.

ابتسامة سيارة **مخللات الجنة.**

قالت مارغريت كوتشاما عندما شاهدت الحامل ذا زجاجات المخلل المرسومة وقائمة منتجات الجنة، «أوه يا إلهي ! أشعر وكأنني في دعاية!» وقالت أوه يا الهي ! كثيراً.

أوه يا إلهي! أوه يا الهي أوه يا الهي!

«لم أكن أعلم أنكم تصنعون شرائح أناناس !» قالت. «صوفي مول تحب الأناناس، أليس كذلك، صوفي ؟»

«أحياناً»، قالت صوفي. «وأحياناً لا.»

صعدت مارغريت كوتشاما داخل الاعلان، بنمش ظهرها البني، ونمش ذراعيها، وثوبها المزّهر وبساقيها اللتين تظهران في أسفله.

جلست صوفي مول في الأمام بين تشاكو ومارغريت كوتشاما، قبعتها وحدها كانت تسترق النظر من أعلى مقعد السيارة. لأنها كانت ابنتهما.

جلست راحيل وإستا في الخلف.

والأمتعة في الصندوق.

كانت *صندوق* كلمة جميلة محببة. *قوي* كانت كلمة رهيبة.

بالقرب من إتومانور مرّوا بهيكل فيل ميت، صُعق بسلك كهرباء عالي التوتر كان قد سقط على الطريق. مهندس من بلدية إتومانور كان يُشرف على تصريف الجثمان. كان عليهم أن يكونوا حذرين لأن القرار سيكون بمثابة سابقة لجميع التصريفات الحكومية المستقبلية لجثث الحيوانات غليظة الجلد. مسألة لا يجب أن يتم التعامل بها بخفة. كانت هناك سيارة إطفاء وبضعة رجال إطفاء مرتبكون. كان مع موظف البلدية ملف وكان يصرخ كثيراً. وعربة **بوظة فرح** ورجل يبيع فولاً سودانياً في أكواز ضيقة مُعدّة من الورق بذكاء بحيث لا تحمل أكثر من ثمان أو تسع حبات.

قالت صوفي مول، «انظروا، فيل ميت.»

أوقف تشاكو السيارة ليسأل فيما إذا كان من المحتمل أن يكون ثومبان (الفيل الصغير)، فيل معبد أيمنيم الذي قدم إلى **منزل أيمنيم** ذات مرة من أجل جوز الهند. قالوا أنه لم يكن هو.

لأنه كان غريباً وليس فيلاً يعرفونه، تابعوا القيادة مرتاحي البال.

«الحمذ لله»، قال إستا.

«الحمد لله، يا إستا»، صححّت له بيبي كوتشاما.

على الطريق، تعلّمت صوفي مول كيف تميّز النفحة الأولى من نتانة المطاط الخام وكيف تمسك بمنخريها مغلقين لوقت طويل بعد مرور الشاحنة التي تحمله.

اقترحت بيبي كوتشاما أغنية للسيارة.

كان على إستا وراحيل أن يغنيا بالانكليزية بصوتين مطيعين. وبابتهاج. وكأنهما لم يُجبرا على التمرّن عليها طوال أسبوع كامل. السفير إ. بيلفيس والسفيرة ح. حشرة.

أس - بّح الـ - رّب دو - ماً[1]

وأقول ثانية أسبّح،

كان **للافظاهما**[2] ممتازاً.

اندفعت البليموث في حرارة منتصف النهار الخضراء، تروّج للمخللات على السقف، وللسماء السماوية في رفرافها.

خارج أيمينيم بالضبط قادوا باتجاه فراشة كرنب خضراء (أو ربما هي قادت باتجاههم.)

---

(١) ـ أُسبّح الرب دوماً. (المترجمة).

(٢) ـ لفظهما. كما تُلفظ على الطريقة الهندية. (المترجمة).

٧

دفتر الملاحظات الخاص بتدريبات الحكمة

في مكتب باباتشي، تفسّخت الفراشات والعثّات المثبتة إلى أكوام من الغبار قزحي الألوان انسحق في قاع علب العرض الزجاجية، تاركة الدبابيس التي كانت تمسكها عارية. وقاسية. كانت الغرفة منتنة بالفطر والاهمال. تدلّى طوق هولا[١] نيوني أخضر من وتد خشبي على الجدار، هالة هائلة مهملة لقديس. سار عمود من النمل الأسود المتألق عبر عتبة النافذة، كانت أسافلهم مائلة نحو الأعلى، مثل صف من كورس بنات مختالات في فيلم موسيقي لباسبي بيركيلي[٢]. مظَللين في مواجهة الشمس. مصقولين وجميلين.

فتّشت راحيل (فوق كرسي بلا ظهر، فوق طاولة) في خزانة كتب بألواح زجاجية وسخة وباهتة. كانت آثار قدميها العاريتين واضحة في الغبار على الأرض. تقود من الباب إلى الطاولة (المجرورة إلى رف الكتب)، إلى الكرسي دون ظهر (المجرور إلى الطاولة والمرفوع فوقها). كانت تبحث عن شيء ما. كان لحياتها حجم وشكل الآن. وكان لديها هالات تحت عينيها ومجموعة من الغيلان في أفقها.

(١) - رقصة من هاواي. (المترجمة).
(٢) - مصمم رقص ومخرج أميريكي. ١٨٩٥ - ١٩٧٦ . (المترجمة).

على الرف العلوي، كان الرباط الجلدي على مجموعة باباتشي *ثروة الهند الحشرية*، قد رفع كل كتاب وشبكه مثل أسبيستوس[1] متموج. وحفرت أسماك فضية أنفاقاً عبر الصفحات، مختبئة بشكل اعتباطي من صنف إلى صنف، محيلةً المعلومات المنظمة إلى شريط أصفر.

تلّمست راحيل خلف صف الكتب وأخرجت أشياءً مخبأة.

صدفة بحر ناعمة وأخرى شائكة.

علبة عدسات لاصقة بلاستيكية. وقطّارة برتقالية.

صليباً فضياً على خيط من الخرز. مسبحة بيبي كوتشاما.

رفعتها باتجاه الضوء. انتزعت كل خرزة جشعة حصتها من الشمس.

سقط ظل عبر المستطيل المشمس على أرض المكتب. التفتت راحيل باتجاه الباب بخيط ضوئها.

«تخيّل. إنها ما تزال هنا. سرقتها. بعد أن أُعِدت.»

أفلتت تلك الكلمة بسهولة. *أُعِدت*. وكأن هذا هو المقصود من التوأم. أن يتم اقتراضهم وإعادتهم. مثل كتب في مكتبة.

لم ينظر إستا نحو الأعلى. كان عقله مليئاً بالقطارات. حجب الضوء القادم من الباب. ثقب بشكل إستا في الكون.

خلف الكتب، صادفت أصابع راحيل المشوشة شيئاً آخر. عقعق[2] آخر كان يمتلك الفكرة ذاتها. أخرجته ومسحت الغبار عنه بكمّ قميصها. كان طرداً مسطحاً ملفوفاً ببلاستيك صافٍ وملّصق بالسيللوتاب، كان مكتوباً على قصاصة ورق بيضاء داخله *إستابن وراحيل* بخط آمو.

كان يوجد أربعة دفاتر ملاحظات مهترئة داخله. كُتب على أغلفتها *دفاتر الملاحظات الخاصة بالحكمة* مع أماكن للإسم، *المدرسة/ الكلية*، *الصف*، *والموضوع*. كان اسمها مكتوباً على اثنين، واسم إستا على اثنين.

---

(١) - حرير صخري. (المترجمة).

(٢) - طائر. (المترجمة).

داخل الغلاف الخلفي لأحدهما، كان قد كُتب شيء ما بخط طفل. كان الشكل المتعب لكل حرف والمسافة المتفاوتة بين الكلمات، مليئاً بالكفاح للسيطرة على قلم الرصاص الجانح ذاتي الارادة. وعلى النقيض، كانت المشاعر جليّة «**أنا أكره الآنسة ميتين وأعتقد أن غلسونها**[1] **ممزق**».

في مقدمة الدفتر، كان إستا قد مسح كنيته ببصاقه، وملأ نصف الورقة بذلك. وكان قد كتب فوق كل الفوضى بقلم رصاص غير معروف. **إستابن غير معروف**. (كانت كنيته مرجأة للوقت الحاضر، بينما تختار آمو بين اسم زوجها واسم أبيها.) بجانب *الصف* كُتب: ٦ *سنوات*. وبجانب *الموضوع* كُتب: *كتابة قصص*.

تربّعت راحيل، على الكرسي دون مسند، فوق الطاولة.

«**إستابن غير معروف**»، قالت. فتحت الدفتر وقرأت بصوت عالٍ.

عندما أتى عوليس[2] *إلى البيت جاء ابنه وقال والدي اعتقدت أنك لن تعود. جاء العديد من الأمراء وأراد كل واحد منهم الزواج من بنيلوب، لكن بنيلوب قالت أن الرجل الذي يستطيع ان يسدد ويلق*[3] *عبر اثنتي عشرة حلقة يستطيع أن يتزوجني. وفشل الجميع. وجاء عوليس إلى القصر مرتديًا على نحو شبيه بشحاذ وسأل إن كان باستطاعته المحاولة. ضحك كل الرجال منه وقالوا إذا كنا لا نستطيع النجاح بذلك فأنت لا تستطيع. أوقفهم ابن عوليس وقال لهم دعوه يحاول وأخذ القوس وأطلق مباشرة عبر الحلقات الاثنتي عشرة.*

كان يوجد في الأسفل تصحيح للدرس السابق.

---

(١) ـ كلسون (كتبها خطأ) سروال داخلي طويل كانت تلبسه النساء في السابق. (المترجمة).

(٢) ـ من المثولوجيا الأغريقية الاوديسة. (المترجمة).

(٣) ـ يطلق. أسقط منها حرفاً. (المترجمة).

سرخس تعلّم أيضاً عربات جسر حامل مثبّت

سرخس تعّلم أضيًا عربات جسر حامل مثبت

سرخس تعّلم أضيًا

سرخس تعّلم أضًا[1]

تجّعد الضحك حول أطراف صوت راحيل. «بداية أمنية» أعلنت. كانت آمو قد رسمت خطاً متموجاً إلى الأسفل على طول الصفحة بقلم احمر وكتبت، هامش ؟ *وفي المستقبل حاول أن توصل الكتابة، من فضلك* !

«عندما نسير في الطريق في المدينة «تابعت قصة إستا الحذر»، *علينا دومًا أن نسير على الرصيف. إذا صعدت على الرصيف فلن يكون هناك مرور يسبب حودث*[2]*، لكن على الطريق الرئيس يوجد دومًا مرور خطر والذي من الممكن أن يرديك بسهولة ويجعلك بلا شعور أو أعج*[3]*. إذا كسرت رأسك أو عظمة ظهر فستكون سيء الحظ جدًا. يستطيع الشرطي أن يوّجه السير بحيث لا يكون هناك الكثير من المرضي ليذهبوا إلى المستشفى. عندما نغادر الباص يجب ان نفعل ذلك فقط بعد سؤال الجابي وإلّا سنصبح جرحى ونجعل الأطباء مشغولين جدًا. إن عمل السائق ملقق*[4] *جدًا لعائلته أن تكون كلكة*[5] *جدًا لأن السائق من الممكن ان يموت بسهولة»*.

«طفل مرْضٍ» قالت راحيل لإستا. وبينما كانت تقلب الصفحة امتد

---

(١) ـ كُتبت الكلمات خطأ. (المترجمة).
(٢) ـ حوادث، كُتبت خطأ. (المترجمة).
(٣) ـ أعرج، كُتبت خطأ. (المترجمة).
(٤) ـ مقلق، كُتبت خطأ. (المترجمة).
(٥) ـ قلقة، كُتبت خطأ. (المترجمة).

شيء ما داخل حنجرتها، اجتثّ صوتها، خضّه، وأعاده دون أطرافه اللغوية. كانت قصة إستا التالية تُدعى *آمو الصغيرة.*

في كتابة مشتركة. كانت ذيول الـ G و Y ملتفة ومعقودة. وقف الظل في المدخل ساكناً جداً.

«ذهبنا يوم السبت إلى مكتبة في كوتايام لنشتري هدية لآمو لأن عيد ميلادها في السابع عشر من تشرين الثاني. اشترينا لها مفكرة. خبأناها في الخيزانا[1] ومن ثم بدأ الوقت يصبح ليلًا. ثم قلنا هل تريدين أن تري هديتك قالت نعم أوّد ان أراها. وكتبنا على ورقة إلى آمو الصغيرة مع الحب من إستا وراحيل وأعطيناها لآمو وقالت يا لها من هدية جميلة إنها بالضبط ما أردتاه[2] ثم تكلمنا لبرهة قصيرة حول المفكرة ثم اعطيناها قبلة وذهبنا للنوم.

تكلمنا مع بعضنا ونمنا. حلمنا بحلم صغير.

بعد فترة من الوقت استيقظت وكنت عطشًا جدًا وذهبت إلى غرفة آمو وقلت أنا عطشان. أعطتني آمو ماء وكنت على وشك الذهاب إلى سريري عندما نادتني آمو وقالت تعال ونم معي. واستلقيت إلى ظهر آمو وتكلمت مع آمو ونمت. بعد برهة قصيرة استيقظت وتكلمنا ثانية وبعد ذلك قمنا بحفلاة[3] منتصف الليل. أكلنا موز بالبرتقال والقهوة. بعد ذلك جاءت راحيل وأكلنا موزتين أخريين وأعطينا آمو قبلة لأنه كان عيد ميلادها بعد ذلك غنينا عيد ميلاد سعيد. ثم في الصباح حصلنا على ثياب جديدة من آمو كهدية مقابلة كانت راحيل ماهاراني وكنت أنا نهرو الصغير.»

صححّت آمو أخطاء التهجية، وكتبت تحت المقالة: *إذا كنت أتكلّم إلى أحد ما، تستطيع أن تقاطعني فقط إذا كان الأمر اضطراريًا ملحًا. وعندما تفعل*

---

(١) - الخزانة، كُتبت خطأً. (المترجمة).
(٢) - أردته، كتبت خطأً. (المترجمة).
(٣) - حفلة، كُتبت خطأً. الكلمات السابقة كُتبت جميعها كما تُلفظ. (المترجمة).

ذلك، من فضلك قل «عفوًا». سأعاقبك بشدة إن عصيت هذه التعليمات. أتمّ التصحيحات من فضلك.

آمو الصغيرة.

التي لم تكمل قط تصحيحاتها هي.

التي كان عليها أن تحزم حقائبها وتغادر. لأنه لم يكن لديها **حق للمطالبة بالملكية**، لأن تشاكو قال أنها قد دمرّت ما فيه الكفاية.

التي عادت إلى أيمينيم بربو وحشرجة في صدرها بدت كرجل يصرخ من بعيد.

لم يرها إستا أبداً على هذه الشاكلة.

همجية. مريضة. حزينة.

آخر مرة جاءت فيها آمو إلى أيمينيم، كانت راحيل قد طردت لتوها من دير نازاريث (بسبب زخرفتها الروث واصطدامها بالمتسبات الأكبر سناً). كانت آمو قد فقدت آخر أعمالها المتتالية ـ كعاملة استقبال في فندق رخيص ـ لأنها كانت مريضة و فوتت العديد من أيام عملها. لم يستطع الفندق تحمّل ذلك، وأخبروها. كانوا محتاجين لعاملة استقبال نشيطة.

في تلك الزيارة الأخيرة. أمضت آمو الصباح، مع راحيل، في غرفتها. كانت قد اشترت لابنتها بآخر ما تبقى من راتبها الزهيد هدية صغيرة ملفوفة بورق بني بقلوب ورقية ملونة ملصقة عليه. علبة من حلوى بشكل سجائر، وعلبة قصديرية لأقلام رصاص فانتوم و*بول بونيان* ـ رسوم مصورة هزلية للأصغر سناً. كانت هدايا لعمر السبع سنوات، كانت راحيل في الحادية عشرة تقريباً. كان الأمر كما لو ان أمو تعتقد أنه إذا رفضت أن تعترف بمرور الوقت، وأرادته ثابتاً في حياتي توأمها، فانه سيكون كذلك. وكأن قوة الارادة المطلقة كانت كافية لتعليق طفولة ولديها إلى أن تتمّكن من جعلهما يعيشان معها. عندها يستطيعان ان يباشرا من حيث توقفا. يبدآن ثانية من السابعة. أخبرت آمو راحيل أنها قد اشترت لإستا أيضاً رسوماً هزلية، لكنها خبأتها من أجله إلى أن تحصل

على عمل آخر وتستطيع ان تكسب ما يكفي لاستئجار غرفة لثلاثتهم ليبقوا فيها معاً. عندها ستذهب إلى كالكوتا لتحضر إستا، ويستطيع عندها ان يأخذ رسومه الهزلية. إن ذلك اليوم ليس ببعيد، قالت آمو. من الممكن أن يحدث في أي يوم. قريباً لن يكون الاستئجار مشكلة. قالت أنه كانت قد تقدّمت بطلب عمل في **الأمم المتحدة** وأنهم سيعيشون جمعياً في لاهاي مع مربية هولندية لتعتني بهم. أو من ناحية أخرى، قالت آمو، من الممكن أن تبقى في الهند وتقوم بما كانت تخطط له طويلاً ـ تنشىء مدرسة. إن الاختيار ما بين مستقبل في التعليم وعمل في الأمم المتحدة لم يكن أمراً سهلاً، قالت ـ لكن الشيء الذي يجب تذّكره كان الحقيقة الجوهرية أنه كان لديها خيار وامتياز عظيم.

لكن **للوقت الحاضر**، قالت، وحتى تأخذ قرارها، فانها ستخبيء، لإستا، هديته.

تكلّمت آمو طوال الصباح بلا توقف. سألت راحيل أسئلة، لكن لم تدعها تجيب عليها بالمرّة. وإذا حاولت راحيل أن تقول شيئاً ما، كانت آمو تقاطعها بفكرة جديدة أو بتساؤل. بدت مرعوبة من أشياء خاصة بالراشدين قد تقولها ابنتها وتذيب **الوقت المتجمّد**. جعلها الخوف ثرثارة. وأبقته هي بعيداً بهذرها.

كانت متوّرمة من الكورتيزون، بوجه مدوّر كالقمر، ليست الأم الهيفاء المشوقة التي عرفتها راحيل. كان جلدها ممطوطاً فوق خديها المنتفخين كلصاقة ندب مشعّة تغطي علامات تلقيح قديمة. وعندما كانت تبتسم، تبدو غمازتاها وكأنهما تؤلمان. وكان شعرها المجعّد قد فقد بريقه وتعلّق حول وجهها المتورم كستارة باهتة. كانت تحمل نَفَسها في مستنشق زجاجي في حقيبتها البالية. ودخان براون بروفون. كان كل نَفَس تأخذه بمثابة حرب تربحها ضد قبضة فولاذية تحاول عصر الهواء من رئتيها. راقبت راحيل أمها وهي تتنفس. في كل مرة كانت تستنشق، كان التجويف عند ترقوتها يصبح منحدراً أكثر ومملوءاً بالظلال.

بصقت آمو حشوة من البلغم في منديلها وأرته لراحيل.

«يجب أن تتفقديه دوماً»، همست على نحو أجش، وكأن البلغم كان ورقة حساب يجب أن تُدّقق قبل أن تُسلّم. «عندما يكون أبيض، فهذا يعني انه غير ناضج. وعندما يكون أصفراً وله رائحة عفنة، فهذا يعني انه ناضج وجاهز ليُسعل ويُبصق. البلغم كالفاكهة. إما ناضج أو فج. عليك أن تكوني قادرة على التمييز.»

على العشاء تجشأت كسائق شاحنة وقالت، «عفواً»، في صوت شاذ عميق. لاحظت راحيل أن لديها شعرات جديدة سميكة في حاجبيها، وطويلة مثل قرون الاستشعار. ابتسمت آمو للصمت المتواجد حول الطاولة وتناولت سمكة امبراطورية مقلية من عظمها. قالت أنها تمتلك إحساساً مثل لافتة طريق والطيور تتبرّز عليها. كان لها بريق مسعور غريب في عينيها.

سألتها ماماتشي فيما إذا كانت تشرب واقترحت ان تزور راحيل نادراً قدر الامكان.

نهضت آمو عن الطاولة وغادرت دون أن تقول كلمة. ولا حتى وداعاً.
«اذهبي وودعيها»، قال تشاكو لراحيل.

تظاهرت راحيل بانها لم تسمعه وتابعت أكل سمكتها. فكرت بالبلغم وكانت على وشك التقيؤ. لقد كرهت أمها آنئذ. *كرهتها*.

لم ترها ثانية.

ماتت آمو في غرفة كدرة وسخة في نزل بهارات في أليبي، حيث كانت قد ذهبت لاجراء مقابلة عمل كسكرتيرة أحدهم. ماتت وحيدة. مع مروحة سقف صاخبة كرفقة ومن دون إستا ليستلقي إلى ظهرها ويتكلم معها. كانت في الواحدة والثلاثين.

ليست سناً متقدمة. ليست سناً صغيرة. لكن، سن ممكنة للحياة، ممكنة للموت.

كانت قد استيقظت في الليل لتهرب من حلم مألوف متكرر حيث يقترب منها شرطي مع مقص مثلّم، ويريد أن يحلق لها شعرها. كانوا يفعلون ذلك في كوتايام للمومسات اللواتي كانوا يقبضون عليهن في السوق واصمين إياهن بحيث يعرف الجميع ما كنّه. Veshyas. بحيث لا يجد رجال الشرطة الحديثون في الواجب مشكلة في التعرّف على من يضايقون. لطالما لاحظتهم آمو في السوق، النساء ذوات العيون الخاوية والرؤوس المحلوقة عنوة في بلد حيث الشعر الطويل المزيّت كان فقط من أجل الطاهرات النزيهات أخلاقياً.

تلك الليلة في النزل، جلست آمو في السرير الغريب في الغرفة الغريبة في المدينة الغريبة. لم تعرف أين كانت، لم تتعرّف على أي شيء من حولها. فقط خوفها كان مألوفاً. الرجل البعيد الذي بداخلها بدأ بالصراخ. هذه المرة لم تُرخِ القبضة الفولاذية مسكتها. تجمّعت الظلال كالخفافيش في التجويف المنحدر بقرب ترقوتها.

وجدها الكنّاس في الصباح. وأطفأ المروحة.

كان هناك كيسة زرقاء غامقة تحت عين واحدة انتفخت مثل فقاعة. وكأن عينها حاولت أن تفعل ما عجزت عنه رئتاها. في وقت ما قرابة منتصف الليل، توقف الرجل البعيد الذي كان يعيش في صدرها عن الصراخ. حملت فصيلة من النمل صرصوراً ميتاً بوقار عبر الباب، مبيّنة ما الذي يجب فعله بالجثث.

رفضت الكنيسة أن تدفن آمو. لاعتبارات عديدة. فاستأجر تشاكو شاحنة لينقل الجثة إلى المحرقة الكهربائية. كان قد لفّها في شرشف وسخ ومدّدها على نقّالة. فكرّت راحيل أنها تبدو مثل سيناتور روماني. *Et tu!*، *Ammu* فكّرت وابتسمت، متذّكرة إستا.

كانت قيادة غريبة عبر طرقات ناشطة مضيئة مع سيناتور روماني ميت

على أرض شاحنة. جعل ذلك السماء الزرقاء أكثر زرقة. خارج نوافذ الشاحنة، تابع الناس الذين مثل دمى ورقية مقصوصة حياة الدمى الورقية خاصتهم. كانت الحياة الحقيقة داخل الشاحنة. حيث كان الموت الحقيقي. فوق الارتطامات المرجرجة والأخاديد، اهتزّ جسد آمو وانزلق عن النقّالة. ضرب رأسها بالرتاج على الأرض. لم تُجفل ولم تستيقظ. كان هناك طنين في رأس راحيل، ولبقية اليوم كان على تشاكو أن يصرخ إذا أراد أن يُسمع.

كان للمحرقة المظهر المتعب العفن ذاته الذي لمحطة السكة الحديدية، عدا أنها كانت مقفرة. لا قطارات، ولا تجمعّات. لا أحد إلاّ المتسولين والمهجورين والأموات الذين بعهدة الشرطة. الناس الذين يموتون من دون أحد ليستند إلى ظهورهم ويتحدث إليهم. عندما جاء دور آمو، أمسك تشاكو يد راحيل باحكام. لم تكن تريد ان تُمسك يدها. استغلّت لزوجة عرق حرّ المحرقة لتنزلق من قبضته. لم يكن يوجد أحد آخر من العائلة.

فُتح باب المحرقة وأصبح الأزيز الأبكم للنار الأبدية، زئيراً أحمر. اندفعت الحرارة باتجاههم كوحش جائع. ثم أُطعمت آمو التي لراحيل له. شعرها، جلدها، ابتسامتها. صوتها. الطريقة التي اعتادت أن تستخدم فيها كيبلنغ[١] لتحب بها طفليها قبل أن تضعهما في السرير: *نحن نكون من دم واحد، أنتما وأنا*. قبلة تصبحان على خير. الطريقة التي كانت تمسك بوجهيهما ثابتين بيد واحدة (خدين مسحوقين، وفمين كفم سمكة) بينما تفرق وتسرّح شعرهما بالأخرى. الطريقة التي كانت تمسك بها سروال راحيل القصير لتلبسها إياه. *الرجل اليسرى. الرجل اليمنى*. كل هذا أُطعم للوحش، وكان في ذروة الرضى.

كانت آموهما[٢] و باباهما[٣] وكانت تحبهما ضعفاً.

---

(١) ـ كيبلنغ: كاتب بريطاني ولد في بومباي ـ الهند، معظم أعماله كتبها في، وعن الهند المحتلة من بريطانيا. حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٠٧ .(المترجمة).

(٢) ـ آمو التي لهما. (المترجمة).

(٣) ـ بابا الذي لهما. (المترجمة).

قعقع باب الفرن وهو ينغلق. لم يكن هناك من دموع.

كانت «المسؤولة» عن المحرقة قد نزلت إلى الطريق لتشرب فنجاناً من الشاي ولم تعدْ قبل عشرين دقيقة. طوال تلك المدة كان على تشاكو وراحيل أن ينتظرا من أجل الايصال الوردي الذي يخوّلهم استلام بقايا آمو. رمادها. جريش عظامها. الاسنان من ابتسامتها. كلها، برمتها، محشورة في وعاء فخاري صغير. الايصال رقم. ك ٤٩٨٦٧٣.

سألت راحيل تشاكو كيف عرفت ادارة المحرقة أيّ رماد كان لمن. قال تشاكو أنه لا بد وأن لديهم نظاماً.

لو كان إستا معهم، لاحتفظ بالايصال. فهو حافظ السجلات. الوصي الأمين الطبيعي لبطاقات الباص، وايصالات البنوك، للمذكرات النقدية، ولأرومات الشيكات. **رجل صغير.** كان يعيش في كارا ـ فان. ترالا لا.

لكن إستا لم يكن معهم. قرّر الجميع أن هذا أفضل. وبدلاً من ذلك، كتبوا له. قالت ماماتشي أن على راحيل أن تكتب أيضاً. تكتب ماذا ؟ *عزيزي إستا، كيف حالك ؟ انا بخير. ماتت آمو البارحة.*

لم تكتب راحيل له أبداً. هناك اشياء لا تستطيع القيام بها ـ كالكتابة إلى جزء منك. إلى قدميك أو شعرك. أو قلبك.

في مكتب باباتشي، رفعت راحيل (غير المتقدمة في السن، غير الشابة) بغبار الأرض على قدميها، رفعت نظرها عن دفتر الملاحظات الخاص بالحكمة ورأت أن إستابن غير معروف كان قد توارى.

رأت ظهر إستا يختفي عبر البوابة.

كان الوقت منتصف النهار، وكانت السماء على وشك أن تمطر ثانية. كانت الخضرة ـ في ضوء اللحظات الأخيرة لضوء ما قبل الهطول المتوهج الغريب ـ ضارية.

صاح ديك في المدى وانفصل صوته إلى اثنين. مثل نعل متقشّر عن حذاء قديم.

وقفت راحيل، هناك، مع دفترها المهترىء، للملاحظات الخاص بالحكمة. على الشرفة الأمامية لمنزل قديم، تحت رأس ثور اميركي بعينين زريتين، حيث قُدّمت قبل سنوات، *أهلًا بك، في بيتك، عزيزتنا صوفي مول*، في اليوم الذي جاءت فيه صوفي مول.

من الممكن للأمور أن تتغير في يوم.

٨

أهلاً بك، في بيتك، عزيزتنا صوفي مول

كان منزل أيمينيم منزلاً كبيراً، لكن متحفّظ المظهر. وكأنه لم يكن معنياً إلاّ قليلاً بحياة الناس الذين يعيشون داخله. مثل رجل عجوز بعينين رَمدَتين يراقب أطفالاً يلعبون، مشاهداً فقط سرعة الزوال في نشوتهم العالية والتزامهم القلبي الكامل بالحياة.

أصبح سطحه المنحدر والمائل غامقاً مكسواً بالطحالب من مرور الزمن والمطر. كانت الاطارات الخشبية المثلثية المركبّة في الجملونات منقوشة بشكل متشابك معقد، والضوء الذي ينحدر خلالها، ويسقط في أشكال على الارض، كان مملوءاً بالاسرار، بالذئاب. بالورود. بالايغونات[١]. مبّدلاً أشكاله مع تحرك الشمس عبر السماء. ميتاً، بدقة، عند الغسق.

لم يكن للأبواب مصراع، بل أربعة من ألواح خشب الساج بحيث كانت السيدات في الأيام الخوالي يستطعن إبقاء النصف السفلي مغلقاً، والاتكاء بأكواعهن على الافريز والمساومة مع البائعين الجوالين دون أن يفضحن أنفسهن تحت الخصر. تقنياً، كان بامكانهن شراء سجادات، أو أساور۔ وصدورهن

---

(١) ـ عظاءة أميركية استوائية ضخمة عاشبة. (المترجمة).

مغطاة وأسافلهن عارية. تقنياً.

تسع درجات شديدة الانحدار كانت تقود من الدرب إلى الشرفة الامامية. أعطاها الارتفاع وقار منصة مسرح وكل ما حدث هناك اكتسب هالة وأهمية التمثيل. كانت تطل على حديقة بيبي كوتشاما التزينية، والتف الدرب الحصوي حولها في حلقات، منحدراً نحو أسفل الهضبة الخفيفة التي تربّع المنزل عليها.

كانت شرفة عميقة، باردة، حتى عند الظهيرة، عندما تكون الشمس في انفجار قيظها.

عندما مُدّدت الارضية الاسمنتية الحمراء، دخل فيها بياض ما يقارب ٩٠٠ بيضة. لقد تطلّبت صقلاً رفيع المستوى.

تحت رأس الثور الاميركي المحنّط ذي العينين الزريتين، وصورتا حميها وحماتها على كل جانب، جلست ماماتشي على كرسي منخفض من خشب الأملود وأمام طاولة من خشب الاملود، والتي تتوضّع عليها مزهرية زجاجية خضراء وساق وحيدة لأوركيدة أرجوانية تنحني منها.

كان العصر ساكناً وحاراً. وكان الهواء يترقّب.

كانت ماماتشي تمسك بِ «كمان» لامع تحت ذقنها. وكانت نظارتها الكامدة التي تنتمي للخمسينات، سوداء ومائلة العدسات، وبأحجار راين[1] عند زوايا الاطار. كان ساريها مشدوداً ومعطراً. أبيض مصفّراً وذهبياً. تلألأ قرطاها الماسيان في أذنها كثريا بالغة الصغر. وكانت خواتمها الياقوتية مرخية. وجلدها الشاحب الرقيق مجعداً كالكريما فوق حليب مبرّد ومغبّر بشامات حمراء صغيرة جداً. كانت جميلة. عجوزاً، استثنائية، وملوكية.

أم، أرملة، عمياء مع كمان.

في أيام شبابها جمعت ماماتشي ببصيرتها وتدبيرها الجيد، كل شعرها

---

(١) ـ حجر كريستال وجد عند نهر الراين، يستخدم لتقليد الماس. (المترجمة).

المتساقط في محفظة صغيرة مطرزّة ركنتها على مزينتها. وعندما تجمّع مقدار كاف منه، جعلته في كعكة شبكية والتي حفظتها مخبأة في خزانة مع مجوهراتها. قبل بضع سنوات، وعندما بدأ شعرها يهزل ويصبح فضياً، ولإعطائه قوامه، وضعت كعكتها السوداء الكهرمانية مدّبسة إلى رأسها الفضي الصغير. كان هذا مقبولاً في كتابها طالما أن الشعر بأكمله كان شعرها هي. في الليل، وعندما كانت تنزع كعكتها، كانت تسمح لحفيديها أن يضفرا شعرها المتبقي بذيل فأر رمادي مزيّت مشدود برباط مطاطي في نهايته. أحدهما كان يضفر شعرها، بينما كان الآخر يعدّ شاماتها التي لا تحصى. كانا يتبعان دوراً في ذلك.

كانت ماماتشي قد حصلّت على جمجمتها، أخاديد هلالية الشكل مخفية بعناية بشعرها الهزيل، ندوب ضرب قديم من زواج قديم. ندوبها من المزهرية النحاسية.

كانت ماماتشي تعزف Lentement - حركة من المجموعة I في فا/ سي لمقطوعة هاندل الموسيقى المائية. خلف نظارتها المائلة، كانت عيناها عديمتا الفائدة مغلقتين، لكنها كانت تستطيع رؤية الموسيقى وهي تغادر كمانها وترتفع في العصر كالدخان.

داخل رأسها، كان الوضع كغرفة بستائر غامقة مسحوبة خلال يوم ساطع.

بينما كانت تعزف، سرح عقلها عائداً إلى أول دفعة لها من المخللات المحترَفة. كم بدت جميلة ! معلّبة ومختومة، متوّضعة على طاولة قرب رأس سريرها، بحيث تكون اول شيء تلمسه في الصباح عند استيقاظها. كانت قد ذهبت للنوم باكراً تلك الليلة، لكنها استيقظت بعد منتصف الليل بقليل. تلمستها، صادفت أصابعها المتلهفة طبقة من الزيت. كانت زجاجات المخلل واقفة في بركة من الزيت. والزيت في كل مكان. في حلقة تحت ترمسها. تحت انجيلها. على كامل منضدتها الجانبية. كان المانغو المخلل قد امتص الزيت وتمدّد، جاعلاً الزجاجات ترشح.

استشارت ماماتشي الكتاب الذي أحضره لها تشاكو *مقياس الحفظ المنزلي*، لكنه لم يقدّم حلاً نافعاً. عندها كتبت رسالة لصهرآناما تشاندي، الذي كان المدير الاقليمي لمخللات البادما في بومباي. اقترح أن تزيد من نسبة المادة الحافظة التي تستخدمها. ومن الملح. ساعد هذا، لكنه لم يحل المشكلة كلياً. حتى الآن، وبعد كل تلك السنين، ما تزال زجاجات **مخللات الجنة** ترشح قليلاً. بشكل غير محسوس، لكنها ما تزال ترشح، وفي الرحلات الطويلة كانت لصاقاتها تصبح زيتية وشفافة. والمخللات ذاتها ظلّت تميل إلى الملوحة نوعاً ما.

تساءلت ماماتشي فيما إذا كانت ستتمكن ابداً من اتقان فن الحفظ، وفيما إذا كانت صوفي مول سترغب ببعض مسحوق العنب المثلّج. أو بقليل من عصير أرجواني بارد في كأس.

ثم فكرت في مارغريت كوتشاما، وأصبحت النوطة السائلة الوانية، لموسيقى هاندل، حادة مجلجلة وغاضبة.

لم تلتق ماماتشي أبداً بمارغريت كوتشاما. لكنها كانت تحتقرها على أية حال. *ابنة صاحب دكان* هكذا كانت مارغرت كوتشاما قد حُفظت بعيداً في ذاكرة ماماتشي. كان عالم ماماتشي مرتباً بهذه الطريقة. عندما تُدعى إلى عرس في كوتايام، كانت تمضي الوقت وهي تهمس إلى أيٍّ من ذهبت معه، «إن جد العروس من جهة أمها، كان نجار والدي. كونجوكوتي ايبان وأخت جدته الكبرى كانت قابلة فحسب في تريفاندوم. كانت عائلة زوجي تملك هذه الهضبة بكاملها.»

بالطبع كانت ماماتشي لتكره مارغريت موتشاما حتى لو كانت وريثة عرش انكلترة. لم تكن خلفيتها التي تنتمي للطبقة العاملة فقط ما يسخط ماماتشي. لقد كرهتها لأنها كانت زوجة تشاكو. كرهتها لأنها تركته. لكنها كانت لتكرهها حتى أكثر إذا كانت قد بقيت.

في اليوم الذي منع فيه تشاكو باباتشي من ضربها (واغتال باباتشي كرسيه عوضاً عن ذلك)، حزمت ماماتشي حقائبها الزوجية وعهدت بها إلى

عناية تشاكو. منذئذ فصاعداً أصبح مستودع كل مشاعرها الانثوية. رجلها. حبها الوحيد.

كانت على علم بعلاقاته الفاجرة مع نساء المعمل، لكنها توقفت عن التألم بسببهن. وعندما أثارت بيبي كوتشاما الموضوع، أصبحت ماماتشي متوترة ومشدودة الشفاه.

«إنه لا يستطيع تجنّب أن يكون لديه احتياجات رجال»، قالت بتزّمت.

وبشكل يدعو للاستغراب، قبلت بيبي كوتشاما هذا التعليل، وكسب مفهوم احتياجات الرجال المبهم والمثير سراً، مباركة ضمنية في منزل أيمنيم. ولم ترَ لا ماماتشي ولا بيبي كوتشاما أي تناقض بين عقل تشاكو الماركسي وبين شهوته الجنسية الاقطاعية. قلقتا فقط بشأن الناكساليين الذين عُرفوا باجبارهم رجالاً من عائلات راقية على الزواج من البنات الخادمات اللواتي جعلوهن حاملات. بالطبع لم يشكّا ولا حتى من بعيد أن الصاروخ عندما سيطلق، ذاك الذي سيقضي على اسم العائلة الصالح إلى الأبد، سيأتي من جهة غير متوقعة كلياً.

عمّرت ماماتشي مدخلاً منفصلاً لغرفة تشاكو، التي كانت عند الطرف الشرقي من المنزل، بحيث لا يكون على أغراض «احتياجاته» أن تتسكع عبر المنزل. زلقت لهن مالاً خفية لتبقيهن سعيدات. أخذنه لأنهن كنّ بحاجة له. كان لديهن أطفال صغار او آباء عجائز. أو أزواج كانوا ينفقون كل ما يكسبونه في بارات التودي. ناسب الترتيب ماماتشي، لأنه في عقلها، الأجرة توضح الأمور. فاصلة بين الجنس والحب. بين الاحتياجات والمشاعر.

بيد أن مارغريت كوتشاما كانت مسألة يجب أن يُتعامل معها بشكل مختلف كلياً. وحيث أنه لم يكن لديها وسائل لتكتشف (بالرغم من أنها قد حاولت مرة أن تجعل كوتشو ماريا تفحص شراشف السرير من أية لطخ)، لم يكن بمقدور ماماتشي سوى أن تأمل بأن مارغريت كوتشاما لم تكن تنوي استئناف علاقتها الجنسية مع تشاكو. حينما كانت مارغريت كوتشاما في أيمنيم، تدبّرت ماماتشي مشاعرها صعبة المراس بطريقة أخرى، وذلك بزلقها

مالاً في جيوب الأثواب التي كانت تتركها مارغريت كوتشاما في سلة الغسيل. لم تُعد مارغريت كوتشاما أبداً المال، لأنها ببساطة لم تجده مطلقاً. كانت جيوبها تُفرّغ كنوع من الروتين من قبل آنيان منظّف الثياب. كانت ماماتشي تعرف هذا، لكنها فضلّت أن تفسّر صمت مارغريت كوتشاما كقبول ضمني للمعروف الذي كانت ماماتشي تتصور أنها تمنحه لابنها.

وهكذا شعرت ماماتشي بالرضى في اعتبارها لمارغريت كوتشاما كعاهرة أخرى فحسب. وكان آنيان منظّف الثياب سعيداً بالبقشيش اليومي، وبالطبع ظلّت مارغريت كوتشاما غافلة بسعادة عن الترتيب بأكمله.

من مجثمه على الجدار، صاح طير غير مهندم هووب هووب وعدّل جناحيه اللذين بلون حمرة الصدأ.

سرق غراب قليلاً من صابون غرغر في منقاره.

في المطبخ المعتم المدّخن، وقفت كوتشو ماريا القصيرة على أصابع أقدامها وثلّجت تورتة **أهلاً بك في منزلك، عزيزتنا صوفي مول** الكبيرة وعديدة الأسطح. بالرغم من أنه في تلك الأيام، حتى النساء المسيحيات السوريات قد بدأن بارتداء الساري، إلاّ أن كوتشو ماريا كانت ما تزال ترتدي قميصها الأبيض النظيف ذا أكمام القصيرة والقبة التي بشكل V وموندوها الأبيض، والذي كان مطوياً في مروحة قماشية مجعدة على ظهرها. كانت مروحة كوتشو ماريا مخفية تقريباً بمئزر الخادمة الأزرق المكشكش ذي التربيعات المتنافر على نحو سخيف، والذي كانت ماماتشي تصّر على أن ترتديه داخل المنزل.

كان لها سواعد ثخينة وقصيرة، وأصابع مثل كوكتيل سجق، وانف لحمي عريض بفتحات ضيقة. وتجاعيد عميقة من الجلد كانت تصل أنفها بطرفي ذقنها، وتفصل ذلك القسم من وجهها عن بقيته، كالخطم. كان رأسها كبيراً جداً بالنسبة لجسمها. وتبدو كجنين معبأ فرّ من انائه الذي يحوي غازاً نفاذ الرائحة في مخبر بيولوجي، واصبح منفلشاً ومكثّفاً مع الزمن.

كانت تحتفظ بنقود رطبة في صدارتها التي تربطها بإحكام حول صدرها

لتبسط ثدييها غير المسيحيين. كان قرطاها الكونوكو ثخينين وذهبيين. كانت شحمتا أذنيها قد امتدتا في حلقتين مثقلتين تتأرجحان حول رقبتها، وقرطاها جالسان فيهما كأطفال فرحين ذاهبين في جولة دائرية (ليست دائرية بالكامل). انشطرت شحمتها وفُتحت ذات مرة وخيطت مرة ثانية من قبل الطبيب فيرغيس فيرغيس. لم تستطع كوتشو ماريا ألاّ تضع قرطيها الكونوكو لأنها لو لم تفعل، فكيف سيعرف الناس أنه بالرغم من عملها الوضيع كطباخة (بخمس وسبعين روبية في الشهر) كانت مسيحية سورية، تابعة للقديس توما وليست بيلايا او بولايا، أو بارافان. بل غير منبوذة، من الطبقة المسيحية العليا (التي تسربت إليها المسيحية كالشاي من كيس شاي). لقد كانت شحمتان أعيدتْ خياطتهما خياراً أفضل إلى حد بعيد.

لم تكن كوتشو ماريا قد اطّلعت على إدمان التلفزيون المنتظر داخلها. إدمان هالك هوغان. لم تكن قد رأت جهاز تلفزيون بعد. ولم تكن لتصدق بأن التلفزيون موجود. ولو اقترح أحدهم أنه موجود، لحسبته أو حسبتها يهينان ذكاءها. كانت كوتشوماريا حذرة ومتحفظة بشأن روايات الآخرين عن العالم الخارجي. وفي أغلب الأحيان كانت تعتبرها اساءة لنقص ثقافتها و (سابقاً) لسذاجتها. في انقلاب مزمع على فطرتها الطبيعية، كانت كوتشو ماريا الآن، وكسياسة، نادراً ما تصدق أي شيء يقوله لها أي شخص. منذ بضعة أشهر، في تموز، عندما أخبرتها راحيل أن رائد فضاء أميريكياً يُدعى نيل آمسترونغ قد سار على سطح القمر، ضحكت بتهكّم وقالت أن رجل مالايالي يُدعى و. موثاتشان، قد قام بشقلبة على الشمس. بأقلام فوق أنفه. كانت مستعدة لتّقر بان أميريكا موجودة بالرغم من أنها لم ترها في حياتها. لكن جزء السير فوق القمر؟ لا ياسيدي. ولم تثق أيضاً بالصورة الرمادية المبهمة التي ظهرت في Malayala Manorama التي لم تكن تستطيع قراءتها.

ظلت متأكدة من أن إستا عندما كان يقول، «Et tu, Kochu Maria?»، كان يهينها بالانكليزية. اعتقدت انها كانت تعني شيئاً من قبيل *كوتشو ماريا، أنت قزم أسود قبيح*. انتظرت، مترقبّة فرصة مناسبة لتشتكيه.

انتهت من تثليج التورتة العالية. ثم أرخت رأسها إلى الوراء وامتصت البقايا المثلجة على لسانها. لفائف لا نهائية من معجون أسنان شوكولاتي على لسان كوتشو ماريا الوردي. عندما نادت ماماتشي من الشرفة «(كوتشو ماريا! إنني أسمع السيارة !»)» كان فمها مملوءاً بالمثلجات ولم تستطع الإجابة. عندما انتهت، جابت بلسانها على أسنانها وقامت بسلسلة من أصوات امتصاص قصيرة بلسانها مقابل سقف حلقها كأنها كانت قد أكلت للتو شيئاً حامضاً.

صوت سيارة بليموث بعيدة (مارة بموقف الباص، مارة بالمدرسة، مارة بالكنيسة الصفراء وصاعدة الطريق الأحمر الوعر عبر أشجار المطاط) بعث بهمهمة عبر أبنية **مخللات الجنة** المظلمة الباهتة.

توقف التخليل (والهرس، والتقطيع، والغلي والتحريك، والجرش، والتمليح، والتجفيف، والوزن وختم الزجاجات)

«*Chacko Saar vannuK*»[1] استمر الهمس المرتحل. وُضعت السككاكين الفارمة. أُهملت الخضار، نصف مقطّعة على صحف فولاذية كبيرة. وقطع القرع المرة المتروكة، والأناناسات غير المكتملة. نُزعت الكفوف المطاطية الملونة (البرّاقة، كعوازل ثخينة مبتهجة). وغُسلت الأيادي المخلّلة ونُشفت بالمرايل المصبوغة بالأزرق. استعيدت خُصل الشعر الفارّة وأُعيدت تحت مناديل الرأس البيضاء. أُنزلت الموندو المطوية تحت المرايل. رُفعت مفصلات أبواب المصنع الشفافة، وتُركت تنغلق لوحدها بصخب.

وعلى جانب واحد من الدرب، بجانب البئر القديمة، في ظل شجرة التمر الهندي، تجمّع جيش صامت من المرايل الزرقاء في الخضرة الحارة ليتفرّج.

بمرايل زرقاء وقبعات بيضاء، مثل تجمّد أعلام زرقاء وبيضاء أنيقة.

آتشو، جوزيف، ياكو، آنيان، الايان، كوتان، فيجايان، فاوا، جوي،

---

(١) ـ جاء السيد. (المترجمة).

سوماثي، آمال، آناما، كانكاما، لاثا، سوشيلا، فيجاياما، جولي كوتي، مولي كوتي، لاكي كوتي، بينامول (بنات بأسماء باصات). الهدير المبكّر للاستياء محجوباً تحت طبقة سميكة من الولاء.

دخلت البليموث السماوية البوابة وطحنت فوق الدرب الحصوي ساحقة قواقع صغيرة ومشظّية حصى حمراء وصفراء صغيرة. تطوّح الأطفال خارجاً.

نافورتان منهارتان.

نفخات شعر مسطّحة.

بنطال أصفر مجعّد برجلين عريضتين وحقيبة غوغو محبوبة. دفق متباطىء وبالكاد مستيقظ. ثم الراشدون المتورمو الكواحل. متيبسون من الجلوس الطويل.

«هل وصلتم؟» سألت ماماتشي، مديرةً نظارتها الغامقة المائلة باتجاه الأصوات الجديدة: صفق أبواب سيارة، الخروج. وخفضت كمانها.

«ماماتشي !» قالت راحيل لجدتها العمياء الجميلة. «تقيأ إستا! في منتصف *صوت الموسيقى* ! و...»

لمست آمو ابنتها بلطف. على كتفها. وكانت اللمسة تعني ششششش... نظرت راحيل حولها ووجدت أنها كانت في مسرحية. لكن لم يكن لها إلاّ دور صغير.

كانت الخلفيّة فحسب. وردة ربما. أو شجرة.

وجهاً في حشد. سكان مدينة.

لم يقل أحد مرحباً لراحيل. ولا حتى الجيش الأزرق في الخضرة الحارة.

«أين هي؟» سألت ماماتشي أصوات السيارة. «أين حبيبتي صوفي مول؟ تعالي هنا ودعيني أراكِ.»

بينما كانت تتكلم، تفتت اللحن المنتظر الذي كان معلّقاً فوقها كمظلة هيكل فيل متلألىء، وسقط بنعومة حولها كالغبار.

تشاكو بيذلته *ماذا حدث لرجل جماهيرنا*؟ وبربطة عنقه المعلوفة جيداً، قاد مارغريت كوتشاما وصوفي مول بانتصار إلى أعلى الدرجات الحمر التسع ككأسي تنس كان قد ربحهما مؤخراً.

ومرة أخرى، لم تُقَل إلاّ الأشياء الصغيرة. وكمنت الأشياء الكبيرة مصمتة لم تُلفظ. «مرحبا، ماماتشي»، قالت مارغريت كوتشاما في صوت معلمة المدرسة اللطيف الذي لديها (والذي كان يصفع في بعض الأحيان). «شكراً لك لقبولنا. نحتاج كثيراً لأن نبعد.»

التقطت ماماتشي نفحة من عطر رخيص متحمّض عند الأطراف بجانب خطوط التعرّق. (كان لديها زجاجة من ديور في كيس جلدي أخضر رقيق أغلقت عليها بعيداً في خزانتها.)

أخذت مارغريت كوتشاما يد ماماتشي. كانت الأصابع ناعمة، والخواتم الياقوتية قاسية.

«مرحباً، مارغريت»، قالت ماماتشي (لا فظة، ولا مهذبة)، ونظارتها الغامقة ما تزال في مكانها. «أهلاً بك في أيمينيم. وانا آسفة لأنني لا أستطيع رؤيتك، فكما ولا بد أنك ترين، أنا عمياء *تقريباً*.» تكلمت بطريقة مفتعلة بطيئة.

«أوه لا عليك»، قالت مارغريت كوتشاما. «أنا واثقة أنني أبدو مريعة على أي حال.» ضحكت بارتباك، غير متأكدة إذا كان الجواب مناسباً.

«خطأ»، قال تشاكو. استدار إلى ماماتشي مبتسماً ابتسامة فخورة لم تستطع أمه أن تراها. «إنها جميلة كعهدها دائماً.»

«لقد أسفت جداً للسماع بأمر.. جو»، قالت ماماتشي. بدت أنها أسفت قليلاً. وليس كثيراً.

وكان هناك صمت حزن بشأن جو.

«أين هي حبيبتي صوفي مول؟» قالت ماماتشي. «تعالي هنا ودعي جدتك تنظر إليك.»

قيدت صوفي مول إلى ماماتشي. دفعت ماماتشي نظارتها الشمسية إلى الأعلى داخل شعرها. نظرتا إلى الأعلى كعيني قطة مائلتين إلى رأس الثور الاميريكي المتعفّن. قال رأس الثور الأميريكي المتعفّن «لا، *قطعًا لا*.» في صوت ثيران أميركية متعفّنة.

لم يكن باستطاعة ماماتشي حتى بعد عمليتها لزرع القرنية، أن ترى سوى ضوء وظلال. إذا كان أحد يقف على المدخل، كان باستطاعتها أن تقول أن أحدهم كان يقف في المدخل. ولكن لا تستطيع معرفة من هو. كانت تستطيع قراءة شيك، أوايصال، أو إشعار بنك فقط إذا كان قريباً كفاية لتلامسه رموشها. عندها كانت تمسك به ثابتاً، وتحرك عينها عبره. منقلّة إياها من كلمة إلى كلمة.

شاهدت سكان المدينة (في عباءتها التي لجنية) ماماتشي تسحب صوفي مول قريباً من عينيها لتنظر إليها. لتقرأها كشيك. لتتفحّصها كإشعار بنك. رأت ماماتشي (بعينها الأفضل حالاً) شعراً بنياً محمراً (تـ...تقريباً أشقر)، انحناء خدين منمشين (تـ...تقريباً زهريين)، وعينين زرقاوين رماديتين.

«أنف باباتشي»، قالت ماماتشي. «قولي لي، هل أنت بنت جميلة؟» سألت صوفي مول.

«نعم»، قالت صوفي مول.

«وطويلة؟»

«طويلة بالنسبة لسنّي»، قالت صوفي مول.

«طويلة جداً»، قالت بيبي كوتشاما. «أطول بكثير من إستا.»

«إنها أكبر»، قالت آمو.

«ولو...» قالت بيبي كوتشاما.

أبعد قليلاً، صعد فيلوثا، الطريق المختصر عبر أشجار المطاط. عارياً. لفيفة من سلك كهربائي مهان كانت معقودة حول كتف واحد. كان يلبس موندوه

المرسوم بالأزرق الغامق والأسود مطوياً بشكل غير محكم فوق ركبتيه. وعلى ظهره، ورقة الشجر التي له من شجرة الوحمة (التي كانت تجعل الرياح الموسمية تأتي في وقتها). ورقة الشجر الخريفية في الليل.

قبل أن يلوح عبر الأشجار ويدلج الدرب، رأته راحيل وانزلقت خارجة من **المسرحية** وذهبت إليه.

رأتها آمو تذهب.

بعيداً عن خشبة المسرح، راقبتهما يؤديان تحيتهما الرسمية المسهبة. انحنى فيلوثا كما لُقّن، ونشر موندوه كتنورة، كخادمة مصنع الألبان الانكليزية في ***فطور الملك***. انحنت راحيل (وقالت «انحن»). ثم عقفا أصابعهما الصغيرة وتصافحا برزانة بسيماء رجال مصرفيين في اجتماع رسمي.

في ضوء الشمس المرقّط المرتشح عبر أشجار الغابة الداكنة الخضرة، راقبت آمو فيلوثا وهو يرفع ابنتها بسهولة وكأنها طفلة قابلة للنفخ، مصنوعة من الهواء. بينما كان يقذفها عالياً وكانت هي تحط بين ذراعيه، رأت آمو على وجه راحيل فرحة كبيرة لصغير طائر.

رأت ان حواف العضلات على معدة فيلوثا قد أُصبحت مُدّربة وبرزت تحت جلده كتقاطيع على لوح شوكولاة. تساءلت كيف تغيّر جسمه ـ بهدوء شديد ـ من جسم صبي مسّطح العضلات إلى جسم رجل. مميّز وصلب. جسم سباح. جسم سباح نجار. مصقول بملمّع جسمٍ من الشمع الرفيع.

كان لديه عظمتا خد عاليتان وابتسامة بيضاء مفاجئة.

ابتسامته هي التي تذّكر آمو بفيلوثا كصبي صغير. يساعد فيليا بابن في عدّ ثمرات جوز الهند. ممسكاً بهدايا صغيرة صنعها من أجلها، مسطّحة على راحة يده بحيث تستطيع أخذها دون أن تلمسه. قوارب، صناديق، طواحين هواء صغيرة. مخاطباً إياها بـِ «آمو كوتي». آمو الصغيرة. مع أنه كان أصغر سناً منها بكثير. عندما تنظر إليه الآن، لا تستطيع مقاومة التفكير أن الرجل الذي أصبحه يحمل القليل جداً من الصبي الذي كانه في السابق. ابتسامته كانت

قطعة المتاع الوحيدة التي حملها معه من الصبا إلى الرجولة.

فجأة، أملت آمو أن يكون هو من رأته راحيل في المسيرة. أملت أن يكون هو من رفع علمه وذراعه المعقودة بشريطة في غضب. أملت أن يكون قد أسكن تحت عباءة بشاشته، غضباً متنفساً حياً ضد العالم النظيف المرتّب، التي كانت تشعر بسخط شديد تجاهه.

أملت أن يكون هو.

تفاجأت بمدى الاستجابة البدنية لابنتها معه. تفاجأت من أن طفلتها بدت وكأن لديها عالماً فرعياً أبعدها هي كلياً. عالماً حسيّاً من الابتسامات والضحك، حيث هي، أمها، ليس لها دور فيه. لاحظت آمو أن أفكارها قد طُعّمت بلمسة أرجوانية رقيقة من الحسد. لم تسمح لنفسها أن تفكر من كان الذي حسدته. الرجل أم طفلتها. أم فقط عالمهما من الأصابع المعقوفة والابتسامات المفاجئة.

الرجل الواقف في ظل أشجار المطاط ونقود من أشعة الشمس ترقص على جسده، حاملاً ابنتها بين ذراعيه، اختلس النظر نحو الأعلى، والتقط نظرة آمو. قُرّبت قرونٌ بمنظار داخل لحظة زائلة واحدة. أخطأ التاريخ خطواته، قُبض عليه بعيداً عن الحراسة. سُلخ كجلد أفعى قديم. علاماته، ندوبه من الحروب القديمة وأيام السير نحو الخلف، سقطت جميعها بعيداً. ترك في غيابه، هالة، تلألؤاً حسياً ملموساً كان من السهل رؤيته كسهولة رؤية الماء في النهرأو الشمس في السماء. من السهل الإحساس به كسهولة الاحساس بالحرارة في يوم حار، او بجذب سمكة بخيط مشدود. جلياً لدرجة ان احداً لم يلاحظه.

في تلك اللحظة الموجزة، نظر فيلوثا نحو الأعلى ورأى أشياءً لم يكن قد رأها من قبل. أشياء كانت بعيدة عن الحدود حتى الآن، محتجبة بغمامات التاريخ.

أشياء بسيطة..

فعلى سبيل المثال، رأى أن أم راحيل كانت امرأة.

وأن لها غمازتين عميقتين حين تبتسم وأنهما كانتا تظلاّن طويلاً بعد أن تغادر الابتسامة عينيها. رأى أن ذراعيها البنيتين كانتا مدورتين ومكتنزتين ومثاليتين. وأن كتفيها كانتا مشعتين، لكن عينيها كانتا في مكان آخر. رأى أنه عندما يعطيها هدايا لن يكون هناك من داعٍ ليقدّمها على راحتي يديه حتى لا تلمسه. قواربه وصناديقه. طواحين هوائه الصغيرة. رأى، أيضاً، أنه لم يكن، بالضرورة، هو المقدّم الوحيد للهدايا. أن لديها هي، أيضاً، هدايا لتقدّمها له.

انزلقت هذه المعرفة داخله بنقاء، كحد سكين حادة. باردة وساخنة في الوقت نفسه. استغرق الأمر لحظة فقط.

رأت آمو أنه رأى. نظرت بعيداً. وكذلك هو. عادت شياطين التاريخ لتحتج عليهما. لتغلّف ثانية فروتها القديمة المليئة بالندوب وتجرّهما إلى حيث كانا يعيشان في الواقع. حيث تحدّد قوانين الحب من يجب أن يُحَب. وكيف. وكم.

صعدت آمو الشرفة، عائدةً إلى المسرحية. ترتجف.

نظر فيلوثا إلى السفيرة ح. حشرة بين ذراعيه. وضعها. وهو يرتجف أيضاً.

«وانظري إلى نفسك!» قال، ناظراً إلى عباءتها الرّقيقة السخيفة. «جميلة جداً! هل ستتزوجين ؟»

اندفعت راحيل نحو ابطيه ودغدغته دون رحمة. غرغرغر !

«لقد *رأيتك* البارحة»، قالت.

«أين؟» جعل فيلوثا صوته عالياً ومتفاجئاً.

«كاذب» قالت راحيل. «كاذب ومدّعٍ. لقد رأيتك. كنت شيوعياً وكان لديك قميص وعلم. وتجاهلتني.»

«*Aiyyo Kashtam*» قال فيلوثا. «هل أفعل أنا ذلك؟ *أنت* قولي لي، هل يفعل فيلوثا ذلك *أبدًا* ؟ لا بد وأنه توأمي الضائع منذ زمن بعيد.»

«أي توأم ضائع منذ زمن بعيد ؟»

«أورمبان السخيف... ذاك الذي يعيش في كوتشي.»

«من أوورومبان؟» ثم رأت راحيل الوميض. «كاذب! ليس لديك توأم! لم يكن أوورومبان! كان *أنت* !»

ضحك فيلوثا. كانت له ضحكة حلوة من قلبه.

«لم أكن انا»، قال. «كنت مريضاً في الفراش.»

«انظر، أنت تبتسم!» قالت راحيل. «هذا يعني أنه كان أنت. الابتسام يعني «أنه كنت أنت».»

«هذا في الانكليزية فقط!» قال فيلوثا. [في المالايالام، كان أستاذي يقول دائماً، «الابتسام يعني أنه لم يكن أنا».]

استغرق الأمر راحيل لحظة لتفهم ثم اندفعت نحو إبطيه ودغدته ثانية غر غر غر!

نظر فيلوثا وهو مايزال يبتسم إلى داخل المسرحية باحثاًعن صوفي مول.

«أين عزيزتنا صوفي مول؟ لنراها. هل تذكرتِ اصطحابها، أم خلفتِها وراءك؟»

«لا تنظر هناك»، قالت راحيل بعجل.

وقفت على الحاجز الاسمنتي الذي يفصل أشجار المطاط عن الدرب، ووضعت يديها بقوة على عيني فيلوثا.

«لماذا؟» قال فيلوثا.

«لأنني»، قالت راحيل. «لا أريدك أن تفعل.»

«أين الصبي إستا ؟» قال فيلوثا، بسفيرة (متنكرة في زي حشرة ماصة متنكرة في زي جنية مطار) متدلية على ظهره ورجلاها تطوّقان خصره، معصبّة إياه بيديها الصغيرتين اللزجتين. «لم أره.»

«اوه، لقد بعناه في كوتشين»، قالت راحيل بمرح. «مقابل كيس أرز ومصباح يدوي.»

ضغط زبد العباءة الصلبة وروداً مخرّمة خشنة على ظهر فيلوثا. أزهرت ورود مخرّمة وورقة شجر جالبة للحظ على ظهر أسود.

لكن عندما بحثت راحيل في المسرحية عن إستا، وجدت أنه لم يكن هناك.

بالعودة إلى داخل المسرحية وصلت كوتشو ماريا، قصيرة، وراء تورتتها العالية.

«جاءت التورتة»، قالت، بصوت عالٍ قليلاً، لماماتشي.

كانت كوتشو ماريا تتكلم دوماً بصوت عالٍ قليلاً مع ماماتشي لأنها افترضت أن نظراً ضعيفاً يؤثر أوتوماتيكياً على بقية الحواس.

«*Kondo*،[1] كوتشو ماريي؟» قالت ماماتشي. «هل تستطيعين رؤية حبيبتنا صوفي مول؟»

«Kandoo[2]، كوتشاما»، قالت كوتشو ماريا بصوت عالٍ زيادة. «أستطيع رؤيتها.»

ابتسمت لصوفي مول بشكل عريض زيادة. كانت بطول صوفي مول بالضبط. أكثر قصراً من المسيحيين السوريين، بالرغم من جهودها الكبيرة.

«لها لون أمها»، قالت كوتشو ماريا.

«وانف باباتشي»، أصرّت ماماتشي.

«لا أعلم بشأن ذلك، لكنها جميلة جداً»، صاحت كوتشو ماريا. «*SundariKutty* . إنها ملاك صغير.»

كانت الملائكة بلون شاطىء البحر وتلبس سراويل عريضة الأرجل.

الشياطين الصغيرة كانت بلون الوحل بعباءات جنية مطار وبخبطات على

---

(١) - هل رأيت؟ (المترجمة).

(٢) - نعم رأيت. (المترجمة)

الجبين من الممكن أن تتحول إلى قرون. بنافورات في الحب ـ في ـ طوكيو. وبعادات قراءة بالمقلوب.

وإذا ما دققّت النظر، تستطيع رؤية إبليس في عيونهم.

أخذت كوتشو ماريا يدي صوفي مول كلتيهما في يديها، الراحتين نحو الأعلى، ورفعتهما إلى وجهها وتنشّقت بعمق.

«ماذا تفعل؟» أرادت صوفي مول أن تعرف، يدان لندنيتان رقيقتان مُخضَبتان في يدين أيمينيمتين قاسيتين. «من هي؟ لماذا تشم يدي؟»

«إنها الطباخة»، قال تشاكو. «هذه طريقتها في تقبيلك.»

«تقبيل؟» كانت صوفي مول غير مقتنعة، لكن مهتمة.

«يا للروعة!» قالت مارغريت كوتشاما. «أنه نوع من الاستنشاق! هل يفعل الرجال والنساء ذلك مع بعضهم البعض أيضاً؟»

لم تكن تريدها أن تبدو كذلك، احمرّت. ثقب بشكل معلمة مدرسة مُحرجة في الكون.

«أوه، طوال الوقت!» قالت آمو، وخرجت أعلى قليلاً من التمتمة الساخرة التي كانت تقصدها. «هكذا ننجب الأطفال.»

لم يصفعها تشاكو.

فلم ترد له الصفعة.

لكن جوالانتظار أصبح هائجاً.

«أعتقد أنك مُدينة لزوجتي باعتذار، يا آمو»، قال تشاكو، بمظهر امتلاكي احترازي، (آملاً أن مارغريت كوتشاما لن تقول، «*زوجة سابقة، يا تشاكو!*» وتهزّ زهرة باتجاهه.)

«أوه، كلا!» قالت مارغريت كوتشاما. «لقد كانت غلطتي! لم أكن أقصد مطلقاً أن تبدو كذلك.. ما قصدته كان ـ أعني إنه لأمر ساحر أن نفكر-»

«لقد كان سؤالاً مشروعاً تماماً»، قال تشاكو. «وأنا أعتقد أن على آمو أن تعتذر.»

«هل علينا أن نتصرف كقبيلة ما نبذها الله ملعونة أُكتشفت للتو؟» قالت آمو.

«يا إلهي!» قالت مارغريت كوتشاما.

في هدوء المسرحية الغاضب (والجيش الأزرق في الخضرة الحارة مايزال يتفرّج)، عادت آمو إلى البليموث، أخرجت حقيبتها، صفقت الباب، واتجهت نحو غرفتها، وكتفاها تشعّان. تاركة الجميع يتساءلون من أين اكتسبت وقاحتها.

والحق يُقال، لم تكن مسألة استفهام بسيطة.

لأن آمو لم تكن قد تلّقت شيئاً من الثقافة، ولا قرأت أصنافاً من الكتب، ولا التقت أجناساً من الناس، الذين من الممكن أن يكونوا قد أثرّوا عليها لتفكّر بالطريقة التي كانت تفكر بها.

كانت بالضبط ذلك النوع من الحيوان.

في طفولتها، تعلّمت بسرعة ان تنبذ وتتخطى قصص **الدب الأب والدبة الأم** التي كانت تُعطى لها لتقرأها. في نسختها، كان الدب الأب يضرب الدبة الأم بمزهرية نحاسية. وكانت الدبة الأم تتحمّل ذلك الضرب باستسلام أبكم.

في سنوات نموّها، شاهدت آمو والدها ينسج نسيجه القبيح. كان ساحراً ودمثاً مع الزوار، ويتوقف قليلاً لمداهنتهم إذا صدف وكانوا من البيض. تبرّع بالمال للأيتام ولعيادات البرص. عمل جاهداً على صورته العلنية أمام الناس كرجل أخلاقي كريم ومحّنك مطلّع. لكنه لوحده مع زوجته وأولاده، كان يتحول إلى آمر شرس مرتاب شنيع، بمسحة من دهاء شرير متوحش. كانوا يُضربون ويُذلون ومن ثم كان عليهم تحمّل حسد الأصدقاء والأقارب لأن لهم مثل هذا الزوج والأب الرائع.

كانت آمو قد احتملت ليالي شتاء باردة في دلهي مختبئة في السياج مع أمها حول منزلهم (في حال رآهم أناس من عائلات راقية) لأن باباتشي كان قد عاد من العمل معتلاً، وضربها وماماتشي وأخرجهما من البيت.

في ليلة مماثلة، راقبت آمو التي كانت في التاسعة من عمرها، المختبئة مع أمها في السياج، ظلّ باباتشي الأنيق في النوافذ المضاءة وهو يطير من غرفة إلى غرفة. غير مكتفٍ من كونه قد ضرب زوجته وابنته (تشاكو كان غائباً في المدرسة)، مزّق الستائر، رفس الأثاث، وحطّم مصباح منضدة. بعد ساعة من إنطفاء النور، مستخفة بمناشدة ماماتشي المذعورة، زحفت آمو الصغيرة عائدة إلى المنزل عبر كوة التهوية لتنقذ حذاءها المطاطي الجديد الذي كانت تحبه أكثر من أي شيء آخر. وضعته في كيس ورقي وزحفت عائدة إلى غرفة الاستقبال عندما أُشعل النور فجأة.

كان باباتشي جالساً على كرسيه الماهوغاني الهزاز طوال الوقت، يؤرجح نفسه بصمت في الظلام. عندما قبض عليها لم يقل كلمة. جلدها بسوط ركوبه العاجي المقبض (ذاك الذي وضعه على حجره في صورة الاستوديو). لم تبك آمو. عندما فرغ من ضربها، جعلها تُحضر له مقص ماماتشي المشحوذ من خزانة خياطتها. بينما كانت آمو تتفرّج، كان عالم الحشرات الامبراطوري يمزّق حذاءها المطاطي الجديد بمقص والدتها المشحوذ. كانت شرائط المطاط السوداء تسقط على الأرض. والمقص يصدر أصوات تقطيع مقصية. تجاهلت آمو وجه والدتها المشدود المذعور الذي ظهر على النافذة. استغرق الأمر عشر دقائق ليصبح حذاؤها المطاطي المحبوب ممزقاً كلياً. عندما رفرفت الشريطة المطاطية الأخيرة باتجاه الأرض، نظر والدها إليها بعينين باردتين مسطحتين، وتأرجح وتأرجح وتأرجح. محاطاً ببحر من أفاع مطاطية متلوية.

وفيما كانت آمو تكبر، تعلمّت أن تعيش هذه الوحشية المحسوبة. طورت شعوراً عالياً بالظلم والاضطهاد، وتلك الصبغة العنيدة المتهورة التي تنمو عند الصغار الذين كانوا طوال حياتهم مُرهبين من قبل كبار. لم تفعل شيئاً، على وجه الدقة، لتتجنب الشجارات والمجابهات. وفي الحقيقة، من الممكن البرهان على أنها سعت إليها، وربما استمتعت بها حتى.

«هل ذهبت؟» سألت ماماتشي الصمت من حولها.

«لقد ذهبت»، قالت كوتشو ماريا بصوت عالٍ.

«هل من المسموح لكم في الهند أن تقولوا «ملعون؟»» سألت صوفي مول.

«من قال «ملعون»؟» سأل تشاكو.

«هي،» قالت صوفي مول. «العمة آمو. قالت «قبيلة ما هجرها الله ملعونة.»»

«اقطعي التورتة وأعطي كل واحد قطعة،» قالت ماماتشي.

«لأنه في انكلترا، ليس»، قالت صوفي مول لتشاكو.

«ليس ماذا ؟» قال تشاكو.

«مسموح أن نقول م ل ع و ن»، قال صوفي مول.

نظرت ماماتشي بشكل أعمى إلى العصر المشرق. «هل الجميع هنا؟» سألت.

«أوير كوتشاما»، قال الجيش الأزرق في الخضرة الحارة، «نحن جميعاً هنا.»

خارج المسرحية، قالت راحيل لفيلوثا: «نحن لسنا هنا، أليس كذلك؟ نحن لا نمثل حتى.»

«هذا صحيح بالضبط»، قال فيلوثا. «نحن لا نمثل حتى، لكن ما أود معرفته هو، أين عزيزنا إستابابيتشاتشن كوتابن بيتر مون»

وأصبح هذا شبيهاً برقص رامبليستيلسكين لاهث بين أشجار المطاط.

أوه يا إستابابيتشاتشن كوتابن بيتر مون

أين؟ أوه أين ذهبت ؟

وتدرّج من رامبليستيلسكين إلى سكارليت بيمبيرنيل[1].

نحن نبحث عنه هنا، ونبحث عنه هناك

وهؤلاء الفرنسيون يبحثون عنه في كل مكان.

---

(١) ـ شخصيات في قصص للأطفال. (المترجمة).

هل هو في الجنة؟ هل هو في الجحيم؟
ذلك المخا ـ دع اللعين إستا ـ بن؟

قطعت كوتشو ماريا قطعة تورتة نموذجاً لتوافق عليها ماماتشي.

«قطعة واحدة لكل واحد،» أكّدت ماماتشي على كوتشو ماريا، وهي تلمس التورتة قليلاً بأصابع ياقوتية الخواتم لترى إن كانت صغيرة كفاية.

نشرت كوتشو ماريا بقية التورتة بشكل فوضوي، وبمشقة، وهي تتنفس من فمها، وكأنها كانت تقطّع خروفاً مشوياً. ووضعت القطع على صينية فضية كبيرة. عزفت ماماتشي لحن *أهلًا بك في بيتك، حبيبتنا صوفي مول.* لحناً متخماً بالشوكولاة، حلاوة دبقة، وبنية ذائبة. أمواجاً شوكولاتية على شاطىء شوكولاتي.

في وسط اللحن، رفع تشاكو صوته فوق الصوت الشوكولاتي. «ماما! قال (بصوته العالي الخاص بالقراءة).» ماما! يكفي! يكفي كماناً!»

«يكفي؟ أتعتقد أنه يكفي، يا تشاكو ؟»

«وأكثر من يكفي»، قال تشاكو.

«يكفي يكفي»، غمغمت ماماتشي لنفسها. «أعتقد أنني سأتوقف الآن.» وكأن الفكرة قد خطرت لها فجأة.

وضعت كمانها في العلبة السوداء التي بشكل كمان. التي تغلق كحقيبة. وأُغلقت الموسيقى معها.

تيك. وتيك.

وضعت ماماتشي نظارتها السوداء ثانية. وسحبت ستارتها في مواجهة اليوم الحار.

ظهرت آمو من المنزل ونادت على راحيل.

«راحيل أريدك أن تنامي قيلولتك لبعد الظهر! ادخلي بعد أن تتناولي تورتتك!»

غاص قلب راحيل. قيلولة بعظ[1] الظهر. كانت تكرهها.

عادت آمو داخلاً.

أنزل فيلوثا راحيل، ووقفت هي بيأس على طرف الدرب، على محيط المسرحية، قيلولة بعظ ظهر تلوح كبيرة وشريرة مقرفة في أفقها.

«ومن فضلك كفي عن التآلف الزائد جداً مع ذلك الرجل!» قالت بيبي كوتشاما لراحيل.

«تآلف زائد؟» قالت ماماتشي. «من هو، تشاكو؟ من هو المتآلف زيادة ؟»

«راحيل»، قالت بيبي كوتشاما.

«متآلفة مع *ماذا* ؟»

«مع من»، صحح تشاكو لأمه.

«حسناً، مع من هي متآلفة زيادة ؟» سألت ماماتشي.

«مع أثيرك فلوثا ـ من غيره ؟» قالت بيبي كوتشاما. وتشاكو ـ «اسأله أين كان البارحة. لنكن حازمين بشكل نهائي»

«ليس الآن»، قال تشاكو.

«ماذا تعني متآلف زيادة ؟» سألت صوفي مول مارغريت كوتشاما التي لم تجب.

«فيلوثا؟ هل فيلوثا هنا؟ هل أنت هنا؟» سألت ماماتشي بعد الظهر.

«أوير كوتشاما»، خطا عبر الأشجار إلى داخل المسرحية.

«هل عرفت السبب ؟» سألت ماماتشي.

«الغسّالة في الصمام السفلي»، قال فيلوثا. «لقد غيّرته. إنه يعمل الآن.»

---

(١) ـ استخدمت الكاتبة كلمة خاطئة تفخّم «القيلولة» بشكل بشع بالنسبة لإحساس طفلة تكرهها. ولذلك ارتأينا أن نستخدم «قيلولة بعظ الظهر» بدلاً من «قيلولة بعد الظهر». (المترجمة).

«إذن أشعله»، قالت ماماتشي. «الخزان فارغ.»

«سيصبح ذلك الرجل خصمنا»، قالت بيبي كوتشاما. لا لأنها كانت بعيدة النظر وأحست بوميض مفاجىء لرؤية تنبؤية. لكن لتوقعه في المشاكل فحسب. لم يعرها أحد انتباهاً.

«علّموا على كلامي»، قالت بمرارة لاذعة.

«أترينها؟» قالت كوتشو ماريا عندما اقتربت من راحيل بصينية التورتة. كانت تقصد صوفي مول. «عندما تكبر، ستصبح كوتشامانا[1]، وسترفع أجورنا، وستعطينا أثواب ساري نايلونية من أجل الأونام[2]» كانت كوتشو ماريا تجمع أثواب الساري بالرغم من أنها لم تلبس قط واحداً منها، ومن المحتمل انها لن تفعل ذلك أبداً.

«وإذاً ؟» قالت راحيل. «بحلول ذلك الوقت أكون في أفريقيا.»

«أفريقيا؟» ضحكت كوتشو ماريا. «إن أفريقيا مليئة بالناس السود البشعين وبالبعوض.»

«أنت هي البشعة الوحيدة»، قالت راحيل، وأضافت (بالانكليزية) «قزمة غبية !»

«ماذا قلتِ؟» قالت كوتشو ماريا مهددةً. «لا تخبريني. انا أعرف. سمعت. سأخبر ماماتشي. انتظري فقط !»

سارت راحيل عابرة إلى البئر القديمة حيث كان هناك دوماً بعض النمل للقتل. نمل أحمر كان له رائحة ضرطة حامضية عندما يُسحق. تبعتها كوتشو ماريا بصينية التورتة.

قالت راحيل أن لا تريد أيّاً من التورتة السخيفة.

---

(١) ـ أي كوتشاما الخاصة بنا. (المترجمة).

(٢) ـ حفل استقبال حاكم كيرالا القديمة. (المترجمة).

«*Kushumbi*»[1]، قالت كوتشو ماريا. «الغيورون يذهبون مباشرة إلى الجحيم.»

«من هو الغيور؟»

«لا اعرف، أنت قولي لي»، قالت كوتشو ماريا، بمريول مكشكش وقلب خلّي.

وضعت راحيل نظارتها ونظرت في المسرحية. كان كل شيء بلون الغضب. بدت صوفي مول الواقفة بين مارغريت كوتشاما وتشاكو، وكأنه كان من الواجب صفعها. شاهدت راحيل صفاً كاملاً من النمل الريان. في طريقه إلى الكنيسة. جميعهم يرتدون الأحمر. كان من الواجب قتلهم قبل أن يصلوا هناك. أن يهرسوا ويسحقوا بحجر. لا تستطيع أن تسمح بنمل نتن في كنيسة.

أصدر النمل صوت مضغ خافتاً عندما كانت الحياة تفارقه. مثل جني يأكل خبزاً محمصاً، أو بسكويتاً هشاً.

ستكون الكنيسة النملية فارغة وسينتظر الأسقف النملي بثياب الأسقف النملي المضحكة، مؤرجحًا البخور في وعاء فضي. ولن يصل أحد.

وبعد أن يكون قد انتظر قدرًا معقولاً من الوقت النملي، سيقطّب تقطيبة نملية مضحكة على جبينه، ويهز رأسه بحزن. سينظر إلى النوافذ النملية المتوهجة الملطخة الزجاج وعندما ينتهي من النظرإليها، سيقفل الكنيسة بمفتاح ضخم ويجعلها مظلمة. ثم سيذهب إلى البيت إلى زوجته، و (إذا لم تكن ميتة) ينامان قيلولة بعظ ظهر نملية.

صوفي مول المرتدية قبعة وبنطالاً برجل عريضة والمحبوبة من البداية، خرجت من المسرحية لترى ما الذي كانت تفعله راحيل خلف البئر. لكن

(١) ـ شريرة. (المترجمة).

المسرحية ذهبت معها. سارت عندما كانت هي تسير، وتوقفت عندما وقفت هي. ابتسامات مولعة تبعتها. أبعدت كوتشو ماريا صينية التورتة عن طريق ابتسامتها المتيمة بينما كانت صوفي مول تقرفص عند بئر ـ السحق (أصبح الطرفان السفليان الصفراويان الواسعان موحلين ومبللين الآن)

تفّحصت صوفي مول التشويه النتن بتجرّد طبي. كان الحجر مكسواً بجثث حمراء وبضع أرجل تلّوح بوهن.

تفرّجت كوتشو ماريا بقطع تورتها.

تفرّجت الابتسامات المولعة بافتتان.

بنتان صغيرتان تلعبان.

عذبتان.

واحدة بلون الشاطىء.

وواحدة سمراء.

واحدة محبوبة.

واحدة محبوبة أقل قليلاً.

«لنترك واحدة على قيد الحياة حتى تشعر بالوحدة»، اقترحت صوفي مول.

تجاهلتها راحيل وقتلتهم جميعاً. ثم وبعباءتها الرقيقة الخاصة بالمطار وبنطالها القصير الذي يناسبها (والذي لم يعد مجعداً) وبنظارتها الشمسية غير المتناسبة، ركضت بعيداً. اختفت داخل الخضرة الحارة.

بقيت الابتسامات المولعة على صوفي مول كبقعة ضوء، معتقدة ربما أن بنتي الخال والعمة العذبتين كانتا تلعبان لعبة الغميضّة، كما يفعل أولاد الخال والعم غالباً.

٩

السيدة بيلاي، والسيدة إيبان، والسيدة راجاغوبالان

تسرّبت خضرة النهار المشّعة من الأشجار. بُسطت أوراق النخل القاتمة كأمشاط متدلية في مواجهة سماء الريح الموسمية. وانزلقت الشمس البرتقالية خلال أسنانها المنحنية القابضة الجشعة.

أسرع سرب من خفافيش الفواكه في العتمة.

في الحديقة التزينية المهملة، شاهدت راحيل الأقزام المتدلية والملائكة المهجورة، قرفصت بجانب البركة الآسنة وتفرّجت على الضفادع تقفز من حجر إلى حجر مزبدة. ضفادع بشعة جميلة.

لزجة. مُثَأللة. تنقّ.

أمراء غير مُقَبَّلين، متلهفون واقعون في فخ داخلها. طعام للأفاعي الكامنة في عشب حزيران الطويل. حفيف. اندفاع. ولا مزيد من الضفادع لتثب من حجر إلى حجر مزبدة. لا مزيد من الأمراء ليُقبّلوا.

كانت الليلة الأولى منذ قدومها التي لم تهطل فيها الأمطار.

في مثل هذا الوقت تقريبًا، فكرّت راحيل، *أكون في طريقي إلى العمل. ركوب الباص. أضواء الشوارع. دخان المحطة. أشكال تنفس الناس على زجاج*

حجرتي الواقي من الرصاص. صلصلة النقود المدفوعة تجاهي في الصينية المعدنية. رائحة النقود على اصابعي. السكير الدقيق الموعد بعينين صاحيتين والذي يصل عند العاشرة صباحًا بالضبط: «هيه. أنت! أيتها العاهرة السوداء! مصّي قضيبي!».

كانت تملك سبعمائة دولار. سواراً ذهبياً له رأسي أفعى. لكن بيبي كوتشاما كانت قد سألتها كم من الوقت تنوي بقاءه بعد. وماذا تنوي أن تفعل بشأن إستا.

لم يكن لديها أية خطط.

لا خطط.

لا حق في الملكية.

نظرت نحو الخلف إلى الثقب الذي بشكل منزل جملوني والذي يلوح في الكون وتخيّلت العيش في القصعة الفضية التي كانت بيبي كوتشاما قد ركّبتها على السطح. إنها أكبر بالتأكيد من بيوت الكثيرين. أكبر، على سبيل المثال، من مسكن كوتشو ماريا الضيق.

إذا ما ناما هناك، هي وإستا، ملتفين كجنينين في رحم فولاذي ضحل، فماذا سيفعل هالك هوغان وبام بام بيغيلو؟ إذا أُحتل الديش، أين سيذهبان؟ هل سينزلقان عبر المدخنة إلى داخل حياة بيبي كوتشاما وتلفزيونها؟ هل سيحطّان على الموقد القديم وهما يقولان *هييها!*، بعضلاتهما وثيابهما المبهرجة؟ وهل سينزلق الناس النحيلون ـ ضحايا المجاعات واللاجئون ـ من خلال التشققات التي في الأبواب؟ وهل ستنزلق الابادة الجماعية من بين القرميدات؟

كانت السماء كثيفة بالتلفزيون. وإذا ما وضعت نظارة خاصة لكان باستطاعتك أن تراهم يحوّمون في السماء بين الخفافيش والطيور المهاجرة العائدة ـ شقراوات، حروب، مجاعات، كرة قدم، عروض طعام، انقلابات، تسريحات شعر متيّبسة بمثبت شعر. وصدريات مصممة. ينسابون نحو أيمينيم كغواصين سماويين. يقومون بأشكال في السماء. عجلات. طواحين هواء. أزهار مبرعمة وغير مبرعمة.

هييها!

عادت راحيل إلى الضفادع المتأملة.

سمينة. صفراء. من حجر إلى حجر مزبدة. لمست واحدة برقة. فحركت جفنيها إلى الأعلى. واثقة من نفسها على نحو مضحك.

غشاء رامش[1]، تذكرت نفسها وإستا ذات مرة يمضيان يوماً بأكمله يقولانها. هي وإستا وصوفي ومول.

رامش

رام

را

ر

في ذلك اليوم، كان ثلاثتهم، يرتدون أثواب ساري (قديمة، وممزقة إلى نصفين)، وكان إستا الخبير الملبّس. ثنى طيات صوفي مول. ورتّب تنورة راحيل وعدّل خاصته. وكان يوجد بينديس[2] على جبينهم. وفي محاولة غسل كحل آمو المحرّم، كانوا قد لطّخوه على كامل أعينهم، وبشكل عام كانوا يبدون مثل حيوانات راكون[3] تحاول ان تعبر كسيدات هندية. حدث هذا بعد حوالي أسبوع من قدوم صوفي مول. أسبوع قبل موتها. بحلول ذلك الوقت كانت قد عملت بثبات تحت تفحّص التوأم الثاقب الفطن وأربكت كل توقعاتهم.

كانت قد:

(أ) أعلمت تشاكو أنه حتى لو كان والدها الحقيقي، لكنها كانت تحبه أقل من جو ـ (الأمر الذي تركه متاحاً ـ وإن لم يكن راغباً ـ ليكون أباً وكيلاً لشخصين مؤكدين من بيضة واحدة نهمين لعاطفته).

(ب) رفضت عرض ماماتشي بأن تحل محل إستا وراحيل كضافرة مميزة لذيل فأر ماماتشي الليلي ومحصية لشاماتها. .

---

(١) ـ غشاء رقيق يوجد تحت الجفن السفلي لعين الحيوان. (المترجمة).

(٢) ـ النقطة الحمراء التي تضعها السيدات الهنديات عل جبينهن. (المترجمة)

(٣) ـ حيوان ثديي شمال أميريكي من اللواحم. (المترجمة).

(ج) (والأكثر أهمية) ـ عايرت بنباهة المزاج السائد، ولم ترفضه فقط، بل إنها رفضت تماماً وبشكل وقح إلى أبعد الحدود جميع تقدمات بيبي كوتشاما وإغواءاتها الصغيرة.

وكأن ذلك لم يكن كافياً، كشفت نفسها بأنها إنسانة. فذات يوم عاد التوأم من رحلة سرية في النهر (والتي كانت قد أُستثنت منها صوفي مول)، ووجداها في الحديقة تبكي، جاثمة على أعلى نقطة من لفّات بيبي كوتشاما العشبية، «تشعر بالوحدة» كما عبّرت هي. في اليوم التالي أخذها إستا وراحيل لتزور فيلوثا.

زاروه في أثواب ساري، متجمعين بسماجة خلال الوحل الأحمر والعشب الطويل (*رامش رام را ر*) وقدّموا أنفسهم له على أنهم السيدة بيلاي والسيدة إيبان والسيدة راجاغوبالان. وقدّم فيلوثا نفسه وأخاه المشلول، كوتابن (بالرغم من أنه كان غارقاً في النوم). حيّاهم بأدب وكياسة عالية. خاطبهم جميعاً بكوتشاما وقدّم لهم ماء جوز هند طازجاً ليشربوه. ثرثر معهم عن الطقس. وعن النهر. وعن حقيقة أنه برأيه أن أشجار جوز الهند تتقزّم مع السنين. قدّمهم لدجاجته الشكسة. وأراهم أدوات نجارتهن ونجر لكلّ منهم ملعقة خشبية صغيرة.

فقط الآن، وبعد كل هذه السنوات، تدرك راحيل بإدراك متأخر لراشد، عذوبة تلك البادرة. رجل بالغ يسلّي ثلاثة حيوانات راكون، ويعاملهم كسيدات حقيقيات. متواطئاً بشكل غريزي مع مؤامرة خيالهم، محتاطاً ألاّ يُتلفها بعدم الاكتراث الذي للبالغين. أو بعاطفتهم.

ومع ذلك، من السهل تهشيم قصة. كسر سلسلة من الأفكار. هدم شظية من حلم حُمل بعناية كقطعة بورسلين.

أن يجعله يتحقق، أن يسافر معه، كما فعل فيلوثا، هو أمر أصعب بكثير.

قبل الرعب بثلاثة أيام، تركهم يطلون أظافره بطلاء أظافر كانت آمو قد

رمته. على هذا الشكل كان عندما زارهم **التاريخ** في الشرفة الخلفية. نجار بأظافر مزوّقة. نظر حشد الشرطة من غير المنبوذين إليهم وضحكوا.

«ما هذا ؟» قال أحدهم. «مخنّث»

رفع آخر حذاءه بديدان ملتفة في أخاديد نعله. بني صدئ غامق. مليون رِجل.

انزلقت آخر حزمة ضوء عن كتف الملاك. وابتلعت الظلمة الحديقة. بأكملها. كأفعى كبيرة. أُشعلت الأضواء داخل المنزل.

استطاعت راحيل ان ترى إستا في غرفته، جالساً على سريره النظيف المرتّب. كان ينظر عبر النافذة المخططة إلى الظلام. لم يستطع أن يراها، جالسة في الخارج، في الظلام، تنظر إلى الضوء في الداخل.

إثنان من الممثلين محصوران في مسرحية غامضة دون أي تلميح لحبكة أو لرواية. يتلعثمان بأدوراهما، يمرّضان ويحضنان شجن شخص آخر. يحزنان حزن شخص آخر.

عاجزان عن تغيير الأداء، بطريقة ما. أو عن شراء، بأجرة، صنف من تعويذة رخيصة من مستشار يحمل شهادة رفيعة، والذي يجلسهما ويقول، بطريقة من طرق عديدة: «لستما آثمين. بل أنتما من وقع الاثم عليهما. كنتما طفلين. ولم يكن لديكما ضابط. أنتما *الضحيتان*، ولستما الجانيين.»

لو أنهما استطاعا القيام بذلك العبور، لكان ذلك عوناً كبيراً. لو كان بامكانهما فقط ارتداء، حتى ولو مؤقتاً، الغطاء المأساوي للفاجعة. عندها لكان بامكانهما أن يضعا وجهاً عليه، ويستحضرا الغضب على ما قد حدث. أو ينشدا الاصلاح. وأخيراً، ربما، يتخلصا من الذكريات التي تلازمهما.

لكن الغضب لم يكن متوفراً لهما ولم يكن هناك من وجه ليضعاه على هذا **الشيء الآخر** الذي حملاه بيديهما الأخريين الدبقتين، كبرتقالة مُتَخيّلة. لم يكن هناك من مكان ليضعاه. لم يكن لهما حتى يهباه. كان يجب أن يُحمل. بعناية وإلى الأبد.

علم كلٌّ من إستابن وراحيل أنه (في ذلك اليوم) كان هناك العديد من الجناة (بالإضافة إليهما). لكن لم يكن هناك سوى ضحية واحدة. وكان له أظافر حمراء بلون الدم وورقة شجر بنية على ظهره كانت تجعل الريح الموسمية تأتي في وقتها.

ترك خلفه ثقباً في الكون انسكبت من خلاله الظلمة كقطران مائع. وتبعته من خلاله أمهما من دون استدارة حتى لتلّوح مودّعة. تركتهما خلفها، يدوران في الظلام، دون مرسى، في مكان بدون أساس.

بعد ساعات، بزغ القمر وجعل الأفعى المظلمة تتخلّى عمّا كانت قد ابتلعته. ظهرت الحديقة ثانية. كلاً مُتقيّاً. وراحيل في قلبه.

تغيّر اتجاه النسيم وحمل لها صوت طبول. هدية. وعداً بحكاية. *كان يا مكان*، كانت تقول، *كان يعيش هناك*

رفعت راحيل رأسها وأنصتت.

في الليالي الصافية كان صوت التشيندا[1] يسافر إلى مسافة كيلومتر من معبد أيمينيم، معلناً أداءً كاثاكالياً.

ذهبت راحيل. مشدودة بذكرى أسطح منحدرة وجدران بيضاء. بذكرى مصابيح نحاسية وخشب مزّيت غامق. ذهبت بأمل لقاء فيل عجوز لم يُصعق بالكهرباء على أوتوستراد كوتايام ـ كوتشين. توقفت في المطبخ من أجل جوز هند.

في طريقها إلى الخارج، لاحظت أن أحد الأبواب الشفافة للمصنع كان قد خرج من مفصّلاته ورُكن تجاه الممر. أزاحته جانباً وخطت إلى الداخل. كان الهواء مثقلاً بالرطوبة، رطباً كفاية لتسبح فيه سمكة.

(١) ـ صوت قرع طبول سريع. (المترجمة).

كانت الأرض تحت حذائها زلقة بطفاوة الريح الموسمية. طار خفّاش مذعور بين دعامات السقف.

جعل ظلّ أحواض المخلل الاسمنتية، في الظلمة، أرض المصنع تبدو كمقبرة داخلية لأموات أسطوانيين.

البقايا الدنيوية لمخللات ومعلبات الجنة.

حيث منذ زمن بعيد، في اليوم الذي قدمت فيه صوفي مول، حرّك السفير إ. بيلفيس قدراً من المربى القرمزي وفكّر بفكرتين اثنتين. أين يُخلّل سرٌّ بشكل مانغا طرية حمراء، ويُعبأ ويُحفظ بعيداً.

حقاً. يمكن أن تتبدل الأمور في يوم.

١٠

النهر الذي في القارب

بينما كانت مسرحية أهلاً بك في منزلك، عزيزتنا صوفي مول، تُمثّل على الشرفة الأمامية وكوتشو ماريا توزّع التورتة على الجيش الأزرق المتواجد في حرارة النباتات الخضراء، دفع السفير إ. بيلفيس/ س. كزبرة (ذو نفخة شعر) الذي ينتعل الحذاء البيج المدبب، الأبواب الشفافة ودخل إلى الأبنية الشديدة الرطوبة والعابقة برائحة المخلل **لمخللات الجنة**. سار بين أحواض المخلل الإسمنتية العملاقة ليجد مكاناً يفكّر فيه. أوسا، **بوومة**[1] **الإسطبل**، التي تعيش في شعاع مسوّد قرب المنور (والتي تساهم من حين لآخر في نكهة منتجات مخلل محددة) ، شاهدته يسير.

ماراً بالليمونات الحامضة الصفراء العائمة في محلول ملحي والتي تحتاج للتحريك من وقت لآخر (وإلاّ فستتشكل فيها جزر فطر سوداء كفطر مكشكش في شوربة صافية) .

ماراً بالمانغا الخضراء، المقطّعة والمحشيّة بالكركم وببودرة التشيللي والمربوطة بخيط مع بعضها البعض. (لم تكن تحتاج لانتباه لبرهة من الوقت.)

---

(١) ـ بومة، ولكنها كتبت بشكل خاطئ للتشديد على لفظها من قبل طفل. (المترجمة).

ماراً بخوابي الخل الزجاجية ذات الفلّينات.

ماراً برفوف البكتين والمواد الحافظة.

ماراً بصواني اليقطين المر، بالسكاكين والقفازات الملونة.

ماراً بأكياس القنّب المنتفخة بالثوم والبصل الصغير.

ماراً بتلال من حب الفلفل الأخضر.

ماراً بكومة من قشور الموز على الأرض (محفوظة لعشاء الخنازير) .

ماراً بخزانة اللصاقات المليئة باللصاقات.

ماراً بالغراء.

ماراً بفرشاة الغراء.

ماراً بحوض حديدي من الزجاجات الفارغة العائمة في ماء بفقاعات صابون.

ماراً بمسحوق الليمون.

ماراً بمجروش العنب.

وعائداً.

كان المكان في الداخل مظلماً، مضاءً فقط بضوء رشح من خلال الأبواب الشفافة المعقودة، وبشعاع من ضوء شمس مغبّر (لم تستخدمه أوسا) دخل من المنور. وخزت رائحة الخل و الأسافويتيدا منخريه، لكن إستا كان معتاداً عليها، وكان يحبها. المكان الذي وجده ليفكّر فيه كان بين الجدار والمرجل الحديدي الأسود حيث كانت دفعة من مربى الموز المغلي حديثاً (بشكل غير قانوني) قد تُركت لتبرد ببطء.

كان المربى ما يزال ساخناً وعلى سطحه القرمزي اللزج، رغوة وردية تموت ببطء. وفقاعات موزية صغيرة تغرق نحو الأسفل دون أن يساعدها أحد.

قد يدخل رجل مشروبات البرتقال والليمون في أية لحظة. يأخذ باص كوتشين ـ كوتايام ويكون هنا. وستقدّم آمو له فنجان شاي. أو ربما مجروش

أناناس. مع الثلج. أصفر في زجاجة.

حرّك إستا، بالمحرّك الحديدي الطويل، المربى الطازج السميك.

صنعت الرغوة، المائثة، أشكالاً رغوية تموت.

غراباً بجناحين مكسرين.

مخلب دجاجة مطبق.

بوومة «ليس أوسا» موحلة في مربى مقزّز.

دوامة تدور بحزن.

ولا أحد ليساعد.

بينما كان إستا يحرك المربى السميك كان يفكر بفكرتين، والفكرتان اللتان فكر بهما كانتا:

(أ) أي شيء من الممكن أن يحدث لأي كان.

(ب) من الأفضل أن يكون المرء مستعدًا.

بعد أن فكر بهاتين الفكرتين، كان إستا الوحيد سعيداً بذرة حكمته.

بينما كان المربى الأحمر الأرجواني يدور، أصبح إستا ساحراً محركاً حماسياً بنفخة شعر مُخَرّبة وسن ناشز، ومن ثم تحول إلى ساحرات ماكبث.

فقاعات موز محترقة بالنار.

كانت آمو قد سمحت لإستا أن ينسخ وصفة ماماتشي لمربى الموز في دفتر الوصفات الجديد، الأسود ذي الراصور الأبيض.

استخدم إستا الواعي، بعمق، للشرف الذي أسبغته آمو عليه، أفضل خطي كتابة يتقنهما.

مربى الموز (في أفضل خط قديم له)

اسحق موزاً ناضجاً. ثم أضف ماءً حتى يغمره واطبخه على نار قوية جداً حتى

تصبح الفاكهة طرية.

استخرج العصير منها وذلك بتصفيتها في موسلين خشن.

زن كمية مساوية من السكر واحتفظ بها.

اطبخ عصير الفاكهة حتى يصبح قرمزياً وتتبخر حوالي نصف الكمية.

حضّر الجيلاتين (البكتين) كما يلي:

بنسبة ١: ٥

أي: ٤ ملاعق من البكتين: ٢٠ ملعقة سكر.

كان إستا يفكر دوماً في البكتين على أنه الأخ الأصغر لثلاثة أخوة يحملون مطارق، بكتين، وهيكتين، وأبدينغو[1] كان يتخيلهم يبنون سفينة خشبية في ضوء واهن ورذاذ مطر. مثل أبناء نوح. كان يستطيع أن يراهم بوضوح في عقله. يتسابقون مع الزمن. وصوت مطارقهم يدوي بتثاقل تحت السماء الحاضنة للعاصفة القادمة. وقريباً في الغابة، اصطفت أزواج الحيوانات في ضوء العاصفة القادمة الغريب:

بنت صبي.

بنت صبي.

بنت صبي.

بنت صبي.

لم يكن مسموحاً بالتوائم.

وكُتبت بقية الوصفة بأفضل خط جديد لإستا. زاويّ، ومدبب. مائلة نحو الخلف وكأن الحروف كانت عازفة عن تشكيل الكلمات، والكلمات عازفة عن تشكيل الجمل:

(١) - في العهد القديم، شاب يخرج مع ميشاتش وشادراتش من الفرن الحارق في بابل من غير أذى. (المترجمة).

أضف البيكتن إلى العصير المكثف. اطبخه لمدة خمس دقائق.

استخدم نارًا قوية، حارقًا، ما حولها، بغزارة.

أضف السكر. واطبخ حتى تحصل على خليط مركز.

برد ببطء.

آمل أن تستمتع بالوصفة.

بمعزل عن الأخطاء الاملائية، كان السطر الأخير - *آمل أن تستمتع بالوصفة* - إضافة إستا الوحيدة على النص الأصلي.

بالتدريج، وبينما كان إستا يحرك، سُمَك مربى الموز وبرد، وبزغت **الفكرة رقم ثلاثة** من حذائه البيج والمدبب.

كانت الفكرة رقم ثلاثة هي:

(ج) قارب.

قارب ليَجذف به عبر النهر. آكارا. الجهة الأخرى. قارب ليحمل التجهيزات الاحتياطية. عيدان ثقاب. ملابس. قدوراً وطناجر. أشياء سيُحتاج لها ومن غير الممكن السباحة معها.

وقف شعر ذراع إستا حتى آخره. أصبح المربى المُحرّك قارباً يُجذّف. التدوير والتدوير أصبح ذهاباً وإياباً. عبر النهر القرمزي الدبق. ملأت أغنية من سباق قوارب أونام المصنع. «*Thaiy thaiy thaka thay thome!*»

Enda da korangacha، chandi ithra thenjadu?

(هيه أيها السيد الرجل السعدان، لماذا مؤخرتك حمراء؟)

Pandyill thooran poyappol nerakkamuthiri nerangi njan.

(ذهبت إلى مادراس من أجل التغوط، وحككتها حتى نزفت؟)

طفا صوت راحيل في المصنع، فوق أسئلة وأجوبة أغنية القارب الفظة وغير المحتشمة إلى حد ما.

«إستا، إستا، إستا!»

لم يجب إستا. وكان كورس أغنية القارب يهمس داخل المربى السميك.

Theeyome

Thithome

Thakara

Thithome

Theem

صرّ الباب الشفاف، وظهرت جنية مطار بنتوءين قرنيين ونظارة بلاستيكية حمراء بإطار أصفر، والشمس خلفها. كان المصنع بلون الغضب. كانت الليمونات المملحة حمراء. والمانغا الطرية حمراء. وخزانة اللصاقات حمراء. وشعاع الشمس المغبر (الذي لم يستخدمه أوسا أبداً) كان أحمر.

أُغلق الباب الشفاف.

وقفت راحيل في المصنع الفارغ بنافورتها في الحب ـ في ـ طوكيو. سمعت صوت راهبة يغني أغنية القارب. اندفع صوت سوبرانو عال واضح فوق دخان الخل وأحواض المخلل.

استدارت إلى إستا المنحني فوق الحساء القرمزي في المرجل الأسود.

«ماذا تريدين ؟» قال إستا دون أن ينظر إلى الأعلى.

«لا شيء»، قالت راحيل.

«إذن لماذا قدمت إلى هنا ؟»

لم تجب راحيل. وخيّم صمت عدائي وجيز.

«لماذا تجذّف المربى؟» سألت راحيل.

«الهند بلد حر»، قال إستا.

لم يكن باستطاعة أحد أن يناقش في ذلك.

الهند بلد حر.

بإمكانك أن تصنع ملحاً. وان تجذف مربىً، إذا أردت.

وباستطاعة رجل مشروبات البرتقال والليمون أن يدخل ببساطة عبر الأبواب الشفافة.

إذا ما أراد.

وستقدّم آمو له عصير أناناس. مع الثلج.

جلست راحيل على حافة حوض اسمنتني (حواف رقيقة من قماش البقرم ورباط، غُمست بلطف في مخلل مانغا طري) وجرّبت قفازاً مطاطياً. قاتلت ثلاث زجاجات زرقاء، بعنف، الأبواب الشفافة، تريد الدخول. وراقبت البوومة أوسا الصمت المخللي الرائحة الواقع بين التوأم مثل كدمة.

أصبحت أصابع راحيل صفراء خضراء زرقاء حمراء صفراء.

وكان مربى إستا يتحرك.

نهضت راحيل لتذهب. من أجل قيلولة بعظ الظهر.

«إلى أين أنت ذاهبة؟»

«إلى مكان ما.»

خلعت راحيل أصابعها الجديدة. وعادت أصابعها القديمة التي بلون الأصابع. ليست صفراء، ليس خضراء، ليست زرقاء، ليست حمراء، ليست صفراء.

«أنا ذاهب إلى آكارا» قال إستا. دون أن ينظر نحو الأعلى. «إلى بيت التاريخ.»

وقفت راحيل واستدارت، وعلى قلبها، نشرت فراشة باهتة، ذات كثافة غير اعتيادية لزغبها الظهري، جناحيها المفترسين.

ببطء نحو الخارج.

ببطء نحو الداخل.

«لماذا؟» قالت راحيل.

«لأن أي شيء من الممكن أن يحدث لأي كان»، قال إستا. «ومن الأفضل أن يكون المرء مستعداً.»

لا تستطيع أن تناقش في ذلك.

لم يعد أحدٌ يذهب إلى منزل كاري سايبو. ادّعى فيليا بابن أنه آخر إنسان أبصره قال انه كان مسكوناً. وأخبر التوأم عن قصة لقائه مع شبح كاري سايبو. قال أنه حدث منذ سنتين. كان قد ذهب عبر النهر متعقباً شجرة جوز الطيب ليصنع عجينة من جوز الطيب والثوم لتشيلا، زوجته، بينما كانت ممددة تموت من السل. فجأة شمّ دخان سيجار (والذي ميّزه حالاً، لأن باباتشي كان يدّخن نفس الماركة) . دار فيليا بابن وألقى بمنجله على الرائحة. شبك الشبح إلى جذع شجرة مطاط، حيث، تبعاً لفيليا بابن، ما يزال هناك. رائحة منجلية، تنزف دماً كهرمانياً واضحاً، وتتوسل من أجل سيجار.

لم يجد فيليا بابن أبداً شجرة جوز الطيب، وكان عليه أن يشتري لنفسه منجلاً جديداً. لكنه حصل على رضى معرفته أن رد فعله الذي بسرعة البرق (بالرغم من عينه المرهونة) وحضور ذهنه، قد وضعا حداً لتسكّعات سفّاحية لشبح شاذ.

طالما لم يستسلم أحدٌ لمكره وفكّ منجله بسيجار.

ما *لم* يعرفه فيليا بابن (الذي كان يعرف معظم الأمور) هو، أن منزل كاري سايبو كان **بيت التاريخ** (الذي كانت أبوابه مقفلة ونوافذه مفتوحة) . وفي الداخل، أجداد بأنفاس خرائط وأظافر أرجل قاسية، يهمسون للعظاءات التي على الجدار. أن **بيت التاريخ** يستخدم الشرفة الخلفية لتداول مصطلحاته وجبي ديونه. وأن التأخر في الدفع يقود إلى نتائج رهيبة. وأنه في اليوم الذي سيختاره التاريخ ليدقّق سجلاته، فان إستا سيحتفظ بايصال الديون التي سيدفعها فيلوثا.

لم يكن لدى فيليا بابن أدنى فكرة أن كاري سايبو هو من قبض على الأحلام وأعاد حلمها ثانية. أنه نزعها من عقول المارّين بالطريقة التي ينزع بها

الأطفال الزبيب من تورتة. أن تلك التي تاق إليها واشتهاها أكثر الجميع، الأحلام التي أحب إعادة حلمها، كانت الأحلام الرقيقة لتوأم ببيضتين.

مسكين فيليا بابن، هل علم عندها أن **التاريخ** سيختاره هو كنائب له، أنه ستكون دموعه هو التي ستبدأ هيجان **الرعب**؟ ربما لما كان اختال مثل ديك صغير في سوق أيمينيم، متبجحاً بكيفية سباحته في النهر ومنجله في فمه (حامضاً كان طعم الحديد على لسانه). وكيف أنزله لدقيقة فقط عندما ركع لغسل حصباء النهر عن عينه المرهونة (في بعض الأحيان كان يوجد حصباء في النهر، وخاصة في الأشهر الماطرة) عندما التقط أول نفحة من دخان سيجار. وكيف التقط منجله، ودار ومَنْجل الرائحة مثبتاً الشبح إلى الأبد. في حركة رياضية متدفقة واحدة.

بحلول الوقت الذي فهم فيه دوره في خطط **التاريخ**، كان الوقت متأخراً جداً لينقلب على عقبه. كان قد كَنَس آثار أقدامه بنفسه. زاحفاً نحو الخلف مع مقشة.

هوى الصمت في المصنع مرة ثانية وضيّق الخناق على التوأم. لكنه كان نوعاً مختلفاً من الصمت هذه المرة. صمت نهر شائخ. صمت صيادين وحوريات ماء شمعية.

«لكن الشيوعيين لا يؤمنون بالأشباح»، قال إستا، وكأنهما كانا يتابعان محادثة يبحثان فيها عن حلول لمشكلة الشبح. كانت محادثاتهما تلوح وتغوص مثل جداول جبلية. أحياناً تكون مسموعة للناس الآخرين وأحياناً لا تكون كذلك.

«وهل ستصبح شيوعياً؟» سألت راحيل. «ربما أضطر.»

إستا ـ الـ ـ **عملي**.

أصوات تفتيتُ تورتة بعيدة، وخطوات جيش أزرق تدنو، دفعت الرفيقين إلى ختم السرّ.

لقد خلّل وختم وحفظ بعيداً. سرٌّ بشكل مانغا طرية حمراء في حوض. مُتَرأس من قبل **بوومة**.

كانت **المفكرة الحمراء** قد أُعدّت واُتفق على:

ستذهب الرفيقة راحيل من أجل قيلولة **بعظ الظهر**، ثم ستستلقي مستيقظة حتى تنام آمو.

سيذهب الرفيق إستا ليجد العلم (الذي أُجبرت بيبي كوتشاما على التلويح به)، وسينتظرها قرب النهر، وهناك سوف:

(ب) يستعدان ليستعدان ليكونان مستعدين.

انتصبت عباءة جنية مهجورة لطفلة (نصف مخللة) بمفردها في وسط أرضية غرفة نوم آمو.

في الخارج، كان الجو صاحياً وساطعاً وحاراً. استلقت راحيل بجانب آمو، يقظة جداً بينطال المطار القصير المناسب. كان باستطاعتها أن ترى شكل الورود المدروزة من اللحاف الأزرق ذي القطب المتصالبة على خد آمو. كان باستطاعتها أن تسمع الظهيرة المدروزة.

ومروحة السقف البطيئة. والشمس خلف الستائر.

والدبور الأصفر يُدنبر على زجاج النافذة في زززز خطرة.

وغمضة عظاءة متشككة.

وخطو عالٍ للدجاجات في الباحة.

وصوت الشمس تجعّد الغسيل. وتموّج الشراشف البيضاء. وتُصلّب أثواب الساري المنّشاة. بيضاء مصفرة وذهبية.

ونملاً أحمر على أحجار صفراء.

وبقرة ساخنة تشعر بالحر. موو. في المدى.

ورائحة شبح رجل انكليزي ماكر، مُمنجل إلى شجرة مطاط، يطلب

سيجاراً، بلطف. «ممم... من فضلك؟ ليس من المحتمل أن يكون معك سسس... سيجار، أليس كذلك؟»

في صوتٍ من ذاك الذي لمعلمة مدرسة.

أوه *يا الهي*.

وإستا ينتظرها. بجانب النهر. تحت شجرة المانغا التي كان المحترم إ. جون إبي قد أحضرها معه إلى الوطن من زيارته لماندالالي.

على ماذا كان إستا يجلس؟

على ما كانا يجلسان عليه دوماً تحت شجرة المانغا. شيء رمادي أشيب. مغطى بالأشنات والطحالب، ومخنوقاً بالسراخس. شيء طالبت به الأرض. ليس خشبة. ليس صخرة...

قبل أن تُكمل الفكرة، كانت راحيل واقفة على قدميها، وتركض.

عبر المطبخ، مارة بكوتشو ماريا الغارقة في النوم. مجعّدة ثخينة مثل كركدن مفاجىء في مريلة مكشكشة.

مارة بالمصنع.

تتعثر حافية عبر الحرارة الخضراء، متبوعة بدبور أصفر.

كان الرفيق إستا هناك. تحت شجرة المانغا. مع علم أحمر مغروس في الأرض إلى جانبه. جمهورية متنقلة. ثورة شق توأم بنفخة شعر.

وعلى ماذا كان يجلس ؟

على شيء مغطى بالطحالب، مخبأ بالسراخس.

انقر عليه وسيصدر صوت نقر مجوف.

غُمس الصمت وارتفع وانقضّ وعُقد في شكل رقم ثمانية[١]

رفرفت يعاسب مرّصعة كأصوات أطفال عالية في الشمس.

---

(١) ـ رقم ثمانية بالانكليزية «8». (المترجمة).

عاركت أصابع بلون أصابع السراخس، أزاحت الأحجار، سوّت الطريق.
وحدث تشابك بالأيدي من اجل حافة ليتشبّث بها. **وواحد اثنان و.**
من الممكن أن تتغير الأمور في يوم.

لقد *كان* قارباً. جندولاً خشبياً صغيراً جداً.

القارب الذي جلس عليه إستا ووجدته راحيل.

القارب الذي ستستخدمه آمو لتعبر النهر. لتعشق في الليل الرجل الذي أحبه طفلاها في النهار.

قارب قديم جداً بحيث انه اتخذ جذوراً. تقريباً.

نبتة قاربية رمادية عجوز بأزهار قاربية وثمار قاربية.

وتحتها، رقعة من العشب الذابل. عالم قاربي مسرع يعدو.

مظلم وجاف وبارد. مفتوح الآن. وأعمى.

نمل أبيض في طريقه إلى العمل.

دعاسيق بيضاء في طريقها إلى المنزل.

خنافس بيضاء تختبىء بعيداً عن الضوء.

جنادب بيضاء بكمانات من خشب أبيض.

موسيقى بيضاء حزينة.

دبور أبيض. ميت.

جلد حية أبيض هش، محفوظ في العتمة، متفسّخ في الشمس.

لكن هل سيفي بالغرض، ذلك الجندول الصغير؟ هل كان قديماً جداً ربما؟ ميتاً جداً؟ هل كانت آكارا بعيدة جداً بالنسبة له ؟

نظر توأم ببيضتين عبر نهرهما.

الميناتشال.

أخضر رمادي. بأسماك داخله. بالسماء والأشجار داخله. وفي الليل، بالقمر الأصفر المكسور داخله.

عندما كان باباتشي صبياً، وقعت شجرة تمر هندي عجوز في عاصفة داخله. كانت ما تزال هناك. شجرة ملساء دون لحاء، مسوّدة من تخمة ماء أخضر. كومة خشب بلا معنى.

كان الثلث الأول من النهر صديقهما. قبل أن يبدأ **العمق الحقيقي**. كانا يعرفان درجات الأحجار الزلقة (ثلاث عشرة) قبل أن يبدأ الوحل اللزج. كانا يعرفان حشيش الظهيرة الذي كان يتدفق داخلاً من مياه كوماراكوم الراكدة. كان يعرفان الأسماك الأصغر. البالاثي الغبية المسطحة، البارال الفضية، الكوري الماكرة ذات الشوارب، وكاريمين بعض الأحيان.

هنا كان تشاكو قد علّمهما السباحة (يتبللان حول بطنه الخاليّ الفسيح دون مساعدة). وهنا اكتشفا لنفسيهما المتع الفرحة المستقلة للفسو تحت الماء.

هنا كانا قد تعلّما الصيد، تعلما أن يسلكا ديداناً قرمزية ملتفة على خطّافي صنارتي الصيد اللتين صنعهما لهما فيلوثا من الجذور الدقيقة لخيزران أصفر.

هنا درسا الصمت (مثل أطفال الصيادين)، وتعلما اللغة المضيئة لليعاسب.

هنا تعلما أن ينتظرا. أن يراقبا. أن يفكرا بهواجس ولا يعبّرا عنها. أن يتحركا كالبرق والخيزرانة الصفراء المحنية مقوسة نحو الأسفل.

فهذا الثلث الأول من النهر، كانا يعرفانه جيداً. أما الثلثان الآخران فأقل.

الثلث الثاني كان حيث يبدأ **العمق الحقيقي**. حيث كان التيار سريعاً ومؤكداً (باتجاه التيار عندما يكون المد نحو الخارج، ودافعاً نحو الأعلى بدءاً من المياه الراكدة عندما يكون المد نحو الداخل).

الثلث الثالث كان ضحلاً ثانية. المياه بنية ومظلمة. مليئة بالحشائش وبأسماك الأنقليس وبطيئة بالوحل الذي يرشح خلال أصابع الأقدام مثل معجون أسنان.

كان باستطاعة التوأم أن يسبحا كالفقمات، وكانا قد عبرا النهر عدة مرات تحت مراقبة تشاكو، وعادا لاهثين محوّلين من الجهد، مع حجر، غصن أو ورقة شجر من الجهة الأخرى كشهادة إثبات على مأثرتهما. لكن وسط نهر محترم، أو الجهة الأخرى، لم يكونا مكانين ليتلكأ فيهما أطفال أو ليتدلّوا أو ليتعلموا أموراً. أضفى إستا وراحيل على الثلث الثاني والثلث الثالث للميناتشال الاعتبار والتبجيل اللذين يستحقهما. ومع ذلك، فالسباحة عبره لم تكن المشكلة. بل أخذ القارب مع أشياء فيه بحيث يكون بامكانهما (ب. *أن يستعدا ليستعدا ليكونا مستعدين)* كان المشكلة.

نظرا عبر النهر بعيني قارب عجوز. من حيث وقفا لم يكن بإمكانهما رؤية **بيت التاريخ**. كانت الظلمة فقط فيما وراء المستنقع، في قلب مزرعة المطاط المهجورة، من حيث تتصاعد أصوات الصراصير.

رفع إستا وراحيل القارب الصغير وحملاه إلى الماء. بدا مدهوشاً، كسمكة شهباء كانت قد وصلت من الأعماق إلى السطح. في حاجة ملحة لنور الشمس. كان بحاجة لحكّ، وتنظيف، ربما، لكن لا شيء غير ذلك.

حلّق قلبان سعيدان كطائرتين ورقيتين في سماء زرقاء. لكن بعد ذلك، في همس أخضر بطيء، بقبق النهر (بأسماكه، بسمائه وأشجاره) داخله.

غرق القارب القديم ببطء، واستقر على الدرجة السادسة.

وغاص زوج من قلوب توأم ببيضتين واستقرا على الدرجة فوق السادسة.

الأسماك التي تسبح في العمق، غطّت أفواهها بزعانفها وضحكت جانبياً على المشهد.

طفا عنكبوت قاربي أبيض نحو الأعلى مع النهر الذي في القارب، وصارع بشكل وجيز قبل أن يغرق. تمزّق كيس بيضاته البيضاء قبل أوانه، ونقطّت المئات من أطفال العنكبوت (أخف من أن تغرق، وأصغر من أن تسبح) السطح الناعم للمياه الخضراء، قبل أن تُجرف إلى البحر، إلى مدغشقر، لتبدأ شعبة جديدة من عناكب مالايالي السبّاحة.

وفي لحظة، وكأنهما كانا قد ناقشا ذلك (بالرغم من أنهما لم يفعلا)، بدأ التوأم بغسل القارب في النهر. طفت بعيداً بيوت العنكبوت والوحل والطحالب والأشنيات. وعندما صار نظيفاً، قلباه ورفعاه فوق رأسيهما. كقبعة مشتركة تدلف. واقتلع إستا العلم الأحمر.

موكب صغير (علم، ودبور وقارب على رجلين)، مضى في طريقه المعلوم أسفل الممر الصغير عبر الشتلات والشجيرات. تجنّب أجمات القرّاص، قنوات الري المعروفة الجانبية، وكثبان النمل. وجانَبَ جرف الهاوية العميقة التي أُقتلع منها اللطريط، وأصبحت الآن بحيرة راكدة بضفتين منحدرتين برتقاليتين، والمياه السميكة اللزجة المغطاة بطبقة مضيئة من الزبد الأخضر. ومرج غدار أخضر، حيث يتكاثر البعوض وحيث الأسماك سمينة لكن بعيدة المنال.

كان الممر موازياً للنهر، ويقود إلى فسحة معشوشبة مسيجة بتجّمع لأشجار: جوز الهند، والكاجو، والمانغا، والبيليمبي. على حافة الفسحة، وبظهره للنهر، كوخ منخفض بجدران من لطريط برتقالي ملصقة بالوحل وسقف قشيّ، عشعش قريباً من الأرض، وكأنه كان يستمع للسر تحت الأرضي المهموس. كانت جدران الكوخ المنخفضة بنفس لون الأرض التي وقف عليها، وبدا أنه قد نما من بذرة بيت زُرعت في الأرض، والتي بزغت منها أضلاع أرضية يمينية الزاوية وطوّقت المكان. ثلاث أشجار موز نمت في الساحة الصغيرة التي كانت قد سُيّجت بألواح من أوراق نخيل مجدولة.

اقترب القارب الذي على رجلين من الكوخ. تعلّق مصباح غير مضاء على الجدار بجانب الباب، كانت لطخة الجدار خلفه موّقعة بسخام اسود. كان الباب مفتوحاً. وكان الداخل مظلماً. ظهرت دجاجة سوداء في الممر. ثم عادت إلى الداخل غير عابئة نهائياً بزيارات قارب.

لم يكن فيلوثا في المنزل. ولا فيليا بابن. لكن أحدهم كان.

طفا صوت رجل من الداخل ودوّى حول الفسحة، جاعلاً إياه يبدو وحيداً.

صرخ الصوت الأشياء نفسها، مراراً وتكراراً، وفي كل مرة كان يتعالى

إلى نبرة أعلى وأكثر هيستيرية. كان مناشدة لجوافة ناضجة تهدد بالسقوط من شجرتها وبالبعثرة على الأرض.

Papera -pera -pera -perakka

(يا سيد جوا - جو - جو - جوافة)

Endeparambilthooralley

(لا تتغوط هنا في مجمّعاتي.)

ChetendeparambilthoorikkoK

(بامكانك التغوط في الجوار في مجمعات أخي)

Papera -pera -pera -perakka

(يا سيد جوا - جو - جو - جوافة)

كان الصارخ كوتابن، شقيق فيلوثا. لقد كان مشلولاً من صدره وحتى الأسفل. يوماً بعد يوم، شهراً بعد شهر، عندما كان شقيقه غائباً ووالده في العمل، كان كوتابن يضطجع مسطحاً على ظهره ويشاهد شبابه يمر ماشياً الهوينى دون أن يتوقف ليقول مرحباً. كان هناك طوال النهار يستمع لصمت الأشجار المجتمعة برفقة دجاجة مستبدة سوداء فقط. كان يشتاق لأمه، تشيلا، التي ماتت في نفس الزاوية من الغرفة التي يضطجع فيها الآن. ماتت موتاً بلغمياً أليماً باصقاً ساعلاً. كان كوتابن يتذكر كيف لاحظ أن قدميها ماتتا قبل وقت طويل من موتها هي. كيف أصبح جلدهما رمادياً وميتاً. كيف راقب بخوف الموت يزحف عليها من الأسفل نحو الأعلى. ظل يسهرعلى قدميه فاقدتي الاحساس برعب متعاظم. يخزهما من وقت لآخر مفعماً بالأمل بعصاة كان يحتفظ بها مُسندة في الزاوية ليدافع عن نفسه ضد أفاعٍ زائرة. لم يكن لديه أي إحساس في قدميه على الاطلاق، وفقط الدليل البصري كان يؤكد له أنهما كانتا متصلتين بجسده، وأنهما كانتا حقاً له.

بعد موت تشيلا، نُقل إلى زاويتها، الزاوية التي تخيل كوتابن أنها الزاوية من منزله التي احتفظ بها الموت ليدير شؤونه الإفنائية. واحدة للطبخ، واحدة للملابس، واحدة للفائف الأسرة، وواحدة للموت فيها.

تساءل كم من الوقت سيستغرق ذلك، وماذا يفعل الناس، الذين لديهم أكثر من أربع زوايا في بيوتهم، ببقية زواياهم. وهل يعطيهم هذا خياراً للزوايا التي يموتون فيها؟

افترض أنه سيكون الأول من عائلته الذي سيلحق بصحوة أمه. سيتعلم شيئاً آخر. قريباً. قريباً جداً.

كان كوتابن في بعض الأحيان (بحكم العادة، من اشتياقه لها) يسعل كما اعتادت أمه أن تسعل، وكان نصفه العلوي ينتفض مثل سمكة صيدت للتو. ويستلقي نصفه السفلي، وكأنه ينتمي لأحد آخر. أحد ميت، روحه محصورة ولا تستطيع الفكاك.

بخلاف فيلوثا، كان كوتابن Paravan جيداً ومأموناً. لم يكن يستطيع لا القراءة ولا الكتابة. وبينما كان مستلقياً هناك في سريره القاسي، كان يسقط عليه فتات وجريش القش من السقف ويختلط بعرقه. وأحياناً كان يسقط معه نمل وحشرات أخرى. في الأيام السيئة كانت الجدران البرتقالية تشابك أيديها وتنحني فوقه، تتفحّصه كطبيب حقود، ببطء، بتعمّد، تعصر النفس منه جاعلة إياه يصرخ. وأحياناً كانت تتراجع عن اقترابها، وتصبح الغرفة التي يستلقي فيها كبيرة على نحو مستحيل، مروّعة إياه بخيال ضآلته الخاص. ذلك أيضاً كان يجعله يصرخ.

حوّم الجنون، قريباً، في متناول اليد، مثل نادل متلهف حريص في مطعم باهظ (يشعل السيجارات، يعيد ملء الكؤوس). فكر كوتابن بحسد بالرجال المجانين القادرين على السير. لم يكن لديه أي شك في عدالة الصفقة: جنونه، مقابل رجلين مجديتين.

أنزل التوأم القارب، تصادفت القعقعة مع الصمت المفاجىء في الداخل.

لم يكن كوتابن يتوقع أحداً.

دفع إستا وراحيل الباب ودخلا. وبرغم الصغر الذي كانا عليه، كان عليهما أن ينحنيا قليلاً ليدخلا. انتظر الدبور في الخارج على المصباح.

«هذا نحن».

كانت الغرفة مظلمة ونظيفة. وتفوح منها رائحة سمك بالكاري ودخان حطب. علقت الحرارة بالأشياء كحمى خفيفة. لكن الأرض الطينية كانت باردة تحت قدمي راحيل. كانت فُرش فيلوثا وفيليا باين مطوية ومسنودة على الجدار. والملابس معلّقة على حبل. وكان يوجد رف مطبخ منخفض رُتبت فوقه قدور مغطاة من الفخار، ومغرفات من قشور جوز الهند وثلاثة أطباق مكسورة من الميا ذات حواف زرقاء غامقة. كان بإمكان رجل بالغ أن يقف في وسط الغرفة، لكن ليس على امتداد جوانبها. باب منخفض آخر كان يقود إلى باحة خلفية حيث كان يوجد المزيد من أشجار الموز، يترقرق النهر خلفها من خلال الأوراق. منجرة كانت قد أنشأت في الباحة الخلفية.

لم يكن يوجد لا مفاتيح ولا خزائن لتُقفل.

غادرت الدجاجة السوداء عبر الباب الخلفي، وحكّت نفسها بذهول في الباحة حيث كانت تهب نشارة خشب هنا وهناك كخصل شقراء. بالحكم على شخصيتها، بدت أنها كانت قد تربّت على حمية من الخردة: مشابك أبواب، قبضات، مسامير، وبراغي قديمة.

«Aiyyo، أيها الصبي والبنت ما الذي لا بد وأنكما تفكران به؟ أن كوتابن مُقعد!» قال بصوت محرر مُحرج.

استغرق التوأم برهة ليعتادا على الظلام. ثم ذابت الظلمة وظهر كوتابن في سريره، عفريتاً متألقاً في العتمة. كان بياض عينيه أصفر غامقاً. وبرز باطنا قدميه (الطريتين من الاستلقاء الطويل جداً) من تحت القماش الذي كان يغطي رجليه. كانتا ما تزالان ملطختين بلون برتقالي باهت من سنوات السير حافيتين على الطين الأحمر. وكان لديه تصلّبات رمادية على كاحليه من احتكاك الحبل الذي يربطه الـParavan حول أقدامهم عندما يتسلقون أشجار جوز الهند.

على الجدار خلفه، كان يوجد رزنامة يسوع لطيف خيّر بشعر بني فاتح باهت وحمرة شفاه وحمرة خدود، وقلب متوهج مزيّن بالجواهر يتألق خلال ثيابه. كان الربع السفلي للرزنامة (الجزء الذي عليه التواريخ) مكشكشاً مثل تنورة. يسوع في تنورة قصيرة. اثنتا عشر طبقة من التنانير لاثني عشر شهراً من السنة. لم يكن أيّ منها قد نُزع.

كانت توجد أشياء أخرى من منزل أيمينيم إما أُعطيت أو أُنقذت من صندوق القمامة. أشياء غنية في منزل فقير. ساعة معطلة، سلة مهملات قصديرية عليها ورود. حذاء باباتشي القديم الخاص بالركوب (بني، بقالب أخضر) وأشجار اسكافي ما تزال عليه. علب بسكويت عليها صور فاخرة لقلاع انكليزية وسيدات في هرج ومرج وشعور مجعّدة.

ملصق صغير (كانت بيبي كوتشاما قد أعطته لأن عليه لطخة مبللة) كان معلقاً إلى جانب صورة يسوع. وصورة لطفلة شقراء تكتب رسالة، ودموعها تتساقط على خديها. كُتب تحتها: أكتب لك لأقول ***أنا مشتاقة إليك***. بدت وكأنها كانت قد قصّت شعرها، وأن خصلاتها المقصوصة هي التي تطير في باحة فيلوثا الخلفية.

أنبوب بلاستيكي شفاف كان يفضي من تحت الشرشف القطني المهترىء الذي كان يغطي كوتابن إلى زجاج لسائل أصفر التقط عمود النور الذي دخل عبر الباب، وقمع سؤالاً كان ينشأ داخل راحيل. أحضرت له الماء في كوب قصديري من الجرّة الفخارية. بدت أنها تعرف طريقها. رفع كوتابن رأسه وشرب. تقطّر بعض الماء أسفل ذقنه.

قرفص التوأم، مثل بالغين محترفين يستغيبان في سوق أيمينيم.

جلسا بصمت لبرهة. خذل كوتابان التوأم المشغولين بأفكار قاربية.

«هل جاءت ابنة السيد تشاكو» سأل كوتابن.

«لا بد وأنها،» قالت راحيل بإيجاز.

«أين هي؟»

«من يعرف؟ لا بد وأنها بالقرب في مكان ما. نحن لا نعرف».

«هل ستحضرونها هنا لأراها؟»

«لا نستطيع،» قالت راحيل.

«لماذا لا ؟»

«يجب أن تبقىٰ في الداخل. إنها رقيقة للغاية. إذا اتسخت تموت».

«أفهم.»

«ممنوع علينا أن نحضرها هنا.. وعلى أية حال، لا شيء مهم ليُرى،» طمأنت راحيل كوتابن. «لها شعر، رجلين، أسنان ـ تعلم ـ المألوف... سوى أنها طويلة قليلاً.» وكان هذا الاعتراف الوحيد الذي استطاعت أن تُدلي به.

«هل هذا كل شيء؟» قال كوتابن، مدركاً الفكرة بسرعة. «إذا أين الأهمية في رؤيتها ؟»

«لا يوجد أهمية،» قالت راحيل.

«كوتابن، إذا كان الجندول مثقوباً، هل من الصعب اصلاحه؟» سأل إستا.

«ليس من المفروض»، قال كوتابن. «حَسَب. لماذا، جندول مَنْ هذا المثقوب؟»

«خاصتنا ـ الذي وجدناه. هل تريد رؤيته؟»

خرجا وعادا بالقارب الأشيب ليفحصه الرجل المشلول. حملاه فوقه مثل سقف. وقطّر الماء عليه.

«أولاً علينا أن نجد التسرّبات»، قال كوتابن. «ثم علينا أن نسدّها.»

«ثم حكّ بورق الصنفرة،» قال إستا. «ثم صقل.»

«ثم مجاذيف،» قالت راحيل.

«ثم مجاذيف،» وافق إستا.

«ثم نرحل» قالت راحيل.

«إلى أين ؟» سأل كوتابن.

«فقط هنا وهناك،» قال إستا بمرح.

«يجب أن تكونا حذرين،» قال كوتابن. «هذا النهر الذي لنا ـ انه ليس كما يتظاهر.»

«بماذا يتظاهر؟» سألت راحيل.

«أوه. جدّة عجوز صغيرة مواظبة على الكنيسة، هادئ ونظيف...

idi appams[1] للفطور و kanji و meen[2] للغذاء. لا يتدخل بشؤون غيره. لا ينظر يمنة ولا يسرة.»

«وفي الحقيقة هو...؟»

«هو في الحقيقة شيء متوحش... أستطيع أن أسمعه في الليل - يندفع ماراً في ضوء القمر، دوماً في عجلة. يجب أن تكونا حذرين منه.»

«وماذا يأكل في الحقيقة ؟»

«يأكل في الحقيقة ؟ أوه.. شيء مقرف... و... فتّش عن شيء بالانكليزية ليأكله نهر شرير.

«شرائح أناناس...» اقترحت راحيل.

«هذا صحيح! شرائح أناناس وشيئاً مقرفاً. ويشرب ويسكي.»

«وبراندي.»

«وبراندي. صحيح.»

«وينظر يمنة ويسرة.»

«صحيح.»

«ويتدخل بشؤون الآخرين...»

ثبّت إستابن القارب الصغير على الأرض غير المستوية ببضعة قطع خشب وجدها في منجرة فيلوثا في الباحة الخلفية. أعطى راحيل مغرفة طبخ مصنوعة من قبضة خشبية مثبتة إلى نصف قشرة جوز هند مصقولة.

تسلّق التوأم الجندول وجذفا عبر مياه متلاطمة شاسعة.

مع Thaiy thaiy thaka thaiy thaiy thome. ويسوع مرصّع بالجواهر يراقب.

لقد سار على الماء. ربما. لكن هل كان بإمكانه أن يسبح على الأرض ؟

---

(١) - كعكة على البخار. (المترجمة).

(٢) - عصيدة وسمك. (المترجمة).

بسروال قصير مناسب ونظارة غامقة؟ بنافورته في الحب ـ في ـ طوكيو؟ بحذائه المدبب ونفخة شعره؟ هل كان ليحوز المخيلة؟

عاد فيلوثا ليرى فيما إذا كان كوتابن يحتاج لشيء. سمع عن بعد الغناء الأجش. أصواتاً صغيرة تشدّد بسرور ومتعة على الكلمات البذيئة.

هيه أيها السيد السعدان

لماذا مؤخرتك حمراء جداً ؟

ذهبت إلى مادراس من أجل التقوط

وحككتها حتى أدمت !

مؤقتاً، من أجل بضع لحظات سعادة، أغلق رجل مشروبات البرتقال والليمون ابتسامته الصفراء ومضى بعيداً. غرق الخوف واستقر في قاع المياه العميقة. نائماً نوم كلب. مستعداً للنهوض وتظليم الأمور في لحظة انتباه.

ابتسم فيلوثا عندما رأى العلم الماركسي كشجرة مزهرة خارج ممرّه. كان عليه أن ينحني ليدخل منزله. أسكيمو مداري. عندما رأى الطفلين، أطبق شيئاً ما داخله. ولم يستطع فهمه. كان يراهما كل يوم. وكان يحبهما دون أن يعرف ذلك. لكن الأمر أصبح مختلفاً فجأة. الآن. بعد أن أخطأ التاريخ بشكل سيء للغاية. لم تطبق أي قبضة داخله من قبل.

طفلاها هي، هَمَسَ هَمْسٌ مجنون له.

عيناها هي، فمها هي. أسنانها هي.

بشرتها الطرية اللامعة.

طرد الفكرة عنه بغضب. عادت وجلست خارج جمجمته. مثل كلب.

«ها !» قال لضيفيه الصغيرين. «وهل بإمكاني أن أسأل من يكون هؤلاء الصيادون ؟»

«إستابايتشاتشن كوتابن بيتر مون. السيد والسيدة تشرفا بمعرفتك». مدّت راحيل المغرفة لتُصافَح في تحية.

صوفحت في تحية. مغرفتها، ثم مغرفة إستا.

«وهل بإمكاني أن اسأل، إلى أين هما ينطلقان بالقارب؟»

«إلى أفريقيا !» صرخت راحيل.

«توقفي عن الصراخ»، قال إستا.

دار فيلوثا حول القارب. وأخبراه أين وجداه.

«وهكذا فهو ليس لأحد»، قالت راحيل بشكٍّ خفيف، لأنه ظهر لها فجأة أنه من الممكن أن يكون. «هل علينا أن نخبر الشرطة عنه ؟»

«لا تكوني حمقاء،» قال إستا.

نقر فيلوثا على الخشب ثم حكّ منّظفاً رقعة صغيرة بأظفره.

«خشب جيد،» قال.

«إنه يغرق،» قال إستا. «إنه يسرّب.»

«هل تستطيع أن تصلحه لنا، فيلوثابابيتشاتشن بيتر مون ؟» سألت راحيل.

«سنرى بشأن ذلك،» قال فيلوثا. «لا أريدكما أن تلعبا ألعاباً سخيفة في النهر.»

«لن نفعل. نعدك. سنستخدمه فقط عندما تكون أنت معنا».

«أولاً علينا ايجاد التسربات...». قال فيلوثا.

«ثم علينا أن نسدّها!» صرخ التوأم، وكأنه كان الشطر الثاني من قصيدة معروفة.

«كم من الوقت سيستغرق ذلك ؟» سأل إستا.

«يوماً،» قال فيلوثا.

«يوماً! اعتقدت أنك ستقول شهراً !»

إستا، المحموم بالبهجة، قفز على فيلوثا، وطوّق خصره برجليه وقبّله.

قُسّم ورق الصنفرة إلى أجزاء متساوية تماماً، وانقضّ التوأم منشغلين بتركيز غريب أقصى أي شيء آخر.

هبّ غبار القارب في الغرفة واستقر على الشعر والحواجب. على كوتابن كغيمة، وعلى يسوع كقربان. وكان على فيلوثا أن يخلّص ورق الصنفرة من أصابعهما.

«ليس هنا،» قال بحزم. «في الخارج.»

التقط القارب وحمله إلى الخارج. تبعه التوأم وعيونهما مثبتة على قاربهما بتركيز ثابت العزم، جراء تتضور جوعاً تنتظر أن تُطعم.

هيّأ فيلوثا القارب لهما. القارب الذي جلس عليه إستا، ووجدته راحيل. بيّن لهما كيف يتتبعان تعريقات الخشب. بدأهما في الحك بورق الصنفرة. عندما عاد إلى الداخل، تبعته الدجاجة السوداء، مقررة أن تكون في أي مكان لا يوجد فيه القارب.

غمس فيلوثا منشفة قطنية في قدر الماء الفخارية. عصر الماء منها (بهمجية، وكأنها كانت فكرة غير مرغوب بها) وناولها لكوتابن ليمسح الجريش عن وجهه ورقبته.

«هل قالوا شيئاً ؟» سأل كوتابن. «بشأن رؤيتك في المسيرة ؟»

«لا،» قال فيلوثا. «ليس بعد. لكنهم سيفعلون مع ذلك. إنهم يعرفون.»

«بالتأكيد؟»

هزّ فيلوثا كتفيه لامبالياً وأخذ المنشفة ليغسلها، ليشطفها. ليضربها. وليعصرها. وكأنها كانت دماغاً متمرداً سخيفاً.

حاول أن يكرهها.

إنها واحدة منهم، قال لنفسه. *واحدة أخرى منهم فحسب.*

لم يستطع.

لها غمازتان عميقتان عندما تضحك. وعيناها دومًا في مكان آخر.

انسلّ الجنون داخلاً من خلال شق في التاريخ. استغرق الأمر دقيقة فقط.

بعد ساعة من الحك بورق الصنفرة، تذكرت راحيل قيلولة بعظ الظهر. ونهضت وأخذت تركض. متعثرة عبر حرارة العصر الخضراء. متبوعة بشقيقها وبدبور أصفر.

آملة، داعية، ألاّ تكون آمو قد استيقظت ووجدتها قد ذهبت.

١١

إله الأشياء الصغيرة

ذلك العصر، سافرت آمو عالياً عبر حلم حضنها فيه رجل بشوش بيد واحدة بالقرب من ضوء مصباح زيتي. لم يكن لديه ذراع أخرى ليقاتل بها الظلال التي رفرفت حوله على الأرض.

الظلال التي كان هو وحده من يقدر على رؤيتها.

برزت أخاديد من العضلات على معدته تحت جلده كتقاطيع على لوح شوكولاة.

حضنها بالقرب من ضوء مصباح زيتي، وشعّ وكأنه كان قد صُقل بملمّع جسم من الشمع الرفيع.

لم يكن يستطيع أن يقوم بالأشياء إلاّ واحدة فواحدة فقط.

إذا حضنها، لم يكن يستطيع أن يقبّلها. وإذا قبّلها، لم يكن يستطيع أن يراها. وإذا رآها، لم يكن يستطيع أن يشعر بها.

كان بإمكانها أن تلمس جسده قليلاً بأصابعها، وتشعر ببشرة معدته تقشعّر. وبإمكانها أن تترك أصابعها تتوه في أسفل معدته المسطّحة. بإهمال، فوق الحواف الشوكولاتية المجَلّوة اللامعة. وتترك دروباً، يُقتدى بها، من القشعريرة الوعرة على جسده، مثل طبشورة مسطحة على لوح أسود، مثل لفافة

نسيم في حقل أرز، مثل خطوط طائرة نفاثة في سماء سماوية لكنيسة. كان بإمكانها أن تفعل ذلك بسهولة، لكنها لم تفعل. كان بإمكانه لمسها أيضاً. لكنه لم يفعل، لأنه في الظلمة فيما وراء المصباح الزيتي، في الظلال، كانت هناك كراسٍ معدنية تُطوى مرتبة في حلقة وعلى الكراسي كان هناك أناس، بنظارات مائلة عليها أحجار راين، يراقبون. وجميعهم كانوا ممسكين بكمانات مصقولة تحت ذقونهم، وكانت الأقواس متوازنة في زوايا متماثلة. كانوا جميعاً متصالبي الأرجل، اليسرى فوق اليمنى، وجميع أرجلهم اليسرى كانت تهزّ.

كان مع بعضهم جرائد. وبعضهم لم يكن معه. بعضهم كان ينفخ فقاعات بصاق. وبعضهم لم يكن ينفخ. لكن كان لدى الجميع، الانعكاس المتراقص لمصباح زيتي على كل عدسة.

وراء دائرة الكراسي التي تُطوى كان يوجد شاطئ مبعثر بقوارير زجاجية زرقاء مكسورة. كانت الأمواج الصامتة تجلب قوارير زرقاء جديدة لتُكسر، وتسحب القديمة بعيداً في التيار البحري التحتي. كانت هناك أصوات مثلمة خشنة لزجاج فوق زجاج. وعلى الصخر، بعيداً في البحر، في عمود من ضوء قرمزي، كان يوجد كرسي هزاز من خشب الماهوغاني والأملود. محطماً.

كان البحر أسود، والزبد كان قيأً أخضر.

كانت الأسماك تقتات على الزجاج المهشّم.

ارتاحت أكواع الليل على الماء، ولمحت النجوم الساقطة كسوره الهشّة.

أضاءت عثّات السماء. لم يكن هناك قمر.

كان باستطاعته السباحة، بذراعه الواحدة. وهي بذراعيها.

كان جلده ملحياً. وجلدها كذلك.

لم يترك آثار أقدام على الرمل، ولا تموجات في الماء، ولا خيالاً في المرايا.

لكان بإمكانها أن تلمسه بأصابعها، لكنها لم تفعل. وقفا، فقط، معاً.

ساكنين.

جلداً لجلد.

رفع نسيم ملون ذروري شعرها ونفخه كشال متموج حول كتفيها الأعزلين، انتهى ذلك فجأة، كجرف.

ظهرت بقرة حمراء نحيلة بعظام حوض ناتئة وسبحت مباشرة في البحر من دون أن تبلل قرنيها، ومن دون أن تنظر إلى الوراء.

حلّقت آمو فوق حلمها بجناحين مرتجفين ثقيلين، وتوقفت لترتاح، مباشرة تحت جلده.

كانت قد ضغطت زهوراً من لحافها الأزرق ذي القطب المتصالبة على ذقنها.

أحسّت بوجهي طفليها متدليّين فوق حلمها، مثل قمرين قاتمين، ينتظران أن يُسمح لهما بالدخول.

«هل تعتقد أنها تموت؟» سمعت راحيل تهمس لإستا.

«أنه كابوس بعد الظهر»، أجاب إستا ـ الـ ـ دقيق. «إنها تحلم كثيراً».

إذا ما لمسها، لم يكن باستطاعته أن يتكلم معها، إذا أحبها لم يكن باستطاعته المغادرة، إذا تكلم لم يكن باستطاعته أن يصغي، إذا قاتل لم يكن باستطاعته أن ينتصر.

من كان، رجل الذراع الواحدة ؟ مَنْ *من المحتمل* أن يكون ؟ إله الضياع؟ إله الأشياء الصغيرة؟ إله القشعريرة والابتسامات المفاجئة؟ إله روائح المعدن الحمضية ـ مثل سكك باص فولاذية ورائحة يدي جابي الباص من الامساك بها؟

«هل يجب أن نوقظها؟» قال إستا.

تسللت شقوق من ضوء بعد الظهر المتأخر، داخل الغرفة، من خلال الستائر، وسقطت على راديو آمو الترانزستور الذي بشكل مندرين، والذي تأخذه معها دوماً إلى النهر. (بشكل مندرين أيضاً، كان الشيء الذي حمله إستا

إلى داخل *صوت الموسيقى* بيده الدبقة الأخرى.)

خطوط برّاقة من ضوء الشمس أنارت شعر آمو المتشابك. انتظرت، تحت جلد حلمها، غير راغبة أن تدع طفليها يدخلان.

«إنها تقول يجب ألاّ نوقظ، أبداً، الناس الذين يحلمون، فجأة»، قالت راحيل. «تقول إن هذا من الممكن أن يسبب لهم سكتة قلبية بسهولة».

فيما بينهما قررا أنه سيكون من الأفضل أن يزعجاها باحتراز، من أن يوقظاها فجأة. وهكذا فتحا الجوارير، وتنحنحا، وهمسا بصوت عالٍ، ودندنا لحناً قصيراً. نقلا أحذية. ووجدا باب خزانة يصرّ.

آمو المرتاحة تحت جلد حلمها، لاحظتهما وتوّجعت من حبها لهما.

نفخ رجل الذراع الواحدة مطفأً مصباحه وسار عبر الشاطئ المثلم المتموج، بعيداً داخل الظلال التي كان وحده يستطيع رؤيتها.

لم يترك أية آثار أقدام على الشاطئ.

طُويت الكراسي التي تُطوى. مُلّس البحر الأسود. كويت الأمواج المجعدة. أُعيدت تعبئة الزبد. وسُدّت الزجاجات.

أُرجئ الليل حتى إشعار آخر.

فتحت آمو عينيها.

كانت رحلة طويلة تلك التي قامت بها، من عناق رجل الذراع الواحدة إلى توأم البيضتين غير المتماثل الذي لها.

«كنت تشاهدين كابوس بعد الظهر،» أعلمتها ابنتها.

«لم يكن كابوساً،» قالت آمو. «كان حلماً.»

«اعتقد إستا انك كنت تموتين،»

«بدوت حزينة جداً،» قال إستا.

«كنت سعيدة،» قال آمو، وأدركت أنها كانت كذلك.

«آمو، إذا كنت سعيدة في الحلم، فهل يُحتسب هذا؟» سأل إستا.

«ما الذي يُحتسب؟»

«السعادة ـ هل تُحتسب؟»

فهمت بالضبط ماذا كان يقصد، ابنها بنفخة شعره المخرّبة.

لأن الحقيقة هي، أن فقط ما يحتسب، يحتسب.

الحكمة الثابتة البسيطة للأطفال.

إذا ما أكلت سمكة في حلم، فهل تُحتسب؟ هل يعني ذلك أنك قد أكلت سمكة ؟

الرجل البشوش الذي من دون آثار أقدام ـ هل كان يُحتسب ؟

تلّمست آمو راديوها الترانزستور، فتحته. بثّ أغنية من فيلم يُدعى *تشيمين*.

كانت قصة فتاة فقيرة أُجبرت على الزواج من صياد من الشاطىء المجاور، بالرغم من أنها كانت تحب شخصاً آخر. عندما علم الصياد بشأن حبيب زوجته القديم، انطلق إلى البحر بقاربه الصغير بالرغم من انه كان يعلم أن هناك عاصفة في الأفق. الوقت ليل، وتهب الريح. وتدوّم دوامة من قاع المحيط. هناك موسيقى عاصفة، ويغرق الصياد، منجذباً إلى أسفل البحر بدوار الدوامة.

يبرم العاشقان معاهدة انتحار، ويُعثر عليهما في الصباح التالي، متطهرين على الشاطىء وذراعاهما حول بعضهما البعض. وهكذا يموت الجميع. الصياد، زوجته، حبيبها، وقرش لم يكن له أي دور في القصة، لكنه يموت على أية حال. البحر يطالب بهم جميعاً.

في ظلمة القطب المتصالبة الزرقاء المخرّمة بحواف من ضوء، وبزهور من قطب متصالبة على خديها النعسين، غنت آمو وتوأمها (واحد على كل جانب)، بنعومة مع الراديو الذي بشكل مندرين. الأغنية التي غنتها الصيادة للعروس الصغيرة الحزينة بينما كانوا يضفرون لها شعرها ويهيؤونها لزفافها على رجل لم تكن تحبه.

Pandoru mukkuvan muthinu poyi,

(ذات مرة ذهب صياد إلى البحر،)

Padinjaran kattathu mungi poyi,

(هبّت الريح الغربية وابتلعت قاربه،)

وقفت عباءة جنية مطار على الأرض، مدعومة برغوتها وصلابتها. في الخارج فوق الدرج، استلقت أثواب ساري مجعدة في صف تتغضن في الشمس. أبيض مصفّر وذهبي. حصى صغيرة عششت في ثناياها الممدودة ويجب أن تُنَّخض قبل أن تُطوى وتؤخذ للكوي.

Arayathi pennu pizhachu poyi,

(تاهت زوجته على الشاطىء،)

رُمِّد الفيل المصاب بصدمة كهربائية (ليس كوتشو ثومبان) في إيتومانور. نُصب حَرقاً عملاقاً على الاوتوستراد. نشر المهندسون من البلدية المَعنيّة الأنياب وتقاسموها بشكل غير رسمي. وبشكل غير متساوٍ. ثمانون صفيحة من السمن الصافي صُبّت فوق الفيل لتغذية النار. ارتفع الدخان في أدخنة سميكة ورتّب نفسه في أشكال معقدة باتجاه السماء. تجمع الناس حوله على مسافة آمنة، يستخلصون تأويلاتهم الخاصة.

كان هناك الكثير من الذباب.

Avaney kadalamma kondu poyi.

(فنهضت الأم المحيط وأخذته بعيداً.)

صقور منبوذة تساقطت داخل الأشجار المجاورة، لتُشرف على مراقبة الطقوس الأخيرة للفيل الميت. أملوا، ليس من دون داع، بجمع أحشاء عملاقة. صفراء هائلة، مثانة، ربما. أو طحال ضخم محروق.

لم يكونوا خائبي الأمل. ولا راضين كلياً.

لاحظت آمو أن كلاً من طفليها كانا مغطيين بغبار دقيق. مثل قطعتي كاتو غير متساويتين مغبّرتين قليلاً بالسكر. كان لدى راحيل خصلة شقراء تستقر بين خصلاتها السوداء. خصلة من باحة فيلوثا الخلفية. أخرجتها آمو.

«قلت لكما من قبل،» قالت. «لا أريدكما أن تذهبا إلى بيته. لن يسبب ذلك إلاّ المتاعب.»

أية متاعب، لم تقل. لم تكن تعرف.

بطريقة ما، وبعدم ذكر اسمه، علمت أنها قد جرّته داخل الحميمية المشعثّة لذاك العصر الأزرق ذي القطب المتصالبة وللأغنية المبثوثة من الترانزستور الذي بشكل مندرين. بعدم ذكر اسمه، شعرت أن عهداً قد زُوّر بين **حلمها** و **العالم**. وأن مولّدات ذلك العهد، كانا، أو سيكونا، توأم البيضتين المكسوين بالنشارة، الذي لها.

علمت من كان ـ **إله الضياع، إله الأشياء الصغيرة**. *بالطبع* علمت.

أطفأت راديو المندرين. التف طفلاها في صمت بعد الظهر (المخرّم بحواف ضوء) داخل دفئها. داخل رائحتها. غطيا رأسيهما بشعرها. أحسا بطريقة ما أنها قد سافرت بعيداً عنهما في حلمها. استدعياها ثانية الآن براحتي يديهما الصغيرتين موضوعتين مسطحتين على بشرة الحجاب الحاجز العارية. بين تنورتها وبلوزتها. أحبا حقيقة أن اللون البني لظهر يديهما كان اللون البني ذاته لبشرة معدة أمهما.

«انظر إستا،» قالت راحيل، وهي تنقر على اللون البني الناعم الذي يقود إلى الأسفل من صرة آمو.

«هنا حيث رفسناك.» تتبع إستا العلامة الفضية التائهة الممتدة بإصبعه.

«آمو، هل كان ذلك في الباص؟»

«أم على طريق المزرعة المتعرج؟»

«عندما أمسك بابا بطنك؟»

«هل كان عليكما أن تشتريا بطاقتي باص؟»

«هل آذيناك؟»

ومن ثم، محتفظة بصوتها عادياً، سؤال راحيل:

«هل تعتقدين أنه من الممكن أن يكون قد أضاع عنواننا؟»

مجرد إيحاء لوقفة في إيقاع تنفس آمو، جعلت إستا يلمس إصبع راحيل الوسطى بإصبعه الأوسط. وإصبع أوسط على إصبع أوسط على الحاجب الحاجز الجميل الذي لأمهما، تخليا عن ذلك السطر من الأسئلة.

«هذه رفسة إستا، وهذه رفستي»، قالت راحيل «..وهذه لإستا وتلك لي.»

وزّعا بينهما قطب أمهما الفضية السبع. ثم وضعت راحيل فمها على معدة آمو ومصتها، جاذبةً اللحم الطري داخل فمها ومرجعة رأسها إلى الخلف لتُعجب بالشكل البيضوي المشع للبصاق والآثار الحمراء الباهتة لأُسنانها على جلد أمها.

دُهشت آمو من شفافية تلك القبلة. كانت قبلة شفافة كالزجاج. غيرمعكرة بالهوى والرغبة ـ زوج الكلاب ذاك الذي ينام عميقاً داخل الأطفال، ينتظرهم ليكبروا. كانت قبلة لا تطالب بواحدة مقابلة.

ليست قبلة ملبدة بأسئلة تريد أجوبة. مثل قُبَل رجال الذراع الواحدة البشوشين في الأحلام.

بدأت آمو تتضايق من لمسهما التملكي لها. أرادت أن تستعيد جسمها. لقد كان لها. خلعت نفسها من طفليها بالطريقة التي تخلع كلبة نفسها من جرائها عندما تكتفي منهم. جلست وعقصت شعرها في عقدة في مؤخرة عنقها. ثم أرجحت رجليها عن السرير، وسارت إلى النافذة وأزاحت الستائر.

غمر ضوء بعد ظهر مائل الغرفة وأضاء طفلين على السرير.

سمع التوأم القفل يدور في باب حمام آمو.

تيك.

نظرت آمو إلى نفسها في المرآة الطولانية على باب الحمام وظهر خيال مستقبلها فيها ليهزأ منها. مخللة. رمادية. عمشة العينين. زهوراً من قطب متصالبة على خد غائر مرتخٍ. ثديين ذاويين يتدليان مثل جوربين مثقلين. الشعر

الأبيض بين رجليها، جافاً كعظمة. ضاوياً. هشاً متقصفاً كسراخس مضغوطة.

الجلد الذي يتقشر ويسيل كالثلج.

ارتجفت آمو.

بذلك الاحساس البارد أن الحياة قد عيشت في بعد ظهر حار. أن كأسها كان مليئاً بالغبار. أن الهواء، والسماء، والأشجار، والشمس، والمطر، والضوء والظلام، كانت تتحول، جميعها، رويداً رويداً إلى رمل. أن الرمل سيملأ فتحة منخريها، ورئتيها، وفمها. سيسحبها نحو الأسفل، تاركاً على السطح، دوامة تدور مثل التي تتركها السرطانات عندما تختبىء على الشاطىء.

تعرّت آمو ووضعت فرشاة أسنان حمراء تحت ثدي لترى إن كانت ستقف. لم تقف. حيثما لمست نفسها كان لحمها مشدوداً وناعماً. تجعدت حلمتاها تحت يديها وتصلبتا كحبتي فستق قاتمين، جاذبتين جلد ثدييها الطري. قاد خط الأسفل النحيل من صرتها وفوق الانحناء الرقيق لأسفل بطنها، إلى مثلثها الأسود. كقوس يرشد مسافراً تائهاً. حبيباً غرّاً.

حلّت آمو شعرها واستدارت لترى إلى أي طول كان قد وصل. سقط، في خصل فائرة متمردة ملتفة ومتموجة ـ ناعماً في الداخل، أخشن قليلاً في الخارج ـ اتجهت انحناءاته باتجاه وركيها بالضبط عند أسفل بداية خصرها القوي الصغير. كان الحمام حاراً. خرزات صغيرة من العرق رصعّت بشرتها كالماس. ثم انفصلت وتقطرّت نحو الأسفل. انساب العرق أسفل الخط المستريح لسلسلة ظهرها. نظرت بانتقاد طفيف إلى مؤخرتها الثقيلة المدورة. ليست كبيرة هي ذاتها. ليست كبيرة *بذاتها* (كما سيصوغها تشاكو ـ الا ـ كسفوردي دون شك). كبيرة فقط لأن بقية جسمها كان نحيلاً جداً. كانت مؤخرتها تنتمي إلى جسد آخر أكثر شهوانية.

اضطرت أن تعترف أنها تتحمل بسعادة فرشاة أسنان لكل منها. ربما اثنتين. ضحكت عالياً على فكرة السير عارية في أيمينيم بنسق من فراشي أسنان ملونة ملصقة خارج كل فلقة من مؤخرتها. أسكتت نفسها بسرعة. رأت حفنة

جنون تفر من قارورتها وترقص مرحاً بانتصار حول الحمام.

كانت آمو تخشى الجنون.

كانت ماماتشي تقول انه يسري في عائلتهم. ينتاب الناس فجأة ويأخذهم على حين غرة. كانت هناك باثيل أماي التي بدأت في عمر الخامسة والستين بخلع ملابسها والركض عارية بمحاذاة النهر، مغنية للأسماك. وثامبي تشاتشن الذي كان يفتش غائطه بأبرة حياكة كل صباح بحثاً عن سن ذهب كان قد ابتلعه من سنين. والدكتور موثاتشن الذي كان يجب أن يُنقل من حفلة زفافه. هل ستقول أجيال المستقبل، «كانت توجد آمو إبي. تزوجت من بنغالي. وجُنّت تماماً. وماتت صبية. في نزل رخيص في مكان ما.»

كان تشاكو يقول أن حالات الجنون المرتفعة الواقعة بين المسيحيين السوريين كانت الثمن الذي يدفعونه مقابل الزيجات الداخلية. ماماتشي قالت أن ذلك لم يكن السبب.

جمعت آمو شعرها الثقيل، ولفتّه حول وجهها، وحدّقت من خلال جدائله المفرّقة، عبر الطريق إلى **العمر** و **الموت**. مثل جلاد من العصور الوسطى يحدق إلى الضحية من خلال ثقبي العين المائلين لقلنسوته المدبية السوداء. جلاد عارٍ نحيل بحلمتين قاتمتين وغمازتين إذا ضحك. بسبع قطب فضية من توأم البيضتين خاصتها، اللذين ولدا لها في أضواء الشموع في غمرة أخبار عن حرب خاسرة.

ما يتوضع في نهاية الطريق لم يكن هو ما يخيف آمو بقدر خوفها من طبيعة الطريق ذاته. لا معالم تميزّه. لا أشجار تنمو على امتداده. لا ظلال مرقطة تظلله. لا سحب تتكور فوقه. لا طيور تحيطه. لا انحناءات، لا تعرجات أو دبابيس شعر محنية لتحجب، ولو للحظة، رؤيتها الواضحة للنهاية. ملأ هذا آمو برعب مريع، لأنها ليست من نوع النساء اللواتي يردن أن يُقال مستقبلهن لهن. كانت تفزع منه كثيراً. ولذلك فإذا كانت ستمُنح أمنية صغيرة لربما كانت أن لا تعلم فقط. أن لا تعلم ما يدخّره كل يوم لها. أن لا تعلم أين من المحتمل أن تكون في الشهر التالي، في السنة التالية. بعد عشر سنوات. أن لا تعلم أي

طريق قد يتخذه دربها وماذا يتوضع بعد المنعطف. وآمو كانت تعلم. أو *اعتقدت* انها كانت تعلم، الأمر الذي كان في الحقيقة بالسوء ذاته (لأنك إذا كنت تأكل سمكة في حلم، فهذا يعني انك كنت تأكل سمكة). وما علمته آمو (أو اعتقدت أنها كانت تعلمه)، فاح برائحة الأدخنة الخلية النكدة التافهة التي تصعد من الأحواض الاسمنتية في **مخللات الجنة**. أدخنة كانت تجعد الشباب وتخلّل المستقبل.

آمو المحجوبة بشعرها، استندت على نفسها في مرآة الحمام وحاولت أن تبكي.

من أجل نفسها.

من أجل إله **الأشياء الصغيرة**.

من أجل توأم السكر المغبّر مولّد حلمها.

ذلك العصر - بينما كانت الأقدار تتآمر على تغيير وجهة طريق أمهما الغامض على نحو رهيب، وبينما كان قارب قديم ينتظرهما في باحة فيلوثا الخلفية، وبينما كان خفاش صغير ينتظر أن يولد في كنيسة صفراء - في غرفة نوم أمهما، وقف إستا على رأسه على مؤخرة راحيل.

غرفة النوم ذات الستائر الزرقاء والدبابير الصفراء التي أقلقت ألواح الزجاج. غرفة النوم التي ستعلم جدرانها قريباً أسرارهم المعذّبة. الحمام الذي ستُحبس فيه آمو أولاً، ومن ثم ستحبس نفسها فيه. الذي سيخلع تشاكو، الممسوس بالحزن، بعد أربعة أيام من جنازة صوفي مول، بابه من الضرب.

«اخرجي من بيتي قبل أن أكسر كل عظمة في جسمك!»

بيتي *أنا*، أناناساتي *أنا*، مخللاتي *أنا*.

ستحلم راحيل لسنوات، بعد ذلك، هذا الحلم: رجل سمين، دون وجه، جاثٍ بالقرب من جثة امرأة. يخلع شعرها. ويكسر كل عظمة في جسدها. قاصفاً حتى العظام الصُغيرة. الأصابع. عظام الأذنين مصدعة كالأغصان. *طق طق* كان الصوت الخافت لكسر العظام. عازف بيانو يقتل البيانو الذي له.

حتى المفاتيح السوداء. وراحيل (بالرغم من أنها بعد سنوات، في المحرقة الكهربائية، ستستفيد من العرق لتفلت من قبضة تشاكو)، كانت تحبهما كليهما. العازف والبيانو.

القاتل والجثة.

بينما كان الباب ينخلع ببطء، ولتسيطر آمو على ارتجاف يديها، ستعمد إلى حياكة أطراف شرائط راحيل التي لم تكن تحتاج لذلك.

«عداني أنكما ستحبان بعضكما البعض دوماً»، ستقول، وهي تجذب طفليها إليها.

«نعدك،» سيقول إستا وراحيل. دون أن يجدا الكلمات المناسبة ليقولا لها أنه بالنسبة لهما لا يوجد بعض ولا بعض آخر.

حجرا طاحون توأم وأمهما. حجرا طاحون فاقدا الاحساس. ما فعلاه سيعود لإفراغهما. لكن ذلك سيكون فيما بعد.

فيما بعد. جرس ذو صوت عميق في بئر مكسوة بالطحالب. مرتجف ومكسو بالفراء كقدمي عثة.

في ذلك الوقت، كان يوجد فقط التشظي. وكأن المعنى كان قد انسلّ من الأشياء وتركها مفتتة. مبتورة. الومضة في إبرة آمو. لون شريطة. نسيج اللحاف ذي القطب المتصالبة. باب ينكسر ببطء. الأشياء المعزولة التي لم تكن تعني أي شيء. وكأن الذكاء الذي يفك شيفرة أساليب الحياة المخبأة ـ الذي يربط الأخيلة بالصور، الومضات بالضوء، النسج بالأقمشة، الأبر بالخيط، الجدران بالغرف، الحب بالخوف بالغضب بالندم ـ كان قد ضاع فجأة.

«احزمي أشياءك وارحلي»، سيقول تشاكو، وهو يدوس فوق الحطام، ناشراً تهديده، فوقه. وقبضة باب كرومية في يده. يهدأ فجأة بشكل غريب. مدهوشاً من قوته الخاصة. من كبره. من قوته المهولة. من جسامة حزنه الرهيب.

أحمر، كان لون خشب الباب المتشظي.

آمو، الهادئة في الخارج، المرتجفة في الداخل، ستنتظر رافعة عينيها عن

حياكتها غير الضرورية. ستتوضع علبة الشرائط القصديرية مفتوحة في حضنها، في الغرفة التي فقدت فيها حقها في المطالبة بالملكية.

الغرفة ذاتها (بعد أن أجاب خبير التوائم من هيدراباد)، التي ستحزم آمو فيها حقيبة إستا الصغيرة وجرابه الكاكي: ١٢ صدار قطني بدون أكمام، ١٢ صدار قطني بأكمام قصيرة. *هاك إستا، اسمك مكتوب عليها بالحبر*. جواربه. بنطلوناته الضيقة. قمصانه ذات الياقات المدبية، حذاؤه البيج المدبب الذي تصعد منه مشاعر الغضب. اسطواناته الخاصة بالفيس بريسللي. حبوب الكالسيوم وشراب الفيدالين الخاص به. زرافته المجانية (التي أتت مع الفيدالين). أجزاء كتب المعرفة خاصته. من ١حتى ٤. لا *يا حبيب قلبي، لن يكون هناك نهر لتصطاد فيه*. إنجيله الجلدي الأبيض ذو السحّاب الذي عليه زر لربط أكمام من حجر الجمشت تابع لعالم حشرات امبراطوري. فنجانه. صابونته. هديته لعيد ميلاده القادم الذي عليه ألاّ يفتحها. أربعون نموذج رسالة، بلون أخضر، خاصة بمراسلات داخل البلاد. *انظر، إستا، لقد كتبت عليها عنواننا. كل ما عليك فعله هو أن تطويها. لنرى إن كنت تستطيع طويها بنفسك*. وسيطوي إستا الرسالة الخضراء، الخاصة بداخل البلاد، بأناقة على طول الخط المنقّط حيث كُتب *اطوِ هنا* ويرفع بصره إلى آمو بابتسامة حطّمت قلبها.

هل ستعدني أنك ستكتب؟ حتى لو لم يكن لديك أخبار؟

أعدك، سيقول إستا. غير مدرك كلياً لوضعه. فقد ثُلّمت الحافة الحادة لإدراكه بهذه الثروة المفاجئة من الملكيات الدنيوية. كانت له. وكان اسمه مكتوباً عليها بالحبر. وكانت ستحزم داخل حقيبة (باسمه عليها) ستتوضع على أرض غرفة النوم.

غرفة النوم، التي ستعود راحيل إليها بعد سنوات، لتشاهد غريباً صامتاً يستحم. ويغسل ثيابه بصابونة زرقاء زاهية مفتتة.

ذو عضلات مسطحة، وبلون العسل. بأسرار البحر في عينيه. وقطرات مطر فضية في أذنه.

إستابايتشاتشن كوتابن بيتر مون.

١٢

كوتشو ثومبان

أبرز صوت التشيندا[١] المنتشر فوق المعبد، صمت الليل المحدق. الطريق المبلل الوحيد. والأشجار المراقبة. خطت راحيل اللاهثة والممسكة بثمرة جوز هند، داخل بناء الهيكل عبر الباب الخشبي الموجود في الجدار المتاخم الأبيض العالي.

في الداخل، كان كل شيء محاطاً بجدران بيضاء، مكسواً بالطحالب، ومضاءً بالقمر. كان الكاهن النحيل نائماً على حصيرة في الشرفة الحجرية المشيدة. وتوضعت صَحْفة نقود نحاسية بجانب وسادته كتوضيح هزلي لأحلامه. كان البناء مبعثراً بالأهلّة، واحد في كل بركة طين. كان كوتشو ثومبان قد أنهى جولاته الشعائرية، واضطجع مربوطاً إلى وتد خشبي بجانب تلة روثه الخاص التي تتصاعد منها الأبخرة. كان نائماً، واجبه منجز، أمعاؤه مفرغة، ناب يرتاح على الأرض، والآخر يشير إلى النجوم. اقتربت راحيل بهدوء. رأت أن جلده كان أطرى مما تتذكر. *لم يعد كوتشو ثومبان*. لقد نما ناباه. *أصبح فيليا ثومبان* الآن. الفيل الكبير. وضعت ثمرة جوز الهند على الأرض بالقرب منه. انفصلت تجعيدة جلدية لتكشف ومضة سائلة لعين فيل. ثم انغلقت واستدعت

(١) ـ التشيندا: قرع طبول. (المترجمة).

الأهداب الطويلة المتسعة، النوم، ثانية. ناب باتجاه النجوم.

إن حزيران هو موسم منخفض للكاثاكالي. لكن هناك بعض المعابد التي لا يمكن للفرق أن تمر بها من غير أن تمثل فيها. ومعبد أيمينيم لم يكن واحداً منها، لكن في هذه الأيام، وبفضل موقعه الجغرافي، تغيرت الأمور.

في أيمينيم رقصوا هوانهم لحمولة البحر في **قلب الظلمات**. رقصوا تمثيلياتهم المبتورة التي يقدمونها عند بركة السباحة. رقصوا لجوعهم إلى السياحة لتفادي الجوع.

في طريق عودتهم من **قلب الظلمات**، توقفوا في المعبد ليطلبوا المغفرة من آلهتهم. ليعتذروا عن تشويههم ومسخهم لقصصهم. لتزييفهم هوياتهم. لاساءة استعمالهم حيواتهم.

في مثل هذه المناسبات، كان حضور انساني أمراً مرحباً به، لكنه عرضياً تماماً.

في الممر المسقوف العريض ـ الكوثامبالام[1] المحاط بالأعمدة، المتاخم لقلب المعبد حيث يعيش الاله الأزرق مع مزماره، قرع قارعو الطبول طبولهم ورقص الراقصون، وتحولت ألوانهم ببطء في الليل. جلست راحيل متصالبة الرجلين، مسندة ظهرها إلى استدارة عمود أبيض. تلألأت علبة طويلة من زيت جوز الهند في ضوء مرفرف لمصباح نحاسي. ملأ الزيت الضوء بأسره. والضوء أضاء العلبة.

لم يكن يهم أن القصة كانت قد ابتدأت، لأن الكاثاكالي اكتشفوا منذ زمن بعيد أن سر القصص العظيمة هو أنها لا تنطوي على أسرار. **القصص العظيمة** هي القصص التي سمعتها وتريد أن تسمعها ثانية. تلك التي تستطيع أن تدخل في أي مكان وتقطن براحة. إنها لا تخدعك بنهايات تشويق وخديعة. ولا تفاجئك بغير المتوقع. إنها مألوفة كالبيت الذي تعيش فيه. أو رائحة جلد حبيبك. تعرف كيف ستكون خاتمتها، وبالرغم من ذلك فأنت

---

(١) ـ الحرم المقدس داخل المعبد. (المترجمة).

تستمع وكأنك لا تعرف. بالطريقة التي بالرغم من أنك تعرف أنك ستموت في يوم ما، لكنك تعيش وكأنك لن تموت. في القصص العظيمة أنت تعرف من يعيش، ومن يموت، من يجد الحب، ومن لا يجده. ومع ذلك فأنت تريد أن تعرف كل ذلك ثانية.

هذا هو السر في سحرهم.

بالنسبة لرجل كاثاكالي، هذه القصص هي أولاده وطفولته. لقد كبر داخلها. إنها البيت التي رُبي فيه، البراري التي لعب فيها. إنها نوافذه وطريقته في الرؤية. ولذلك عندما يخبر قصة فهو يسلّمها وكأنه يسلّم طفله الخاص. يلاعبها. يعاقبها. يطيّرها عالياً كفقاعة. يصارعها حتى الأرض ثم يتركها تذهب ثانية. يضحك عليها لأنه يحبها. يستطيع أن يطير بك في لحظة عبر عوالم كاملة، ويستطيع أن يتوقف لساعات ليتملّى ورقة شجر ذابلة. أو ليلعب بذيل قرد نائم. يستطيع أن يتحول بسهولة من مجزرة حرب إلى غبطة امرأة تغسل شعرها في جدول جبلي. من حماسة عفريت محتال لديه فكرة جديدة إلى مالايالي ثرثار يريد نشر فضيحة. من شهوانية أم بطفل على ثديها إلى الأذى المغري لابتسامة كريشنا يستطيع أن يكشف عن شذرة الحزن التي تحتويها السعادة. وعن سمكة العار المخبأة في بحر المجد.

يخبر قصص الآلهة، لكن خيطه مغزول من القلب الانساني الآثم.

رجل الكاثاكالي هو أكثر الرجال جمالاً. لأن جسمه هو روحه. أداته الوحيدة. من عمر الثلاث سنوات يُسّوى ويُصقل ويُشذّب، مسخراً لمهمة رواية القصص. يمتلك سحراً في داخله، هذا الرجل ذو القناع المرسوم والتنورة المدوّمة.

لكنه، في هذه الأيام، أصبح بضاعة غير نافعة. متعّذرة. ومستهجنة. مصدراً لسخرية أولاده. إنهم يتوقون لكل شيء ليس فيه. لقد راقبهم يكبرون ليصبحوا موظفين وجباة باص، موظفي جريدة غير رسمية من الدرجة الرابعة. باتحادات خاصة بهم.

أما هو نفسه، فقد تُرك معلقاً في مكان ما بين الجنة والأرض. فهو لا يستطيع أن ينزلق في ممرات الباصات، يعد الفكة ويبيع البطاقات. ولا أن يجيب الأجراس التي تناديه. ولا أن ينحني وراء صواني الشاي وبسكويت ماري.

دفعه يأسه إلى السياحة. دخل السوق. ونادى على الشيء الوحيد الذي يملكه. القصص التي يستطيع أن يرويها جسده.

أصبح **نكهة محلية**.

يهزؤون منه في **قلب الظلمات** بعريهم المتدلي وأشبار انتباههم المستوردة. يتفقّد مجاله ويرقص لهم. يجمع أجرته. يسكر. أو يدّخن ماريجوانا. ماريجوانا كيرالية جيدة. يضحكه ذلك. ثم يتوقف عند معبد أيمينيم، هو والآخرون الذين معه، ويرقص ليطلب المغفرة من الآلهة.

تفرّجت راحيل التي (من دون **خطط**، ومن دون **حق المطالبة بملكية**)، بظهرها المستند إلى عمود، على كارنا يصلي على ضفاف الغانغا[1]. كارنا المتسربل في درع نوره. كارنا، الابن السوداوي لسوريا، إله النهار. كارنا الكريم. كارنا الطفل المهجور. كارنا المحارب الأكثر احتراماً بينهم جميعاً. كان كارنا محششاً تلك الليلة. رُتقت تنورته المهترئة. وكان يوجد تجاويف في تاجه حيث توجد المجوهرات عادة. أصبح قميصه المخملي أجردً من الاستعمال. وكان كعباه مشققين. وقاسيين. كان يطفىء أعقاب ماريجواناته فيهما.

لكن لو كان لديه أسطول من الرجال المبرّجين منتظرين في الأجنحة، ووكيل، وعقد، ونسبة مئوية من الأرباح ـ فماذا سيكون عندئذ ؟ مخادعاً نصّاباً. مدّعياً غنياً. ممثلاً يمثّل دوره. هل بامكانه أن يكون كارنا ؟ أو أنه سيكون *آمنًا* جداً داخل جيب ثروته ؟ هل ستنمو أمواله عندئذ كقشرة بينه وبين قصته؟ هل سيتمكن من لمس قلبها، أسرارها المخبأة، بالطريقة التي يستطيعها الآن؟

ربما لا.

---

(١) ـ الغانغا: نهر في الهند وبنغلاديش، ينبع من جبال هيمالايا، وهو مقدس عند الهندوس. (المترجمة).

هذا الرجل خطير هذه الليلة. إن يأسه كامل. هذه القصة هي شبكة الأمان التي يهوي ويغطس فوقها كمهرج ألمعي في سيرك مفلس. إنها كل ما لديه ليمنعه من التحطم عبر العالم كحجر ساقط. إنها لونه وضوؤه. إنها اناؤه التي يسكب فيه نفسه. إنها تعطيه شكلاً. بناءً. إنها تسخرّه. تحتويه. تحتوي حبه. جنونه. أمله. فرحه اللامتناهي. ومما يدعو للسخرية، أن صراعه هو نقيض لصراع ممثل - إنه لا يكافح ليدخل دوراً بل يهرب منه. لكن هذا ما لا يستطيعه. في هزيمته الذليلة يكمن انتصاره الأسمى. *انه* كارنا، الذي تخلّى عنه العالم. كارنا الوحيد. البضاعة المُستهجنة. أمير ترعرع في الفقر. وُلد ليموت مظلوماً، أعزل ووحيداً بين يدي أخيه. جليلاً في يأسه الكامل. يصلي على ضفاف الغانغا. محشّشاً ذاهلاً.

ثم ظهرت كونتي. هي أيضاً كانت رجلاً، لكن رجلاً ناعماً وأنثوياً، رجلاً بثديين، من جراء قيامه بأدوار نسائية لسنين. كانت حركتها متدفقة. مليئة بالانوثة. كونتي، ايضاً كانت محشّشة. عالياً بالأعقاب المشتركة ذاتها. كانت قد أتت لتخبر كارنا قصة.

أمال كارنا رأسه الجميل وأصغى.

رقصت له، كونتي، ذات العينين الحمراوين. أخبرته عن صبية كانت قد مُنحت نعمة. مانترا[1] سرية تستطيع استخدامها لتختار لها حبيباً من بين الآلهة. وكيف قررت بطيش شباب، أن تختبره لترى إن كان سينجح فعلاً. وكيف وقفت وحيدة في حقل فارغ، وأدارت وجهها نحو السموات وأنشدت المانترا كانت الكلمات قد غادرت شفتيها الغبيتين بشق الأنفس، قالت كونتي، عندما ظهر سوريا، إله النهار، أمامها. منحت الصبية المفتونة بجمال الاله الشاب المتلألىء نفسها له. بعد تسعة أشهر ولدت له ولداً. وُلد الطفل متسربلاً بالنور، بقرطين ذهبيين في أذنيه ودرع ذهبي على صدره، منقوشاً برمز الشمس.

---

(١) - صيغة لفظية مقدسة تتكرر في الصلوات والتعازيم والتأملات، وتحوي قوى كامنة باطنية.(هندوسية). (المترجمة).

أحبت الأم الصغيرة ولدها الأول بعمق، قالت كونتي، لكنها كانت عزباء ولم تستطع الاحتفاظ به. وضعته في سلة خيزران وطرحته في نهر. وُجد الطفل أسفل النهر بواسطة أبهيراتا، سائق عربة. وسُمي كارنا.

رفع كارنا نظره إلى كونتي. *من تكون؟ من هي أمي؟ أخبريني أين هي. خذيني إليها.*

خفضت مونتي رأسها. *إنها هنا*، قالت. *واقفة أمامك.* نشوة كارنا وغضبه من البوح، رقصة ارتباكه ويأسه. *أين كنت*، سألها، *عندما كنت بأشد الحاجة إليك؟ هل حملتيني، أبدًا، بين ذراعيك؟ هل أطعمتني؟ هل بحثتِ عني؟ هل تساءلت أين من الممكن أن أكون؟*

في إجابتها، أخذت كونتي الوجه الملكي بين يديها، أخضر الوجه، أحمر العينين. اختلج كارنا باللذة. محارب يُخفَّض إلى طفل. نشوة تلك القبلة. بعثها إلى أطراف جسده. أصابع قدميه. بصمات أصابعه. قبلة أمه الحبيبة. *هل تعلمين كم اشتقت إليكِ؟* استطاعت راحيل أن تراها تسري في شرايينه، واضحة كبيضة ترتحل في رقبة نعامة.

قبلة مسافرة تُقطع رحلتها بالرعب عندما يُدرك كارنا أن أمه قد كشفت نفسها له فقط لتكفل سلامة أولادها الخمسة، الأكثر إثرةً لديها ـ الباندافاس ـ المتوازنين على شفا معركتهم الملحمية مع أولاد أعمامهم المئة. لقد كانوا هم من سعت كونتي لتحميهم بكشفها لكارنا أنها أمه. كان عليها أن تنتزع وعداً.

ناشدته بقوانين الحب.

إنهم إخوتك. لحمك ودمك. عدني أنك لن تذهب إلى الحرب ضدهم. عدني بذلك.

لم يستطع كارنا المحارب أن يعد، لأنه لو فعل لنقض وعداً آخر. غداً سيذهب إلى الحرب، وسيكون الباندافاس أعداءه. لقد كانوا هم، وآرجونا على وجه الخصوص، من شتمه علناً لكونه ابن سائق عربة وضيع. وكان دوريودهانا، أكبر الأخوة الكاوارافا المئة، من أنقذه بمنحه مملكة خاصة به. وفي المقابل، قطع كارنا عهداً بالولاء الأبدي لدوريودهانا.

لكن كارنا الكريم لم يستطع أن يرفض ما تطلبه أمه منه. فبدّل الوعد. راوغ. قام بتعديل بسيط، أقسم قسماً محوَّراً نوعاً ما.

أعدك بذلك، قال كارنا لكونتي. *سيكون لك دومًا خمسة أبناء. لن أؤذي يودهيشتيرا. ولن يموت بهيما على يدي. وسيذهب التوأم - ناكولا وساهاديفا - دون أن أمسهما. لكن أرجونا - لن أستطيع أن أعد بشأنه. سأقتله، أو سيقتلني هو. أحدنا سيموت.*

تبدّل شيء في الجو. وعلمت راحيل أن إستا قد قدم.

لم تدر رأسها، لكن وهج انتشر داخلها. *إنه هنا*، فكرّت. *إنه هنا. معي.*

استقر إستا على عمود بعيد وجلسا طوال المسرحية على هذا الشكل، مفصولين بعرض الكوثامبالام، لكنهما متصلان بقصة. وبذكرى أم أخرى.

أصبح الجو أكثر دفئاً. وأقل رطوبة.

ربما كانت تلك الأمسية أمسية سيئة على وجه الخصوص في **قلب الظلمات**. رقص الرجال في أيمينيم وكأنه لم يكن بإمكانهم التوقف. مثل أطفال في منزل دافىء يحتمون من عاصفة. يرفضون الخروج والاعتراف بالطقس. بالريح والرعد. بالجرذان التي تتسابق عبر المنظر المهدم وعلامات الدولار في أعينهم. بالعالم الذي يتحطم من حولهم.

كانوا يخرجون من قصة ليتوغلوا عميقاً داخل أخرى. من Karna Shabadam - قسم كارنا - إلى Duryyodhana Vadham - موت دوريودهانا وأخيه دوشاسانا.

كانت الرابعة صباحاً تقريباً عندما قنص بهيما دوشاسانا الخسيس. الرجل الذي حاول جهرةً أن يعرّي زوجة الباندافاس، دراوبادي، بعد أن فاز بها الكاورافا في لعبة نرد. دراوبادي (الغاضبة بشكل غريب فقط من الرجل الذي فاز بها، وليس من اولئك الذين راهنوا بها)، كانت قد أقسمت أنها لن تعقص شعرها حتى تغسله بدم دوشاسانا. وكان بهيما قد أقسم على الثأر لشرفها.

ضيق بهيما الخناق على دوشاسانا في ميدان معركة مبعثر مسبقاً بالجثث. تبارزا لساعة مع بعضهما البعض. تبادلا الاهانات. سردا كل الأخطاء التي فعلها كل منهما بحق الآخر. وعندما بدأ الضوء الآتي من المصباح النحاسي يرفرف ويموت، طلبا هدنة. صبّ بهيما الزيت، ونظف دوشاسانا الفتيلة المحروقة. ثم عادا إلى الحرب. انسكبت معركتهما اللاهثة من الكوثامبالام ودارت حول المعبد. طاردا بعضهما البعض عبر البناء، مديرين قناعيهما الكرتونيين. رجلان بتنورتين بالونيتين وقميصين مخمليين أجردين، يثبان فوق أهلّة مبعثرة وتلال من الروث، يدوران حول هيكل ضخم لفيل نائم. دوشاسانا مليئاً بالتبجح تارة. وذليلاً تارة أخرى. وبهيما يلاعبه. وكلاهما محششان.

كانت السماء قصعة زهرية. اهتاج الثقب، الذي بشكل فيل في الكون، في نومه، ثم رقد ثانية. كان الفجر على وشك الانبلاج عندما ثار الحيوان الذي داخل بهيما. ضربت الطبول بصوت أعلى، لكن الجو أصبح هادئاً ومليئاً بالوعيد.

في ضوء الصباح الباكر، شاهد إستابن وراحيل، بهيما يفي بوعده لدراوبادي. أوقع دوشاسانا أرضاً. لاحق بصولجانه كل خلجة خائرة في جسده الذي يموت، طارقاً عليه حتى سكن. حداد يسوي صفيحة من معدن صعب المراس. يسوي بانتظام كل فجوة وكل نتوء. استمر بقتله حتى بعد وقت طويل من موته. ثم، وبيديه العاريتين شقّ الجسد فاتحاً إياه. مزّق أحشاءه خارجاً وانحنى ليلعق الدم مباشرة من قصعة الجثة الممزقة، وعيناه الممسوستان تختلسان النظر من فوق الحافة، ملتمعتين بالغضب والكراهية وبإنجاز مجنون. وفقاعات دم شاحبة تقرقر بين أسنانه. وتتقطر أسفل وجهه المدهون، ورقبته وذقنه. عندما شرب كفايته، وقف وأمعاء دموية تلتف حول رقبته كوشاح وذهب ليجد دراوبادي ويحمّم شعرها في دم طازج. وما زالت لديه هالة الغضب التي حتى القتل لا يستطيع إطفاءها.

كان يوجد هنالك جنون ذلك الصباح. تحت القصعة الزهرية. لم يكن هناك من أداء. ميّزاه إستابن وراحيل. كانا قد أبصرا عمله من قبل. في يوم آخر.

في طور آخر. نوع آخر من السعار (بديدان على نعال أحذيته). الاسراف الوحشي لهذا تناسب مع الاقتصاد الهمجي لذاك.

جلسا هناك، **الصمت** و **الفراغ**، متحجرا بيضتين متجمدتين، بنتوءات قرنية لم تنمُ لتصبح قروناً. مفصولين بعرض كوثامبالام. محصورين في مستنقع قصة كانت ولم تكن قصتهما. انطلقت على شاكلة بناء ونظام، ثم أجفلت كحصان خائف داخل فوضى.

استيقظ كوتشو ثومبان وطقطق بلطف فاتحاً ثمرة جوز الهند الصباحية خاصته.

أزال رجال الكاثاكالي تبرجهم وذهبوا إلى بيوتهم ليضربوا زوجاتهم. حتى كونتي، الناعم ذو الثديين.

خارجاً وفيما حول، تحركت المدينة الصغيرة المتنكرة بقرية وجاءت إلى الحياة. استيقظ رجل عجوز وترنّح حتى الفرن ليدفىء زيت جوز الهند المفلفل خاصته.

الرفيق بيلاي. محطم بيض أيمينيم والمحترف في عجة البيض.

غريباً كفاية، كان هو من عرّف التوأم بالكاثاكالي. ضد أفضل قرار لبيبي كوتشاما، كان هو الذي أخذهما، مع لينين، من أجل مسرحية طوال الليل في المعبد، وجلس معهما حتى الفجر، شارحاً لهما لغة وايماءة الكاثاكالي. في عمر السادسة، كانا قد جلسا معه أمام هذه القصة ذاتها. كان هو من عرفهما براودرا بهيما ـ بهيما الممسوس المتعطش للدماء في بحثه عن الموت والانتقام. «إنه يفتش عن الوحش الذي يعيش داخله»، قال لهما الرفيق بيلاي ـ الطفلين المذعورين متسعي الأعين ـ عندما بدأ **بهيما** حسن الطبع عادة بالنباح والزمجرة.

أي وحش، على وجه الخصوص، لم يقله الرفيق بيلاي. ربما التفتيش عن *الانسان* الذي يعيش داخله، كان ما عناه حقاً، لأنه بالتأكيد لا وجود لوحش اختبر الفن المبتكر غير النهائي وغير المحدود للكراهية الانسانية. لا وجود لوحش يستطيع أن يماثل مداها وقوتها.

بهتت القصعة الزهرية وأرسلت نحو الأسفل برذاذ رمادي دافيء. وبينما كان إستا وراحيل يخطوان عبر بوابة الهيكل، كان الرفيق بيلاي يخطو إلى الداخل، زلقاً من حمامه الزيتي. وعجينة من خشب الصندل على جبينه. وقفت قطرات المطر على جلده الزيتي كالأزرار. كان يحمل في راحتيه الكأسيتين كومة صغيرة من ياسمين نضر.

«أوهو !» قال بصوته الحاد «أنتما هنا! أما تزالان تهتمان بحضارتكما الهندية؟ جيد جيد. جيد جداً».

لم يقلْ التوأم شيئاً، من غير أن يبدوا وقحين، من غير أن يبدوا مهذبين. سارا معاً إلى البيت. **هو** و **هي**. **نحن** و **نا**[1].

---

(١) ـ ضمير الجماعة (التثنية) للدلالة على أنهما واحد. (المترجمة).

١٣

المتشائم والمتفائل

انتقل تشاكو من غرفته وسينام في مكتب باباتشي حتى تستطيع صوفي مول ومارغريت كوتشاما استعمال غرفته. إنها غرفة صغيرة، بنافذة تطل على مزرعة المطاط المتضائلة والمهملة نوعاً ما، التي كان الموقر ي. إيبي قد اشتراها من الجار. أحد البابين كان متصلاً مع المنزل الرئيسي، والآخر (المدخل المنفصل الذي ركّبته ماماتشي من أجل أن يمارس تشاكو **«احتياجاته الرجالية»** بسرية) كان يقود خارجاً إلى داخل الردهة الجانبية.

استلقت صوفي مول نائمة على سرير مخيّم نقّال كان قد صُنع خصيصاً لها بجانب السرير الكبير. ملأ الطنين البطيء لمروحة السقف رأسها. طقطقت عينان زرقاوان رماديتان زرقاوان وفُتحتا.

مستيقظة

على قيد الحياة

متنبهة، حذرة.

صُرف النوم باختصار.

للمرة الأولى منذ موت جو لم يكن هو أول شيء فكرت فيه عندما استيقظت.

أجالت نظرها في الغرفة. دون أن تتحرك، محركة بؤبؤيها فحسب. جاسوسة أسيرة في منطقة العدو، تخطط لفرارها المذهل.

مزهرية لجلاجل[1] مرتبة بخطورة، منحنية مسبقاً، تتوضع على منضدة تشاكو. كانت الجدران مسطرة بالكتب. خزانة ذات ألواح زجاجية كانت محشوة بطيارات البالسا. فراشات محطمة بأعين متضرعة. زوجات خشبيات لملك لعين تخور قواهن تحت تعويذة خشبية شريرة.

واقعات في الفخ.

فقط واحدة، أمها، مارغريت، كانت قد فرت إلى انكلترا.

دارت الغرفة حول المركز الهادىء الكرومي لمروحة السقف الفضية. كانت البسكويت النيئة التي رنت إليها بعينين مهتمتين بلون أبو بريص بيج. فكرت بجو. اهتز شيء ما داخلها. وأغلقت عينيها.

دار المركز الكرومي الهادىء لمروحة السقف الفضية داخل رأسها.

كان جو يستطيع السير على يديه. وعندما يقود الدراجة أسفل التلة، يستطيع وضع الريح داخل قميصه.

على السرير المجاور، كانت مارغريت كوتشاما ما تزال نائمة. مستلقية على ظهرها ويداها متشابكتان تحت قفصها الصدري بالضبط. كانت أصابعها متورمة وبدا خاتم زفافها ضيقاً على نحو غير مريح. سقط لحم خديها بعيداً في كلا الجانبين من وجهها، جاعلاً وجنتيها تبدوان عاليتين وبارزتين، وجاذباً فمها نحو الأسفل في ابتسامة فرح احتوت فقط على ومضة سن. كانت قد نتفت ذات مرة حاجبيها الكثين إلى قوسين بنحول خط قلم رصاص على الموضة في هذه الأيام مما أعطاها تعبير اندهاش خفيف حتى وهي نائمة. وكانت بقية تعابيره تستحيل إلى لحية وليدة. كان وجهها متورداً. وجبينها ملتمعاً. وتحت التورد، يتوّضح شحوب. حزن مُتفادى.

ذبلت المادة الرقيقة لثوب البوليستر القطني الأزرق الغامق المزّهر بالأبيض

---

(١) ـ نوع من الأزهار ذات أجراس. (المترجمة).

وتشبثّ بارتخاء بمحيط جسدها، مرتفعاً عند ثدييها، ومنخفضاً على طول الخط بين ساقيها القويتين الطويلتين ـ وكأنه هو أيضاً غير معتاد على الحرارة بحاجة إلى قيلولة.

على المنضدة الجانبية كانت هناك صورة زفاف بالأبيض والأسود ذات إطار فضي لتشاكو ومارغريت كوتشاما اُلتقطت خارج الكنيسة في أوكسفورد. كانت تُثلج قليلاً. توضعت البشارات الأولى للثلج النضر على الطريق والرصيف. كان تشاكو يرتدي مثل نهرو. تشوريدار أبيض وشيرفاني أسود. كانت كتفاه مغبرّتين بالثلج. وتوجد زهرة في عروته، وطرف محرمته المطوية بشكل مثلث يختلس النظر من جيب صدره. وفي قدميه انتعل حذاءً أسود لماعاً من نوع أكسفورد[١]. بدا وكأنه يضحك على نفسه من الطريقة التي كان يرتدي فيها. كشخص في حفلة تنكرية.

كانت مارغريت كوتشاما ترتدي فستاناً رقيقاً طويلاً وتاجاً رخيصاً فوق شعرها المجعد المقصوص. وكانت طرحتها قد رُفعت عن وجهها. كانت بطوله. ظهرا سعيدين. نحيلين وشابين، مقطّبين من الشمس التي كانت بمواجهة أعينهما. وكان حاجباها الغامقان الكثيفان معقودين معاً خالقين بطريقة ما تناقضاً محبباً مع ثوب العروس الأبيض الرقيق. غيمة مقطّبة ذات حاجبين. وقفت خلفهما امرأة ضخمة وقورة بكاحلين ثخينين مزرّرة جميع أزرار معطفها. والدة مارغريت كوتشاما. وكانت حفيدتاها الصغيرتان تقفان إلى جانبيها، في تنانير من الطرطان[٢] المطوي، وجوارب وحواشٍ متماثلة. تضحكان كليهما وأيديهما على أفواههما. كانت أم مارغريت كوتشاما تنظر بعيداً خارج الصورة، وكأنها تفضل ألاّ تكون هناك.

رفض والد مارغريت كوتشاما أن يحضر الزفاف. كان يكره الهنود، ويعتقد أنهم أناس ماكرون ومخادعون. لم يستطع أن يصدق أن ابنته كانت ستتزوج واحداً منهم.

---

(١) ـ حذاء منخفض، تُربط أربطته فوق مشط القدم. (المترجمة).

(٢) ـ قماش ذو تربيعات. (المترجمة).

في زاوية الصورة، رجل يدير دراجته عند الحاجز الجداري، كان قد توقف ليحدق بالثنائي.

كانت مارغريت كوتشاما تعمل كنادلة في مقهى أكسفورد عندما التقت تشاكو لأول مرة. كانت عائلتها تقطن في لندن. حيث كان والدها يملك مخبزاً. وأمها مساعدة صانع قبعات. كانت قد انتقلت من منزل والديها منذ سنة، لا لسبب أكبر من تأكيدات شابة على الاستقلال. كانت تنوي أن تعمل وتدخر مالاً كافياً لتسجّل نفسها في برنامج لتأهيل المدرّسين، ومن ثم تبحث عن عمل في مدرسة. في أكسفورد كانت تتشارك مع صديقة في شقة. نادلة أخرى في مقهى آخر.

وبانتقالها، وجدت مارغريت كوتشاما نفسها تصبح تماماً الفتاة التي أراد والداها أن تكونها. مُواجَهَةً مع العالم الحقيقي، تشبّثت بقلق بقواعد قديمة مُتَذَكرة، ولم يكن لديها أي أحد لتتمرد عليه باستثناء نفسها. وهكذا حتى في أكسفورد، وباستثناء رفعها لصوت الفونوغراف أعلى مما كان مسموحاً لها في المنزل، استمرت في متابعة الحياة الضيقة الصغيرة ذاتها التي اعتقدت أنها فرّت منها.

إلى أن دخل تشاكو إلى المقهى ذات صباح.

في صيف آخر سنة له في أكسفورد. كان لوحده. قميصه المجعّد كان مزرراً بشكل خاطىء. وأربطة حذائه محلولة. وشعره، مسرحاً ومملساً بعناية في الأمام، وواقفاً كهالة من الريش في الخلف. بدا كقنفذ مطوّب مهمل. كان طويلاً، وتحت فوضى الثياب (ربطة عنق غير مناسبة، ومعطف رث)، استطاعت مارغريت كوتشاما أن تتيقن من قوة بنيته. كان له هيئة مسلية، وطريقة في تضييق عينيه وكأنه يحاول قراءة لافتة بعيدة وقد نسي إحضار نظارته. وأذناه ملصقتان على جانبي رأسه كقبضتي ابريق شاي. كان هناك شيء متناقض في بنيته الرياضية ومظهره الأشعث. العلامة الوحيدة على أن هناك رجلاً سميناً يكمن داخله، كانت وجنتاه السعيدتان المشرقتان.

لم يكن لديه أي من الغموض أو الارتباك الاعتذاري اللذين يربطهما المرء عادة بالرجال شاردي الذهن المهملين. يبدو بشوشاً، وكأنه مع صديق مُتَخَيل يستمتع بصحبته. اتخذ مقعداً بالقرب من النافذة وجلس بمرفق على الطاولة ووجهه مكوّب في راحة يده، مبتسماً فيما حول المقهى الفارغ وكأنه يفكر في إجراء محادثة مع الأثاث. طلب قهوة بالابتسامة الودودة ذاتها، لكن دون أن يبدو أنه قد لاحظ حقاً النادلة الطويلة كثة الحاجبين التي أخذت طلبه.

أجفلت عندما وضع ملعقتين مكومتين من السكر في قهوته الحليبية إلى أقصى حد.

ثم طلب بيضاً مقلياً وخبزاً محمّصاً. قهوة زيادة، ومربى فريز.

عندما عادت بطلبه، قال، وكأنه كان يتابع محادثة قديمة، «هل سمعت عن الرجل الذي لديه ابنان توأم؟»

«لا،» قالت، وهي تضع فطوره. ولسبب ما (حيطة فطرية ربما، وتحفظ غريزي مع الغرباء) لم تظهر الاهتمام الذي بدا أنه يتوقعه منها حول الرجل ذي الابنين التوأم. ولم يبدُ تشاكو أنه يمانع.

«رجل لديه ابنان توأم،» قال لمارغريت كوتشاما. «بيت وستوارت. كان بيت متفائلاً وستورات متشائماً.»

أخرج قطع فريز من المربى ووضعها في جانب طبقه. ومدّ بقية المربى في طبقة سميكة على خبزه المحمص المدهون بالزبدة.

«في عيد ميلادهما الثالث عشر، أعطى والدهما ستوارت ـ المتشائم ـ ساعة ثمينة، ومجموعة نجارة ودراجة».

رفع تشاكو نظره إلى مارغريت كوتشاما ليرى إن كانت تستمع.

«وملأ غرفة بيت ـ المتفائل ـ بروث حصان»

وضع تشاكو البيض المقلي على الخبز المحمص، كسر الصفار المتذبذب اللامع ومدّه فوق مربى الفريز بظهر ملعقة الشاي.

«عندما فتح ستوارت هداياه، تذمّر طوال الصباح، لم يكن يريد مجموعة

نجارة، ولم تعجبه الساعة والدراجة كان لها النوع الخاطىء من الاطارات».

كانت مارغريت كوتشاما قد توقفت عن الاستماع لأنها كانت مشدودة بالنشرالشعائري الاحتفالي الغريب الذي في طبقه. كان الخبز المحمص مع المربى والبيض المقلي قد قُطّع إلى مربعات صغيرة مرتبة. وقطع الفريز جُمعت واحدة واحدة، وشرّحت إلى قطع دقيقة.

«عندما ذهب الأب إلى غرفة بيت ـ المتفائل ـ ، لم يستطع أن يرى بيت، بل استطاع أن يسمع صوت جرف مسعور وتنفساً ثقيلاً. كان روث الحصان يطير في أرجاء الغرفة».

كان تشاكو قد بدأ يهتز بالضحك الصامت في استباق لنهاية نكتته. وبيدين ضاحكتين، وضع شظايا الفريز على كل صفار لامع من المربع الأحمر للخبز المحمص ـ جاعلاً كل شيء يبدو كوجبة خفيفة فظيعة من الممكن أن تقدمها امرأة عجوز في حفلة برديج.

«ماذا تفعل بحق السماء؟» صرخ الأب بيبت.

نُثر الملح والفلفل على مربعات الخبز المحمص. توقف تشاكو قبل ذروة النكتة، ضاحكاً وهو ينظر إلى مارغريت كوتشاما، التي كانت تبتسم لطبقه.

جاء صوت من داخل الروث. «حسناً، أبتِ،» قال بيت. «إذا كان هنالك الكثير من الروث، فلا بد من وجود مهر في مكان ما!»

مال تشاكو، ممسكاً بشوكة وسكينة في كل يد، نحو الخلف، في كرسيه، في المقهى الفارغ، وضحك ضحكته ذات الشهيق المعدية العالية الخاصة برجل سمين حتى سالت الدموع على خديه. مارغريت كوتشاما التي فوتت معظم النكتة، ابتسمت. ثم بدأت تضحك على ضحكته. غذّت ضحكتيهما بعضها البعض وارتفعت إلى درجة هيستيرية. عندما ظهر مالك المقهى، رأى زبوناً (ليس مرغوباً على وجه الخصوص) ونادلة (مرغوباً بها بشكل لا بأس به فقط)، مُحتجزين في زنبرك ضحك ناعب قاهر.

في هذه الأثناء، زبون آخر، نظامي، وصل دون أن يُلاحَظ، وانتظر أن يُخدم.

نظّف المالك بعض الزجاجات المنظفة مسبقاً مصلصلاً إياها بصخب، وطقطق بالفخاريات على الطاولة لينقل استياءه لمارغريت كوتشاما. حاولت هي أن تستجمع نفسها قبل أن تذهب لتأخذ الطلب الجديد. لكن كان ما يزال في عينيها دموع، وكان عليها أن تكبت دفعة جديدة من القهقهات، التي جعلت الرجل الجائع الذي كانت تأخذ طلبه يرفع نظره عن قائمة الطعام، وشفتاه النحيفتان مضغوطتين في استنكار صامت.

سرقت نظرة باتجاه تشاكو، الذي نظر إليها وابتسم. كانت ابتسامة ودودة بجنون.

أنهى فطوره، دفع، وغادر.

وُبخت مارغريت كوتشاما من قبل رب عملها وأُعطيت محاضرة عن أخلاقيات المقهى. اعتذرت له. كانت حقاً متأسفة من الطريقة التي تصرفت بها.

ذاك المساء، بعد العمل، فكرت بما حدث وكانت منزعجة ومحرجة من نفسها. لم تكن طائشة في العادة، وفكرت انه لم يكن من الصائب أن تشارك في مثل تلك الضحكة الطليقة الجنونية مع غريب مطلق. بدا أمراً حميمياً فوق العادة لتفعله. تساءلت عما جعلها تضحك إلى هذا الحد. كانت تعرف أنه لم يكن بسبب النكتة.

فكرت بضحكة تشاكو، وبقيت ابتسامة في عينيها لوقت طويل.

بدأ تشاكو في زيارة المقهى مراراً وتكراراً.

كان يأتي دوماً مع صاحبه غير المرئي وابتسامته الودودة. حتى عندما لم تكن مارغريت كوتشاما هي التي تخدمه، كان يبحث عنها بعينيه، ويتبادلان ابتسامات سرية تستحضر ذكرى مشتركة لضحكهما.

وجدت مارغريت كوتشاما نفسها تترقب زيارات القنفذ الأشعث. دون تحرّق، بل بنوع من عاطفة زاحفة. علمت أنه من الهند وحاصل على منحة روديز. أنه يقرأ الأدب الكلاسيكي. ويجذف لصالح باليول.

إلى اليوم الذي تزوجته لم تصدق مطلقاً أنها ستقبل أن تكون زوجته يوماً.

بعد بضعة أشهر من خروجهما معاً، بدأ في تهريبها إلى داخل غرفته، حيث كان يعيش كأمير منفي عاجز. بالرغم من أفضل الجهود لسيدته المشرفة والمنظفة، كانت غرفته قذرة دوماً. كتب، زجاجات نبيذ فارغة، ألبسة داخلية وسخة وأعقاب سيجارات، مبعثرة على الأرض. كان من الخطر فتح الخزائن لأن الملابس والكتب والأحذية ستتساقط وبعض كتبه كانت ثقيلة كفاية لتلحق أذىً حقيقياً. تخلّت حياة مارغريت كوتشاما الدقيقة والمنظمة عن نفسها لصالح مستشفى المجانين الباروكي حقاً هذا بلهاث جسد دافئ يدخل بحراً قارساً.

اكتشفت أنه تحت مظهر القنفذ الأشعث، كان يختبئ ماركسي معذب في حرب برومانسية مستعصية مستحيلة ـ الذي نسي شموعه، وكسر زجاجات نبيذه، وفقد الخاتم. والذي مارس الحب معها بهيام كان يخطف نَفَسها بعيداً. لطالما فكرت بنفسها أنها مملة نوعاً ما، ثخينة الخصر، ثخينة الكاحلين. ليست بشعة. وليست مميزة. لكن عندما كانت مع تشاكو، كانت القيود القديمة تتراجع، ويتوسع الأفق.

لم تكن قد التقت من قبل أبداً برجل كان يتكلم عن العالم ـ عما كان وكيف أصبح، أو كيف يعتقد أنه سيؤول ـ بالطريقة التي كان رجال آخرون عرفتهم، يتكلمون بها عن أعمالهم، وأصدقائهم أو عطلهم على البحر.

أحست مارغريت كوتشاما بوجودها مع تشاكو وكأن روحها كانت قد فرّت من الحدود الضيقة لجزيرة وطنها إلى الفضاءات المفرطة المتهورة الشاسعة

التي له. جعلها تشعر وكأن العالم لهما ـ وكأنه تمدّد امامهما كضفدعة مفتوحة على طاولة تشريح، تتوسل أن تُفحص.

في السنة التي عرفته فيها، قبل أن يتزوجا، اكتشفت سحراً صغيراً فيها، وشعرت لبرهة وكأنها جنية مرحة حُررت من مصباحها. كانت صغيرة جداً ربما لتدرك أن ما افترضته أنه حبها لتشاكو كان في الواقع قبولاً متهيّباً مبدئياً لنفسها.

أما بالنسبة لتشاكو، فقد كانت مارغريت كوتشاما أول صديقة أنثى له على الاطلاق. ليست فقط أول امرأة نام معها، بل أول صاحب حقيقي له. ما أحبه تشاكو فيها أكثر هو اكتفاؤها الذاتي. ربما لم يكن جديراً بالملاحظة في امرأة انكليزية عادية، لكنه كان لافتاً بالنسبة لتشاكو.

أحب حقيقة أن مارغريت كوتشاما لم تتشبث به. أنها لم تكن واثقة من مشاعرها تجاهه. وأنها لن تعرف أبداً حتى اليوم الأخير إن كانت ستتزوجه ام لا. أحب الطريقة التي كانت تجلس فيها عارية في سريره، وظهرها الأبيض الطويل مداراً بعيداً عنه، تنظر إلى ساعتها وتقول بأسلوبها العملي ـ» آه، عليّ أن انطلق». أحب الطريقة التي كانت تتأرجح بها كل صباح إلى عملها على دراجتها. شجع اختلافاتهما بالرأي، وسرّ روحياً بانفجارات غضبها العرضية من سوقيّته.

كان ممتناً لها لأنها لم تكن تريد أن تعتني به. لأنها لم تعرض عليه ترتيب غرفته. لأنها لم تكن أمه المتخمة. آل إلى أن يعتمد على مارغريت كوتشاما لأنها لم تعتمد عليه. عبدها لأنها لم تعبده.

عرفت مارغريت كوتشاما القليل جداً عن عائلته. نادراً ما كان يتكلم عنها.

الحقيقة أن تشاكو قلما فكر بهم، خلال سنواته في أكسفورد. كان الكثير

جداً يحدث في حياته وكانت أيمنييم تبدو بعيدة جداً. والنهر صغيراً جداً. والأسماك قليلة جداً.

لم تكن لديه أسباب اضطرارية ليبقى على اتصال مع والديه. فقد كانت منحة روديز في غاية السخاء. ولم يكن يحتاج إلى نقود. كان واقعاً في الحب بعمق في حبه لمارغريت كوتشاما ولم يكن لديه مكان في قلبه لأي أحد آخر.

كانت ماماتشي تكتب له بانتظام، مع وصف مفصل لمشاحناتها المنحطة مع زوجها وقلقها بشأن مستقبل آمو. بالكاد قرأ رسالة كاملة. وأحياناً لم يكن يتجشم عناء فتحها على الاطلاق. ولم يردّ مطلقاً.

حتى في المرة الوحيدة التي عاد فيها (عندما أوقف باباتشي عن ضرب ماماتشي بالمزهرية النحاسية، وأُغتيل كرسي هزاز في ضوء القمر)، كان بالكاد واعياً لأي درجة أصبح والده ملسوعاً، أو لعبادة أمه المضاعفة له، أو جمال أخته الصبية المفاجيء. جاء وعاد، في غيبوبة، تواقاً من اللحظة التي وصل فيها ليعود إلى البنت البيضاء ذات الظهر الطويل التي كانت بانتظاره.

تزوج تشاكو ومارغريت كوتشاما في الشتاء بعد أن نزل من باليول (كان قد قدم امتحاناته بشكل سيء). من دون رضى عائلتها. ومن دون معرفة عائلته.

قررا أنه يجب أن ينتقل إلى شقة مارغريت كوتشاما (طارداً النادلة الأخرى التي تعمل في مقهى آخر) إلى أن يجد عملاً لنفسه.

كان توقيت الزفاف أسوأ ما يمكن.

جاء الفقر بالاضافة إلى صعوبات العيش المشترك. لم يعد هناك من نقود منحة، وكان يجب دفع كامل ايجار الشقة.

... انتهاء تجذيفه، جاء اتساع منتصف عمر مفاجيء وسابقاً لأوانه. ... كو رجلاً سميناً بجسم يناسب ضحكته.

في سنة زواج، اهترأ سحر كسل تشاكو الدراسي بالنسبة لمارغريت كوتشاما. لم يعد يسليها أنها عندما تذهب إلى العمل فان الشقة تبقى في الفوضى القذرة ذاتها التي غادرتها فيها. أنه كان من المستحيل بالنسبة له أن يفكر حتى بترتيب السرير، أوغسل الملابس أو الأطباق. أنه لم يعتذر بشأن حروق السيجارة في الكنبة الجديدة. أنه بدا غير قادر على تزرير قميصه، وعقد ربطة عنقه وربط أربطة حذائه قبل ان يقدّم نفسه في مقابلة عمل. خلال سنة كانت مستعدة لاستبدال الضفدعة على طاولة التشريح بتنازلات عملية صغيرة. مثل عمل لزوجها ومنزل نظيف.

أخيراً حصل تشاكو على وظيفة وجيزة سيئة الأجر في قسم مبيعات ما وراء البحار لمجلس الشاي الهندي. انتقل تشاكو ومارغريت كوتشاما إلى لندن، آملين أن يقود هذا إلى أمور أخرى. رفض والدا مارغريت كوتشاما أن يقابلاها.

كانت قد اكتشفت للتو أنها كانت حاملاً عندما التقت جو. صديق مدرسة قديم لأخيها. عندما التقيا، كانت مارغريت كوتشاما في أقصى جاذبيتها جسدياً. وضع الحمل لوناً في خديها وجلب بريقاً لشعرها السميك الغامق. بالرغم من متاعبها الزوجية، كان لديها هيئة النشوة السرية تلك، تلك العاطفة تجاه جسدها الخاص التي تشعر بها المرأة الحامل غالباً.

كان جو عالم أحياء، يجدد الطبعة الثالثة لقاموس علم الأحياء لصالح دار نشر صغيرة. كان جو كل شيء لم يكنه تشاكو.

مستقراً. موسراً. ونحيلاً.

وجدت مارغريت كوتشاما نفسها تنجذب تجاهه كما تنجذب نبتة في غرفة مظلمة تجاه وتد نور.

عندما أنهى تشاكو وظيفته ولم يستطع ايجاد عمل آخر، كتب لماماتشي يخبرها عن زواجه ويطلب مالاً. دُمرت ماماتشي، لكنها رهنت مجوهراتها سراً وتدبرت الأمر لتبعث النقود إليه في انكلترا. لم تكن كافية. لم تكن يوماً كافية.

بحلول الوقت الذي ولدت فيه صوفي مول، أدركت مارغريت كوتشاما أنه من أجل مصلحتها ومصلحة ابنتها، عليها أن تترك تشاكو. وطلبت منه الطلاق.

عاد تشاكو إلى الهند، حيث وجد عملاً بسهولة. درّس لبضع سنوات في كلية مادراس المسيحية، وبعد وفاة باباتشي، عاد إلى أيمينيم مع آلة لإغلاق الزجاجات من نوع بهارات، ومجذاف باليول وقلبه المحطم.

رحبت ماماتشي بحرارة بعودته إلى حياتها. أطعمته، خاطت له، واهتمت أن يكون في غرفته أزهار نضرة كل يوم. كان تشاكو محتاجاً لعبادة أمه له. في الحقيقة، لقد *طالب* بها، بالرغم من أنه احتقرها لأجلها وعاقبها عليها بطرق سرية. بدأ يربي بدانته وخرابه البدني العام. كان يلبس قميصاً مطبوعاً رخيصاً من التريلين فوق موندوه الأبيض وأبشع صندل بلاستيكي كان متوفراً في السوق. إذا كان لدى ماماتشي ضيوف، أو أقارب، أو ربما صديقة قديمة تزروها من دلهي، كان تشاكو يظهر عند طاولة طعامها اللذيذة الممدودة ـ المزينة بتشكيلات رائعة من الاوركيد وبأفضل خزفياتها الصينية ـ ويهرش قشرة جرح قديم، أو يحك الجسأة[1] الكبيرة المستطيلة السوداء التي كان قد نمّاها في كوعه.

كانت أهدافه الخاصة ضيوف بيبي كوتشاما ـ أساقفة كاثوليك ورجال دين زائرين ـ الذين كانوا يمرون غالباً لأخذ وجبة خفيفة.

كان في حضورهم يخلع صندله ويهوّي بثرة مرضى السكري الملتهبة المملوءة بالقيح التي في قدمه.

«أيها الرب ارحم هذا الأبرص المسكين،» كان يقول، بينما تحاول بيبي كوتشاما باستماتة أن تلهيهم عن المشهد بالتقاط فتات البسكويت ومضغ شرائح الموز المبعثرة في لحاهم.

---

(١) ـ الجزء المتصلب من الجلد. (المترجمة).

لكن من بين كل العقوبات السرية التي عذّب تشاكو بها ماماتشي، كان الأسوأ والأكثر خزياً، عندما يستغرق في ذكرياته مع مارغريت كوشتاما. كان يتكلم عنها غالباً بفخر غريب خاص. وكأنه كان معجباً بها لأنها طلّقته.

«استبدلتني برجل أفضل،» كان يقول لماماتشي، وكانت تجفل وكأنه كان قد شوه سمعتها هي بدلاً منه.

كتبت مارغريت كوتشاما بانتظام، معطية أخباراً لتشاكو عن صوفي مول. طمأنته أن جو كان أباً محباً رائعاً وأن صوفي مول تحبه بشدة ـ معلومات أسعدت تشاكو وأحزنته بنفس المقدار.

كانت مارغريت كوتشاما سعيدة مع جو. أكثر سعادة ربما مما كانت لتكون، لو أنها لم تعش تلك السنوات الضارية المتزعزعة مع تشاكو. كانت تفكر في تشاكو بحنان، لكن دون ندم. ببساطة لم يظهر لها أنها قد آذته بعمق كما فعلت، لأنها كانت ما تزال تفكر في نفسها، على أنها امرأة عادية، وفيه، على أنه رجل استثنائي. ولأن تشاكو لم يبدِ عندئذ أو منذ ذلك الحين، أياً من أمارات الحزن والحسرة المعتادة، فقد افترضت مارغريت كوتشاما أنها كانت غلطة بالنسبة إليه تماماً كما كان بالنسبة إليها. عندما أخبرته عن جو رحل بحزن، لكن بهدوء. مع صاحبه غير المرئي وابتسامته الودودة.

كتبا إلى بعضهما البعض كثيراً، وعلى مرّ السنوات نضجت علاقتهما. أصبحت بالنسبة لمارغريت كوتشاما صداقة ملتزمة مريحة. بالنسبة لتشاكو، كانت طريقة، الطريقة الوحيدة، للبقاء على اتصال مع أم طفلته والمرأة الوحيدة التي أحبها.

عندما أصبحت صوفي مول كبيرة كفاية لتذهب إلى المدرسة، سجلّت مارغريت كوتشاما نفسها في دورة تدريبية للمدرسين، ثم حصلت علي عمل كمعلمة مدرسة مُبتدئة في كالفام. كانت في غرفة المدرسين عندما أخبرت بحادث جو. سُلّم الخبر بواسطة شرطي شاب يرسم تعبيراً خطيراً (على وجهه)

ويحمل خوذته بيديه. كان يبدو هزلياً على نحو غريب، مثل ممثل سيء يجرّب دوراً جاداً مهيباً في مسرحية. تذكرت كوتشاما أن أول رد فعل غريزي لها عندما شاهدته كان ابتسامة.

من أجل صوفي مول، إن لم يكن من أجلها هي، بذلت مارغريت كوتشاما كل ما في وسعها لتواجه المأساة برباطة جأش. لتتظاهر أنها تواجه المأساة برباطة جأش. لم تأخذ عطلة من العمل. واهتمت بألاّ يتغير روتين المدرسة مع صوفي مول - *أنهي وظائفك. كلي بيضتك. كلا، لا نستطيع الامتناع عن الذهاب إلى المدرسة.*

أخفت ألمها ولوعتها وراء قناع معلمة مدرسة عملية نشيطة. الثقب الصارم الذي بشكل معلمة مدرسة، الذي في الكون (والذي يصفع أحياناً).

لكن عندما كتب تشاكو لها يدعوها إلى أيمينيم، تنهّد شيء ما داخلها وجلس. بالرغم من كل ما قد حدث بينها وبين تشاكو، لم يكن يوجد شخص آخر في العالم تفضل أن تمضي عيد الميلاد معه أكثر منه. وكلما فكرت بالأمر أكثر، كلما استهوتها الفكرة أكثر. أقنعت نفسها أن رحلة إلى الهند ستكون أفضل شيء لصوفي مول.

وهكذا أخيراً، بالرغم من أنها كانت تعلم أن أصدقاءها وزملاءها في المدرسة سيعتقدون أنه أمر غريب - عودتها الراكضة إلى زوجها الأول فور وفاة الثاني تماماً - أوقفت مارغريت كوتشاما مدة ايداعها واشترت بطاقتي طيران. لندن - بومباي - كوتشين.

لقد لازمها قرارها هذا طوال حياتها.

أخذت معها إلى القبر صورة جسد ابنتها الصغيرة الموضوع على الشيزلونغ في غرفة المكتب في منزل ايمينيم. حتى من عن بعد، كان واضحاً أنها كانت ميتة. وليست مريضة أو نائمة. كان الأمر يتعلق بالطريقة التي كانت ممددة فيها. الزاوية التي صنعتها أطرافها. شيء ما يتعلق بسطوة الموت. سكونه الرهيب.

أعشاب خضراء وقذارة نهر كانت مجدولة داخل شعرها البني المحمر الجميل. كان جفناها الغائران مقضومين نيئين من قبل الأسماك. (أوه نعم إنها تفعل ذلك، الأسماك التي تسبح في الأعماق. إنها تتذوق كل شيء.) قالت مريلتها القطنية البنفسجية *عطلة!* بخط مائل سعيد. كانت مغضنة كإبهام منظف ملابس من جراء البقاء في الماء لمدة طويلة.

حورية بحر اسفنجية قد نسيت السباحة.

كشتبان فضي، من أجل الحظ، في قبضتها الصغيرة.

شاربة الكشتبان.

ذات التابوت المُدوَلب.

لم تسامح مارغريت كوتشاما نفسها أبداً لأخذها صوفي مول إلى أيمينيم. لتركها لها هناك في عطلة نهاية الأسبوع بينما ذهبت هي وتشاكو إلى كوتشين لتثبيت حجز بطاقات العودة.

كانت حوالي التاسعة صباحاً عندما تلّقت ماماتشي وبيبي كوتشاما أخباراً عن جسد طفلة بيضاء وجد طافياً باتجاه التيار عندما يتسّع الميناتشال وهو يقترب من المياه الراكدة. وكان إستا وراحيل ما يزالان مفقودين.

في وقت أبكر من ذلك الصباح لم يظهر الأطفال ـ ثلاثتهم ـ من أجل كوب حليبهم الصباحي. فكرت بيبي كوتشاما وماماتشي أنه من الممكن أن يكونوا قد نزلوا إلى النهر ليسبحوا، والذي كان أمراً مقلقاً لأنها كانت قد أمطرت بغزارة في اليوم السابق وخلال شطر لا بأس به من الليل. كانتا على علم بأن النهر قد يكون خطيراً. أرسلت بيبي كوتشاما كوتشو ماريا لتبحث عنهم لكنها عادت بدونهم. في البلبلة التي أعقبت زيارة فيليا بابن، لم يكن باستطاعة أحد أن يتذكر متى كانت آخر مرة رأى فيها الأطفال. فلم يكونوا الاهتمام الأول في عقل أي أحد. ولربما كانوا مفقودين طوال الليل.

كانت آمو ما تزال مُحتجزة في غرفة نومها. والمفاتيح مع بيبي كوتشاما. نادت عبر الباب لتسأل آمو إن كان لديها أية فكرة عن مكان وجود الأطفال. حاولت أن تبعد الذعر عن صوتها، وتجعل الأمر يبدو استفساراً عرضياً عادياً. تحطّم شيء على الباب. كانت آمو مشوشة بالحنق وعدم التصديق لما كان يحدث لها ـ بحبسها مثلما كانوا يحبسون أفراد العائلة الممسوسين في عائلات القرون الوسطى. لم يحدث إلاّ فيما بعد، عندما انهار العالم من حولهم، بعد إحضار جثة صوفي مول إلى أيمينيم، وفك حبسها من قبل بيبي كوتشاما، أن

محصّت آمو خلال حنقها لتحاول أن تفهم ما قد حدث. أجبرها الخوف والحبس على أن تفكر بوضوح، ولم تتذكر إلاّ آنذاك ماذا كانت قد قالت لتوأمها عندما جاءا إليها عند باب غرفة النوم وسألاها عن سبب حبسها. الكلمات المتهورة التي لم تكن تعنيها.

«بسببكما!» صاحت آمو. «لولاكما لما كنت هنا! لكنت حرة ! كان يجدر بي أن أرميكما في ميتم في اليوم الذي ولدتما فيه ! أنتما حجرا طاحون حول عنقي !».

لم تستطع أن تراهما جاثمين عند الباب. نفخة شعر مدهوشة ونافورة في الحب ـ في ـ طوكيو. توأم سفيرين لما لا يعرفه إلاّ الله. سعادة السفيرين إ. بفيس وح. حشرة.

«فقط إذهبا !» قال آمو. «لمَ لا تذهبان فقط وتدعاني وحدي ؟»

وهكذا فعلا.

لكن عندما كان الجواب الوحيد الذي حصلت عليه بيبي كوتشاما على سؤالها عن الأطفال، شيئاً تحطم على باب غرفة نوم آمو، غادرت. تصاعد جزع بطيء داخلها حينما بدأت تقوم بالربط الواضح المنطقي والخاطئ كلياً بين ما كان يحدث في الليل وبين الأطفال المفقودين.

كان المطر قد بدأ مبكراً في العصر الفائت. فجأة اسوّد النهار الحار وبدأت السماء تقصف وتتذمر. كانت كوتشو ماريا، التي في مزاج سيء دونما سبب معين، واقفة في المطبخ على كرسي منخفض تنظف، بوحشية، سمكة ضخمة، مثيرة عاصفة ثلجية نتنة من حراشف السمكة. كان قرطاها الذهبيان يتأرجحان بعنف. طارت حراشف السمكة الفضية في أرجاء المطبخ، وحطّت على الأباريق، والجدران، و قشّارة الخضروات، وقبضة البراد. تجاهلت فيليا بابن عندما وصل عند باب المطبخ، مبللاً مرتجفاً. كانت عينه الحقيقية محتقنة بالدم وبدا كما لو أنه ثمل. وقف هناك لعشر دقائق ينتظر أن يُلاحَظ. وعندما انتهت

كوتشو ماريا من السمكة وبدأت بالبصل، تنحنح وسأل عن ماماتشي. حاولت كوتشو ماريا أن تطرده، لكنه لم يكن ليذهب. في كل مرة كان يفتح فيها فمه ليتكلم كانت رائحة العرق في نَفَسه تضرب كوتشو ماريا كمطرقة. لم تكن قد رأته هكذا أبداً من قبل، فذعرت قليلاً. كان لديها فكرة جيدة عن سبب كل ذلك، وهكذا فقد قررت أخيراً أنه سيكون من الأفضل أن تنادي ماماتشي. أغلقت باب المطبخ تاركة فيليا بابن خارجاً في الردهة الخلفية، يتمايل بالسكر في المطر الجارف. بالرغم من أنه كان كانون الأول، لكنها كانت تمطر كما في حزيران. *ثائرة إعصار*، وصفته الجرائد في اليوم التالي. لكن في ذلك الوقت لم يكن أحد في ظرف مواتٍ لقراءة الجرائد.

لربما كان المطر هو الذي قاد فيليا بابن إلى باب المطبخ. فبالنسبة لرجل يؤمن بالخرافات قد تكون قسوة ذاك الهطول الذي في غير اوانه، نذيراً من إله غاضب. بالنسبة لرجل ثمل يؤمن بالخرافات، من الممكن أن يبدو الأمر كما لو أنها كانت بداية نهاية العالم. وقد كانت، نوعاً ما.

وصلت ماماتشي إلى المطبخ في تنورتها وروبها الزهري الباهت ذي الحواشي المتعرجة. تسلّق فيليا بابن درج المطبخ وقدّم لها عينه المرهونة. أمسك بها في راحة يده. قال أنه لا يستحقها وأنه يريدها أن تسترجعها. سقط جفنه الأيسر فوق التجويف الفارغ في غمزة فظيعة دائمة. وكأن كل ما كان على وشك قوله كان جزءاً من مزحة مسهبة.

«ماذا هناك؟» سألت ماماتشي، مادّة يدها، معتقدة ربما أنه ولسبب ما فإن فيليا باين كان يعيد كيلو الأرز التي كانت قد أعطته إياه ذلك الصباح.

«إنها عينه،» قالت كوتشو ماريا بصوت عال لماماتشي، وعيناها تبرقان بدموع البصل. حينذاك كانت ماماتشي قد لمست بالفعل عينه الزجاجية. نفرت من صلابتها الزلقة. من مرمريتها اللزجة.

«هل أنت ثمل؟» قالت ماماتشي بغضب لصوت المطر. «كيف تجرؤ على المجيء هنا في هذه الحالة؟»

تخبّطت في طريقها إلى المغسلة، وغسلت بالصابون سوائل

عين Paravan المبلل. وشمّت يدها عندما انتهت. أعطت كوتشو ماريا فيليا بابن خرقة مطبخ قديم ليمسح نفسه به، ولم تقل شيئاً عندما وقف على أعلى درجة، تقريباً داخل مطبخها الخاص بغير المنبوذين، يجفف نفسه، محتمياً من المطر بالانحدار المتدلي للسطح.

عندما هدأ، أعاد فيليا بابن عينه إلى تجويفها الشرعي وبدأ بالكلام. استهل بسرده لماماتشي كم فعلت عائلتها لعائلته. جيلاً لجيل. وكيف، قبل زمن طويل من أن تفكر الشيوعية بذلك، أعطى الموقر إ. جون إبي لأبيه، كيلان، الحق بملكية الأرض التي يقع فيها كوخهم الآن. وكيف دفعت ماماتشي من أجل عينه. وكيف رتبّت الأمر من أجل أن يتعلّم فيلوثا وأعطته عملاً..

لم تكن ماماتشي، بالرغم من انزعاجها من سكره، كارهة للاستماع عن قصص كرمها وتسامحها المسيحيين هي وعائلتها. لم يعدّها أي شيء لما كانت على وشك سماعه.

بدأ فيليا بابن بالبكاء. نصفه بكى. نبعت الدموع من عينه الحقيقية والتمعت على خده الأسود. وبعينه الأخرى حدّق إلىالأمام بتحجّر. paravan عجوز، رأى الأيام تسير بالمقلوب، وكان ممزقاً بين الوفاء و الحب.

ثم استولى الرعب عليه وخضّ الكلمات مخرجاً إياها. أخبر ماماتشي بما كان قد رأى. قصة القارب الصغير الذي كان يعبر النهر ليلة بعد ليلة، عمّن كان فيه. قصة رجل وامرأة، واقفين معاً في ضوء القمر. جلداً لجلد.

ذهبا إلى منزل كاري سايبو، قال فيليا بابن. دخلهما عفريت الرجل الأبيض. لقد كان انتقام كاري سايبو، لما كان هو، فيليا بابن، قد فعله له. القارب (الذي جلس عليه إستا ووجدته راحيل) كان مربوطاً إلى جذع الشجرة بالقرب من الدرب المنحدر الذي يقود عبر المستنقع إلى مزرعة المطاط المهجورة. لقد رآه هناك. كل ليلة. متأرجحاً على الماء. فارغاً. منتظراً عودة العاشقين. في بعض الأحيان لم يكونا يظهران من خلال الحشائش الطويلة قبل الفجر. رآهما فيليا بابن بأم عينه. كانت القرية بأكملها تعلم. لم تكن سوى مسألة وقت قبل تكتشف ماماتشي. ولهذا أتى فيليا بابن ليخبرها بنفسه. فكـ Paravan وكرجل

ذي أجزاء مرهونة من جسمه، اعتبر ذلك واجبه.

كان العاشقان متحدرين من صلبه وصلبها. ابنه وابنتها. كانا قد جعلا المحال ممكناً والمستحيل يحدث فعلاً.

استمر فيليا بابن في التحدث. في البكاء. في التقيؤ. في تحريك فمه. لم تستطع ماماتشي أن تسمع ما كان يقوله. علا صوت المطر في أذنيها وانفجر في رأسها. ولم تسمع نفسها تصرخ.

فجأة خطت المرأة العمياء العجوز في روبها وشعرها الأشيب القليل المركب بشكل ذيل فأر نحو الأمام ودفعت فيليا بابن بكل ما أوتيت من قوة. تعثّر نحو الخلف أسفل درج المطبخ ووقع ممدداً في الطين الرطب. أُخذ على حين غرّة كلياً. فجزء من التحريم المطبق على المنبوذ، كان توقّع ألّا يُلمس. على الأقل ليس في هذه الظروف. أن يكون محجوزاً داخل شرنقة منيعة بدنياً.

سمعت بيبي كوتشاما، المارة بالمطبخ، الهياج. ووجدت ماماتشي تبصق في المطر، تفو! تفو! تفو! وفيليا بابن ممدداً في الوحل، مبللاً، باكياً، دابّاً. يعرض أن يقتل ابنه. أن يمزقه إرباً إرباً.

كانت ماماتشي تصرخ، «كلب ثمل! Paravan كاذب مخمورا!»

صرخت كوتشو ماريا من خلال الضجيج، مخبرة بيبي كوتشاما بقصة فيليا بابن. أدركت بيبي كوتشاما على الفور امكانية الوضع الجسيمة، لكنها مسحت حالاً أفكارها بزيوتها المداهنة. وأزهرت. رأت في ذلك طريقة الله في معاقبة آمو على خطاياها وفي الوقت ذاته انتقاماً لها (لبيبي كوتشاما) من الاهانة التي لحقت بها على يد فيلوثا والرجال في المسيرة - مهزأة Modalali Mariakutty ، والتلويح الاجباري بالعلم. أبحرت فوراً. سفينة خير عبر بحر من الخطايا.

وضعت بيبي كوتشاما ذراعها الثقيلة حول ماماتشي.

«لا بد وأنه صحيح» قالت في صوت هادئ. «انها قادرة تماماً على فعله. وكذلك هو. لن يكذب فيليا بابن في مثل هذا الأمر.»

طلبت من كوتشو ماريا أن تحضر لماماتشي كوب ماء وكرسياً لتجلس عليه. جعلت فيليا بابن يعيد القصة، مستوقفة إياه بين الحين والآخر من أجل تفاصيل - قارب من ؟ كم مرة ؟ منذ متى يحدث هذا ؟

عندما انتهى فيليا بابن، استدارت بيبي كوتشاما إلى ماماتشي. «عليه أن يذهب»، قالت. «الليلة. قبل أن يستفحل الأمر أكثر. قبل أن ندّمر كلياً.»

ثم اقشعرت قشعريرة طالبة مدرسة. كان ذلك عندما قالت: - «*كيف استطاعت أن تحتمل الرائحة ؟ ألم تلاحظي، إن لهم رائحة معينة هؤلاء الـParavan ؟*»

بتلك الملاحظة الشميّة، ذلك التفصيل المحدد الصغير، جمد الرعب.

غضب ماماتشي تجاه الـParavan ذي العين الواحدة الواقف في المطر، ثملاً، يقطر ومغطىً بالوحل، أُعيد توجيهه في احتقار بارد تجاه ابنتها وما فعلته. فكّرت فيها عارية، تقترن في الوحل مع رجل لم يكن سوى *عامل* قذر. تخيّلت الأمر في تفصيل نابض بالحياة، شديد الوضوح: ظهر يد Paravan خشنة على صدر ابنتها. فمه على فمها. وركه الأسود يرّج بين ساقيها المتباعدتين. صوت تنفسهما. رائحته المميزة الخاصة بالـParavan. *كالحيوانات*، فكرت ماماتشي وكانت على وشك التقيؤ. *مثل كلب وكلبة مهتاجين.*

تحمّلها لِـ«احتياجات الرجال» بقدر ما كان ابنها معنياً، أصبح الوقود لغضبها الشديد صعب المراس تجاه ابنتها. لقد دنّست أجيالاً من الولادات (الصغير المُبارَك، المبارك من قبل بطريرك انطاكيا شخصياً، عالم حشرات امبراطوري، حاصل على منحة روديز من أكسفورد) وأركعت العائلة. سيشير الناس الآن إليهم لأجيال قادمة، *للأبد*، في حفلات الزفاف والمآتم. وفي حفلات التعميد وحفلات أعياد الميلاد. سيكزون ويتهامسون. لقد انتهى كل شئ الآن.

فقدت ماماتشي السيطرة.

قامت السيدتان الهرمتان بما كان عليهما القيام به، زوّدت ماماتشي

بالانفعال وبيبي كوتشاما بالخطة. وكانت كوتشو ماريا نقيبتهما القزمة. حبستا آمو (خدعاها في غرفة نومها) قبل أن يُرسلا في طلب فيلوثا. أدركتا أن عليهما أن تجبراه على مغادرة أيمينيم قبل عودة تشاكو. فلم يكن بمقدورهما لا الثقة ولا التنبؤ بما سيكون عليه موقف تشاكو.

ومع ذلك، لم تكن غلطتهما بالكامل، أن كل شيء دار خارجاً عن السيطرة مثل قمة مضطربة معكرة. وأنه ساط كل أولئك الذين عبروا دربه. بحيث أنه بحلول الوقت الذي عاد فيه تشاكو ومارغريت كوتشاما من كوتشين، كان الأوان قد فات.

كان الصياد قد وجد مسبقاً صوفي مول.

تخيّله.

في قاربه عند الفجر، عند فم النهر الذي كان يعرفه طوال حياته. إنه ما يزال سريعاً ومتضخماً من مطر الليلة الفائتة. مرّ به شيء يتمايل في الماء واجتذبت الألوان عينيه. بنفسجي. بني محمّر. رمل بحر. كان يتحرك مع التيار، بسرعة كبيرة نحو البحر. بعث بساريته الخيزرانية ليوقفه وجذبه باتجاهه. كانت حورية متغضنة. طفلة بحر. مجرد طفلة. بشعر بني محّمر. بأنف عالم حشرات امبراطوري، بكشتبان فضي مطبق عليه في قبضتها من اجل الحظ. سحبها من الماء إلى داخل قاربه. وضع منشفته القطنية تحتها، تمددت على قاع قاربه مع سمكة فضية. جذّف نحو البيت *-Thaiy thaiy thaka thay thome!* مفكراً في مدى خطأ أن يعتقد الصياد أنه يعرف نهره جيداً. لا أحد يعرف الميناتشال. *لا أحد* يعرف ما قد يختطفه أو يتنازل عنه فجأة. أو متى. إن هذا ما يجعل الصياد يصلي.

في مركز شرطة كوتايام، أُرشدت بيبي كوتشاما مرتجفة إلى غرفة ضابط مركز الشرطة. أخبرت المفتش توماس ماثيو عن الظروف التي أدّت إلى طرد

مفاجىء لعامل مصنع. Paravan. فمنذ بضعة أيام حاول أن، أن... أن يغتصب ابنة أخيها، مطلقة ولها ولدان.

حرّفت بيبي كوتشانا العلاقة بين آمو وفيلوثا، ليس من أجل مصلحة آمو، وإنما محاولة منها لاحتواء الفضيحة وانقاذ سمعة العائلة في عيني المفتش توماس ماثيو. لم يخطر ببالها أن آمو ستجلب فيما بعد العار على نفسها ـ أنها ستذهب إلى الشرطة وتنظّم المحضر بشكل صحيح. وفيما كانت بيبي كوتشاما تخبر قصتها، بدأت في تصديقها.

لماذا لم يبلّغ عن القضية منذ البدء، أراد المفتش أن يعرف.

«نحن عائلة قديمة،» قالت بيبي كوتشاما. «وهذه ليست أمور نرغب في الحديث عنها...»

المفتش توماس ماثيو المنكفئ وراء شارب طيار هندي نشيط، فهم تماماً. فقد كان لديه زوجة غير منبوذة، وابنتان غيرمنبوذتين ـ أجيال غير منبوذة بأكملها تنتظر في رحميهما...

«أين المُتحرَّش بها؟»

«في البيت، إنها لا تعرف أنني هنا. ما كانت لتدعني آتي. طبيعياً ـ فهي مسعورة بالقلق على طفليها. هستيرية.»

فيما بعد، عندما وصلت القصة الحقيقية لمسامع المفتش توماس ماثيو، اهتم بعمق بحقيقة أن الـParavan كان قد أخذ من مملكة غير المنبوذين، لم يكن قد اختطف بل أُعطي. وهكذا، بعد جنازة صوفي مول، عندما ذهبت آمو مع التوأم إليه لتخبره أن هناك غلطة قد أُرتكبت ونقر هو على صدرها بهراوته، لم يكن ذلك بهيمية شرطي عفوية من طرفه. كان يعرف بالضبط ماذا كان يفعل، كانت حركة مبيّتة، محسوبة ليهينها ويرعبها. محاولة لغرس النظام في عالم كان يجري بشكل خاطئ.

ومع ذلك لاحقاً، عندما استقر الغبار وكان هناك عمل مكتبي عليه أن

ينجزه، هنّأ المفتش توماس ماثيو نفسه على الطريقة التي جرت فيها الأمور.

لكنه الآن، كان يستمع بعناية ولطف، بينما كانت بيبي كوتشاما تنشئ قصتها.

«الليلة الفائتة كان الظلام على وشك الهبوط ـ حوالي السابعة مساءً ـ عندما جاء إلى المنزل وهدّدنا. كانت تمطر بغزارة. والأضواء قد انطفأت وكنا نشعل المصابيح عندما أتى،» قالت له. «كان يعلم أن رجل البيت ـ ابن اخي ـ ، تشاكو إبي، كان ـ ومازال ـ مسافراً في كوتشين. كنا ثلاث نساء لوحدنا في المنزل.» توقفت لتترك المفتش يتخيل الذعر الذي من المحتمل أنه دخل بواسطة Paravan مهووس بالجنس على ثلاث نساء وحيدات في المنزل.

«قلنا له أنه إن لم يغادر أيمينيم بهدوء فسوف نخبر الشرطة. بدأ بالقول أن ابنة أخي *استجابت* له، هل تتخيل ؟ وسألنا أي دليل لدينا على ما نتهمه به. قال أنه تبعاً لقانون العمل فليس لدينا أي أساس نستند إليه في طرده. كان هادئاً جداً. «لقد ذهبت تلك الأيام،» قال. «عندما كان بمقدوركم ركلنا هنا وهناك كالكلاب...». «عندئذ بدت بيبي كوتشاما مقنعة تماماً. مجروحة. ومرتابة.

ثم استولى الخيال على بيبي كوتشاما كلياً. لم تصف له كيف فقدت ماماتشي السيطرة على نفسها. وكيف ذهبت تجاه فيليا بابن وبصقت مباشرة في وجهه. والأشياء التي قالتها له. والنعوت التي نعتته بها.

وبدلاً من ذلك، وصفت للمفتش توماس ماثيو كيف أنه لم يكن *ما* قاله فيلوثا فقط هو الذي جعلها تأتي إلى مركز الشرطة، بل *الطريقة* التي قاله بها. افتقاده الكامل للندم وتبكيت الضمير، والذي كان أكثر ما صدمها. وكأنه كان فخوراً حقاً بما كان قد فعله. ودون أن تدرك ذلك بنفسها، طعّمت طريقة الرجل الذي أهانها خلال المسيرة على فيلوثا. وصفت الغضب على وجهه. الغطرسة الوقحة في صوته التي أرعبتها كثيراً. جعلها ذلك تتأكد أن طرده واختفاء الأطفال، من غير الممكن، ان يكونا، منفصلين.

كانت تعرف الـParavan مذ كان طفلاً، قالت بيبي كوتشاما. كان قد

دُرّس بواسطة عائلتها، في مدرسة غير المنبوذين التي أنشأها والدها، بونيان كونجو (لابد وأن المفتش توماس ماثيو يعرف من كان؟ نعم، بالطبع)... وكان قد دُرّب ليصبح نجاراً بواسطة عائلتها، والبيت الذي كان يقطن فيه أُعطي لجده من قبل عائلتها. كان يدين بكل شيء لعائلتها.

«أنتم أيها الناس،» قال المفتش توماس ماثيو، «تفسدون اولاً هؤلاء الناس، تحملونهم هنا وهناك على رؤوسكم كالميداليات، وعندما يسيئون التصرف تهرولون إلينا طالبين المساعدة.»

خفضت بيبي كوتشاما عينيها مثل طفل معاقب. ثم تابعت قصتها. أخبرت المفتش توماس ماثيو كيف أنها كانت قد لاحظت في الأسابيع الماضية أمارات منذرة، بعض العجرفة، بعض الوقاحة. ذكرت رؤيتها له في المسيرة في الطريق إلى كوتشين والاشاعات التي كانت تدور حول كونه ناكسالياً. لم تلاحظ أخدود القلق الخفيف الذي ولّده هذا الجزء من المعلومات على جبين المفتش.

كانت قد حذرّت ابن اخيها بشأنه، قالت بيبي كوتشاما، لكنها لم تفكر حتى في أكثر أحلامها وحشية أن الأمر سيصل إلى هذا الحد على الاطلاق. طفلة جميلة ميتة. وطفلان مفقودان.

وانهارت بيبي كوتشاما.

أعطاها المفتش توماس ماثيو فنجان شاي بوليسياً. عندما تحسنت قليلاً، ساعدها على تسجيل كل ما أخبرته به في المحضر. وطمأن بيبي كوتشاما بالتعاون الكامل لشرطة كوتايام. سيُقبض على النذل السافل قبل نهاية اليوم. Paravan مع توأم بيضتين، مطارداً من قبل التاريخ ـ كان يعرف أنه لا يوجد العديد من الأماكن ليختبئ فيها.

كان المفتش توماس ماثيو رجلاً حكيماً متعقلاً. اتخذ احتياطاً واحداً. أرسل سيارة جيب لاحضار الرفيق ك. ن. بيلاي إلى مركز الشرطة. كان أمراً

جوهرياً وحاساماً بالنسبة له أن يعرف إن كان لدى الـParavan أي دعم سياسي أم أنه كان يتصرف لوحده. فبالرغم من أنه هو نفسه كان رجل حزب المؤتمر، لكنه لم يكن ينوي أن يخاطر بأية مجابهات مع الحكومة الماركسية. عندما وصل الرفيق بيلاي، أُرشد إلى المقعد الذي لم تكن بيبي كوتشاما قد أخلته إلاّ مؤخراً. أراه المفتش توماس ماثيو **محضر** بيبي كوتشاما. وتحادث الرجلان. محادثة مختصرة، غامضة، سديدة. وكأنهما كانا قد تبادلا أرقاماً وليس أسماءً. لم يبدُ أنه هناك حاجة لأية إيضاحات. لم يكن الرفيق بيلاي، والمفتش توماس ماثيو اصدقاء، ولم يثقا ببعضهما البعض. لكنهما فهما بعضهما البعض تماماً. كان كلاهما رجلين هجرتهما طفولتهما دونما آثار. رجالاً من دون فضول. من دون شك. كان كلاهما، كل بطريقته الخاصة، ناضجين، بشكل مرعب حقاً. أطلاّ على العالم ولم يتساءلا أبداً كيف يسير لأنهما كانا يعرفان كيف. *سيّراه*. كانا ميكانيكيين يصونان *أجزاءً* مختلفة من الآلة ذاتها.

أخبر الرفيق بيلاي المفتش توماس ماثيو انه كان يعرف فيلوثا، لكنه أغفل ذكر أن فيلوثا كان عضواً في الحزب الماركسي، أو أن فيلوثا كان قد قرع بابه في وقت متأخر من الليلة الفائتة، مما يجعل الرفيق بيلاي آخر شخص رأى فيلوثا قبل اختفائه. ولم يدحض، أيضاً، بالرغم من أنه كان يعلم أنه أمر عار عن الصحة، ادعاء بيبي كوتشاما في **محضرها**. طمأن المفتش توماس ماثيو فقط أنه بقدر ما كان معنياً فإن فيلوثا لم يكن يتمتع بنصرة أو بحماية حماية الحزب الماركسي. أنه كان بمفرده.

بعد أن غادر الرفيق بيلاي، أعاد المفتش توماس ماثيو النظر ثانية في محادثتهما في عقله، متفحصاً إياها، متفحصاً منطقها، باحثاً عن منافذ. وعندما اقتنع، أوعز إلى رجاله.

عادت في هذه الأثناء بيبي كوتشاما إلى أيمينيم. كانت البليموث مصفوفة في الممر. ومارغريت كوتشاما وتشاكو قد عادا من كوتشين.

كانت صوفي مول ممددة على الشيزلونغ.

عندما رأت مارغريت كوتشاما جسد ابنتها الصغيرة، ماجت الصدمة داخلها كتصفيق وهمي في صالة فارغة. فاضت في موجة من التقيؤات تركتها خرساء وفارغة العينين. كانت تندب موتين، وليس واحداً. فبفقدان صوفي مول، مات جو ثانية. وهذه المرة لم يكن هناك من وظيفة لتُنهى ولا بيضة لتؤكل. كانت قد قدمت إلى ايمينيم، لتشفي عالمها المجروح، ففقدته بأكلمه بدلاً من ذلك. وتهشّمت كالزجاج.

كانت ذكرياتها ضبابية عن الأيام التي تلت. ساعات طويلة قاتمة من سكون ثقيل فروي اللسان (مشرف عليها طبياً من قبل الطبيب فيرغاس فيرغاس)، مقطعة بشطبات فولاذية حادة من الهيستيريا، باترة وماضية كحد نصل موسى جديدة.

كانت واعية بشكل غامض بتشاكو ـ مهتماً قلقاً ورقيق الصوت عندما يكون بجانبها ـ وإلاّ غاضب حانق، ينفخ مثل ريح هائجة في منزل أيمينيم. مختلف جداً عن القنفذ المجعد المسلي الذي كانت قد التقته ذات صباح بعيد جداً في المقهى.

كانت تتذكر، بشكل باهت، الجنازة في الكنيسة الصفراء. الترتيل الحزين. وخفاشاً أزعج شخصاً ما. وتتذكر أصوات أبواب تُحطّم، وأصوات امرأة مذعورة. وكيف بدت أصوات صراصير الأجمات في الليل مثل صرير درج وضخّمت الخوف والوحشة والحزن المعلّقين فوق منزل أيمينيم.

لم تنس أبداً غضبها غير المنطقي تجاه الطفلين الآخرين الأصغر اللذين كانا قد فُصلا لسبب ما. كان عقلها المحموم مثبّت مثل صمغ على فكرة أن إستا كان مسؤولاً بطريقة ما عن موت صوفي مول. إن ذلك لغريب، إذا ما أُخذ بعين الاعتبار أن مارغريت كوتشاما لم تعرف أنه كان إستا ـ ساحراً محركاً حماسياً بنفخة شعر من جذّف المربى وفكّر بفكرتين ـ إستا من انتهك القوانين

وجذّف بصوفي مول وراحيل عبر النهر في أوقات العصر في قارب صغير، إستا من أبطل رائحة منجلية بتلويحه علماً ماركسياً تجاهها. إستا من جعل الشرفة الخلفية من بيت التاريخ منزلاً لهم بعيداً عن المنزل، مفروشاً ببساط عشبي ومعظم ألعابهم ـ مقلاع، أوزة قابلة للنفخ، وكوالا كانتاس ذو عين زرية محلولة. وأخيراً، في تلك الليلة الرهيبة، كان إستا من قرر أنه بالرغم من أن هناك ظلاماً وأنها كانت تمطر، فإن الوقت قد حان بالنسبة إليهما ليهربا، لأن آمو لم تكن تريدهما بعد الآن.

لماذا لامت مارغريت كوتشاما إستا على ما حصل لصوفي مول، بالرغم من عدم معرفتها بأي من هذا ؟ لربما كانت غريزة أم.

ثلاث أو أربع مرات، وهي عائمة خلال طبقات سمكية من النوم الناتج عن أدوية منومة، كانت في الواقع قد استهدفت إستا وصفعته إلى أن هدأها أحد ما وقادها بعيداً. فيما بعد، كتبت لآمو لتعتذر. بحلول الوقت الذي وصلت فيه الرسالة، كان إستا قد أُعيد وكان على آمو أن تحزم حقائبها وتغادر. فقط راحيل بقيت في منزل أيمينيم لتقبل، باسم إستا، اعتذار مارغريت كوتشاما. *لا أستطيع تصوّر ماذا حصل لي، كتبت. لا أستطيع أن أرجعه الّا الى تأثير المهدئات. لم يكن لي حق في التصرف بالطريقة التي تصرفت بها، وأريدك أن تعلمي أنني خجلة ومتأسفة جدًا جدًا.*

ومما يدعو للاستغراب، أن الشخص الذي لم تفكر فيه مارغريت كوتشاما، كان فيلوثا. لم يكن لديها حوله أية ذكرى. ولا حتى كيف كان شكله.

ربما كان هذا لأنها لم تعرفه حقاً، مطلقاً، ولم تسمع أبداً بما حدث له.

إله الضياع.

إله الأشياء الصغيرة.

لم يترك أية آثار أقدام على الرمل، ولا تموجات في الماء، ولا أخيلة في المرايا.

ففي النهاية، لم تكن مارغريت كوتشاما مع فصيلة رجال الشرطة غير المنبوذين وهم يعبرون النهر المتضخم. وسراويلهم القصيرة الكاكية متيبسة بالنشاء.

الصلصلة المعدنية للأصفاد الثقيلة في جيب أحدهم.

إنه من غير المنطقي أن نتوقع من شخص أن يتذكر ما لم يكن يعرف أنه قد حدث.

بيد أن الحزن كان ما يزال بعيداً بأسبوعين عن ذلك العصر ذي القطب المتصالبة الزرقاء، بينما كانت مارغريت كوتشاما مستلقية مرهقة من السفر وما تزال نائمة. ، في طريقه لرؤية الرفيق ك. ن. بيلاي، انساق تشاكو ماراً بنافذة غرفة النوم مثل حوت مختلس متلهف متوخياً أن يسترق النظر ليرى فيما إذا كانت زوجته *(زوجة سابقة، يا تشاكو!)* وابنته مستيقظتين وبحاجة إلى شيء ما. خذلته شجاعته في اللحظة الأخيرة وعام ببدانة من دون أن ينظر. صوفي مول (المستيقظة، على قيد الحياة، الواعية) رأته يذهب.

جلست في سريرها ونظرت خارجاً إلى أشجار المطاط. كانت الشمس قد تحركت عبر السماء وألقت بظل المنزل على المزرعة، مقتّمة الأشجار ذات الأوراق القاتمة بالأصل. وفيما وراء الظل، كان الضوء مسطحاً ولطيفاً. كان يوجد شق مائل على اللحاء المبرقش لكل شجرة يرشح منه مطاط حليبي مثل دم أبيض ينزّ من جرح، ويتقطر داخل نصف قوقعة جوز الهند المنتظر والمربوط إلى الشجرة.

خرجت صوفي مول من السرير وفتشت في حقيبة أمها النائمة. وجدت ما كانت تبحث عنه ـ مفاتيح الحقيبة الكبيرة المقفلة المتوضعة على الارض بلصاقات شركة الطيران وبطاقات الامتعة. فتحتها ونقّبت في محتوياتها بكل الرقة التي لكلب يحفر مسكبة أزهار. بعثرت أكواماً من الملابس التحتية، والتنانير المكوية والقمصان، وعلب الشامبو والكريم والشوكولاة، والسيلوتاب،

والمظلات، والصوابين (وروائح لندنية معبأة أخرى)، والكينين، والاسبرين، والمضادات الحيوية واسعة الطيف. «خذي كل شيء» كان زملاء مارغريت كوتشاما قد نصحوها بأصوات قلقة. «لن تعرفي مطلقاً». والتي كانت طريقتهم في القول لزميلة مسافرة إلى قلب الظلمات أن:

(أ) أي شيء من المحتمل أن يحدث لأي كان.

ولذا

(ب) من **الأفضل** أن يكون المرء **مستعداً.**

وجدت صوفي مول أخيراً ما كانت تبحث عنه.

هدايا لولدي عمتها. أبراجاً مثلثية من شوكولاة التوبليرون (طرية ومائلة من الحرارة). جوارب ذات أصابع منفصلة بألوان متعددة. وقلمي حبر ـ النصف العلوي مملوء بالماء حيث علّقت لصاقة لمنظر شارع لندني. قصر باكنغهام وبيغ بن. محلات تجارية وبشر. باصاً احمر بطابقين يسير بواسطة فقاعة هوائية تطفو نحو أعلى وأسفل الشارع الصامت. كان يوجد أمر شرير حول غياب الضجيج في شارع قلم الحبر الناشط.

وضعت صوفي مول الهدايا في حقيبتها الـ غوغو، وذهبت قدماً داخل العالم. لتعقد صفقة صعبة. لتتفاوض على صداقة.

صداقة ستُترك، لسوء الحظ، معلقة، غير مكتملة. مرفرفة في الهواء دون موطىء قدم. صداقة لم تتحلّق مطلقاً في قصة، ولهذا السبب، أصبحت صوفي مول، أسرع بكثير مما يجب أن يحدث أبداً، ذكرى، بينما ازداد فقدان صوفي مول متانة وحيوية. مثل فاكهة الموسم. كل موسم.

١٤

العمل كفاح

أخذ تشاكو طريقاً مختصراً خلال أشجار المطاط المائلة بحيث لن يكون عليه إلاّ أن يعبر امتداداً قصيراً أسفل الطريق الرئيسي حتى منزل الرفيق ك. ن. م. بيلاي. كان يبدو سخيفاً قليلاً، وهو يطأ بساط اوراق الأشجار الجافة في بذته الضيقة الخاصة بالمطار، وربطة عنقه تطير من فوق كتفه.

لم يكن الرفيق بيلاي في الداخل عندما وصل تشاكو. زوجته، كالياني، بعجينة خشب صندل طازجة على جبينها، أجلسته على كرسي فولاذي قابل للطوي في غرفتهما الأمامية الصغيرة واختفت عبر ستارة من أشرطة نايلونية وردية براقة داخل غرفة مجاورة حيث كان يرتعش اللهب الصغير في مصباح زيتي نحاسي كبير. هبت رائحة البخور المتخمة عبر الممر، المعلّق فوقه لوحة خشبية كُتب عليها، *العمل كفاح. الكفاح عمل.*

بدا تشاكو كبيراً جداً بالنسبة للغرفة. اكتظت به الجدران الزرقاء. نظر حوله باضطراب وتوتر خفيف. منشفة تجفف على قضبان نافذة خضراء صغيرة. طاولة الطعام مغطاة بغطاء طاولة بلاستيكي مزّهر لماع. ذباب صغير يئز حول حزمة من الموز الصغير في طبق أبيض من المينا أزرق الاطار. وفي إحدى زوايا الغرفة كان يوجد كومة من ثمار جوز الهند الخضراء غير المقشرة. وتوضع خف مطاطي لطفل كأصابع حمامة في متوازي أضلاع من ضوء شمس مخطط على

الأرض. خزانة ذات ألواح زجاجية إلى جانب الطاولة. لها ستائر مرسومة معلقة في الداخل، تخفي محتوياتها.

والدة الرفيق بيلاي، سيدة عجوز صغيرة في قميص بني وموندو مصفّر، كانت تجلس على طرف سرير خشبي عالٍ دُفع باتجاه الجدار، ورجلاها متدليتان عل مسافة من الأرض. كانت تضع منشفة بيضاء مهلهلة مرتبة بشكل قطري فوق صدرها ومتدلية فوق كتف واحد. قمع من البعوض، مثل قبعة أبله مقلوبة، كان يطن فوق رأسها. تجلس وخداها مرتاحان في راحة كل يد، حازمةً معاً كل تجاعيدها في تلك الجهة من وجهها. كل إنش منها كان مجعداً، حتى خصرها وكاحليها. فقط بشرة حنجرتها، كانت مشدودة وناعمة، وممتدة فوق غدة هائلة. نافورة شبابها. كانت تحدق بخواء إلى الجدار المقابل لها، مؤرجحة نفسها رويداً رويداً، مثل مسافر ضجر في رحلة باص طويلة.

شهادات الرفيق بيلاي الثانوية والباكالويوس والماجستير كانت جميعها مؤطرة ومعلقة خلف رأسها.

وعلى جدار آخر صورة مؤطرة للرفيق بيلاي يكلّل الرفيق ي. م. س نامبوديرباد. وكان هناك ميكروفون على منصة، يشع في المقدمة مع لافتة كُتب عليها *Ajantha*[1].

كانت مروحة الطاولة الدائرة الموضوعة بالقرب من السرير، تقيس نسيمها الميكانيكي في دورات ديمقراطية نموذجية مثلى ـ أولاً ترفع ماتبقى من شعر السيدة بيلاي، ثم شعر تشاكو. والبعوض يختفي ويتجمّع دون كلل.

كان تشاكو يستطيع أن يرى من خلال النافذة سقوف الباصات، والأمتعة في محاملها، وهي تهدر مارّة. مرّت سيارة جيب بمكبر يدوي بأغنية للحزب الماركسي موضوعها العاطلون على العمل. كان الكورس بالانكليزية، والبقية بالمالايالامية.

---

(١) ـ أحمر غامق (لون النقطة الحمراء التي تضعها السيدات الهنديات على جبينيهن). (المترجمة).

لا وظائف شاغرة ! لا وظائف شاغرة !
أين يذهب الانسان الفقير في العالم،
لا لا لا لا لا لا لا وظائف شاغرة.

جُعلت «لا» بحيث تكون مقفاة مع باب.

عادت كالاياني مع كوب مضاد للصدأ من القهوة المقطرة وطبق مضاد للصدأ من شرائح الموز (صفراء لامعة مع بذور سوداء في الوسط) من أجل تشاكو.

«لقد ذهب إلى أولاسا، سيعود بين اللحظة والأخرى،» قالت. كانت تشير إلى زوجها بـ*addeham*، وهي صيغة محترمة من «هو»، بينما كان يناديها هو بـ *edi* والتي كانت تعني تقريباً، «هيه، أنت!»

كانت امرأة خصبة جميلة ذات بشرة بنية ذهبية وعينين واسعتين جداً. شعرها المجعد الطويل كان مبللاً ومتدلياً محلولاً حول عنقها، مضفوراً فقط عند أقصى نهايته. وقد بلل قميصها الأحمر الغامق الضيق ولطخّه جاعلاً إياه أكثر حمرة وأغمق وأضيق. نتأ لحم ذراعيها الناعمين عند نهايتي كميها، وسقط فوق كوعيها المغمّزيَن في تبرعم فخم. كان موندوها وكافانياها البيضاوان مجعدين ومكويين. وتفوح منها رائحة خشب الصندل و الحمص الأخضر المسحوق اللذان تستخدمهما بدلاً من الصابون. راقبها تشاكو للمرة الأولى منذ سنوات، دون أدنى اثارة للشهوة الجنسية. فقد كان لديه زوجة (*زوجة سابقة، يا تشاكو!*) في المنزل. لها نمش ذراع ونمش ظهر. بثوب أزرق وساقين من تحته.

ظهر لينين الصغير عند الباب بسروال قصير أحمر. وقف على رجل نحيلة واحدة كلقلق، وضفر أشرطة الستارة الوردية في عمود، محدقاً إلى تشاكو بعيني أمه. كان في السادسة الآن، متخطياً بمدة طويلة زمن دفع الأشياء داخل أنفه.

«يا صبي، اذهب ونادي لاثا،» قالت السيدة بيلاي له.

بقي لينين حيث كان، وهو ما يزال يحدق في تشاكو، صائحاً بسهولة، بالطريقة التي لا يستطيع الاّ الأطفال أن يقوموا بها.

«لاثا! لاثا! انت مطلوبة!»

«ابنة أخينا من كوتايام، ابنة أخيه الكبير،» شرحت السيدة بيلاي. «لقد ربحت الجائزة الأولى في الخطابة في مهرجان الشباب في تريفاندرام الاسبوع الفائت.»

ظهرت فتاة صغيرة شرسة المنظر، في حوالي الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها، خلال ستارة الأشرطة. ترتدي تنورة مرسومة طويلة وصلت حتى كاحليها وقميصاً أبيض قصيراً يصل حتى الخصر بإندفاعين أفسحا مجالاً لثديي المستقبل.

كان شعرها المزيّت مفروقاً إلى نصفين. وكانت كل من ضفيرتيها المشدودتين اللامعتين معقودتين ومربوطتين بشريطيتين بحيث تتدليان نحو الأسفل على جانبي وجهها مثل محيطي أذنين ضخمتين لم تُلّونا بعد.

«هل تعرفين من هذا؟» سألت السيدة بيلاي لاثا.

هزّت لاثا رأسها.

«تشاكو، صاحب مصنعنا.»

حدقت لاثا فيه باتزان وقلة فضول نادرين لمن في سن الثالثة عشرة.

«درس في أكسفورد لندن،» قالت السيدة بيلاي. «هل ستقومين بقراءتك له؟»

لبّت لاثا دون تردد. باعدت قدميها قليلاً.

«الرئيس المحترم،» انحنت لتشاكو، «الحكام الأعزاء و..» نظرت حولها إلى جمهور متَخيَّل مزدحم داخل غرفة حارة صغيرة، «أصدقائي الأحباء». وتوقفت بشكل مسرحي.

«أودّ اليوم أن ألقي عليكم قصيدة كُتبت من قبل السيد والتر سكوت، بعنوان لوتشيفان». شبكت يديها وراء ظهرها. وسقطت غشاوة فوق عينيها. كانت تحديقتها مثبتة بشرود فوق رأس تشاكو بالضبط. وكانت تتمايل قليلاً وهي تتكلم. في البدء اعتقد تشاكو إنها كانت ترجمة مالايالامية لِ

«لوتشيفان». ارتطمت الكلمات بعضها البعض. ووصل المقطع الأخير لكل كلمة نفسه مع المقطع الأول للكلمة التالية. كانت تؤدى في سرعة ملحوظة.

«أوه، لقد جاء لوتشيفان الشاب من الغرب،
وكان حصانه هو الأفضل عبر جميع الفيافي الشاسعة:
ولم يكن معه أي سلاح،
ركب حصانه طوال المسافة أعزل، وحيداً».

كانت القصيدة مرصّعة بشخير صادر عن السيدة العجوز التي في السرير، والذي لم يبدُ أن أحداً لاحظه عدا تشاكو.

عبر النهر حيث لم يكن هناك من مخاضة:
وترجل أمام بوابة قريبة،
بعثت العروس بالقناصة، فالشاب الوسيم وصل متأخراً[1].

وصل الرفيق بيلاي في منتصف القصيدة، ولمعان من العرق يجلو جلده، كان موندوه مثنياً إلى أعلى ركبتيه، وانتشرت بقعتا عرق قاتمتان تحت إبطيه اللذين من التيرلين. في أواخر ثلاثينياته، كان رجلاً صغيراً شاحباً غير رياضي. كانت ساقاه طويليتين وضعيفتين بالأصل وكان بطنه المنتفخ والمشدود مثل غدة أمه الصغيرة، متعارضاً تماماً مع بقية جسمه الضيق النحيل ووجهه اليقظ. وكأن شيئاً في مورثات عائلتهما كان قد منحهما نتوءات إجبارية تظهر في أجزاء مختلفة من جسديهما.

قسم شاربه المرتب الذي بدقة خط قلم رصاص شفته العلوية أفقياً بالنصف وانتهى عند نهايات خط فمه تماماً. كان خط شعره قد بدأ بالتراجع ولم يقم بأية محاولات لاخفائه. كان شعره مزيتاً ومسرحاً نحو الخلف. شباب بشكل واضح لم يكن ما أصبح عليه فيما بعد. كان يتمتع بالسلطة السهلة لرجل البيت. ابتسم وهز رأسه بتحية لتشاكو، لكنه لم يعر اهتماماً لوجود زوجته أو أمه.

---

(١) ـ وُصلت أواخر الكلمات في القصيدة مع بداية الكلمات التي تليها، بطريقة تجعلها غير مفهومة على الإطلاق. (المترجمة).

نقرت عينا لاثا نحوه من أجل إذن بمتابعة قصيدتها. ومُنح الاذن. خلع الرفيق بيلاي قميصه، وكوّره وجفف إبطيه به. وعندما انتهى، أخذته منه كالاياني وأمسكته وكأنه هدية. باقة أزهار. جلس الرفيق بيلاي بصداره الذي بدون أكمام على كرسي يُطوى وجرّ قدمه اليسرى رافعاً إياها فوق فخذه الأيمن. طوال بقية أداء ابنة أخيه، جلس محدقاً بتأمل إلى الأرض، وذقنه في راحة يده، ناقراً بقدمه اليمنى مع بحر وايقاع القصيدة. ومدلكاً بيده الآخرى مشط قدمه اليسرى المقوس باتقان.

عندما انتهت لاثا، صفق تشاكو بلطف صادق. لم تعر تصفيقه اهتماماً ولا حتى بوميض ابتسامة. كانت مثل سباحة من ألمانية الشرقية في مسابقة محلية. عيناها شاخصتان بثبات على الذهبية الالومبية. وأي انجاز أقل من هذا كانت تعتبره على أنه مُستَحقّ. نظرت إلى عمها من أجل إذن بمغادرة الغرفة.

أومأ الرفيق بيلاي لها وهمس في أذنها، «اذهبي وقولي بوثاتشان وماثوكوتي أن عليهما أن يأتيا حالاً، إن أرادا أن يرياني.»

«لا، أيها الرفيق، حقاً... لن أتناول أي شيء آخر» قال تشاكو مفترضاً أن الرفيق بيلاي كان يرسل لاثا من أجل وجبات خفيفة اضافية. أدام الرفيق بيلاي هذا، ممتناً لسوء الفهم.

«لا لا لا. ها! ما هذا؟.. Edi كالاياني، احضري طبقاً من عصيدة الأرز تلك.»

كسياسي طموح، كان أمراً أساسياً بالنسبة للرفيق بيلاي أن يُرى في دائرته الانتخابية المفضلة كرجل ذي تأثير. أراد أن يستخدم زيارة تشاكو ليؤثر على متوسلين محليين وعاملي الحزب. كان بوثاتشان وماثوكوتي، الرجلان اللذان أرسل في طلبهما، قرويين قد طلبا منه أن يستخدم صلاته في مستشفى كوتايام من أجل تأمين وظائف ممرضات لبناتهما. كان الرفيق بيلاي تواقاً ليُشاهدا منتظرين خارج بيته من أجل موعدهما معه. فكلما كان عدد الناس الذين يُرون ينتظرون لقاءه، كلما بدا أكثر انشغالاً، وكلما أعطى انطباعاً أفضل. وكان يعلم أنه إذا رأى الناس المنتظرون أن مالك المصنع بنفسه قد جاء لرؤيته،

في مضماره هو، فستُبعث أفضل أنواع الاشارات المفيدة.

«وإذاً، أيها الرفيق!» قال الرفيق بيلاي، بعدما كانت لاثا قد أُوفدت. «ما هي الأخبار؟ كيف تتأقلم ابنتك؟» كان يصر على أن يتكلم مع تشاكو بالانكليزية.

«أوه بشكل حسن. إنها غارقة في النوم الآن».

«اوه. أظن أنه إرهاق السفر»، قال الرفيق بيلاي، مسروراً من نفسه لمعرفته أمراً أو اثنين حول السفر الدولي.

«ما الذي يحدث في أولاسا؟ اجتماع حزبي؟» سأل تشاكو.

«أوه، لا شيء من هذا القبيل. كانت أختي سودها قد واجهت كسراً منذ وقت مضى،» قال الرفيق بيلاي، وكأن الكسر كان وجيهاً زائراً. «ولهذا فقد أخذتها إلى أولاسا موس من أجل استشارة طبية. بعض الزيوت وكل تلك الأمور. زوجها في باتنا، ولهذا فهي لوحدها في بيت نسيب».

تخلى لينين عن مكانه عند الممر، ووضع نفسه بين ركبتي والده والتقط أنفه.

«وما رأيك في قصيدة منك، أيها الفتى؟» قال تشاكو له. «ألم يعلمك أبوك أية واحدة؟»

حدّق لينين في تشاكو، دون أن يبدي أي دليل على أنه سمع أو فهم ما قاله تشاكو.

«إنه يعرف كل شيء،» قال الرفيق بيلاي. «إنه عبقري. إنه صامت فقط أمام الزوار.»

هزّ الرفيق بيلاي لينين بركبتيه.

«لينين، أخبر العم الرفيق ما علمّك إياه البابا. *أيها المواطنون الرومان الأصدقاء...*»

تابع لينين اصطياد كنزه الأنفي.

«هيا. يا ولد، إنه عملك الرفيق فحسب ـ»

حاول الرفيق بيلاي أن يرفس بداية شكسبير. *«أيها المواطنون الرومان الأصدقاء، أعيروني ـ ؟»*

بقيت تحديقة لينين منصّبة على تشاكو. حاول الرفيق بيلاي ثانية.

«أعيروني ـ ؟»

خطف لينين ملء كفّه من شرائح الموز واندفع خارج الباب الأمامي. بدأ يعدو أعلى وأسفل نطاق الباحة بين المنزل والطريق، ناهقاً بهياج بحيث لم يتمكن من الفهم. عندما تخلّص من بعضها تحول ركضه إلى عدو حصان لاهث عالي الركب.

«أعيروني سماعكوم [1]»

صاح لينين من الباحة، فوق صوت الباصات المارة.

«جئت كي أدفن قيصر لا لأطريه.

الشر يعيش بعد البشر

والخير يُدفن مع عظامهم.

صرخها بطلاقة، دون أن يتلعثم مرة واحدة. وهو أمر لافت، بالأخذ بعين الاعتبار أنه كان في السادسة فقط من عمره وأنه لم يكن يفهم أيّاً مما كان يقوله. ابتسم الرفيق بيلاي بفخر وهو جالس في الداخل، وينظر خارجاً إلى عفريت مغبّر يدور في ساحته (متعهد خدمات المستقبل وله طفل ودراجة باجاج).

«إنه الأول في صفه. سينال هذه السنة ترقية مضاعفة.»

كان هناك الكثير من الطموح محشوراً في تلك الغرفة الحارة الصغيرة.

فأيٌّ ما كان الرفيق بيلاي يخزّنه في خزانته ذات الستائر، لم يكن طائرات محطمة من البالسا.

---

(١) ـ سمعكم. (المترجمة).

ومن الناحية الأخرى، فإن تشاكو، ومن اللحظة التي دخل فيها المنزل، أو ربما من اللحظة التي وصل فيها الرفيق بيلاي، كابد عملية فضولية من الالغاء. ومثل جنرال كان قد جُرّد من نجومه، حدّ من ابتسامته. واحتوى توسعاته. كان من الممكن لأي أحد التقاه هناك للمرة الأولى أن يظنه متحفظاً صموتاً. وتقريباً خجولاً.

بغريزة مقاتل شارع لا تخطئ، علم الرفيق بيلاي أن ظروفه الحرجة (بيته الحار الصغير، أمه ذات الغدة، التصاقه بالجماهير الكادحة) أعطاه سلطة على تشاكو لا تضاهيها في مثل هذه الأيام الثورية أية كمية من الثقافة الأكسفوردية.

أمسك بفقره كمسدس موجه إلى رأس تشاكو.

أخرج تشاكو قطعة ورق مجعدة حاول أن يرسم عليها تصميماً تقريبياً لملصق جديد كان يريد الرفيق بيلاي أن يطبعها له. وهو من أجل منتج جديد كانت **مخللات ومعلبات الجنة** تخطط لإطلاقه في الربيع. خل طبخ اصطناعي. لم يكن الرسم احدى مزايا تشاكو، لكن الرفيق بيلاي فهم المغزى العام. كان معتاداً على رمز راقص الكاثاكالي، والشعار تحت تنورته الذي يقول *أباطرة عالم الذوق* (فكرته) والذين كانوا قد اختاروه **لمخللات ومعلبات الجنة**.

«أظن أن التصميم هو ذاته، الاختلاف هو فقط في النص،» قال الرفيق بيلاي.

«وفي لون الخطوط الخارجية،» قال تشاكو. «لون خردلي بدلاً من الأحمر.»

رفع الرفيق بيلاي نظارته إلى الأعلى داخل شعره من أجل أن يقرأ النص بصوت عالٍ. تغبّشت العدسات حالاً بسبب زيت الشعر.

«*خل طبخ اصطناعي*»، قال. «أظن أن هذا بأكمله بأحرف كبيرة.»

«أزرق بروسي»، قال تشاكو.

«محضّر من حمض خلي ؟»

«أزرق ملكي»، قال تشاكو. «مثل ذلك الذي استخدمناه للفليلفة الخضراء في المحلول الملحي.»

«محتويات صافية. دفعة رقم.، تاريخ الصنع، تاريخ الانتهاء، الأزرق الملكي ذاته لكن باستخدام ج وج.١؟»

هزّ تشاكو رأسه.

«نحن نشهد هنا أن الخل الذي في الزجاجة مكفول بأن يكون من الطبيعة والنوعية التي تدّعيها. المكونات: ماء وحمض خلي. ستكون هذه باللون الأحمر، كما أظن.»

كان الرفيق يستخدم كلمة «أظن» ليموّه السؤال ويجعله يبدو كملاحظة. كان يكره أن يسأل أسئلة إلاّ في حال كانت أسئلة شخصية. أسئلة تدل على عرض سوقي مبتذل من الجهل.

في حلول الوقت الذي انتهيا فيه من مناقشة لصاقة الخل، كان قد أحرز كل من تشاكو والرفيق بيلاي أقماعهما من البعوض الشخصي.

واتفقا على موعد استلام.

«وإذن، هل نجحت مسيرة البارحة ؟» قال تشاكو، متطرقاً أخيراً للسبب الحقيقي من زيارته.

«إلاّ إذا وحتى تُنفّذ الطلبات، يا رفيق، لا نستطيع أن نقول إن كانت قد نجحت أم لم تنجح.» زحفت نبرة مؤلف كتيّبات إلى صوت الرفيق بيلاي. «حتى ذلك الوقت، يجب أن يستمر الكفاح.»

«لكن الاستجابة كانت جيدة،» حفّز تشاكو محاولاً أن يتكلم بنفس المصطلحات.

«هذا بالطبع موجود،» قال الرفيق بيلاي. «لقد قدّم الرفاق التقرير إلى اللجنة العليا للحزب. لنرى الآن. لا نملك إلاّ أن ننتظر ونرى.»

«لقد مررنا بهم البارحة على الطريق،» قال تشاكو. «المظاهرة.»

«في الطريق إلى كوتشين، كما أظن،» قال الرفيق بيلاي. «لكن تبعاً لمصادر الحزب فإن استجابة تريفاندام كانت أفضل بكثير.»

«كان هناك الآلاف من الرفاق في كوتشين ايضاً،» قال تشاكو. «وفي الحقيقة فقد رأت ابنة أختي شابنا فيلوثا بينهم.»

«أوه، أفهم.» فوجئ الرفيق بيلاي. فقد كان فيلوثا موضوعاً قد خطط أن يتطرّق إليه مع تشاكو. يوماً ما. وأخيراً. لكن ليس بهذه المباشرة. أزّ عقله كمروحة طاولة. تساءل هل يستفيد من الافتتاحية التي أُتيحت له، أم يتركها ليوم آخر. قرر أن يستخدمها الآن.

«نعم، إنه عامل جيد،» قال. «على درجة عالية من الذكاء.»

«نعم إنه كذلك،» قال تشاكو. «نجار ممتاز له عقل مهندس. لو لم يكن لِ ـ »

«ليس ذلك *العامل*، يا رفيق»، قال الرفيق بيلاي. «عامل *حزب*».

استمرت والدة الرفيق بيلاي في التأرجح والنخير. كان يوجد شيء في ايقاع نخيرها. مثل تكتكة ساعة. صوت بالكاد تلاحظه، لكنك تفتقده إن توقف.

«آه، افهم. إذن فهو حامل بطاقة؟»

«أوه نعم،» قال الرفيق. «أوه نعم.»

تقطّر التعرق في شعر تشاكو. شعر كما لو كانت جماعة من النمل تجول داخل جلدة رأسه. هرش رأسه لوقت طويل، بكلتا يديه. محركاً جلدة رأسه نحو الأعلى والأسفل.

«Oru kaaryam parayattey? تحول الفريق بيلاي إلى المالايالامية وبصوت تآمري حسن الظن بالناس. «أنا أتكلم كصديق، keto. بشكل غير رسمي.»

قبل ان يُكمل، درس الرفيق بيلاي تشاكو، محاولاً أن يقيس تجاوبه. كان تشاكو يتفحص عجينة العرق الرمادية وقشرة الرأس المتوضعة تحت أظافره.

«عن ذلك الـParavan سيسبب لك المتاعب.» قال «خذها مني... اعثر له على عمل في مكان آخر. أرسله بعيداً»

تشوش تشاكو من التحول الذي طرأ على المحادثة. فهو لم يكن ينوي الاّ أن يعرف ماذا كان يحدث، أين مواقع الأمور. كان يتوقع أن يواجه معاداة، وحتى مجابهة، وبدلاً من ذلك كان يُعرض عليه مؤامرة مضللة خبيثة.

«أُرسله بعيداً؟ ولكن لماذا؟ ليس لدي أي اعتراض على أن يكون حامل بطاقة. كنت فضولياً فحسب، هذا كل ما في الأمر.. اعتقدت أنك لربما كنت قد تتكلم معه،» قال تشاكو. «لكنني واثق أنه يجرّب فقط، يفحص جناحيه، إنه زميل حساس، يا رفيق. وأنا أثق به...»

«ليس بهذه الطريقة،» قال الرفيق بيلاي. «من الممكن أن يكون جيداً جداً كشخص. لكن عاملين آخرين ليسوا مرتاحين معه. وقد تقدموا لي بشكاوى... ترى، أيها الرفيق، من وجهة نظر محلية، فإن قضايا الطبقات هذه متأصلة جداً..»

وضعت كالاياني كوباً فولاذياً من قهوة يتصاعد منها البخار على المنضدة من أجل زوجها.

«أتراها هي، على سبيل المثال، ربة المنزل. حتى هي لن تسمح أبداً لِـParavan بدخول بيتها. أبداً. حتى *أنا* لا أستطيع أن أقنعها. زوجتي الخاصة. فهي الرئيس داخل البيت بالطبع.» استدار نحوها بابتسامة محبة خبيثة. *«Allay edi ,kalayani?»*

نظرت كالاياني نحو الأسفل وابتسمت بحياء، مقرّة بتعصّبها.

«أترى؟» قال الرفيق بيلاي بانتصار. «إنها تفهم الانكليزية بشكل جيد تماماً. لكنها لا تتكلمها».

ابتسم تشاكو بشكل لطيف جزئياً.

«تقول أن العاملين لدي يأتون إليك بشكاوى...»

«أوه نعم، هذا صحيح،» قال الرفيق بيلاي.

«هل من شيء محدد؟»

«لا شيء محدد من هذا القبيل»، قال الرفيق ك. م. ن. بيلاي. «لكن انظر، أيها الرفيق، إن أية امتيازات تعطيها له، من الطبيعي أن يستاء منها الآخرون. إنهم يرونها تحيزاً. وفي النهاية، فمهما كان العمل الذي يقوم به، نجاراً، أو كهربائياً، أو خلافه، بالنسبة اليهم ليس سوى Paravan. انه موقف تعودوا عليه منذ ولادتهم. وهذا ما قلته لهم أنا بنفسي أنه أمر خاطئ. لكن لنتكلم بصراحة، أيها الرفيق، إن التغير شيء، والقبول شيء آخر. عليك أن تكون حذراً. من الأفضل بالنسبة إليه أن ترسه بعيداً...»

«زميلي العزيز»، قال تشاكو. «إن هذا لمستحيل. إنه لا يقّدر بثمن. أنه يدير المصنع عملياً.. ونحن لا نستطيع أن نحل المشكلة بإبعاد الـParavans. علينا بكل تأكيد أن نتعلم كيف نتعامل مع هذه التفاهات.»

كره الرفيق بيلاي أن يُخاطب بزميلي العزيز. بدت له كإهانة صيغت بانكليزية جيدة، مما جعلها، بالطبع إهانة مضاعفة، الإهانة بحد ذاتها، وحقيقة ان تشاكو اعتقد أنه لن يفهمها. أفسد ذلك مزاجه كلياً.

«من الممكن لهذا أن يحدث»، قال بتهكم لاذع. «لكن روما لم تبنَ بيوم. تذكر ذلك دوماً، إن هذه ليست كلّيتك الاكسفوردية. فما تعتبره تفاهات بالنسبة لك، هو أمر مختلف بالنسبة للجماهير».

ظهر لينين، بنحالة أبيه وعيني أمه، عند الباب، مقطوع النفس. كان قد انتهى من صراخ خطاب مارك انتوني بأكمله ومعظم «لوتشينفار» قبل أن يدرك أنه قد فقد مستمعيه. أعاد وضع نفسه بين ركبتي الرفيق بيلاي المتباعدتين.

صفق بيديه فوق رأس أبيه مشوهاً قمع البعوض. أحصى الجثث المسحوقة في راحتيه. أخرج بعضها دماً طازجاً. أراهم لأبيه، الذي سلّمه لأمه لتنظفه.

ومرة أخرى كان الصمت ملائماً بينهما بنخيرالسيدة بيلاي العجوز.

وصلت لاثا مع بوثأتشين وماثوكوتي. جُعل الرجلان ينتظران في الخارج. وتُرك الباب مفتوحاً جزئياً. وعندما تكلم الرفيق بيلاي ثانية، تكلم بالمالايالامية

وتأكد من أن صوته كان عالياً كفاية لمستمعيه في الخارج.

«بالطبع المنتدى المناسب لمناقشة أمور العمال على الملأ»، تُقدم الشكوى والتظلمات عن طريق النقابة. وفي هذه الحالة، عندما يكون **السيد** بنفسه **رفيقاً**، فإنه لمن المعيب ألاّ ينضموا للنقابة ويشاركوا في **كفاح الحزب**.

«لقد فكرت في ذلك،» قال تشاكو. «وسأنظمهم رسمياً في نقابة. وسينتخبون مدراءهم.»

«لكنك لا تستطيع يا رفيق أن تنظم لهم ثورتهم. بإمكانك فقط خلق وعي. ثقّفهم. عليهم مباشرة كفاحهم الخاص. عليهم أن يتغلبوا على مخاوفهم».

«مِن مَن ؟» ابتسم تشاكو. «مني ؟»

«لا، ليس أنت، يارفيقي العزيز. بل من قرون من الاضطهاد.»

ثم اقتبس الرفيق بيلاي بصوت رهيب، من الرئيس ماو. في المالايالامية. كانت تعابيره كتعابير ابنة أخيه بشكل غريب لافت للنظر.

«ليست الثورة حفلة عشاء. إن الثورة تمرّد، عمل عنف تطيح بواسطته طبقة بطبقة أخرى.»

وهكذا، وبعد أن وضع عقد لصاقات خل الطبخ الاصطناعي في جيبه، طرد تشاكو من طبقات المطيحين المناضلة، إلى طبقات الخائنين الواجب الإطاحة بهم.

جلسا بجانب بعضهما البعض على كراسٍ تُطوى، في عصر اليوم الذي أتت فيه صوفي مول، يرتشفون القهوة ويقضمون رقاقات الموز. يزيحان بلسانيهما الفطير الأصفر الذي التصق بسقفي حلقيهما.

الرجل النحيل الصغير والرجل البدين الكبير. خصما كتاب هزلي في حرب قادمة.

لقد انقلبت إلى حرب، ولسوء حظ الرفيق بيلاي، ستنتهي تقريباً قبل أن تبدأ. وُهب النصر له ملفوفاً ومربوطاً بشريطة، على طبق من فضة. فقط عندئذ،

عندما كان الأوان قد فات، وتدهورت **مخللات الجنة** إلى الحضيض دون الكثير من الغمغمة أو حتى ادّعاء المقاومة ـ أدرك الرفيق بيلاي أن ما كان يحتاجه حقاً هو عملية حرب أكثر من احتياجه لمحصلة فوز. كان من الممكن للحرب أن تكون الفحل الذي امتطاه، في جزء من الطريق إلى الجمعية التشريعية، إذا لم يكن الطريق بأكمله، في الوقت الي تركه فيه النصر ليس بأفضل حال مما كان عليه عندما شدّ الرحال.

كسر البيض لكنه حرق العجة.

لم يعلم أحد أبداً الطبيعة الدقيقة للدور الذي لعبه الرفيق بيلاي في الأحداث التي تلت. حتى تشاكو ـ الذي كان يعلم أن الخطابات حول حقوق المنبوذين («أيها الرفقاء، **الطائفة هي الطبقة**») المُسلّمة من قبل الرفيق بيلاي خلال محاصرة **الحزب الماركسي لمخللات الجنة**، كانت منافقة ـ لم يعرف مطلقاً القصة بأكملها. ولا يعني هذا انه اهتم بمعرفتها. ففي ذلك الحين، نظر مخدراً من جراء فقدان صوفي مول، إلى كل شيء برؤية ملطخة بالحزن. مثل طفل دُهم بمأساة، يكبر فجأة ويهجر ألعابه، رمى تشاكو ألعابه. أحلام بارون المخلل وحرب الشعب انضمت إلى رفوف الطيارات المحطمة في الخزانة ذات الألواح الزجاجية. بعدما أُغلقت **مخللات الجنة**، بيعت بعض حقول الأرز (مع رهونها) لتسديد قروض المصرف. وبيعت حقول إضافية لتُمكّن العائلة من الحصول على الطعام واللباس. وبحلول الوقت الذي هاجر فيه تشاكو إلى كندا، كان دخل العائلة الوحيد يأتي من مزرعة المطاط المنضمة إلى منزل ايمينيم وبضعة أشجار جوز الهند في بناء واحد. كان هذا ما عاشت عليه بيبي كوتشاما وكوتشو ماريا بعدما مات كل شخص آخر، أو غادر، أو أُعيد.

ولنكن منصفين مع الرفيق بيلاي، فهو لم يخطط لمسار الأحداث التي تلت. فقط زلق أصابعه الجاهزة داخل قفاز التاريخ المنتظر.

لم يكن بالكامل خطأه أنه كان يعيش في مجتمع حيث موت الانسان اكثر ربحاً مما كانت عليه حياته على الاطلاق.

بقيت زيارة فيلوثا الأخيرة له وما جرى بينهما ـ بعد مواجهته مع ماماتشي وبيبي كوتشاما ـ سراً. الخيانة الأخيرة التي أرسلت فيلوثا عبر النهر، سابحاً ضد التيار، في الظلام والمطر، في الوقت المحدد تماماً من أجل موعده الأعمى مع التاريخ.

أخذ فيلوثا الباص الأخير من كوتايام حيث كان يُصلح آلة التعليب. صادف عاملاً من عمال المصنع عند موقف الباص، أخبره بابتسامة متكلفة أن ماماتشي تريد أن تراه. لم يكن لدى فيلوثا أدنى فكرة عما كان قد حصل ولم يكن يعلم مطلقاً بزيارة أبيه الثملة لمنزل أيمينيم. ولم يكن يدري أيضاً أن فيليا بابن كان جالساً منذ ساعات أمام باب كوخهم، وما يزال ثملاً، تلتمع عينه الزجاجية وحافة فأسه في ضوء المصباح، منتظراً عودة فيلوثا. ولا أن كوتابن المشلول المسكين، المخدر من الحبس، كان يتكلم مع أبيه باستمرار لمدة ساعتين محاولاً تهدئته، مجهداً أذنيه طوال الوقت ليلتقط صوت وقع أقدام أو خشخشة نباتات فيتمكن من أن يصرخ ليحذر لأخيه الذي لا يخامره الشك بشيء.

لم يذهب فيلوثا إلى البيت. ذهب مباشرة إلى منزل أيمينيم. بالرغم من أنه من جهة كان قد أُخذ على حين غرة، لكنه علم، كان يعلم، من ناحية أخرى بغريزة قديمة أن دجاجات التاريخ الملوية ستأتي ذات يوم إلى البيت لتجثم. طوال هيجان ماماتشي بأكمله بقي مكبوحاً و رابط الجأش على نحو غريب. كانت رباطة جأش وُلدت من استفزاز شديد. انبثقت من وضوح يقع فيما وراء الغضب.

عندما وصل فيلوثا، فقدت ماماتشي تحمّلها وتقيأت غلّها الأعمى، وإهاناتها الشديدة غير المحتملة، باتجاه لوح في الباب السحّاب إلى أن أدراتها بيبي كوتشاما ببراعة وَوجهت غضبها في الاتجاه الصحيح، إلى فيلوثا الواقف ساكناً جداً في الظلام. تابعت ماماتشي خطبتها العنيفة المسهبة، بعينين فارغتين،

ووجهه ملتوٍ وبشع، ثم دفعها غضبها باتجاه فيلوثا حتى أصبحت تصرخ في وجهه تماماً وكان باستطاعته الشعور برشاش بصاقها وان يشم الشاي البائت في نَفَسها. بقيت بيبي كوتشاما قريبة من ماماتشي. لم تقل شيئاً، لكنها كانت تستخدم يديها لتُنظم غضب ماماتشي، وتؤججه من جديد، تربيتة مشّجعة من الخلف. ذراع مطمئنة حول الكتف. ماماتشي كانت غير واعية مطلقاً بالمعالجة.

لكن من *أين* كانت سيدة عجوز مثلها ـ تلبس أثواب ساري مكوية مجعدة وتعزف *كسارة البندق* على الكمان في الأمسيات ـ قد تعلمت اللغة التي استعملتها ماماتشي ذلك اليوم، كان لغزاً بالنسبة لجميع (بيبي كوتشاما، كوتشو ماريا، وآمو في غرفتها المغلقة) من سمعها.

«اخرج!» صرخت، أخيراً. «إذا ما وجدتك غداً في ممتلكاتي سأخصيك كالكلب المنبوذ الذي هو أنت! سأقتلك!»

«سنرى بشأن ذلك،» قال فيلوثا بهدوء.

كان هذا كل ما قاله. وهذا ما عزّزته وزركشته بيبي كوتشاما في مكتب المفتش توماس ماثيو، محولة إياه إلى تهديدات قتل واختطاف.

بصقت ماماتشي في وجه فيلوثا. بصقة سميكة. بلّلت بشرته. وفمه وعينيه.

وقف هناك فحسب. مشدوهاً. ثم استدار وغادر.

وبينما كان يبتعد عن المنزل شعر بأحاسيسه تُشحذ وتشتد. وكأن كل شيء حوله يتسطّح في شكل مرتب. آلة تصوير مع كرّاس إرشاد يخبره ماذا يفعل. تشبّث عقله المتعطش بيأس لنوع من أنواع الرسو، بالتفاصيل. وعنون كل شيء صادفه.

بوابة. فكر عندما خرج من البوابة. *بوابة. طريق.* حجارة. شمس. مطر.

بوابة.

طريق.

حجارة.

شمس.

مطر.

كان المطر دافئاً على جلده. وصخور اللطريط مسننة تحت قدميه. كان يعرف أين سيذهب. لاحظ كل شيء. كل ورقة شجر. كل غيمة في السماء الخالية من النجوم. كل خطوة اتخذها.

Koo - Koo Kookum theevandi
Kooki paadum theevandi
Rapakal odum theevandi
Thalannu nilkum theevandi[1]

كان هذا الدرس الأول الذي تعلمه في المدرسة. قصيدة عن قطار.

بدأ بالعدّ. شي ما. أي شيء. *واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة أحد عشر اثنا عشر ثلاثة عشر أربعة عشر خمسة عشر ستة عشر سبعة عشر ثمانية عشر تسعة عشر عشرون واحد وعشرون اثنان وعشرون ثلاثة وعشرون أربعة وعشرون خمسة وعشرون ستة وعشرون سبعة وعشرون ثمانية وعشرون تسعة وعشرون..*

بدأت آلة التصوير بالتغبيش. و تلّطخت الخطوط الواضحة. لم يعد هناك أي معنى للارشادات. ارتفع الطريق ليلاقيه وأصبحت الظلمة أكثر كثافة. ولزوجة. أصبح الدفع خلالها جهداً. كالسباحة تحت الماء.

إنه يحدث، أعلمه صوت. *لقد بدأ.*

طفا عقله الذي تقدّم في السن فجأة وبشكل مستحيل، خارج جسده وحوّم عالياً فوقه في الهواء، غمغم بتحذيرات عديمة الفائدة.

نظر نحو الأسفل وتفرّج على جسد شاب يسير خلال الظلام والمطر الجارف. كان ذلك الجسد يريد أن ينام أكثر من أي شيء آخر. أن ينام

---

(١) ـ قصيدة عن القطار وعن الأصوات التي يصدرها أثناء سيره (توت توت، تشك تشك ...). (المترجمة).

ويستيقظ في عالم آخر. مع رائحة جلدها في النَفس الذي يتنفسه هو. وجسدها فوق جسده. من المحتمل الاّ يراها ثانية أبدًا. أين هي ؟ ماذا فعلوا لها؟ هل آذوها ؟

تابع السير. لم يكن وجهه لا مرفوعاً باتجاه المطر ولا محنياً بعيداً عنه. لم يرحب به، ولم يتحاشاه.

بالرغم من أن المطر غسل بصقة ماماتشي عن وجهه، الاّ انه لم يوقف احساسه بأن أحداً قد خلع رأسه وتقيأ داخل جسده. قيء متكتل يتقطّر داخله. فوق قلبه. فوق رئتيه. دلفت السماكة ببطء في تجويف معدته. جميع أعضائه غُسلت بالقيء. لم يكن باستطاعة المطر أن يفعل شيئاً بشأن ذلك.

كان يعلم ما يجب عليه فعله. وجهه كرّاس الارشادات. عليه أن يصل إلى الرفيق بيلاي. لم يعد يدري لماذا. أخذته قدماه إلى **المطبعة المحظوظة**، التي كانت مغلقة، ومن ثم عبر الساحة الصغيرة جداً إلى بيت الرفيق بيلاي.

فقط جهد رفع ذراعه لقرع الباب، أرهقه.

كان الرفيق قد أنهى وجبة عشائه، وكان يسحق موزة طازجة مخرجاً مسحوقها من خلال قبضته المغلقة داخل طبقه من اللبن الرائب، عندما قرع فيلوثا. أرسل زوجته لتفتح الباب. عادت وهي مقطبة، واستثير الرفيق بيلاي جنسياً فجأة. أراد أن يلمس صدرها حالاً. لكن كان هناك لبن رائب على أصابعه وكان يوجد أحد بالباب. جلست كالاياني على السرير وربتت شاردة الذهن على لينين، الذي كان نائماً بجانب جدته البالغة الصغر، وهو يمص أصبعه.

«من هذا؟»

«ذاك الـ Paravan ابن بابن. يقول أنه يريدك لأمر عاجل».

أنهى الرفيق بيلاي لبنه الرائب من غير استعجال. نفض أصابعه على طبقه. أحضرت كالاياني الماء في وعاء فولاذي لا يلصق وصبته له. ارتفعت

وطفت بقايا الطعام المتروكة في طبقه (تشيللي حمراء جافة، وعظام أفخاذ دجاج زاوية قاسية، ممصوصة ومبصوقة). أحضرت له منشفة يدين. جفف يديه، تجشأ تشكراته، وذهب إلى الباب.

«Enda ؟ في مثل هذا الوقت من الليل ؟»

سمع فيلوثا نفسه وهو يجيب، صوته يرتد إليه وكأنه كان قد ارتطم بجدار. حاول ان يشرح ما كان قد حدث، لكنه تمكن من سماع نفسه ينزلق في تفكك. كان الرجل الذي يتكلم إليه صغيراً وبعيداً، خلف جدار من الزجاج.

«هذه قرية صغيرة،» كان الرفيق بيلاي يقول. «والناس يتكلمون. وأنا أستمع إلى ما يقولونه. ليس الأمر كما لو كنت لا اعرف ماذا يجري.»

مرة أخرى سمع فيلوثا نفسه يقول شيئاً لم يهم في شيء الرجل الذي كان يتكلم معه. التف صوته حوله مثل أفعى.

«ربما،» قال الرفيق بيلاي. «لكن يا رفيق، كان عليك أن تعلم أن الحزب لم يؤسس ليدعم عدم انضباط العمال في حياتهم الخاصة.»

شاهد فيلوثا جسد الرفيق بيلاي وهو يتلاشى عند الباب. بقي صوته الحاد والمفصول عن جسده وبعث بشعارات. وأعلام البطولة ترفرف في ممر فارغ.

إنه ليس من اهتمامات الحزب أن يتحمل أموراً كهذه.

اهتمامات الأفراد هي أمور ثانوية بالنسبة لاهتمامات المؤسسات.

انتهاك انضباط الحزب يعني انتهاك وحدة الحزب.

استمر الصوت. مقسماً الجمل في مقاطع. وكلمات.

تقدم الثورة.

إبادة العدو الطبقي.

كومبرادور الرأسمالية.

الرعد المنبثق.

وهاهو مرة اخرى. دين آخر يرتد ضد نفسه. صرح أُنشئ بواسطة عقل الانسان، يباد بمعظمه بواسطة الطبيعة الانسانية.

أغلق الرفيق بيلاي الباب وعاد إلى زوجته وعشائه. قرر أن يأكل موزة أخرى.

«ماذا كان يريد ؟» سألت زوجته، وهي تسلّمه واحدة.

«لقد اكتشفوا الأمر. لا بد وأن أحداً قد أخبرهم. لقد طردوه.»

«هل هذا كل شيء؟ إنه محظوظ أنهم لم يشنقوه على أقرب شجرة.»

«لاحظت أمراً غريباً...» قال الرفيق بيلاي وهو يقشر موزته. «يوجد على أصابعه طلاء أحمر...»

وهو واقف في الخارج تحت المطر، في البرد، في ضوء مبلل قادم من مصباح الشارع الوحيد، غلب النعاس فيلوثا فجأة. كان عليه أن يُجبر جفنيه على البقاء مفتوحين.

غدًا، قال لنفسه. *غدًا عندما يتوقف المطر.*

قادته قدماه إلى النهر. وكأنهما كانتا الرسن وكان هو الكلب.

التاريخ يقود الكلب.

١٥

العبور

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. وكان النهر قد ارتفع، وكانت مياهه سريعة وسوداء، تتلوى كأفعى نحو البحر، حاملة معها سماوات الليل الغائمة، و سعفة نخيل بكاملها، وجزءاً من سياج قش، وهدايا أخرى كانت الريح قد أعطتها له.

وفي برهة أبطأ المطر متحولاً إلى رذاذ ثم توقف. هزّ النسيم الأشجار، ولفترة أمطرت فقط تحت الأشجار، حيث كان المكان مأوىً فيما مضى.

رشح قمر مائي ضعيف عبر السحب وكشف شاباً جالساً على قمة الحجارة الثلاث عشرة التي تقود إلى داخل الماء. كان ساكناً جداً، ورطباً جداً. وشاباً جداً. وفي ثانية وقف وخلع الموندو الأبيض الذي كان يرتديه، وعصر الماء منه ولفّه حول رأسه كالعمامة. والآن نزل وهو عارياً درج الحجارة الثلاث عشرة داخل الماء ومضى أبعد، حتى أصبح النهر بعلو صدره. ثم بدأ بالسباحة بضربات قوية سهلة، مجذفاً حيث كان التيار سريعاً ومضموناً، حيث يبدأ **العمق الحقيقي**. سقط النهر المضاء بضوء القمر من ذراعيه السابحتين كأكمام من فضة. لم يستغرق سوى بضعة دقائق ليقوم بالعبور. عندما وصل الضفة الأخرى خرج متلألئاً وسحب نفسه باتجاه الشاطئ، أسود كالليل الذي يحيط

به، أسود كالماء الذي عبره.

خطا على الممر الذي يقود خلال المستنقع **إلى بيت التاريخ**.

لم يترك تموجات في الماء.

ولا بصمات أصابع على الشاطئ.

أمسك بموندوه منشوراً فوق رأسه ليجف. حملته الرياح كشراع. شعر بالسعادة فجأة. ستسوء الأمور، قال لنفسه. ثم ستتحسن. كان يسير بسرعة الآن، باتجاه **قلب الظلمات**. وحيداً كذئب.

إله الضياع.

إله الأشياء الصغيرة.

عارياً إلاّ من طلاء أظافره.

١٦

بعد بضعة ساعات

ثلاثة أطفال على ضفة النهر. زوج توأم وأخرى، كانت مريلتها القطنية البنفسجية تقول *عطلة!* في خط سعيد مائل.

تلألأت أوراق الأشجار مثل معدن مطرّق. تدلّت أجمات كثيفة من خيزران أصفر في النهر وكأنها تحزن مسبقاً على ما كانت تعلم أنه سيحدث. النهر نفسه كان قاتماً وهادئاً. غائباً أكثر منه حاضراً، دون أن يشي بأية إشارة عن مدى علوه وقوته في الحقيقة.

جرّ إستا وراحيل القارب خارج الشجيرات حيث كانا يخبئانه عادة. وكانت المجاديف التي صنعها فيلوثا مخبأة في شجرة مجوفة. أنزلاه إلى الماء وأمسكاه بثبات لتصعد إليه صوفي مول. ظهرا وكأنهما يثقان بالظلام ويتحركان أعلى وأسفل درج الحجارة اللامعة بأقدام واثقة مثل ماعز صغير.

كانت صوفي مول مترددة اكثر. وخائفة قليلاً مما يكمن في الظلال التي حولها. كان لديها حقيبة قماشية مملوءة بالطعام المختلس من البرّاد مدلاة على عرض صدرها. خبز، كاتو، بسكويت. التوأم المثقلان بكلمات أمهما. ـ *لولا كما لكنت حرة. كان عليّ أن أرميكما في ميتم يوم ولادتكما. أنتما حجرا الطاحون حول عنقي* ـ لم يحملا شيئاً. فبفضل ما فعله رجل مشروبات

البرتقال والليمون لإستا كان بيتهما البعيد عن البيت مجّهزاً بالأصل. وخلال أسبوعين، منذ أن جدّف إستا مربى قرمزياً وفكّر بفكرتين، كانا قد خزّنا إمدادات أساسية: أعواد ثقاب، بطاطا،، أوزة قابلة للنفخ، جوارب ذات ألوان أصابع متعددة، قلمي حبر بياصات لندن، ودب كوالا كانتاس ذي عينين زريتين محلولتين.

«ماذا لو وجدتنا آمو و*رجتنا* أن نعود ؟»

«عندها سنعود. لكن فقط إذا رجتنا».

أستا الـ ـ حنون.

كانت صوفي مول قد أقنعت التوأم أنه من الضروري أن تذهب هي أيضاً. إن غياب الأطفال، كل الأطفال، سيصعّد من ندم وتبكيت ضمير البالغين. سيجعلهم آسفين حقاً، كالبالغين في هاميلين بعد أن أخذ بايد بيبر[1] جميع أطفالهم. سيبحثون في كل مكان، وعندما يتأكدون أن ثلاثتهم ماتوا، سيعودون إلى البيت منتصرين. مقدَّرين، محبوبين، ومحتاجاً إليهم أكثر من أي وقت مضى. كان نقاشها الحاسم أنه إذا ما تركاها فإنه من الممكن أن تُعذّب وتُجبر على كشف مكان اختبائهما.

انتظر إستا حتى صعدت راحيل، ثم اتخذ مكانه، جالساً منفرج الساقين في القارب الصغير وكأنه أرجوحة. استخدم رجليه ليدفع القارب بعيداً عن الشاطئ. عندما تمايلا داخل المياه الأعمق بدأوا بالتجديف بشكل مائل ضد التيار، بالطريقة التي كان فيلوثا قد علّمهما أن يجدّفا بها. («إن كنتما تريدان أن تصلا إلى هناك، عليكما أن تتوجها إلى *هناك*.»)

لم يستطيعا التمييز في الظلام أنهم كانوا على الخط الخاطئ في طريق عام صامت مليء بحركة مرور مكتومة الصوت. أن أغصاناً، وجذوعاً، وأجزاءً من أشجار، كانت تقود باتجاههم في سرعة ما.

---

(١) ـ هاميلين: مدينة في شمال ألمانيا، على نهر ويسر. مشهورة سياحياً لأنها مكان أسطورة بايد بيبر، والذي هو بطل قصيدة للشاعر روبرت براونينغ. (المترجمة).

كانا قد قطعاً العمق الحقيقي، فقط على بعد ياردات من الضفة الأخرى، عندما اصطدموا بجذع شجرة عائم وانقلب القارب الصغير. كان هذا قد حدث معهما لمرات كثيرة كافية في بعثات سابقة عبر النهر، وكانا يسبحان خلف القارب، مستخدميه كطوف، مجدّفين بأرجلهما حتى الشاطئ. هذه المرة، لم يستطيعا رؤية قاربهما في الظلام. و انجرف مع التيار. توجها إلى الشاطئ، مندهشين من الجهد الشديد الذي تطلبته منهما هذه المسافة القصيرة.

تمكّن إستا من التقاط غصن منخفض محني نحو الأسفل في الماء. حدّق في النهر خلال الظلام ليرى إن كان بإمكانه رؤية القارب على الاطلاق.

«لا أستطيع رؤية أي شيء. لقد ذهب.»

تسلّقت راحيل المغطاة بالوحل الكثيف إلى الشاطئ ومدّت يدها لتساعد إستا في سحب نفسه خارج الماء. استغرقا بضعة دقائق ليلتقطا أنفاسهما ويوّثقا ضياع القارب. ويتحسّرا على فقدانه.

«وفسد طعامنا كله،» قالت راحيل لصوفي مول وقوبلت بالصمت. صمت سباحة أسماك متدحرجة مندفعة.

«صوفي مول؟» همست للنهر المندفع. «نحن هنا! هنا! قرب شجرة الإليمبيا[1]!»

لا شيء.

طقطقت فراشة باباتشي فاتحة جناحيها المعتمين فوق قلب راحيل.

إلى الخارج.

إلى الداخل.

ورفعت رجليها.

إلى الأعلى.

إلى الأسفل.

---

(١) ـ شجرة ضخمة ترمي ظلالاً كثيرة. (المترجمة).

ركضا على طول الضفة يناديان عليها. لكنها كانت قد ذهبت. جُرفت بعيداً على الطريق العام المكتوم الصوت. الأخضر الرمادي. بأسماكه. بسمائه وأشجاره. وفي الليل، بالقمر الأصفر المكسور فيه.

لم تكن هناك موسيقى عاصفة. ولا دوامة تدور عالياً منبعثة من الأعماق الحبرية للميناتشال. ولا قرش يشرف على المأساة.

فقط تسليم هادئ بمراسم. قارب يسفح حمولته. ونهر يتقبل العرض. حياة صغيرة واحدة. شعاع شمس مختصر. بكشتبان فضي مغلق عليه من اجل الحظ في قبضته الصغيرة.

كانت الرابعة صباحاً، وما يزال الظلام حالكاً، عندما اتخذ التوأم المرهقين، الذاهلين والمغطيين بالطين طريقهما عبر المستنقع واقتربا من بيت التاريخ. هانسل وغريتيل في قصة جنّ حيث يُقبض فيها على أحلامهما ويُعاد حلمها. تمددا في الشرفة الخلفية على بساط عشب مع أوزة قابلة للنفخ ودب كوالا كانتس. زوج أقزام مبلل، مخدرين بالخوف، ينتظران أن ينتهي العالم.

«هل تعتقد أنها ماتت الآن؟»

لم يجب إستا.

«ماذا سيحدث ؟»

«سندخل السجن.»

كان يعرف بشكل جيد كما ينبغي. رجل صغير. كان يعيش في كارا ـ فان. ترالا لا.

لم يريا أحداً آخر مستلقياً ينام في الظلال. كذئب وحيد. وورقة شجر بنية على ظهره الأسود. تجعل الريح الموسمية تأتي في حينها.

١٧

محطة ميناء كوتشين

في غرفته النظيفة في منزل أيمينيم القذر، جلس إستا (ليس متقدماً في السن، وليس شاباً) على سريره في الظلام. جلس مستقيماً جداً. كتفاه مربعتان. ويداه في حجره. وكأنه كان التالي في نوع من أنواع التفتيش. أو ينتظر أن يُلقى القبض عليه.

كان الكي قد أُنجز. وتوضع في كومة مرتبة على لوح الكوي. كان قد كوى ملابس راحيل أيضاً.

كانت تمطر بانتظام. مطراً ليلياً. قارع الطبل ذاك، كان يمارس دوره بعد وقت طويل من ذهاب بقية الفرقة للنوم.

في الردهة الجانبية، إلى جانب مدخل «احتياجات الرجال»، التمعت الرفاريف الكرومية للبليموث القديمة للحظة في البرق. منذ أن غادر تشاكو إلى كندا وبيبي كوتشاما تجعلها تُغسل بانتظام. فمقابل أجر زهيد كان صهر كوتشو ماريا الذي يقود شاحنة القمامة الصفراء في كوتايام، يدخل منزل أيمنيم مرتين في الأسبوع (مُعلَناً عنه بنتانة قمامة كوتايام التي تبقى حتى بعد وقت طويل من انتهائه) ليجرّد أخت زوجته من معاشها وليقود البليموث في جولة ليبقي على البطارية مشحونة. عندما انشغلت بيبي كوتشاما بالتلفزيون، نبذت السيارة والحديقة في آن واحد. توتي فروتي.

مع كل ريح موسمية، كانت السيارة القديمة ترسخ بثبات أكبر على الأرض. مثل دجاجة زاويّة متصلبّة تستقر بعناد على قبضة بيوضها. دون أية نية بالقيام مطلقاً. نما العشب حول دواليبها المُنَفّسة. تفسّخت لوحة **مخللات ومعلبات الجنة** وسقطت داخلاً مثل تاج منهار.

اختلس زاحف نظرة إلى نفسه في النصف المبقع المتبقي من مرآة السائق المتصدعة.

تمدد عصفور دوري ميتاً على المقعد الخلفي. كان قد شق طريقا إلى هناك عبر فجوة في الزجاج الأمامي، مستدرجاً ببعض إسفنج مقعد من أجل عشه. ولم يجد طريقه نحو الخارج أبداً. لم يلاحظ أحد مناداته المذعورة من خلال نافذة السيارة. مات على المقعد الخلفي، ورجلاه في الهواء، كمزحة.

كانت كوتشو ماريا نائمة على أرض غرفة المكتب، ملتفة بشكل فاصلة في الضوء المرتجف للتلفزيون الذي كان ما يزال شغالاً. شرطي أميريكي كان يحشر مراهقاً مكبل اليدين داخل سيارة شرطة. كان يوجد دم مرشوش على الرصيف. التمعت أضواء سيارة الشرطة وولولت صفارة إنذار في تحذير. امرأة هزيلة، أم الصبي ربما، كانت تراقب بذعر من الظل. كان الصبي يصارع. كانوا قد استخدموا غشاوة فسيفسائية على القسم الأعلى من وجهه فلا يتمكن من مقاضاتهم. غطّت قشرة متصلبة من الدم كامل وجهه وفي الأسفل مقدمة كنزته مثل مريلة حمراء. شفتاه الورديتان الخاصتان اللتان كشفتي طفل، كانتا مرفوعتين فوق أسنانه في زمجرة. بدا كإنسان مسخ ذئباً. صرخ من خلال نافذة السيارة باتجاه الكاميرا.

«أنا في الخامسة عشر من عمري وأتمنى لو كنت شخصاً أفضل. لكنني لست كذلك. هل تريدون سماع قصتي المؤثرة؟»

بصق على الكاميرا ورشّت قذيفة من البصاق العدسة وتقطرت نحو الأسفل.

كانت بيبي كوتشاما في غرفتها، جالسة في سريرها، تملأ قسيمة تخفيض

ليستيرين، التي تقدّم عرضاً بخصم روبيتين لزجاجتهم الجديدة ذات الـ ٥٠٠مل وايصالات بألفي روبية تُعطى للرابح المحظوظ ليانصيبهم.

انقضّت ظلال عملاقة لحشرات صغيرة على طول الجدران والسقف. وللتخلص منها كانت بيبي كوتشاما قد أطفأت النور وأشعلت شمعة كبيرة في حوض ماء. كان الماء قد أصبح سميكاً بالجثث المتساقطة. أبرز ضوء الشمعة خديها الخشنين وفمها المطلي. كانت مسكرتها ملطخة. وحليّها تتلألأ.

أمالت القسيمة باتجاه الشمعة.

أي ماركة من مطهر فم تستعمل عادة؟

ليستيرين، كتبت بيبي كوتشاما بيد أصبحت عنكبوتية بتقدّم السن.

وضّح أسباب تفضيلك له:

لم تتردد. ذو *نكهة مميزة. وَنَفَس نقي*. كانت قد تعلّمت لغة إعلانات التلفزيون الذكية اللاذعة.

ملأت إسمها وكذبت بشأن سنها.

تحت المهنة: كتبت، تزيين حدائق من معهد روتش. الولايات المتحدة الأميركية.

وضعت القسيمة في المغلف وعنونت ***أطباء موثوقون. كوتايام***. ستذهب مع كوتشو ماريا في الصباح، عندما تذهب إلى المدينة في بعثاتها إلى أفضل مخبز لكعك الزبدة.

التقطت بيبي كوتشاما دفتر يومياتها الكستنائي الذي جاء مع قلمه الخاص. فتحت صفحة ١٩ حزيران وبدأت بداية جديدة.

كانت طريقتها روتينية. كتبت: *أنا احبك أنا احبك.*

كل صفحة في اليوميات كان لها بداية مماثلة. كان لديها صندوق مملوء بدفاتر يوميات ببدايات مماثلة. وفي بعضها كُتب أكثر من ذلك. كان يوجد في بعضها حسابات اليوم، وقوائم بالأمور التي عليها فعلها، ومقتطفات من حوارات مميزة من مسلسلات مفضلة، لكن حتى هذه البدايات جميعها، كانت تبدأ دوماً بالكلمات ذاتها: *أنا أحبك أنا احبك.*

كان الأب موليغان قد توفي منذ أربع سنوات بالتهاب كبد فيروسي، في دير في شمال ريشيكش. كانت سنوات تأمله في كتاب الهندوسية المقدس قد قادته في البداية إلى فضول لاهوتي، لكنها في النهاية قادته إلى تغيير في الاعتقاد. قبل خمسة عشر عاماً، أصبح الأب موليغان فايشنافا[١]. نصيراً للرب فيشو[٢]. بقي على اتصال مع بيبي كوتشاما حتى بعد أن انضم للدير. كان يكتب إليها في كل عيد ويرسل لها بطاقة معايدة في كل سنة جديدة. ومنذ بضعة سنوات أرسل لها صورة لنفسه يخطب في حشد من أرامل الطبقة الوسطى في بونجابي في مخيم روحي. كانت النساء بالأبيض وأثوابهن الساري مسحوبة فوق رؤوسهن. كان الأب موليغان يرتدي ثوباً بلون الزعفران. محاً يخطب في بحر من البيض المسلوق. كانت لحيته البيضاء وشعره الأبيض طويلين، لكنهما مسرّحين ومهندمين. بابا نويل زعفراني برماد نذريّ على جبينه. لم تستطع بيبي كوتشاما أن تصدق. كانت الشيء الوحيد الذي أرسله لها ولم تحتفظ به. لقد أُهينت بحقيقية أنه كان قد ارتد عن نذوره فعلاً، وأخيراً، لكن ليس من أجلها. بل من أجل نذور أخرى. كان الأمر يشبه الترحيب بأحد ما بذراعين مفتوحتين، فقط لجعله يسير مباشرة إلى ذراعي أحد آخر.

لم يغير موت الأب موليغان من نص البدايات في يوميات بيبي كوتشاما، لأنه ببساطة، وبقدر ما كان يعنيها الأمر، لم يغير من تواجده. وإن كان قد غيّر شيئاً ما، فهو أنها امتلكته في موته بطريقة لم تمتلكه بها أبداً عندما كان حياً. على الأقل ذكرياتها عنه كانت *لها*. بأكملها لها. بهمجية، بعنف، لها. وليس ليتم مشاركتها مع الايمان، وأقل بكثير مع راهبات شريكات منافسات، وزاهدين شركاء أو أيّ ما كانوا يدعون أنفسهم. سواميون[٣] شركاء.

---

(١) ـ عابد للإله فيشو. (المترجمة).
(٢) ـ فيشو: أحد الآلهة الرئيسيين في الهندوسية ، وهو حامي وحافظ الكون. يُصور على أنه ثالث ثلاثة مع براهما وشيفا. (المترجمة).
(٣) ـ سوامي: معلم دين هندوسي . (المترجمة).

ألغى الموت رفضه لها في الحياة (بالرغم من كون ذلك بلطف وعطف). في ذكرياتها عنه، كان يعانقها. هي فقط. بالطريقة التي يعانق فيها رجل امرأة. وما إن مات حتى جرّدت بيبي كوتشاما الأب موليغان من أثواب الزعفران السخيفة وألبسته لباس كاهن الكوكا كولا الذي كانت تحبه كثيراً. (وأثناء التبديل، تمتعت حواسها، بذلك الجسد المسيحي المقعر النحيل) انتزعت قصعته الخاصة بالتسول والتضرع، ونظّفت ورتبت أظافر قدميه الهندوسيتين القرنيتين وأعادت إليه صندله المريح. أعادت تحويله إلى الجمل عالي الخطوات الذي كان يأتي للغذاء في أيام الثلاثاء.

وفي كل ليلة، ليلة بعد ليلة، وسنة بعد سنة، في يوميات بعد يوميات بعد يوميات، كتبت *أنا أحبك أنا أحبك.*

أعادت القلم في عروة القلم وأغلقت دفتر اليوميات. خلعت نظارتها، خلخلت بلسانها طقم أسنانها وأخرجته فاصلة حبال اللعاب التي تربطه مع لثتها مثل أوتار محلولة لغيتار، وأسقطته في كأس من الليستيرين. غاص إلى القاع وبعث نحو الأعلى بفقاعات صغيرة، مثل صلوات. شرابها المسكر قبل النوم. مياه غازية لابتسامة مبطقة. أسنان ذات نكهة مميزة في الصباح.

استندت بيبي كوتشاما إلى وسادتها وانتظرت أن تخرج راحيل من غرفة إستا. لقد بدأا في إقلاقها، كليهما. فمنذ بضعة صباحات، كانت قد فتحت نافذتها (من أجل نَفَس من الهواء النقي) وأمسكت بهما متلبسين بجرم العودة من مكان ما. كان من الواضح أنهما كانا قد أمضيا الليل بأكمله في الخارج. معاً. أين من المحتمل أنهما كانا؟ ماذا وكم يتذكران؟ متى سيغادران؟ ماذا كانا يفعلان، جالسين معاً في الظلام طوال هذه المدة؟ نامت مسنودة بوسادتها، تفكر أنه ربما، بسبب صوت المطر وصوت التلفزيون لم تكن قد سمعت باب إستا يُفتح. وأن راحيل قد ذهبت إلى النوم منذ وقت طويل.

لم تكن.

كانت راحيل مستلقية على سرير إستا. كانت تبدو أكثر نحولاً وهي

مستلقية. وأكثر شباباً. وأصغر. كان وجهها متجهاً نحو النافذة التي بجانب السرير. مطر مائل كان يضرب قضبان النافذة ويتبعثر إلى رشاش رهيف فوق وجهها وذراعها الملساء العارية. كانت كنزتها القطنية الطرية، التي بدون أكمام صفراء زاهية في الظلام. وذاب الجزء السفلي منها، الذي في جينز أزرق، في العتمة.

كان الجو بارداً قليلاً. ورطباً قليلاً. هادئاً قليلاً. **الهواء**.

لكن ماذا كان هناك ليقال؟

كان باستطاعة إستا من مكان جلوسه عند طرف السرير، أن يراها دون أن يدير وجهه. ملّخصة بشكل ضعيف. الخط الحاد لفكها. ترقوتها التي مثل جناحين انتشرا من قاع حنجرتها إلى نهايات كتفيها. طيراً أُمسك بجلد.

أدرات رأسها ونظرت إليه. كان جالساً مستقيماً جداً، ينتظر تفتيشاً. وقد أنهى كويه.

كانت جميلة ومحببة بالنسبة له. شعرها. خداها. ابتسامتها، يداها الذكيتان المظهر.

أخته.

دار صوت في رأسه. صوت قطارات مارة. الضوء والظلال، والضوء والظلال التي تقع عليك إذا ما كنت جالساً على مقعد بجانب النافذة.

جلس باستقامة أكثر. وما زال بإمكانه رؤيتها. وقد نمت في جلد أمهما. الومضة السائلة لعينيها في الظلمة. انفها المستقيم الصغير. فمها، ذو الشفتين المليئتين. كان هناك شيء جريح المظهر بخصوصه. وكأنه كان يجفل من شيء ما. وكأن أحداً ما، منذ زمن بعيد ـ رجلاً بخواتم ـ كان قد ضربها عليه. فم مجروح جميل.

فم أمهما الجميل، فكر إستا. فم آمو.

الذي قبّل يده من خلال نافذة القطار ذات القضبان. درجة أولى، من مادراس ميل إلى مادراس.

«وداعًا، إستا، فليباركك الله» قال فم آمو، فم آمو الذي يحاول ألاّ يبكي.

كانت واقفة على رصيف محطة ميناء كوتشين، ووجهها موجه إلى أعلى ناحية نافذة القطار. وبشرتها رمادية، شاحبة ممتقعة. أفقدها ضوء المحطة النيوني بريقها المنير. أوقف ضوء النهار بالقطارات على الجهتين. سدادات طويلة احتفظت بالعتمة معبأة داخلها. مادراس ميل. راني[1] الطائرة.

راحيل المكبوحة بيد آمو. بعوضة في رسن. حشرة ماصة لاجئة في صندل باتا. جنية مطار في محطة قطار. كانت تدق قدميها على الرصيف، مثيرة سحباً من قاذورات محطة راسخة. إلى أن هزّتها آمو وقالت لها أن توقف ذلك فأوقفته. ومن حولهما الحشد المتجمع المتدافع.

يهرولون يشترون يبيعون يدحرجون أمتعة يدفعون للحمالين أطفال يتغوطون أناس يبصقون يذهبون ويجيئون يتسولون و يساومون و يتفقدون الحجوزات.

أصوات محطة ذات صدى.

باعة متجولون يبيعون قهوة. شاي.

أطفال نحيلون، شقر من سوء التغذية، يبيعون مجلات بذيئة وطعاماً ليس في وسعهم أكله هم أنفسهم.

شوكولاة ذائبة. حلوى بشكل سيجارات.

مشروبات برتقال.

مشروبات ليمون.

كوكا كولا فانتا بوظة روز ميلك.

دمى ذات جلد وردي. خشخاشات. الحب ـ في ـ طوكيو.

ببغاءات بلاستيكية مجوفة مليئة بحلوى ذات رؤوس تستطيع أن تفكّها.

نظارات شمسية صفراء ذات إطارات حمراء.

---

(١) ـ راني: ملكة هندوسية. (المترجمة).

ساعات لعبة بالوقت مرسوماً عليها.
عربات من فراش أسنان معيوبة.
محطة ميناء كوتشين.

رمادية في ضوء المحطة. أناس مقعرون. مشردون. جائعون. ما زالوا متأثرين بمجاعة السنة الماضية. عُلّقت ثورتهم للوقت الحاضر من قبل الرفيق ي. م. س. نامبوديريباد (*الجاسوس السوفييتي، الكلب الهارب*). قرة عين بكين السابق.

كان الهواء سميكاً بالذباب.

رجل أعمى دون جفنين وعينين أزرق كجينز باهت، جلده منقّر بندوب الجدري، كان يثرثر مع حمّال دون أصابع، يأخذ شحطات بارعة من أعقاب سيجارات مكنسة كانت مرمية بجانبه فوق الكومة.

«وماذا عنك؟ متى انتقلت إلى هنا؟»

وكأنه كان لديهما الخيار. وكأنهما كانا قد *اختارا* هذا ليكون بيتهما من صف شاسع من المزارع السكنية المدرجة في قائمة في كتيّب لمّاع.

نزع رجل جالس على آلة وزن حمراء رجله الاصطناعية (من الركبة وحتى الأسفل) مع حذاء أسود وجورب ظريف مرسوم عليها. كانت ربلة الساق المتكتلة المجوفة وردية، مثلما يجب أن تكون عليه ربلات الساق الصحيحة. (عندما تخلق ثانية صورة الرجل، فلماذا تكرر أخطاء الله؟) كان يخزّن في الداخل بطاقته. ومنشفته. وكوبه الفولاذي الذي لا يلصق. رائحته.

أسراره. حبه. جنونه. أمله. فرحه اللامحدود. كانت رجله الحقيقية عارية.

اشترى بعض الشاي من أجل كوبه.

تقيأت سيدة عجوز. بركة متكتلة. وتابعت حياتها.

عالم المحطة. سيرك المجتمع. حيث ومع اندفاع المتاجرة، يأتي اليأس إلى البيت ليجثم ويتصلب ببطء في استسلام.

لكن في هذه المرة، بالنسبة لآمو وتوأمها ذي البيضتين لم يكن يوجد نافذة بليموث ليشاهدوه من خلالها. ولا شبكة لتنقذهم وهم يقفزون هواء السيرك.

احزمي أشياءك وغادري، كان تشاكو قد قال. وهو يدعس على باب محطم. ومقبض في يده. ولم ترفع آمو نظرها عن حياكتها غير الضرورية، بالرغم من أن يديها كانتا ترتجفان. شريطة رفيعة كانت متوضعة مفتوحة في حجرها.

لكن راحيل نظرت نحو الأعلى. ورأت أن تشاكو كان قد اختفى وترك وحشاً في مكانه.

رجل بشفاه سميكة وخواتم، هادئاً في ثياب بيضاء، اشترى سيجارات من بائع رصيف. ثلاث علب. ليدخن في ممر القطار.

إشباع

للرجال النشيطين.

كان مرافق إستا. صديقاً للعائلة تصادف أنه ذاهب إلى مادراس. السيد كورين مائن.

فحيث أنه كان سيتم التعامل مع إستا بشكل ناضج على أي حال، لم ترَ ماماتشي من داع لانفاق المزيد من النقود على بطاقة إضافية. كان بابا سيشتري بطاقة مادراس ـ كالكوتا. وكانت آمو تشتري الوقت. هي أيضاً عليها أن تحزم أشياءها وتغادر. أن تبدأ حياة جديدة، بحيث يكون في وسعها أن تحتفظ بطفليها. وحتى ذلك الحين، تقرر أن فرداً واحداً من التوأم بإمكانه البقاء في

منزل أيمينيم. وليس الاثنان. فقد كانا مشكلة معاً. *سيلباً يف امهنيعاً*[1]. كان يجب فصلهما.

ربما هم على حق، قال همس آمو وهي تحزم حقيبته وجرابه. *ربما يحتاج الولد لبابا بالفعل.*

كان الرجل ذو الشفاه السميكة في العربة المجاورة لعربة إستا. قال انه سيحاول أن يبدّل المقعد مع أحد ما حالما ينطلق القطار.

وللوقت الحالي ترك العائلة وحدها.

كان يعلم أن ملاكاً جهنمياً يرفرف فوقهم. يذهب أينما يذهبون. ويتوقف أينما يتوقفون. مقطراً شمعاً من شمعة محنية.

كان الجميع يعلم.

لقد نُشر في الجرائد. نبأ موت صوفي مول، ونبأ «صدام» الشرطة مع Paravan متهم بالخطف والقتل. ونبأ حصار الحزب الشيوعي اللاحق **لمخللات ومعلبات الجنة** بزعامة صليبيّ أيمينيم المدافع عن العدالة والناطق الرسمي للمضطهدين والمستضعفين. الرفيق ك. م. ن بيلاي الذي ادّعى أن الإدارة قد ورّطت الـ Paravan في قضية شرطة مزوّرة لأنه كان عضواً ناشطاً في الحزب الشيوعي. وأنهم أرادوا أن يقصوه لانغماسه في **«نشاطات نقابية قانونية»**.

كل هذا كان في الجرائد. **الرواية الرسمية.**

بالطبع لم يكن لدى الرجل ذي الشفتين السميكتين أدنى فكرة عن الرواية الأخرى.

التي عبر فيها **رجال شرطة غير منبوذين** نهر الميناتشال، الراكد والمتضخم جراء المطرة[2] الأخيرة، واتخذوا طريقهم عبر النباتات الرطبة، متجمعين داخل **قلب الظلمات.**

---

(١) ـ مقلوب: إبليس في أعينهما. (المترجمة).

(٢) ـ مَطرَة ، تأنيث لِ «مطر». (المترجمة).

١٨

بيت التاريخ

عبر حشد من رجال شرطة غير المنبوذين نهر الميناتشال، الراكد والمتضخم من آخر إمطار، واتخذوا طريقهم عبر النباتات الرطبة، وأغلال تصلصل في جيب أحدهم الثقيلة.

كانت سراويلهم القصيرة العريضة الكاكية متصلبة بالنشاء، ومتمايلة فوق العشب الطويل مثل صف من تنانير متخشبة، مستقلة تماماً عن الأعضاء التي تتحرك داخلها.

كانوا ستة: مأمورو الولاية...

أدب

طاعة

ولاء

ذكاء

كياسة

كفاءة[١].

---

(١) ـ ملاحظة: صيغت هذه الكلمات بحيث يقابل الحرف الأول في كلّ منها أحرف كلمة شرطة بالإنكليزية (Police). (المترجمة).

شرطة كوتايام. فصيلة من الكرتون. أمراء عصر جديد في خوذ مدببة مضحكة. كرتونية مبطّنة بالقطن. مبقعة بزيت شعر. تيجانهم الرثة الكاكية.

ظلام القلب.

فتاك القصد.

رفعوا أرجلهم النحيلة عالياً وهم يسيرون بتثاقل خلال العشب الطويل. علقت زواحف أرضية في شعر أرجلهم المبلل بالندى. وزيّنت قشور وأزهار عشبية جواربهم الباهتة. نامت ديدان بنية في نعال أحذيتهم الفولاذية الأطراف، الخاصة بغير المنبوذين. وترك عشب خشن جلودهم مسلوخة ومتقطعة بالجروح. ضرط وحل رطب تحت أقدامهم وهم يسحقون عبر المستنقع.

ساروا مجهدين مارين بطيور الزُّقة في أعالي الأشجار، تجفف أجنحتها المبللة ناشرة إياها كغسيل باتجاه السماء. مارين بطيور البلشون. بالقاق. باللقالق. بطيور كركي تبحث عن فضاء للرقص. بطيور مالك الحزين أرجوانية قاسية العينين. مصّمة بـِ *واك واك واكاتها*. بإناث طيور وبيوضها.

كانت حرارة الصباح الباكر مليئة بالوعد بأن الأسوأ آتٍ.

خلف المستنقع الذي تفوح منه رائحة مياه راكدة، ساروا مارين بأشجار قديمة محجوبة بكروم. بنباتات ماني[١]عملاقة. بفليفلة برية. بشجيرات أرجوانية متساقطة.

مارين بخنافس زرقاء غامقة متوازنة على أنصال أعشاب غير منحنية.

مارين ببيوت عنكبوت هائل صمدت في وجه المطر وانتشرت كشائعات مهموسة من شجرة إلى شجرة.

بزهرة موز مُغمدة في قنابة[٢] أرجوانية داكنة متدلية من شجرة ممزقة وقذرة الأوراق. تحفة معروضة بواسطة طالب مدرسة قذر. جوهرة في الأدغال المخملية.

---

(١) ـ نوع من النباتات يُقال أنه عندما ينمو يحصل المرء على الكثير من المال.(المترجمة).
(٢) ـ ورقة في قاع أو ساق الزهرة. (المترجمة)

تزاوجت يعاسب قرمزية في الهواء. على مستويين. ببراعة. تفرّج شرطي معجب وتساءل بايجاز عن ديناميكية جماع اليعسوب، وماذا يتحول إلى ماذا. ثم طقطق عقله منتبهاً وعادت **أفكار الشرطة.**

إلى الأمام.

مارين بكثبان نمل متخثرة في المطر. هابطة مثل حراس مخدرين نائمين عند بوابة الجنة.

مارين بفراشات منساقة في الهواء كرسائل سعيدة.

بسراخس هائلة.

بحرباء.

بورود مريعة.

بانطلاقة لطير أدغال راكضاً ينشد تغطية.

بشجرة جوز الطيب التي لم يجدها فيليا بابن.

بقناة متشعبة. راكدة. مختنقة بالطحالب. مثل أفعى خضراء ميتة. وجذع شجرة فوقها. اختال رجال الشرطة غير المنبوذين وهو يعبرون. ملوحين بهراوات من الخيزران المصقول.

جنيات مشعرانية بصولجانات مميتة.

ثم انكسر نور الشمس بجذوع نحيلة لأشجار مائلة. **ظلمة القلب** على رؤوس أصابعها داخل **قلب الظلمات.** وتصاعد صوت صرير الصراصير.

خططت سناجب رمادية جذوع مبرقشة لأشجار مطاط مائلة باتجاه الشمس. وندوب قديمة مشرّطة في ألحيتها. مغلقة. معافاة. غير مُستَغَلة.

هكتارات من هذا، ثم، أرض معشوشبة. وبيت.

بيت التاريخ.

الذي كانت أبوابه مغلقة ونوافذه مفتوحة.

بأرضية من الحجارة الباردة، وظلال متموجة بشكل سفن على الجدران.

حيث أسلاف شمعيون بأظافر أقدام قاسية وأنفاس تفوح منها رائحة خرائط صفراء، يهمسون همساً ورقياً.

حيث تعيش عظاءات نصف شفافة وراء اللوحات.

حيث يُقبض على الأحلام ويُعاد حلمها.

حيث شبح رجل انكليزي عجوز ممنجل إلى شجرة، أُلغي بزوج من توأم بيضتين - **جمهورية متحركة** نفخة شعر كان قد غرز علماً ماركسياً في الأرض بجانبه. وبينما كانت فصيلة رجال الشرطة يختالون مارين، لم يسمعوه يتوسل. *بصوته اللطيف الخاص بالمبشرين. «ممم...من فضلك؟ هل، للل...ليس من المحتمل يحدث أن يكون معك سسس... سيجار، لا أظن أن معك سيجار؟ لا؟... لا؟ لم أظن ذلك؟»*

بيت التاريخ.

حيث في السنين التي تلت، سيدفن **الرعب** في قبر ضحل. مخبأ تحت الدندنة السعيدة لطهاة الفندق. وفي إذلال شيوعيين قدماء. في الموت البطيء للراقصين. وفي لعب التاريخ التي يأتي سياح أغنياء للعب بها.

كان منزلاً جميلاً.

أبيض الجدران، أحمر السقف، فيما مضى. لكنه كان مطلياً بألوان الطقس الآن. بفراشٍ مغموسة في علبة ألوان الطبيعة. أخضر حشيشي. بني ترابي. أسود مفتت. جعلته يبدو أكبر مما كان في الحقيقة. مثل كنز غارق مجروف من قاع المحيط. عليه قبلة حوت وبرنقيل. ومقّمط بالصمت. يتنفس فقاعات من خلال نوافذه المحطمة.

شرفة عميقة تحيط به من جميع الجهات. والغرف ذاتها مرتاحة ومدفونة في الظل. انجرف السقف المائل إلى الأسفل كأطراف قارب ضخم مقلوب. وتشابكت دعامات عفنة لأعمدة كانت بيضاء فيما مضى في المركز، تاركة ثقباً متثائباً فاغر الفم. ثقب تاريخ. ثقباً بشكل التاريخ في الكون، والذي كانت

تمور خلاله عند الغسق سحب كثيفة من خفافيش صامتة مثل دخان مصنع وتُساق داخل الليل.

عادوا عند الفجر مع أخبار عن العالم. سديم رمادي في المسافة الزهرية التحم واسوّد فجأة فوق البيت قبل أن تهبط من خلال ثقب التاريخ كدخان في فيلم يسير بالمقلوب.

كانت الخفافيش تنام طوال النهار. مبطنة السقف كالفراء. وملطخة الأرض بالخراء.

توقف رجال الشرطة وانتشروا. لم يكونوا بحاجة إلى ذلك في الواقع لكن ألعاب غير المنبوذين، هذه كانت تعجبهم.

مركزوا أنفسهم بشكل استراتيجي. جاثمين بقرب جدار الحجارة المتاخم المنخفض والمحطم.

تبول سريع.

رغوة ساخنة على حجارة دافئة. بول شرطة.

نمل غارق في فوار أصفر.

أنفاس عميقة.

ثم زحفوا معاً، على ركبهم وأكواعهم، باتجاه البيت. كرجال شرطة في فيلم. بهدوء، بهدوء عبر العشب. هراوات في أيديهم. ومسدسات في عقولهم. ومسؤوليات بخصوص مستقبل غير المنبوذين على أكتافهم النحيلة لكن القديرة.

وجدوا ضالتهم في الشرفة الخلفية. نفخة شعر مُفسدة. ونافورة في الحب - في - طوكيو. وفي زاوية أخرى (وحيداً كالذئب) - نجاراً ذي أظافر مطلية بلون الدم.

نائماً، جاعلاً من كل عمليات البراعة والدهاء والاحتيال الخاصة بغير المنبوذين، تلك، هراء.

الانقضاض المفاجئ.

العناوين الرئيسية في رؤوسهم.

مجرم يائس يقع في شبكة شرطة.

من أجل هذه الوقاحة والغطرسة، من أجل إفساد المرح هذا، سيدفع طريدتهم الثمن. أوه نعم.

أيقظوا فيلوثا بأحذيتهم.

استيقظ أستابن وراحيل على صرخة نوم متفاجئة من تهشم عظام ركبة.

ماتت الصرخات داخلهما وطفت أعلى بطنيهما، مثل أسماك ميتة. انكمشا على الأرض، متأرجحين بين الذعر وعدم التصديق. أدركا أن الرجل الذي يُضرب كان فيلوثا. من أين أتى؟ ماذا فعل؟ لماذا أحضره رجال الشرطة هنا؟

سمعا صوت ضرب الخشب على اللحم. والحذاء على العظام. على الأسنان. الشخير المكتوم عندما تُركل معدة. والسحق الأبكم لجمجمة على الاسمنت. وقرقرة الدم في تنفس رجل عندما تتمزق رئتيه بنهاية مسننة من ضلع مكسور.

زرق الشفاه وبأعين باتساع أطباق عشاء، راقبا، مشدودين بشيء ما أحسّاه لكنهما لم يفهماه: غياب النزوة فيما فعله رجال الشرطة. الهاوية التي يجب أن يكون الغضب فيها. الوحشية الثابتة والوقورة، والحرص عليها كاملة.

كانوا يفتحون زجاجة.

أو يغلقون صنبوراً.

يكسرون بيضة لصنع عجة.

كان التوأم صغيرين جداً ليدركا أن هؤلاء كانوا أتباع **التاريخ** فحسب. أُرسلوا لتسوية الدفاتر وجمع الديون من أولئك الذين خرقوا قوانينه. محفَّزين بمشاعر أولية لكنها مع ذلك موضوعية وغيرية بشكل متناقض. مشاعر ازدراء وُلدت من خوف بدائي غير مُدرَك ـ خوف الحضارة من الطبيعة، خوف الرجال من النساء، خوف القوة من الضعف.

غريزة الإنسان غير الواعية على تدمير كل ما لا يستطيع إخضاعه ولا تأليهه.

احتياجات الرجال.

ما شهده إستابن وراحيل ذاك الصباح، بالرغم من أنهما لم يدركا ذلك حينها، كان عرضاً سريرياً في ظروف مكبوحة (لم يكن هذا حرباً أو إبادة جماعية، في النهاية) لممارسة الطبيعة الإنسانية للسلطة. للهيكلية. للنظام. احتكار تام: كان تاريخاً إنسانياً، متنكراً على أنه هدف الله، فاضحاً نفسه لمتفرجينَ تحت السن.

لم يكن هناك من شيء عرضي بشأن ما حدث ذلك الصباح. لاشيء *طارئ*. لم يكن سرقة ضالة ولا تسجيلات شخصية لأهداف. تلك كانت حقبة تدمغ نفسها على أولئك الذين عاشوا فيها.

التاريخ في أداء حي.

وإذا ما آذوا فيلوثا أكثر مما كانوا ينوون، فذلك كان فقط لأنه حتى ولو لم يكن يوجد أية قرابة، أية صلة بينهم وبينه، أي تورّط، أو أي شيء آخر، فعلى الأقل بيولوجياً، كان مخلوقاً نداً ـ قد بُتر منذ وقت طويل. لم يكونوا يعتقلون رجلاً، بل كانوا يطردون الخوف. لم يكن لديهم أية أداة ليعايروا كم من العقاب باستطاعته أن يتحمل. ولا وسائل ليقيسوا إلى أي مدى أو كم كانوا قد آذوه بشكل دائم.

بخلاف عادة إثارة غوغاء دينيين، أو إخضاع جيوش مخلّة بالأمن، تصرف رجال الشرطة غير المنبوذون ذاك الصباح بحرص، وليس بشكل مسعور. بكفاءة، وليس بشكل فوضوي. بمسؤولية، وليس بشكل هيستيري. لم يخلعوا شعره أو يحرقوه حياً. لم يقطعوا أعضاءه التناسلية ويحشوها في فمه. لم يغتصبوه. أو يقطعوا رأسه.

ففي النهاية، لم يكونوا يحاربون وباءً. كانوا فقط يلقّحون مجتمعاً ضد تفشّيه.

في الشرفة الخلفية لبيت **التاريخ**، وبينما كان الرجل الذي أحباه يُسحق

ويُهشّم، تعلّمت السيدة إيان والسيدة راجاغوبالان، السفيران التوأم لما لا يعلمه إلاّ الله، درسين جديدين.

الدرس رقم واحد:

بالكاد يظهر الدم على رجل أسود. (ترالا لا)

و

الدرس رقم اثنان:

و مع ذلك، تفوح منه رائحة.

حلاوة مغثية.

كرائحة أزهار قديمة محمولة بنسيم. (ترالا لا)

«Madiyo?» سأل أحد وكلاء التاريخ.

«Madi aayirikkum»، أجاب آخر.

كفاية ؟

كفاية.

خطوا بعيداً عنه. حرفيون يقيّمون عملهم. ناشدين مسافة جمالية.

عملهم، الذي تخلّى عنه الله والتاريخ، وماركس، ورجل، وامرأة و (في ساعات قادمة) أطفال، تمدّد مثنياً على الأرض. كان نصف غائب عن الوعي، لكنه لم يكن يتحرك.

كانت جمجمته مكسورة في ثلاثة أمكنة. وكان أنفه ووجنتاه مهشمين، تاركين وجهه عجينياً، وغير محدد. فلقت اللطمة على فمه، شفته العلوية وحطمت ستة من أسنانه، ثلاثة منها كانت مغروسة في شفته السفلية، مشوهة ابتسامته الجميلة على نحو دميم. أربعة من أضلاعه كانت متشظية، ثقب واحد منها رئته اليسرى، مما جعله ينزف من فمه. كان الدم في نَفَسه أحمر قانياً. نقياً. مزبداً. وكانت أمعاؤه السفلية ممزقة وتنزف، وكان الدم يُجمع في تجويفه البطني. كان عموده الفقري متأذياً في مكانين، وكان الارتجاج قد شلّ ذراعه اليمنى وتسبب في فقدان سيطرته على مثانته وشرجه. ورضفتا ركبتيه كانتا مهشمتين.

ومع ذلك أخرجوا الأغلال.

باردة.

برائحة المعدن الحمضية. مثل رائحة سكك الباص الفولاذية ورائحة يدي الجابي من الإمساك بها. كان ذلك عندما لاحظوا أظافره المطلية. أمسك أحدهم بها عالياً ولوّح بالأصابع بشكل لعوب باتجاه لآخرين. ضحكوا. «ما هذا؟» في صوت عال مصطنع. «مخنّث ؟»

نقر أحدهم على قضيبه بهراوته. «هيا، أرنا سرك الخاص. أرنا إلى أي مدى يكبر عندما تنفخه.» ثم رفع حذاءه (بديدان ملتفة في نعله) وخفضه بضربة طرية مكتومة.

أقفلوا ذراعيه وراء ظهره.

طق.

وطق.

تحت ورقة شجر تجلب الحظ. ورقة شجر خريفية في الليل. تجعل الريح الموسمية تأتي في حينها.

اقشعر جلده حيث مستته الأغلال.

«إنه ليس هو»، همست راحيل لإستا. «أنا أعرف. إنه أخوه التوأم. أورمبان. من كوتشي».

إستا غير الراغب في نشدان ملجأً في الخيال، لم يقل شيئاً.

كان أحد يتكلم معهما. شرطي غير منبوذ لطيف. لطيف مع جنسه.

«أيها الصبي والبنت، هل أنتما بخير؟ هل آذاكما ؟»

وليس معاً، لكن تقريباً، أجاب التوأم في همس.

«نعم، لا.»

«لا تقلقا. أنتما آمنين معنا الآن.»

ثم نظر رجال الشرطة حولهما ورأوا حصيرة العشب.

القدور والطناجر.

الأوزة القابلة للنفخ.

دب الكوالا كانتاس بعينيه الزريتين المحلولتين.
قلمي الحبر بشوارع لندن فيهما.
جوارب بأصابع منفصلة ملونة.
نظارة شمسية بلاستيكية حمراء بإطار أصفر.
ساعة بالوقت مرسوماً عليها.
«لمن هذه ؟ من أين أتت؟ من أحضرها؟» ونبرة قلق في صوته.
إستا وراحيل المليئان بالأسماك، حدّقا فيه.
نظر رجال الشرطة إلى بعضهما البعض. كانوا يعلمون ما عليهم فعله.
دب كانتاس كوالا أخذوه لأولادهم.
وكذلك قلما الحبر والجوارب. كان أطفال الشرطة ذوي أصابع عديدة ملونة.
فجّروا الأوزة بسيجارة. بم. ودفنوا المخلفات المطاطية.
أوزة غير نافعة. من الممكن تمييزها بسهولة جداً.
النظارة لبسها أحدهم. ضحك الآخرون فأبقاها لبرهة. والساعة نسوها جميعاً. بقيت هناك في بيت التاريخ. في الشرفة الخلفية. سجلاً معطوباً عن الزمن. الثانية إلاّ عشر دقائق.
غادروا.
ستة أمراء، جيوبهم محشوة بألعاب.
زوج توأم ببيضتين.
و إله الضياع.
لم يستطع السير، فَجَرُّوه.
لم يرهم أحد.
الخفافيش عمياء.. بالطبع! !

١٩

إنقاذ آمو

في مركز الشرطة، طلب المفتش توماس ماثيو زجاجتي كوكا كولا. مع شلمونتين. أحضرهما شرطي ذليل على صينية بلاستيكية وقدّمهما للطفلين الموحلين الجالسين إلى الطاولة مقابل المفتش، ورأساهما أعلى بقليل فقط من فوضى الملفات والأوراق التي عليها.

وهكذا مرة أخرى، على مدى أسبوعين، خوف معبّأ من أجل إستا. بارد. فوار. في بعض الأحيان تسوء الأمور أكثر مع كوكا كولا.

صعد الفوران في أنفه. تجشأ. قهقهت راحيل. نفخت في قشتها حتى بقبق الشراب وفار على ثوبها. وعلى الأرض. قرأ إستا بصوت عالٍ اللوحة التي على الجدار.

«بدأ»، قال. «بدأ، ةعاط»،

«ءالو، ءا كذ»، قالت راحيل.

«ةسايك»

«ةءافك»،[1]

(١) ـ مقلوب: أدب، طاعة، ولاء، ذكاء، كياسة، كفاءة. (المترجمة).

بقي المفتش توماس ماثيو هادئاً، ليحافظ على اعتباره. شعر بالتفكك المتزايد لدى الأطفال. لاحظ البؤبؤين المتوسعين. كان قد رآه بأكمله من قبل. صمام هروب عقل الإنسان. طريقته في معالجة الصدمة. وضع ذلك في حسابه وصاغ أسئلته بذكاء. وبشكل غير مؤذٍ بين «متى عيد ميلادك، ياصبي؟» و «ما هو لونك المفضل يا بنت؟»

بالتدريج، بدأت الأمور تتوضح على نحو مهيض ومتخلخل. كان رجاله قد أوجزوا له عن قدور وطناجر. وعن حصيرة العشب. والألعاب التي من الصعب نسيانها. بدأت هذه الأمور تُفهم الآن. لم يكن المفتش توماس ماثيو سعيداً. أرسل بسيارة جيب لبيبي كوتشاما. وأخلى الغرفة من الطفلين عندما وصلت. لم يحيِّها.

«اجلسي»، قال.

شعرت بيبي كوتشاما بوجود أمر خطير.

«هل وجدتموهم؟» هل كل شيء على ما يرام؟»

«لا شيء على ما يرام،» أكدّ المفتش توماس ماثيو لها.

أدركت بيبي كوتشاما من نظرة عينيه ونبرة صوته أنها كانت تتعامل مع رجل مختلف هذه المرة. وليس ضابط الشرطة المجامل من لقائهما السابق. خفضت نفسها داخل كرسي. لم يتصنع المفتش توماس ماثيو كلماته.

كانت شرطة كوتايام قد تصرفت بناءً على **محضر** مقدّم من *طرفها*. وقد قُبض على الParavan. ولسوء الحظ تأذى كثيراً خلال التصادم وفي كل الاحتمالات من الممكن ألاّ يعيش حتى الليل. لكن الطفلين يقولان الآن أنهما كانا قد ذهبا بإرادتهما. انقلب قاربهما وغرقت الطفلة الانكليزية عرضاً. الأمر الذي ترك الشرطة مثقلة **بموت** رجل بريء تقنياً في **السجن**. صحيح أنه Paravan، وصحيح أنه أساء التصرف. لكن هذه أوقات عصيبة، وتقنياً، وأمام القانون، هو رجل بريء. ولم يكن هناك من قضية.

«محاولة اغتصاب؟» اقترحت بيبي كوتشاما بضعف.

«أين هي شكوى ضحية الاغتصاب؟ هل قَدِمتْ؟ هل أدلت بأقوالها؟ هل أحضرتها معك؟» كانت نبرة المفتش شرسة. وعدائية تقريباً.

بدت بيبي كوتشاما وكأنها كانت قد تقلّصت. أكياس من اللحم تدلت من عينيها وخديها. تخمّر الخوف داخلها وتحول البصاق في فمها إلى طعم حامضي. دفع المفتش بكأس ما نحوها.

«المسألة بسيطة للغاية. إما أن تقدّم ضحية الاغتصاب شكوى. أو يتعرّف الطفلان على الـParavan على أنه مختطفهم في وجود شرطي شاهد. أو..» وانتظر أن تنظر بيبي كوتشاما إليه. «أو أحاكمك بتهمة تقديم محضر كاذب. إهانة جنائية».

لطّخ العرق قميص بيبي كوتشاما الأزرق الفاتح بأزرق غامق. لم يخدعها المفتش توماس ماثيو. كان يعلم أنه بالنظر إلى المناخ السياسي، هو نفسه كان في مصيبة خطيرة. وكان يدرك أن الرفيق ك. ن. م. بيلاي لن يفوّت هذه الفرصة. لم يغفر لنفسه، أبداً، تصرفه باندفاع. استخدم منشفة يديه المطبوعة ليصل إلى داخل قميصه ويجفف صدره وإبطيه. كان مكتبه هادئاً. أصوات نشاط مركز الشرطة، والأحذية المتثاقلة، والصراخ العرضي الناتج عن ألم أحد ما يُستجوب، بدت بعيدة، وكأنها قادمة من مكان آخر.

«سيفعل الأطفال ما يُطلب منهم،» قالت بيبي كوتشاما. «هل أستطيع الحصول على بضعة دقائق معهم، لوحدنا؟»

«كما ترغبين.» نهض المفتش توماس ماثيو ليغادر مكتبه.

«من فضلك، امنحني فقط خمس دقائق قبل أن تدخلهم.»

هزّ المفتش توماس ماثيو موافقته وغادر.

جففت بيبي كوتشاما وجهها المتعرّق اللامع. مدّت رقبتها، ناظرة نحو السقف لتجفف العرق في التجاويف التي بين حلقات شحم رقبتها بنهاية تنورتها. قبّلت صليبها.

يا مريم، أيتها المليئة بالنعمة.

غابت عنها كلمات الصلاة.

فُتح الباب، وأُرشد إستا وراحيل نحو الداخل. معجونين بالطين. مبللين بالكوكا كولا.

جعلهما منظر بيبي كوتشاما يصحيان فجأة. نشرت الفراشة ذات الكثافة غير الاعتيادية لزغبها الظهري، أجنحتها فوق رأسيهما. *لماذا قدمت هي ؟ أين هي آمو؟ أما زالت محتجزة؟*

نظرت بيبي كوتشاما إليهما بعبوس صارم. ولم تقل شيئاً لوقت طويل. وعندما تكلمت كان صوتها خشناً وغريباً.

«لمن ذلك القارب؟ من أين حصلتما عليه؟»

«قاربنا. الذي وجدناه. أصلحه فيلوثا لنا،» همست راحيل.

«متى حصلتما عليه؟»

«وجدناه يوم مجيء صوفي مول.»

«وسرقتما أشياءً من المنزل وأخذتماها عبر النهر فيه؟»

«كنا فقط نلعب...»

«*نلعبون*؟ هل تسمون ذلك لعباً؟»

نظرت بيبي كوتشاما إليهما لوقت طويل قبل أن تتكلم ثانية.

«جسد ابنة خالكما الحلوة ممدد في غرفة المكتب. لقد أكلت الأسماك عينيها. وأمها لا تستطيع التوقف عن البكاء. هل هذا ما تدعونه *لعبًا* ؟»

جعل نسيم مفاجئ ستارة النافذة تتموج. وفي الخارج استطاعت راحيل أن ترى سيارات جيب واقفة. وأناساً يمشون. رجلاً كان يحاول أن يشغّل دراجته النارية. في كل مرة كان يثب فيها على دواسة التشغيل، كانت خوذته تنزلق إلى الجانب.

داخل غرفة المفتش، كانت فراشة باباتشي تتحرك.

«إنه لشيء فظيع، انتزاع حياة شخص،» قالت بيبي كوتشاما. «إنه أسوأ شيء من الممكن لأي أحد أن يفعله في حياته. حتى الله لا يغفر ذلك. تعلمان هذه، أليس كذلك؟»

هزّا رأسيهما مرتين.

«ومع ذلك ـ» نظرت إليهما بحزن، «فعلتماه.» نظرت في أعينهما. «أنتما قاتلان». انتظرت هذا لتخوض فيه.

«تعلمان أنني أعلم أنه لم يكن حادثاً. أعلم كم كنتما تغاران منها. وإذا ما سألني القاضي في المحكمة سيتوجب عليّ أن أخبره، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أكذب، أليس كذلك؟» ربتت على الكرسي الذي بجانبها. «تعالا، تعالا واجلسا ـ»

أربعة خدود لمؤخرتين مطيعتين، حُشرتا فيه.

«سيتوجب عليّ أن أقول لهم كم كان انتهاكاً شديداً للقانون أن تذهبا لوحدكما إلى النهر. وكيف أجبرتماها على الذهاب معكما بالرغم من أنكما كنتما تعلمان أنها لا تعرف السباحة. وكيف دفعتماها خارج القارب في وسط النهر. لم يكن حادثاً، أليس كذلك؟»

أربعة صحون حدّقت فيها. مأخوذة بالقصة التي كانت تخبرهما إياها. *ثم ماذا حدث ؟*

«وهكذا سيتوجب عليكما الآن أن تدخلا السجن»، قالت بيبي كوتشاما بلطف. «وأمكما ستدخل السجن بسببكما. هل يعجبكما هذا؟»

أعين مذعوة ونافورة، نظرت إليها.

«ثلاثتكم في ثلاثة سجون مختلفة. هل تعلمون كيف هي السجون في الهند؟»

هزّ رأسان مرتين.

نسجت بيبي كوتشاما قضيتها. واستنبطت (من مخيلتها) صوراً حية عن حياة السجن. الطعام المليء بالصراصير المسحوقة. الغائط المكوم في المراحيض كجبال بنية طرية. الأسرة المليئة بالبق. الضرب. وأسهبت في الكلام عن السنوات الطويلة التي ستُبعد فيها آمو عنهما. وكيف ستكون امرأة عجوز مريضة وشعرها مليء بالقمل عندما تخرج ـ ما لم تمت في السجن. واستحضرت، بشكل منظم، بصوتها القلق الجزع المستقبل الذي ينتظرهم.

عندما قضت على كل بارقة أمل لهم ودمرّت حياتهم بشكل كامل، أبرزت لهما حلاً مثل عرابة جنية. لن يغفر لهما الله ما فعلاه، لكن هنا على الأرض كان يوجد طريقة لإلغاء بعض الضرر. لإنقاذ أمهما من الإهانة والذل والمعاناة بسببهما. مطمئنة إلى أنهما كانا جاهزين ليتصرفا بشكل عملي.

«لحسن الحظ»، قالت بيبي كوتشاما، «لحسن حظكما، ارتكبت الشرطة خطأ. خطأ *ميمونًا*». توقفت. «تعرفان ما هو، أليس كذلك؟»

كان هناك شخصان محصوران في ثقالة الورق الزجاجية التي على مكتب الشرطي، كان بإمكان إستا ان يراهما. رجل وامرأة راقصا فالس. كانت تلبس ثوباً أبيض وساقاها ظاهرتان من تحته.

«أليس كذلك؟»

كانت هناك موسيقى فالس في ثقالة الورق. كانت ماماتشي تعزفها على الكمان.

را ـ را ـ را ـ را ـ رام.

بارام ـ بارام.

«الموضوع هو»، كان صوت بيبي كوتشاما يقول، «ما حدث قد حدث.» يقول المفتش أنه سيموت في كل الأحوال. ولهذا فلن يهمه حقاً ما تعتقده الشرطة. المهم هو هل تريدان الذهاب إلى السجن وجعل آمو تذهب إلى السجن بسببك*ما*. إنه عائد لكما أن تقررا ذلك.»

كان يوجد فقاعات في ثقالة الورق مما جعل الرجل والمرأة يبدوان وكأنهما يرقصان تحت الماء. كانا يبدوان سعيدين. ربما كانا يتزوجان. هي في ثوبها الأبيض. وهو في بذلته السوداء وربطة عنقه المقوسة. كانا ينظران في عيني بعضهما البعض بعمق.

«إذا كنتما تريدان إنقاذها، فكل ما عليكما فعله هو الذهاب مع العم ذي الشارب الكبير. سيسألكما سؤالاً. سؤالاً واحداً. إنه أمر سهل جداً، ثمن صغير تدفعاه».

لاحقت بيبي كوتشاما تحديقة إستا. كان هذا كل ما تستطيع فعله لتمنع نفسها من أخذ ثقالة الورق ورميها من النافذة. كان قلبها يطرق.

«إذن !» قالت، بابتسامة هشة، براقة، بدأ الجهد يظهر في صوتها. «ماذا أقول للعم المفتش؟ ماذا قررنا؟ هل تريدان إنقاذ آمو أم نرسلها إلى السجن؟»

وكأنها كانت تعرض عليهما خياراً لمتعتين. **الصيد أم تنظيف الخنازير؟ تنظيف الخنازير أم الصيد؟**

رفع التوأم نظرهما نحوها. ليس معاً (لكن تقريباً) صوتان مذعوران همسا، **«إنقاذ آمو».**

سيُعيدا عرض هذا المشهد في رأسيها طوال السنوات التي ستلي. طفلين، مراهقين، ناضجين. هل خُدعا ليفعلا ما فعلاه؟ هل ضُلّلا للقيام بالإدانة ؟

بطريقة ما، نعم. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. فكلاهما كان يعلم أنهما قد أُعطيا خياراً. وكم كانا سريعين في الاختيار! لم يفكرّا أكثر من دقيقة قبل أن يرفعا نظريهما ويقولا (ليس معاً، لكن تقريباً) ـ **«إنقاذ آمو. إنقاذ أنفسنا، إنقاذ أمنا.»**

تهللت بيبي كوتشاما. إن العمل المريح كالمسهّل. كانت بحاجة للذهاب إلى الحمام. بشكل عاجل. فتحت الباب وسألت عن المفتش.

«إنهما طفلان صغيران طيبان،» قالت له عندما جاء. «سيذهبان معك.»

«لا حاجة لكليهما. واحد سيفي بالغرض.»

قال المفتش توماس ماثيو. «أي واحد. مول؟. مون؟. من يريد المجيء معي؟»

«إستا». اختارت بيبي كوتشاما. مدركة أنه سيكون الأكثر واقعية بينهما. الأكثر مطواعية. الأكثر بعد نظر. والأكثر مسؤولية. «اذهب أنت، إلى اللقاء.»

رجل صغير. كان يعيش في كارا ـ فان. ترالا لا.

ذهب إستا.

السفير إ. بيلفيس. بعينين كصحني فنجان ونفخة شعر مُفسدة. سفير قصير محمي بشرطي طويل، في مهمة رهيبة داخل أحشاء مركز شرطة كوتايام. ووقع أقدامهم يصدر صدى على بلاط الأرضية.

بقيت راحيل في مكتب المفتش واستمعت إلى الأصوات الفظة لارتياح بيبي كوتشاما المتقطر على جانبي مبولة المفتش في المرحاض الملاصق. «طرادة الماء لا تعمل،» قالت عندما خرجت. «إنه لأمر مزعج.» مُحرجة من أن المفتش سيرى لون وقوام برازها.

كان السجن مظلماً. لم يستطع إستا أن يرى شيئاً لكنه استطاع سماع صوت التنفس الخشن المجهد. جعلته رائحة الخراء يتهوّع. أشعل أحدهم الضوء. مشع. ويمنع الرؤية. ظهر فيلوثا على الأرض المزبدة الزلقة. جني مشوه أُستحضر من مصباح حديث. كان عارياً، حُلّ موندوه المتسخ. وسُفح الدم من جمجمته مثل سر. كان وجهه متورماً وبدا مثل يقطينة، كبير جداً وثقيل بالنسبة للساق النحيلة التي نما منها. ذو ابتسامة وحش مقلوبة. تراجعت أحذية الشرطة عن بركة البول المنتشرة منه، انعكست اللمبة الكهربائية العارية البراقة عليه.

طفت أسماك ميتة نحو الأعلى داخل إستا. نهزه أحد رجال الشرطة فيلوثا بحذائه. لم يكن تبدر أية استجابة. قرفص المفتش توماس ماثيو وخدش بمفتاح سيارته الجيب باطن قدم فيلوثا. فُتحت عينان متورمتان. زائغتان. ثم تركزّتا في غشاوة دم على طفل حبيب. تخيّل إستا أن شيئاً ما فيه قد ابتسم. ليس فمه، لكن عضواً آخر منه لم يصب بأذى. كوعه ربما. أو كتفه.

سأل المفتش سؤاله. قال فم إستا نعم.

غادرت الطفولة على رؤوس أصابعها.

انزلق الصمت مثل رتاج.

أطفأ أحدهم الضوء واختفى فيلوثا.

في طريق عودتهما في سيارة الشرطة، توقفت بيبي كوتشاما عند اطباء

موثوقون لشراء بعض الكالمبوس. أعطت لكل منهما اثنتين. وفي الوقت الذي وصلا فيه عند جسر تشونغام كانت أعينهما تبدأ بالإطباق. همس إستا بشيء ما في أذن راحيل.

«كنت على حق. لم يكن هو. إنه أرومبان.»

«الحمد لله» همست راحيل.

«أين هو باعتقادك ؟»

«فرّ إلى أفريقيا.»

سُلّما لأمهما غارقين في النوم، طافيين في خيالهما.

حتى الصباح التالي، عندما أخرجته منهما آمو. لكن عندئذ كان الأوان قد فات.

المفتش توماس ماثيو، الرجل ذو خبرة بهذه الأمور، كان على حق. لم يعش فيلوثا حتى الليل.

بعد منتصف الليل بنصف ساعة، جاء الموت إليه.

وماذا بالنسبة للعائلة الصغيرة الملتفة والنائمة في لحاف أزرق ذي غرز متصالبة ؟ ماذا حصل لهم ؟

ليس الموت. فقط نهاية الحياة.

بعد جنازة صوفي مول، عندما أخذتهما آمو إلى مركز الشرطة واختار المفتش المانغا التي يريدها (دق، دق)، كانت الجثة قد أُزيلت. رُميت في themmady kuzhy- حفرة الصعاليك حيث ترمي الشرطة موتاها بشكل روتيني.

ذُعرت بيبي كوتشاما، عندما سمعت عن زيارة آمو لمركز الشرطة. فكل ما فعلته بيبي كوتشاما ، كان قد بُني على افتراض واحد. كانت قد راهنت على حقيقة أن آمو، أيّاً كان ما فعلته، ومهما كانت غاضبة، لن تعترف علانية

أبداً بعلاقتها مع فيلوثا. لأن، تبعاً لبيبي كوتشاما، فإن ذلك يعادل تدميرها وتدمير طفليها. للأبد. لكن بيبي كوتشاما لم تأخذ باعتبارها حافة آمو الخطرة. **المزيج غير قابل للمزج** ـ الرقة اللامتناهية للأمومة والحماسة المتهورة التي لقاذف قنابل انتحاري.

أذهلها رد فعل آمو. دارت الأرض تحت قدميها. كانت تعلم أن المفتش توماس ماثيو حليف لها. لكن كم سيدوم ذلك ؟ ماذا لو نُقل وأُعيد فتح القضية؟ كان ذلك ممكناً ـ بالأخذ بالاعتبار الحشد الصارخ بالشعارات لعاملي الحزب الذي تمكن الرفيق ك. م. ن. بيلاي من جمعه خارج البوابة. الذي منع العمال من المجيء للعمل، وترك كميات هائلة من المانغا والموز والأناناس والثوم والخل تتعفن ببطء في مباني **مخللات الجنة**.

أدركت بيبي كوتشاما أن عليها أن تبعد آمو عن أيمينيم في أقصى سرعة ممكنة.

تمكنت من ذلك بقيامها بما تتفوق في فعله. إرواء حقولها وتغذية محاصيلها بعواطف الآخرين.

قضمت مثل جرذ داخل مستودع حزن تشاكو. غرزت بين جدرانه هدفاً سهلاً ومتيسراً لغضبه المجنون. لم يكن من الصعب عليها أن تصوّر آمو على أنها الشخص المسؤول فعلاً عن موت صوفي مول. آمو وتوأمها ذي البيضتين.

لم يكن تشاكو محطِّم الأبواب، سوى الثور الحزين الذي يجلد في نهاية الرسن الذي تمسك به بيبي كوتشاما. لقد كانت فكرتها هي أن تُجبر آمو على أن تحزم أمتعتها وتغادر. وأن يُعاد إستا.

٢٠

مادراس ميل

وهكذا، إستا الوحيد في نافذة القطار ذات القضبان، في محطة ميناء كوتشين. السفير إ. بيلفيس. حجر طاحون بِنفخة شعر. بشعور سفلي، سحيق، طافٍ، مليء بأعشاب البحر، متكتّل، مائي سميك، متموج أخضر. كانت حقيبته المكتوب عليها اسمه تحت مقعده. وصندوق طعامه الذي يحتوي على ساندويتش الطماطم وترمسه الذي بشكل نسر كانا على طاولة صغيرة قابلة للطي، أمامه.

إلى جانبه سيدة أكولة بثوب ساري أخضر وأرجواني وماستين متكتلتين كنحلتين مشعتين في كل منخر قدّمت له لادوس[1] في علبة. هزّ إستا رأسه. ابتسمت ولاعبته، اختفت عيناها اللطيفتان في شقين خلف نظارتها. أصدرت أصوات تقبيل بفمها.

«جرّب واحدة. لذيذة جججداًا»، قالت بالتاميل Rombo madrum[2].

«لذيذ»، قالت بالانكليزية ابنتها الكبرى التي كانت في عمر إستا.

---

(١) ـ حلوى تُصنع في مناسبات خاصة. (المترجمة).

(٢) ـ إحدى اللغات المستخدمة في جنوب الهند وشمال سيريلانكا .(المترجمة).

هزّ إستا رأسه ثانية. شعّثت السيدة شعره وأفسدت نفخته. كانت عائلتها (زوج وثلاثة أطفال) يأكلون من قبل. فتاتاً أصفر مدوراً كبيراً على المقعد. وهدير قطار تحت أقدامهم. لم يُشعل نور الليل الأزرق بعد.

أشعله الابن الصغير للسيدة الأكول. أطفأته السيدة الأكول. وشرحت للطفل أنه كان ضوءاً للنوم. وليس ضوء استيقاظ.

كانت كل الأشياء خضراء في أمكنة القطار ذات الدرجة الأولى. المقاعد خضراء. المضاجع خضراء. الأرضية خضراء. السلاسل خضراء. أخضر غامق أخضر فاتح.

لإيقاف القطار اسحب السلسة، كُتب بالأخضر.

فاقيإل راطقال بحسا ةسلسلا[1]، فكرّ إستا بالأخضر.

أمسكت آمو بيديه عبر قضبان النافذة.

«انتبه إلى بطاقتك»، قال فم آمو. فم آمو الذي يحاول ألاّ يبكي. «إنهم يأتون جميعاً ويتفقدون.»

هزّ إستا رأسه نحو رأس آمو المائل إلى الأعلى باتجاه النافذة. نحو راحيل، الصغيرة والملطخة بوسخ المحطة. وجميعهم مرهونون بالإدراك اليقيني والمنفصل، أنهم أحبوا رجلاً حتى الموت.

لم يكن ذلك رسمياً.

لقد استغرق التوأم سنين ليفهما دور آمو في ما حدث. شاهدا عينيها المتورمتين في جنازة صوفي مول وخلال الأيام التي سبقت إعادة إستا، وبمركزية النفس التي للأطفال، حمّلا نفسيهما الملامة الكاملة على أساها.

«كل الساندويتش قبل أن تتبلل،» قالت آمو. «ولا تنس أن تكتب.»

---

(١) ـ مقلوب: لإيقاف القطار، اسحب السلسلة. (المترجمة).

دقّقت في أظافر اليد الصغيرة التي كانت تمسك بها، وأخرجت فتيلة سوداء من الوسخ من تحت أظفر الإبهام.

«واعتنِ بحبيبي من أجلي. إلى أن آتي وآخذه.»

«متى، آمو ؟ متى ستأتين لتأخذيه؟»

«قريباً.»

«لكن متى؟ متى بالضّابطط[1]؟»

«قريباً، يا حبيب قلبي. في أقرب فرصة ممكنة».

«شهر ـ بعده ـ بعد الذي بعده؟ آمو؟» مطيلاً المدة عن قصد بحيث تقول آمو، *قبل ذلك، يا إستا. كن واقعيًا. وماذا بشأن دراستك؟*

«حالما أحصل على عمل. حالما أستطيع المغادرة والحصول على عمل.» قالت آمو.

«لكن ذلك لن يحدث» موجة ذعر. شعور سفلي سحيق.

اختلست السيدة الأكول السمع بشكل متلطّف.

«هل ترون كيف يتكلم الانكليزية بإتقان،» قالت لأولادها بالتامل.

«لكن ذلك لن يحدث أبداً،» قالت ابنتها الكبرى بشراسة. «أبا اا دد اا. أبداً.»

لم يكن يقصد إستا بِـ «لن يحدث» سوى أن ذلك سيكون بعد زمن طويل جداً. أنه لن يكون *الآن*، لن يكون *قريبًا*.

لم يكن يقصد بِـ «لن يحدث»، أنه «لن يحدث أبداً»

لكن الكلمات تخرج بهذه الطريقة.

لكن ذلك لن يحدث!

---

(١) ـ بالضبط مشدد عليها. (المترجمة).

لقد انتزعوا من «لن يحدث أبداً» فقط «أبداً»، من أجل صياغة «لن يحدث»[1]

هم؟

الحكومة.

حيث كان يُرسل الناس ليتعلموا التصرف **بشكل جيد كما ينبغي**.

وعلى هذا النحو تحولت الأمور بأكملها.

لن يحدث. لن يحدث أبداً.

لقد كان *خطأه* هو أن الرجل البعيد في صدر آمو توقف عن الصراخ. *خطأه* هو أنها ماتت وحيدة في نزل من دون أحد ليستلقي إلى ظهرها ويتكلم معها.

لأنه كان من *قالها. لكن آمو ذلك لن يحدث أبدًا!*

«لا تكن سخيفاً يا إستا. سيكون قريباً» قال فم آمو. «سأصبح معلمة. وسأنشئ مدرسة. وستكون أنت وراحيل فيها.»

«وسنكون قادرين على تحمل مصاريفها لأنها ستكون لنا!» قال إستا. وعينه على الفرصة السانحة الأساسية. ركوب باص مجاني. جنازات مجانية. تعليم مجاني. رجل صغير. كان يعيش في كارا - فان. ترالا لا.

«وسيكون لنا بيتنا،» قالت آمو.

«بيت صغير،» قالت راحيل.

«وفي مدرستنا سيكون لنا صفوف وألواح،» قال إستا.

«وطباشير.»

«ومدرسون حقيقيون يدرسون.»

---

(١) - في النص الانكليزي كانت المقارنة بين not ever و never ، حيث يمكن الحصول على never بحذف حرفي «o» و «t» من not ever. (المترجمة).

«وعقوبات مناسبة،» قالت راحيل.

كانت هذه هي الأشياء التي يتكّون منها حلمهم. في اليوم الذي أُعيد فيه إستا. طباشير. ألواح. عقوبات مناسبة.

لم يطلبوا أن يُخفف عنهم قليلاً. طلبوا فقط عقوبات تناسب جرائمهم. وليست تلك التي تأتي كالخزائن الجدارية في غرف النوم. ليست تلك التي تُنفق عمرك داخلها، ضالاً في متاهة رفوفها.

دون إنذار بدأ القطار في التحرك. ببطء شديد.

توسّع بؤبؤ إستا. انغرز أظفره في يد آمو وهي تسير على طول الرصيف. تحول سيرها إلى ركض عندما أسرع قطار مادراس ميل.

ليباركك الله، يا طفلي. يا حبيبي قلبي. سآتي لآخذك قريبًا!

«آمو!» قال إستا عندما كانت تسحب يدها. فاتحاً أصبعاً رخواً وراء أصبع. «أشعر بالغثيان! آمو!» ارتفع صوت إستا في نحيب.

إلفيس بيلفيس الصغير ذو نفخة الشعر المميزة المُفسدة. ذو الحذاء البيج المدبب. خلّف صوته وراءه.

انثنت راحيل وصرخت وصرخت على رصيف المحطة.

انسحب القطار نحو الخارج. والضوء نحو الداخل.

بعد ثلاث وعشرين سنة، راحيل، امرأة سمراء في كنزة قطنية صفراء، عادت إلى إستا الذي في الظلام.

«إستابابيتشاتشن كوتابن بيتير مون»، قالت.

همست.

حرّكت فمها.

فم أمهما الجميل.

إستا، الجالس بشكل مستقيم جداً، ينتظر أن يُقبض عليه، مرّر أصابعه عليه. ليلمس الكلمات التي يصيغها. ليحتفظ بهمسه. لاحقت أصابعه شكله. لمست أسنانه. أُمسكت يده وقُبّلت.

ضُغطت على برودة خد، رُطِّب بمطر مبعثر.

ثم جلست ووضعت ذراعيها حوله. وسحبته إلى جانبها.

استلقيا على هذا النحو لوقت طويل. مستيقظين في الظلام. **الصمت و الفراغ.**

ليسا متقدمين في السن. ليسا صغيرين.

لكن في سن قابلة للحياة، قابلة للموت.

كانا غريبين التقيا مصادفة.

كانا قد عرفا بعضهما البعض قبل أن تبدأ الحياة.

لم يكن هناك الكثير مما يستطيع أن يقوله أيّ كان ليوّضح ما حدث فيما بعد. لا شيء (في كتاب ماماتشي) من الممكن أن يفصل الجنس عن الحب. أو الاحتياجات عن المشاعر.

عدا ربما أنه لم يكن هناك من مراقب ليراقب من خلال عيني راحيل. لا أحد حدّق خارج نافذة إلى البحر. أو إلى قارب في نهر. أو إلى عابر سبيل في سديم يرتدي قبعة.

عدا ربما أنه كان بارداً قليلاً. رطباً قليلاً. لكن هادئاً جداً. الجو.

لكن ماذا كان هناك ليقال ؟

فقط أنه كان يوجد دموع. فقط أن الصمت و الفراغ توافقا مع بعضهما البعض كملعقتين مكدستين فوق بعضهما البعض. فقط أنه كان هناك خنة في تجاويف قاع حنجرة حبيبة. فقط أن كتفاً صلبة بلون العسل كان عليه نصف دائرة من علامات أسنان. فقط أنهما عانقا بعضهما البعض لزمن طويل بعد أن انتهيا. فقط أن ما تشاركاه في تلك الليلة لم تكن السعادة، بل أسى فظيع.

فقط أنهما خرقا قوانين الحب للمرة الثانية. التي تسن من يجب أن يُحب. وكيف. وكم.

على سطح مصنع مهجور، قرع قارع الطبل الوحيد. صُفق باب شفاف. اندفع فأر عبر أرض المصنع. ختمت بيوت العنكبوت أحواض مخلل قديمة. فارغة جميعها، عدا واحداً - تتوضع فيه كومة صغيرة من غبار أبيض متخثر. غبار عظام بومة، ماتت منذ زمن طويل. بومة مخللة.

في إجابة على سؤال صوفي مول: *تشاكو، أين تذهب الطيور الهرمة لتموت؟ لماذا لا تسقط الطيور الميتة كالحجارة من السماء؟*

سئل في مساء اليوم الذي وصلت فيه. كانت واقفة على حافة بركة بيبي كوتشاما التزينية تنظر أعلى إلى طيور حدأة تحوّم في السماء.

صوفي مول. ذات القبعة، والسروال عريض الرجل، والمحبوبة منذ البدء.

مارغريت كوتشاما لأنها كانت تعلم أنك عندما تسافر إلى **قلب الظلمات** (ب) *(من الممكن أن يحدث أي شيء لأتي كان)* نادتها لتتناول حميتها من الحبوب. للديدان الشريطية. للملاريا. للإسهال. لسوء الحظ، لم يكن لديها وقاية ضد الموت غرقاً.

ثم حان وقت العشاء.

«العشاء سخيف»، قالت صوفي مول عندما أُرسل إستا ليناديها.

عند *العشاء السخيف*، جلس الأطفال على طاولة صغيرة منفصلة. صوفي مول، التي كان ظهرها إلى الكبار، قامت بتكشيرات شنيعة على الطعام. كانت تعرض كل لقمة على ولدي عمتها المعجبين، نصف ممضوغة، مفروشة، وممددة على لسانها كقيء طازج.

عندما قامت راحيل بالمثل، رأتها آمو وأخذتها للنوم.

دسّت آمو طفلتها الملعونة في السرير وأطفأت النور. لم تترك قبلتها لـِ" تصبحين على خير " بصاقاً على خد راحيل وعلمت راحيل أنها لم تكن غاضبة فعلاً.

«آمو، أنت لست غاضبة». في همس سعيد. *كانت تحبها أمها أقل بقليل.*

«لا»، قبلتها آمو ثانية. «تصبحين على خير يا حبيبة قلبي. ليباركك الله».

«تصبحين على خير آمو. أرسلي إستا حالاً.»

وبينما كانت آمو تبتعد سمعت ابنتها تهمس، «آمو!»

«ماذا هنالك؟»

«نحن من دم واحد، أنت وأنا.»

استندت آمو على باب غرفة النوم في الظلام، كارهة العودة إلى طاولة العشاء حيث كانت الأحاديث تدور مثل عثة حول الطفلة البيضاء وأمها وكأنهما كانا مصدر النور الوحيد. شعرت آمو أنها ستموت، تذبل وتموت، إن

سمعت كلمة أخرى. إن تحمّلت دقيقة أخرى ابتسامة تشاكو الفخورة الشبيهة بابتسامة فائز بميدالية في التنس. أو الغيرة الجنسية التحتية الصادرة عن ماماتشي. أو حديث بيبي كوتشاما المخصص لإقصاء آمو وطفليها، لإعلامهم بمكانهم في مجرى الأحداث.

وبينما هي مستندة إلى باب غرفة النوم، أحسّت بحلمها، الكابوس الذي رأته عصراً، يتحرك داخلها كعرق من الماء ينبع من المحيط، ويتجمع في موجة. الرجل البشوش ذو الذراع الواحدة والجلد المالح وكتف تنتهي فجأة كجرف يبزغ من ظلال شاطئ مسنن ويسير باتجاهها.

من كاز؟

من الممكن أن يكون ؟

إله الضياع.

إله الأشياء الصغيرة.

إله القشعريرة والابتسامات الفجائية.

لم يكن بإمكانه القيام بالأشياء إلاّ واحداً واحداً فقط.

إذا ما لمسها، لم يكن يستطيع أخذها، إذا ما أحبها لم يكن يستطيع تركها، إذا ما تكلم لم يكن يستطيع الإنصات، إذا ما حارب لم يكن يستطيع الفوز.

تاقت آمو إليه. اشتهته بوجع بكامل بيولوجيتها.

عادت إلى طاولة العشاء.

٢١

ثمن العيش

عندما أغلق المنزل الهرم عينيه العمشتين المتعبتين وغرق في النوم، خرجت آمو، المرتدية أحد قمصان تشاكو فوق تنورة بيضاء طويلة، إلى الشرفة الأمامية. صعدت ونزلت لبرهة من الوقت.. ثم جلست على كرسي خشب الأُملود تحت رأس الثور عتيق الطراز ذي العينين الزريتين، وصورتي الصغير المُبارَك واليوتي أماتشي المعلقيتين على جانبيه. كان توأمها نائمين بالطريقة التي ينامان فيها عندما يكونان مرهقين ـ بأعينيهما نصف مفتوحتين، وحشين صغيرين. لقد ورثا هذا عن أبيهما.

فتحت آمو راديوها الذي بشكل مندرين. طقطق صوت رجل عبره. أغنية إنكليزية لم تكن قد سمعتها من قبل.

جلست هناك في الظلام. امرأة رشيقة لامعة وحيدة، تنظر إلى حديقة عمتها المغتاظة التزينية، وتستمع إلى مندرين. إلى صوت قادم من بعيد. يهب عبر الليل. مبحراً فوق البحيرات والأنهار. فوق رؤوس أشجار كثيفة. ماراً بالكنيسة القديمة. بالمدرسة. قافزاً فوق وسخ الطريق. صاعداً درجات الشرفة. إليها.

وهي بالكاد تستمع إلى الموسيقى، راقبت الحشرات المسعورة التي تطير حول الضوء، تتنافس لقتل نفسها.

انفجرت كلمات الأغنية داخل رأسها.

لا يوجد هناك وقت لنضيعه
أسمعها تقول
اقبض على احلامك قبل
أن تنزلق بعيداً
تحتضر طوال الوقت
أضِع أحلامك و
ستفقد عقلك.

رفعت آمو ركبتيها وعانقتهما. لم تستطع تصديق ذلك. المصادفة الرخيصة لهذه الكلمات. حدّقت بعنف في الحديقة. حلّقت أوسا البومة مارة في دورية حراسة صامتة. وومضت الأنثوريام[1] الشحمية مثل معدن بندقية. بقيت جالسة لفترة. بعد أن انتهت الأغنية بوقت طويل. ثم وقفت فجأة وسارت خارج عالمها كساحرة. إلى مكان أفضل، وأكثر سعادة.

تحركت بسرعة في الظلمة، مثل حشرة تطير في درب كيميائي. كانت تعلم طريقها إلى النهر جيداً بمثل ما يعرفه طفلاها وكانت تستطيع إيجاد طريقها إلى هناك حتى وهي معصّبة العينين. لم تعرف ما الذي جعلها تُسرع عبر النباتات. والذي حوّل سيرها إلى ركض. والذي جعلها تصل إلى ضفاف الميناتشال لاهثة. تنشج. وكأنها قد تأخرت على شيء ما. وكأن حياتها تعتمد على وصولها هناك في الوقت المناسب. وكأنها علمت انه سيكون هناك. ينتظر. وكأنه علم أنها ستأتي.

لقد فعل.

علم.

---

(١) ـ أي من النباتات المدارية دائمة الخضرة. (المترجمة).

انزلقت تلك المعرفة داخله ذاك العصر. بنظافة. كنصل سكين حاد. عندما انزلق **التاريخ** خارجاً. عندما كان يحمل ابنتها الصغيرة بين ذراعيه. عندما قالت له عيناها أنه ليس المقدّم الوحيد للهدايا. أنها هي أيضاً لديها هدايا لتعطيه إياها، في مقابل قواربه، وصناديقه، وطواحين هوائه الصغيرة، ستقايضه بغمازتيها العميقتين عندما تبتسم. ببشرتها البنية الناعمة. بكتفيها المشعتين. بعينيها اللتين كانتا في مكان آخر على الدوام.

لم يكن هناك.

جلست آمو على درج الحجارة الذي يقود داخل المياه. دفنت رأسها في ذراعيها، وهي تشعر بالغباء لأنها كانت متأكدة جداً. *واثقة* جداً.

أبعد، باتجاه التيار في وسط النهر، كان فيلوثا طافياً على ظهره، وينظر نحو الأعلى إلى النجوم. كان أخوه المشلول ووالده ذو العين الواحدة قد أكلا العشاء الذي صنعه لهما وناما. وهكذا كان حراً في أن يتمدد في النهر و يترك نفسه ينساب ببطء مع التيار. جذع شجرة. تمساحاً ساكناً. شجرة جوز هند انحنت نحو النهر وراقبته وهو يطفو ماراً. وبكى خيزران أصفر. مارست أسماك صغيرة حريات لعوبة معه. ونقرته.

انقلب وبدأ بالسباحة. ضد التيار. استدار تجاه الضفة من أجل نظرة أخيرة، متخذاً طريقه في المياه، يشعر بالغباء لأنه كان متأكداً جداً. *واثقًا* جداً.

عندما رآها كاد الانفجار يغرقه. تطلّب منه كل قوته ليبقى طافياً. وطأ الماء، واقفاً في وسط نهر قاتم.

لم تر تدويرة رأسه تنوس فوق النهر القاتم. من الممكن أن يكون أي شيء. شجرة جوز هند طافية. على أي حال لم تكن تنظر. كان رأسها مدفوناً في ذراعيها.

راقبها. أخذ وقته في ذلك.

لو كان يعلم أنه كان على وشك دخول نفق مخرجه الوحيد، هو فناؤه

الشخصي، هل كان سيستدير ويبتعد؟

ربما.

وربما لا.

من يستطيع أن يعرف؟

بدأ بالسباحة نحوها. بسرعة. مجدفاً الماء دون جلبة. كان قد وصل الضفة تقريباً عندما رفعت نظرها ورأته. لمست قدماه قاع النهر الموحل. وبينما خرج من النهر القاتم وصعد الدرجات الحجرية، رأت أن العالم الذي كانا يقفان فيه كان عالمه. أنه ينتمي إليه. وأن العالم ينتمي إليه أيضاً. الماء. الطين. الأشجار. الأسماك النجوم. كان يتحرك بسهولة فائقة فيه. بينما كانت تراقبه أدركت نوعية جماله. كيف كان عمله قد شكّله. كيف أن الخشب الذي أبدعه، كان قد أبدعه بالمقابل. كل قطعة خشب سوّاها وكل مسمار اقتلعه وكل شيء صنعه، كان قد قولبه. ترك طابعه عليه. أعطاه قوته، رشاقته اللينة.

كان يلبس لباساً رقيقاً أبيض حول خصره، معقوداً بين رجليه الغامقتين. نفض الماء من شعره. استطاعت أن ترى ابتسامته في العتمة. ابتسامته الفجائية البيضاء التي حملها معه من فتوته إلى رجولته. متاعه الوحيد.

نظرا إلى بعضهما البعض. لم يعودا يفكران. كان الوقت قد فات من أجل هذا. تمددت ابتسامات مهشمة أمامهما. لكن ذلك سيكون فيما بعد.

فيما بعد.

وقف أمامها والنهر يتقطّر منه. بقيت جالسة على الدرجات، تراقبه. ووجهها شاحب في ضوء القمر. زحفت برودة مفاجئة إليه. لقد أساء فهمها. كان كل شيء مجرد اختلاق من خياله. كان هذا فخاً. كان هناك أناس بين الشجيرات. يراقبون. وكانت هي طعمه اللذيذ. كيف يمكن للأمر أن يكون غير ذلك ؟ لقد رأوه في المسيرة. حاول أن يجعل صوته طبيعياً. عادياً. لكنه خرج في نعيق.

«آمو كوتي.. ماذا هنالك؟»

ذهبت نحوه ومددت طول جسدها مقابل طول جسده. وقف هو فقط. لم يلمسها. كان يرتجف. بسبب البرد. بسبب الرعب. و بسبب الرغبة الموجعة. وبالرغم من خوفه كان مستعداً أن يأخذ طعمه. كان يريدها. بشكل عاجل. بلّلها بلله. وضعت ذراعيها حوله.

حاول أن يكون منطقياً: *ما هو أسوأ ما قد يحدث؟ قد أفقد كل شيء. عملي. عائلتي. حياتي. كل شيء.*

استطاعت أن تسمع طرقات قلبه الضارية.

عانقته إلى أن هدأ. نوعاً ما.

فكّت أزرار قميصها. وقفا هناك. جلداً لجلد. سمارها أمام سواده. نعومتها أمام قساوته. ثدياها البنيان اللذان بلون الجوز (اللذان لم يكونا يتحملان فرشاة أسنان) مقابل صدره الأبنوسي الناعم. شمّت النهر فيه. رائحته الخاصة بالـ Paravan التي كانت تقرف بيبي كوتشاما كثيراً. أخرجت آمو لسانها وتذوقته، في تجويف حنجرته. في شحمة أذنه. جذبت رأسه نحوها وقبلّت فمه. قبلة غائمة. قبلة تطالب بقبلة في المقابل. قبلّها. بحذر أولاً. ثم بإلحاح. التفت ذراعاه حولها ببطء. مسّد ظهرها. برقة شديدة. استطاعت أن تشعر بجلد راحة يده. خشناً. متصلباً. بورق السنفرة. استطاعت أن تشعر كم كانت ناعمة بالنسبة إليه. استطاعت أن تشعر نفسها من خلاله. جلدها. الطريقة التي يوجد فيها جسدها فقط حيث يلمسها. وفيما تبقى كانت دخاناً. شعرت به يرتعد مقابلها. كانت يداه على ردفيها (اللذين بإمكانهما تحمّل سرية من فراشي الأسنان)، جاذباً وركيها إليه ليجعلها تعلم كم كان يريدها.

ابتكرت البيولوجيا الرقصة. ووقّتها الزمن. وأملاها الايقاع الذي كان جسد كل منهما يجيب الآخر به. وكأنهما كانا يعلمان من قبل أنه في مقابل كل رعشة لذة سيدفعان كمية مساوية من الألم. وكأنهما كانا يعلمان أنه إلى أي مدى يذهبان سيُقاس بكم يستطيعان أن يتحملا. وهكذا تعانقا. يعذّبان بعضهما البعض. يعطيان من بعضهما البعض ببطء. لكن ذلك لم يجعل الأمور

إلاّ أسوأ. رفع الأوتاد فقط. كلّفهما أكثر فقط. لأن تخبّط وإندفاع حب غير مألوف ملّس التجاعيد وأثارهما إلى درجة الحمى.

نبض النهر خلفهما في الظلمة، مثل حرير بري. وبكى خيزران أصفر.

ارتاحت أكواع الليل على الماء وراقبتهم.

تمددا تحت شجرة المانغا، حيث فقط منذ وقت قريب خُلعت نبتة قاربية عجوز رمادية ذات أزهار قاربية وفواكه قاربية من جذورها بواسطة **جمهورية متحركة**. دبور. علم. نفخة شعر متفاجئة. ونافورة في الحُب - في - طوكيو.

عالم القارب المسرع المندفع كان قد ذهب.

النمل الأبيض الذي في طريقه إلى العمل.

والدعاسيق البيضاء التي في طريقها إلى البيت.

والخنافس البيضاء التي تختبئ بعيداً عن الضوء.

والجنادب البيضاء التي مع آلات كمان من الخشب الأبيض.

والموسيقى البيضاء الحزينة.

كلها ذهبت.

تاركة رقعة بشكل قارب من التربة الجافة العارية، ممهدة وجاهزة للحب. وكأن إستابن وراحيل كانا قد هيأا الأرض لهما. وأرادا أن يحدث هذا. المولدات التوأم لحلم آمو.

انحنت آمو، العارية الآن، فوق فيلوثا، وفمها فوق فمه. جذب شعرها حولهما مثل خيمة. مثلما يفعل طفلاها عندما يريدان أن يقصيا العالم الخارجي. انزلقت نحو الأسفل أكثر، معرّفة نفسها على بقيته. عنقه. حلمتاه. بطنه الشوكولاتي. رشفت آخر قطرات النهر من تجويف سرّته. ضغطت حرارة انتصابه على جفنيها. تذوقته، مالحاً، في فمها. جلس وجذبها نحوه. شعرت ببطنه يّشد تحتها، صلباً كلوح. وشعرت ببللها ينساب على جلده. أخذ حلمتها في فمه وحضن ثديها الآخر في راحة يده المتصلبة. مخمل مغلّف في ورق سنفرة.

في اللحظة التي قادته فيها إلى داخلها، قبضت على لمحة عابرة من شبابه، صغره، التساؤل الذي في عينيه حول السر الذي كان تحته وابتسمت له وكأنه كان طفلها.

حالما دخلها، أُزيح الخوف وتولّت البيولوجيا زمام الأمور. تسلّق ثمن العيش ذرىً صعبة البلوغ: بالرغم من أنه فيما بعد ستقول بيبي كوتشاما أنه كان **ثمناً قليلاً فقط ليُدفع**.

هل كان كذلك؟

حياتان. وطفولة طفلين.

ودرس من **التاريخ** لآثمي المستقبل.

أمسكت عينان غائمتان بعينين غائمتين في تحديقة ثابتة وفتحت امرأة منيرة نفسها لرجل منير. كانت واسعة وعميقة بقدر النهر في فيض. أبحر في مياهها. استطاعت أن تشعر به يتحرك أعمق وأعمق داخلها. محموماً. مسعوراً. طالباً أن يُترك ليدخل أبعد، أبعد. و لا يتوقف إلاّ في شكلها. في شكله. وعندما رُفض طلبه، عندما كان قد لمس أعمق أعماقها، انسحب بتأوه شاهق منتفض.

تمددت مقابله. جسداهما زلقان ومتعرقان. شعرت بجسده يبتعد عنها. أصبح تنفسه منتظماً أكثر. رأت عيناه تصفيان. مسّد شعرها، شاعراً أن العقدة التي حلّها داخله كانت ما تزال مشدودة و ترتعش داخلها. قلبها برقة على ظهرها. مسح العرق والجريش عنها بلباسه الرطب. استلقى فوقها، محترساً ألاّ يضع كامل وزنه فوقها. ضغطت حصى صغيرة على جلد ساعديه. قبّل عينيها. أذنيها. ثدييها. بطنها. قطبها الفضية السبعة من ولادة توأمها. الخط السفلي الذي يقود من سرتها إلى مثلثها الغامق، الذي أخبره أين أرادته أن يذهب. داخل رجليها، حيث كان جلدها أنعم. ثم رفعت يدا النجار وركيها ولمس لسان منبوذ الجزء الأعمق فيها. وشرب طويلاً وعميقاً من قصعتها.

رقصت له. على رقعة الأرض تلك التي بشكل قارب. وعاشت.

أمسك بها مقابله، مسنداً ظهره إلى شجرة المانغا، بينما كانت تبكي وتضحك في آن واحد. ثم، ولمدة بدت كأنها أبدية، في حين أنها لم تكن أكثر من خمس دقائق، نامت مستندة إليه، وظهرها إلى صدره. سبع سنوات من النسيان والاندثار أقلعت منها وطارت في الظلال بجناحين ثقيلين مرتعدين. مثل طاووس فولاذي باهت. وعلى طريق آمو (**من السن والموت**) ظهر مرج صغير مشمس. وتلألأ عشب نحاسي بفراشات زرقاء. وإلى الخلف منه، هاوية.

تسرّب الرعب رويداً رويداً داخله. بسبب ما كان قد فعله، بسبب ما كان يعلمُ أنه سيفعله ثانية. مراراً وتكراراً.

استيقظت على صوت قلبه يدق في صدره. وكأنه كان يبحث عن طريق إلى الخارج. من أجل ذلك الضلع المتحرك. لوح سحّاب سري. كانت ما تزال ذراعاه حولها، استطاعت أن تشعر بعضلاته تتحرك بينما كانت يداه تلعبان بسعفة نخيل جافة. ابتسمت آمو لنفسها في الظلام، وهي تفكر كم كانت تحب ذراعيه ـ شكلهما وقوتهما، وكم كانت تشعر بالأمان وهي ترتاح داخلهما في حين كانا في الواقع أخطر مكان من الممكن أن تكون فيه.

طوى خوفه في زهرة متقنة. أمسك بها على راحة يده. أخذتها منه ووضعتها في شعرها.

اقتربت أكثر تريد أن تكون داخله، أن تلمسه أكثر. جمعها داخل كهف جسده. ارتفع نسيم من النهر وبرّد جسديهما الدافئين.

كان بارداً قليلاً. رطباً قليلاً. هادئاً قليلاً. الجو.

لكن ماذا كان هناك ليُقال ؟

بعد ساعة حرّرت آمو نفسها بلطف.

«يجب أن أذهب».

لم يقل شيئاً، لم يتحرك. راقبها وهي ترتدي ثيابها.

كان يهمه أمر واحد فقط. كانا يعلمان أنه كان كل ما يستطيعان أن يطلبانه من بعضهما البعض. الشيء الوحيد. للأبد. كلاهما كان يعرف ذلك.

حتى فيما بعد، في الليالي الثلاث عشرة التي تلت هذه الليلة، التصقا **بأشياء صغيرة**. بقيت **الأشياء الكبيرة** كامنة في العمق إلى الأبد. كان يعلمان أنه لم يكن يوجد مكان ليذهبا إليه. لم يكن لديهما أي شيء. لا مستقبل. ولذلك التصقا بالأشياء الصغيرة.

ضحكا على قرصات النمل في مؤخرة كل منهما. وعلى يرقات خرقاء وهي تسقط عن أطراف أوراق الأشجار، على الخنافس المقلوبة التي لم تكن تستطيع استعادة وضعيتها بشكل صحيح. على زوج الأسماك الصغيرة الذي كان يفتش عن فيلوثا دوماً في النهر وينقره. وبشكل خاص على فرس نبي ورع يصلي. على عنكبوت صغير جداً كان يعيش في شق في جدار الشرفة الخلفية **لبيت التاريخ** ويموّه نفسه بتغطية جسمه بشذرات من النفايات ـ شظية من جناح دبور. جزء من بيت عنكبوت. غبار. ورقة شجر متعفنة. الصدر الفارغ لنحلة ميتة. كان يدعوه فيلوثا *Chappu Thamburan*، **سيد النفايات**. في إحدى الليالي تبرّعا لخزانته ـ رقاقة من قشرة ثوم ـ وأُهينا جداً عندما رفضها مع درعه الواقي، الذي بزغ منه ـ ممتعضاً حرداً، عارياً، مخاطي اللون. وكأنه كان يرثي لذوقهما في اللباس. وبقي لعدة أيام في هذه الحالة الانتحارية من العري الأبي المتكّبر. وبقيت القشرة المرفوضة من القمامة واقفة، كنظرة عالمية خارجة عن الموضة. فلسفة عتيقة الطراز. ثم تفتتت. وبالتدريج اقتنى Chappu Thamburan مجموعة جديدة.

دون أن يعترفا لبعضهما البعض أو لنفسيهما، ربطا قدرهما، ومستقبلهما (**حبهما، جنونهما، أملهما، متعتهما اللانهائية**) به. تفقداه ليلة كل يوم (مع ذعر متنامٍ مع مرور الوقت) ليريا إن كان بقي على قيد الحياة ذلك اليوم. قلقا من هشاشته. من صغره. من كفاءة تمويهه. من فخره بذاته المدّمرة. وتعودا على أن يحبا ذوقه الاصطفائي. وكرامته ثقيلة الحركة.

اختاراه لأنهما كانا يعلمان أن عليهما أن يضعا إيمانهما في الهشاشة. أن

يلتصقا بالصغر. كل مرة كانا ينفصلان فيها، كانا ينتزعان فقط وعداً صغيراً من بعضهما البعض.

«غداً؟»

«غداً».

كانا يعرفان أن الأمور من الممكن أن تتغير في يوم. وكانا على حق بشأن ذلك.

ومع ذلك، كانا على خطأ بشأن *Chappu Thamburan*. لقد عمّر أكثر من فيلوثا. وأصبح أباً لأجيال المستقبل.

مات في ظروف طبيعية.

في الليلة الأولى، في اليوم الذي جاءت فيه صوفي مول، راقب فيلوثا حبيبته وهي ترتدي ثيابها. وعندما جهزت، قرفصت في مواجهته. لمسته برقة بأصابعها وتركت أثراً من القشعريرة على جلده. مثل طبشورة مسطحة على لوح أسود. مثل نسيم في حقل أرز. مثل خطوط نفاثة في سماء كنيسة زرقاء. أخذ وجهها في يده وجذبه نحوه. أغلق عينيه وشم جلدها. ضحكت آمو.

نعم، يا مارغريت، فكّرت. *نحن نفعله مع بعضنا أيضاً.*

قبّلت عينيه المغلقتين ووقفت. راقبها فيلوثا تبتعد وظهره إلى شجرة المانغا.

كان لديها زهرة جافة في شعرها.

استدارت لتقولها مرة ثانية: «Naaley»

غداً.



يحقق "إله الأشياء الصغيرة" أهم ما يحتاج إليه من فن التخيل، رؤية العالم وكأننا نراه للمرة الأولى، وملاحظة واعتبار كل تلك الأشياء الصغيرة، الصغيرة نعم، ولكن التي تصنع الحياة من حولنا

- «من النادر جداً أن تجد كتاباً ينفذ على نحو فاجع في ثياب القومية والطبقات والدين، ليفضح عظام الإنسانية العارية. رواية حسيّة مثيرة».

كلير سكوبل، ديلي تيليغراف

- «إنها تستحق عن جدارة الإطراء النشوان الذي نالته في جانبي الأطلسي... «إله الأشياء الصغيرة» تُحدث صدىً مأساوياً صميمياً. إنها، حقاً، رواية استثنائية».

كريستينا باترسون، أوبسيرفر

- «أثبت الكتاب أنه من الممكن إقناع الأميركيين بشراء وقراءة كتب دخيلة غير كتب غارسيا ماركيز وآمي تان»

واشنطن سكوير نيوزويك